جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف وادبياتها الفلسطينية

أ . د حسن عيسى الحكيم
رئيس جامعة الكوفة

سعى جماعة من الشباب النجفي المثقف إلى تأسيس جمعية أدبية / علمية غرضها إبعاد الأدب والثقافة من الجمود والانكماش، ويقرّب مدينة النجف إلى الأوساط الثقافية في الوطن العربي، وقد تحقق هذا الغرض عام ١٣٠١هـ /١٩٣٢م، فتأسست ((جمعية الرابطة العلمية الأدبية ويقول الأستاذ صالح الجعفري: كانت هناك رغبة لدى الأدباء في ذلك الوقت لتكوين منتدى ادبي يعرف العرب الوافدين إلى النجف بنات المدينة الأدبي، وقد كان هؤلاء الأدباء يسألون في المقاهي الشعبية فتأتي الأجوبة ناقصة(١). وقد تحققت هذه الأمنية، وأخذت جمعية الرابطة الأدبية موقعها المناسب في النجف وخارجها، وحدث الأستاذ الدكتور زكي مبارك إليها بقوله: انها اعظم جمعية أدبية في مدينة النجف الأشرف(٢). وقد اتخذت من دار السيد محمد العاملي الواقعة في طرف العمارة – داخل سور مدينة النجف الأخير – مقراً لها(٣). بعد ان أذنت وزارة الداخلية للجمعية بممارسة أعمالها الأدبية في الخامس عشر من أيلول ١٩٣٢م، وقد تولى عمادتها السيد عبد الوهاب الصافي، وكاتبها العام الأستاذ صالح الجعفري، وضم مجلس أدارتها كلاً من: الشيخ محمد علي اليعقوبي، والسيد محمود الحبوبي، والشيخ محمد جواد الشيخ راضي، والشيخ عبد الرزاق محي

الدين، والشيخ محمد حسن الصوري، والأستاذ محمد علي البلاغي، وقد انتمى إلى جمعية الرابطة الأدبية جمع من أدباء النجف وشعرائها وغيرهم من مثقفي العراق كالشيخ محمد رضا الشبيبي، والسيد محمد جمال الهاشمي، والشيخ علي الشرقي، والأستاذ محمد مهدي الجواهري، والشيخ محمد باقر الشبيبي والشيخ عبد المنعم الفرطوسي، والشيخ علي الصغير، والشيخ محمد الخليلي وبعد مرور ثلاثة أعوام على تأسيس جمعية الرابطة الأدبية، تم فتح فرع لها في مدينة الهندية (طويريج) وذلك عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م وسعى الشيخ محسن أبو الحب إلى فتح فرع للجمعية في مدينة كربلاء، ولكنه لم يفلح في مسعاه، ولكن الجمعية بقيت تستقطب الأدباء والشعراء من كل مكان، وتحيي المناسبات الدينية والوطنية، وتحتفي بالشخصيات العراقية والعربية والإسلامية، وقد وصفها الشيخ محمد علي اليعقوبي بأنها أول مدرسة أدبية في تاريخ العراق الحديث(٤). وقارن الدكتور زكي مبارك بينها وبين الازهر بقوله: ولشعراء الرابطة في انشاد الشعر طريقة لا يعرفها سكان العراق غير النجفيين وهي طريقة تقوم على قواعد الترنيم، وعلى مثلها كان الشيخ سيد المرصفي ينشد الشعر في دروسه بالازهر الشريف(٥). وكانت مناسبات الرابطة. ومهرجاناتها الأدبية ملتقى أدباء العراق والوطن العربي وقد عد بعضها من ((أيام الرابطة)) ووصف الأستاذ يوسف رجيب فعاليات الرابطة الأدبية بسوق عكاظ بقوله: ((أيام الرابطة كلها سوق عكاظ، فهناك تنشر مطارف النثر، وتتفتح عيون الشعر فهي ولا عجب دنيا الأدب وديوان الشعر)) (٦)وحينما استضافت جمعية الرابطة، مهرجان الشعر السادس عام ١٩٦٥م، واستمع أدباء العرب لشعراء النجف، عقبة جريدة المنار البغدادية في عددها (٢٩٦٩) بالقول: ((عكاظ ثانية في الغري)). وكان ((يوم الحسين(ع))) من أيام الرابطة حيث يشارك فيه جمع من أدباء العراق والوطن العربي، ويضاف إليه ((يوم الغدير)) و ((يوم المبعثالنبوي)) ويوم استشهاد الأمام علي (ع) وغيرها من المناسبات الدينية، وكان شعراء الرابطة وأدباؤها ينشدون

لفلسطين والجزائر والغرب في كفاحها ضد الاستعمار، وينشدون للوحدة العربية في كل مناسبة قومية ووطنية، ففي عام ١٩٣٨م. ألقى السيد محمود الحبوبي قصيدة امام الوفد المصري الذي زار مدينة النجف قصيدة منها

باسم العروبة باسم العلم والأدب
اهدي إليك تحايا شاعر عربي

يرى جميع شعوب العرب وحدة
ما فرقتها يد جان ومغتصب

عن العراق، وعن نجد وجارته
يروي هواه، وعن مصر وعن المب

إذا تغنى تغنى في نشائده
بمجدها فتنة هزه الطرب

أجابه الشعر عفواً إذا دعاه لها
ولو دعا لسواها الشعر لم يجب

وكم لها هاجت الذكرى عواطفه
وكم صبا للسقا أبنائها النجب

وعند استقبال جمعية الرابطة الأدبية للوفد المصري عام ١٩٣٦م، ألقى السيد محمود الحبوبي قصيدة كان مطلعها:

ان صافحتكم هنا أيدي احبتكم
فإنما صافحت مصراً هنا النجف

وبقيت قضية فلسطين كامنة في ضمير الأديب النجفي، وقد تصدت جمعية الرابطة لقضية العرب الكبرى باهتمام كبير، واصدرت ديواناً أطلقت عليه اسم ((الفلسطينيات)) ولدى دراستنا للنتاج الأدبي لجمعية الرابطة في فلسطين ونضال شعبها ضد الاستعمار والصهيونية وجدناه يتركز في المحاور

الآتية :

١. القضية الفلسطينية.

٢. الجهاد الإسلامي.

٣. جريمة الغرب.

٤. تحرير القدس.

٥. فضائح الصهيونية.

٦. قضية العرب المصيرية.

ويقول الأستاذ جعفر الخليلي : ((وكقضية فلسطين التي خصتها النجف بالكثير من التجمعات والاحتفالات العامة منذ العشرينات بل منذ قيام وعد بلفور سنة ١٩١٧م))(٩). ومنذ هذا التاريخ أخذت النجف تنشد لفلسطين، وتمديد العون للشعب العربي الفلسطيني، واصبح حديث فلسطين مادة الأديب والشاعر والكاتب والمثقف النجفي. وإذا جمعنا ما قيل في فلسطين من الشعر النجفي لشكل لنا دواوين شعرية متعددة، وقد تصدى الدكتور محمد حسين الصغير في كتابه ((فلسطين في الشعر النجفي المعاصر. إلى دراسة جزء من هذا التراث، واليه أشار الأستاذ الدكتور عناد غزوان بقوله: ((تعذر على البلاد العربية ان تنتج نظير ما أنتجته النجف الأشرف في هذا المضمار)) (١١). وكانت قصيدة الأستاذ صالح الجعفري التي نظمها عام ١٩٢٥م في مقدمة وقوف النجف مع الشعب الفلسطيني في نضاله ومنها(١٢)

وفلسطين هي أم الرزايا	وهي اليوم ساحة حربية
شب بركاتها في القدس لكن	عم كل الجزيرة العربية
فببغداد ضجة وهياج	وببيروت رنة ورزية
نحن لم نفقد السيوف مضاء	لا ولم نعدم النفوس الأبية

وبقيت النجف الأشرف تواصل وقوفها لنصرة الشعب الفلسطيني حتى

أطلق على موقفها الجهادي عام ١٩٣٦م لفظ ((يوم فلسطين في النجف)) (١٣). ولما تأسست ((جمعية الدفاع عن فلسطين)) في بغداد بهذه السنة سافر جماعة من أعضائها إلى مدينة النجف واجتمعوا بعلمائها الإعلام، وحصلوا من الأمام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء فتوى بالجهاد وبذل الأموال والالسن في سبيل إنقاذ فلسطين (١٤). وفي عام ١٩٣٩م شكرت جمعية الدفاع عن فلسطين، جمعية الرابطة الأدبية على موقفها تجاه الشعب الفلسطيني، وما أعرب عنه النجفيون في تظاهراتهم من مناصرة أكيدة للشعب العربي الفلسطيني، وقد وقف في وسط حشود المتظاهرين السيد محمود الحبوبي فالقى قصيدة بعنوان : ((في سبيل الخلود)) منها : (١٥.

حيـــوا الابـــاة الغاضـــبينا ... الحـــاملي الإخـــلاص دينـــا

حيـــوا فلســـطين ومـــن ولمنقهـــا ... وقفـــوا حصـــونا

حيـــوا الشـــباب إلـــى المنـــا ... يـــا دونهـــا متســـابقونا

المرخصـــين مـــن النفـــو ... س الزاكيـــات لهـــا الثمينـــا

وبقيت جمعية الرابطة الأدبية (١٩٣٢ – ١٩٨٤م) تواصل نشاطها العلمي والأدبي، وكانت قضية فلسطين في مقدمة أنشطتها الثقافية. ففي عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م أصدرت مجموعة شعرية بعنوان: ((الفلسطينيات)) وتضم قصائد لشعراء النجف ألقيت في الاحتفالات الخاصة بفلسطين، وقد برز في هذا الجانب من شعراء جمعية الرابطة الأدبية كل من :

١ .الشيخ محمد علي اليعقوبي.

٢ .السيد محمود الحبوبي.

٣ .الأستاذ صالح الجعفري.

٤ .السيد محمد صالح بحر العلوم.

٥ .الشيخ عبد المنعم الفرطوسي.

٦. الأستاذ ابرهيم الوائلي.

٧. الشيخ علي الصغير.

٨. الشيخ عمار سميسم.

٩. الأستاذ هادي محيي الخفاجي.

١٠. الشيخ عبد الغني الخضري.

وكان هؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء النجف وأدبائها، قد غطوا في قصائدهم ونتاجهم الأدبي محاور هذا البحث الستة، وكانت القضية الفلسطينية المحور الأساس الذي دارت حوله القصائد النجفية فقد رفضت النجف قرار التقسيم الجائر، وانطلقت في تظاهرة كبرى مساء ١٩٤٧/٩/٤ نحو الصحن الحيدري الشريف بنشيد ثوري جاء فيه:

فلسطين فلسطين ... نفوس العرب تفديك
ايدنوا منك صهيون ... وسيف العرب يحميك

وقد أصدرت مجلة ((الغري)) في هذه المناسبة عدداً خاصاً، وقد حيا الشيخ عبد الحسين الحويزي في قصيدته ((نهضا بني يعرب)) تحريك الجيوش العربية نحو فلسطين منها: (١٦).

نهضا بني العرب للعلياء والشرف ... فانتم الخلف الباقي عن السلف
وانتم كبدور التم قد لبست ... برد السنا وعدت قرعة الكلف
وانتم الجوهر الغالي بقمته ... بالسوم يقصد عنه لؤلؤ الصدف

ولما حلت النكبة بالشعب العربي الفلسطيني عام ١٩٤٨م تملك الغضب جماهير النجف، واستنكر شعراؤها وأدباؤها وشبابها المثقف أعمال الصهاينة، وقد صور الشيخ عبد المنعم الفرطوسي عمق المأساة في نفوس العرب، وتأثيرها بأبناء الرافدين بقوله: (١٧)

في كل حين للحوادث ثورة ... يعلو لها في الرافدين مثار
وبكل شبر من بلادي مصرع ... من فوقه يغلي دم فوار

هذي فلسطين وكم قد ضيعت فيها ليعرب حرمه وذمار

ويقول العلامة الشيخ محمد جواد الجزائري : (١٨)

لا عيد يرتاح به مسلم يرى فلسطين بأيدي اليهود
أرى وصيفا وعساني أرى من خلفه ناراً وعيداً سعيد

وهكذا كان أمل الشاعر النجفي عودة فلسطين لاهلها، وتطهيرها من دنس الصهاينة، ففي حادث ١٩٤٩م، انشد السيد محمد صالح بحر العلوم قصيدة بعنوان: ((إسرائيل ركيزة العدوان) منها:(٩)

تعرت حكومات تعدت على العرب بتسليم أولى القبلتين إلى الذنب
واثبت هذا العري ان خيانة أعانت جميع الظالمين على حربي
فطارت فلسطين الحبيبة من يدي بعنز واصلى فقدها النار في قلبي

وقد نادى الشعراء بالجهاد لتحرير فلسطين وتطهير المقدسات الإسلامية من عبث اليهود، وقد احتلت القصائد الجهادية مساحة واسعة من دواوين شعراء الرابطة الأدبية، فمن قصيدة ((فلسطين)) للشيخ عبد المنعم الفرطوسي: (٢٠)

بالسيف اقسم لا بالطرس والقلم ان الأماني بحد الصارم الخذم
والحق يشهد ان السيف صاحبه وصاحب السيف قدماً صاحب الهمم
وليس تنهض بالأمر الخطير يد وما لديها سوى القرطاس والقلم
ولا تسود على أقرانها أمم بدون رعد الظبا أو خفقة العلم

ونظر الشيخ محمد علي اليعقوبي إلى جرائم الصهاينة في فلسطين. وقد فتكوا بأبنائها وهتكوا مقدساتها، فلم يجد إلاّ الجهاد وسيلة للتحرير فيقول: (٢١)

السيل قد بلغ الزبى والسيف قد سبق العذل
ماذا أفاد الاجتماع على الطغاة وما فعل
لا خير في الأقوال ان هي ليس تقرن بالعمل
ان قلت الأسياف منكم فالعزائم لم تقل

وكانمــــــا لا ناقـــــــة   لكــم هنـــاك ولا جمــل

وقد استنهض الشيخ احمد الصغير الشعب العربي لإنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية بقوله: (٢٢)

قـم ناشـد القـدس واسـتنطق فلسـطينا
وأيقـظ الفكـر والإحسـاس والـدينا

واسـتنهض العـرب فـي البلـوى فعـزمهم
يفجّـر الـنذر فـي الجلـى براكينـا

قـد آن ان نحـلا الـدنيا طلائعهـم
فـان تطهـر مـن رجـس اراضـينا

فـذي اليهـود وقـد غلـت أكفهـم
تغـزو الـديار ميادينـاً ميادينـا

وللرصـاص ازيـز إيـهٍ مواضـعنا
وفـي القـذائف مـا يـدمي اعادينـا

آيـة فلسـطين يـا انشـودة عـذبت
فيهـا الاهـازيج ترنيمـاً وتلحينـا

يـا بنـت يعـرب لاغالتـك غائلـة
ولا رهنـت بهـا أبنـاء صـهيونا

وللشيخ عبد الغني الخضري قصيدة بعنوان ((فلسطين المنتهبة)) ألقاها في جمعية الرابطة الأدبية منها : (٢٣)

يـا أمـة الرافـدين اسـتنجدي العربـا   واستنهضي السيف لا الأقلام والكتبا
أضحى تـراث بنـي يقظـان ملتسـما   وفـي اسـيافهم للضـرب منتهبـا
هـذي فلسطين مـا ابقوا بهـا لكـم   داراً ولا تركـوا فيهـا لكـم نشـبا

وقد حمّل الشعراء والأدباء مسؤولة مأساة الشعب الفلسطيني، قادة الدول

الغربية ورموز الاستعمار وذلك باحتضانهم العصابات الصهيونية وتزويد إسرائيل بالاسلحة المتطورة، وقد أعرب الشيخ عمار سميسم في قصيدته ((فلسطين)) التي نظمها عام ١٩٤٦م والشيخ علي البازي في قصيدته ((فلسطين المغتصبة)) عن احتجاجها على قرار ((ترومان)) بشان الهجرة اليهودية إلى فلسطين عنها : (٢٤)

هل بعد ذا أحفاد (قحطان) ... تخدع في قول (ترومان)
فالمرء لم يدر معنى الوفا ... بل هو الإحسان ضدان
لو كان يعطي الحق من نفسه ... ما كل ذا صرف وألوان
حب الثرى والمال قد غره ... والمال يغري كل إنسان
باع (فلسطين) وابناءها ... بصفقة باءت بخسران
قضى على (القدس) بتصريحه ... قضاء اجحاف وعدوان
ايد (روزفلت) باقواله ... فهو وذا في العسف سيان

وربط الأستاذ إبراهيم الوائلي بين مجزرة الصهاينة في دير ياسين وبين المؤامرة الكبرى لاغتصاب فلسطين بقوله : (٢٥).

وعلى فلسطين استفزوا عصبة ... ما بين أفاق وبين شريد
وتآمروا ان لا يروها حرة ... تحيا بلا كدر ولا تنكيد
فإذا الحثالة في الظلام يقودها ... للخزي كل مذمم عديد
وإذا الحناجر لم تجد عذراً سوى ... احشاء مرضعة ونحر وليد
وبدير ياسين واي جريمة ... كان الجزاء لها بدير سنيد
وحشية لوانها من مخلب ... هانت ولكن من اكف قرود

واراد من الشعب الفلسطيني في قصيدته ((فلسطين رمز جهاد العرب)) ان لا يتصاغروا امام هذه الحالة. وان يضاعفوا جهادهم من اجل التحرير منها: (٢٦)

فلسطين لازعزعتك الخطوب ... ولا أرهقتك ثقال النوب
ولا اوهنتك عواد الزمان ... إذا ما دجا افقها واضطرب

ولا فل عزمك طول الكفاح فانك رمز جهاد العرب
وقضت ومثلك لا يستكين مناضلة حين جد الطلب

وكانت مدينة القدس والأماكن المقدسة في طليعة قصائد شعراء الرابطة الأدبية، لأنها مسرى رسول الإنسانية محمد عليه افضل الصلاة والسلام ومهبط الأنبياء والمرسلين، وقد تساءل السيد محمد صالح بحر العلوم عن سبب وقوع هذه الأراضي الطاهرة بيد شذاذ الأفاق من الصهاينة بقوله:

أيها التاريخ سجل أين قدس المسلمين
وفلسطين استحالت وطناً للمجرمين

ويقول :

وفلسطين تجرعت من التعذيب الوانـاً
وناضلت عن استقلالك المغصوب ازمانـاً
وعاش المسجد الأقصى من الأرجاس ما عانى

وكانت جريمة الصهاينة بإحراق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م قد أثارت الشعور النجفي، وتصاعد السخط في نفوس الناس من مثقفين وعلماء دين وغيرهم. وقد اصدر علماء النجف الأشرف بيانات استنكار لهذه الجريمة النكراء. وابرقت جمعية منتدى النشر إلى ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية برقية جاء فيها: ((تهيب بكم النجف الأشرف بهيئاتها الدينية وجميع طبقاتها الغاضبة ان تثأروا لأولى القبلتين بتطهير الأرض المقدسة من براثن اليهود وليس بعد أقدامهم على حرق المسجد الأقصى واستباحة الحرمات فيه ما يبرر الصبر ولكم من قوة النصر ان شاء الله ((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين). واشار الشيخ محمد رضا آل الصادق إلى هذه الجريمة بقصيدته ((فلسطين والجراح)) منها : (٢٨)

ضجت جراحك فاللظى مـوار وثراك شب بأفقه الإعصار
ان الدم المطلول راح يقوده ركب الفداء فدربه مطار

سيظل عبر الدهر يشرق في المدى القاً ويشمخ سيله الهدار
لا بد للأرض السليبة أوبة محمودة يرتد عنها العار

وقد كشف الشاعر النجفي عن فضائح الصهاينة في ارض فلسطين وعبثهم بالاماكن المقدسة، ودعى إلى حمل السلاح لتطهير الأرض من دنس الغزاة، فقد خاطب السيد محمود الحبوبي الجماهير المحتشدة في الصحن الحيدري الشريف بقوله : (٢٩)

يا صرخة ملؤنا من اجلها ألم لبيك بالسيف ان لم ينفع القلم

ويقول الشيخ عبد المنعم الفرطوسي في قصيدته ((الكتاب الأبيض)) منها: (٣٠)

يا نخوة العرب ثوري يا حميتها توقدي بسعير منك مضطرم
ماذا القعود وقد ساء الهوان بنا وشيبة الحر تابى الجبن ان تضم
وكيف قد طأطأت للشيم أرواسها وهي الاباة عرانين ذوو شمم
وكيف لذ لها الورد الهنيء وقد اديف ذلك من أبنائها بدم

وكانت قضية فلسطين، وستبقى قضية العرب المصيرية، وسيواصل الشاعر في قصيدته والكاتب في بحثه، الجهاد من اجل تحرير القدس الشريف والاراضي المقدسة وكل شبر من ارض فلسطين، وإذا كانت جمعية الرابطة الأدبية (١٩٣٢ - ١٩٨٤م) قد ساهمت مساهمة فعالة طيلة حياتها في الدفاع عن فلسطين فان جمعيات النجف الأدبية الأخرى قد سارت في الخط نفسه وإذا جمع تراث النجف الأدبي شعراً ونثراً في فلسطين لتحول إلى مجلدات عديدة.

هوامش البحث

(١) مجلة ألف باء العدد (٥٢٣) لسنة ١٩٧٨م، ص٥٠.

(٢) زكي مبارك : ملامح المجتمع العراقي ص٥٩.

(٣) الخاقاني : شعراء الغري ٤/٤٤٤.

(٤) لمحات من حياة الشيخ اليعقوبي ص٢٥.

(٥) زكي مبارك : ملامح المجتمع العراقي ص٥٩.

(٦) مجلة الغري / السنة الرابعة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.

(٧) مجلة الرابطة الأدبية، المجلد الرابع، الجزء (٩٦) السنة الثانية ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، ص٣٦.

(٨) مجلة الاعتداء العدد العاشر، السنة الثالثة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، ص٥٥٢.

(٩) الخليلي/ العوامل التي جعلت النجف بيئة شعرية ص٣٢.

(١٠) عناد غزوان: مقدمة كتاب ((فلسطين في الشعر النجفي المعاصر، ص١١.

(١١) الخليلي : هكذا عرفتهم ٣ / ٢١.

(١٢) مجلة ألف باء ، العدد (٤٩٨) لسنة ١٩٧٨م، ص٢٤.

(١٣) جريدة البلاد، العدد (٧٠٠) بتاريخ ١٦/١٠/١٩٣٦.

(١٤) عبد الرزاق محمد : موسوعة العراق السياسية ٣٦/٦.

(١٥) الحبوبي : الديوان ص٦٣.

(١٦) الحويزي : الديوان ص٤١.

(١٧) الفرطوسي : الديوان ٢١٠/١، السامرائي : التيار القومي في الشعر العراقي ص٢٥٣.

(١٨) الجزائري : الديوان ص٣٦ – ص٣٧.

(١٩) بحر العلوم : الديوان ١٧٨/٢.

(٢٠) الفرطوسي : الديوان ٢٠٩/١ – ٢١٠.

(٢١) السلطاني : محمد علي اليعقوبي ص٤٢.

(٢٢) الصغير : ديوان مخطوط غير مرقم.

(٢٣) الخضري : وصفات مشرقة من حياة الشاعر الشيخ عبد الغني الخضري ص٣.

(٢٤) الخاقاني : شعراء الغري ٦/٤١٠.

(٢٥) السامرائي : التيار القومي في الشعر العراقي ص٢٢٩.

(٢٦) الوائلي : الديوان ق١ / ١٧٢.

(٢٧) بحر العلوم : الديوان ٢ / ٧٦.

(٢٨) محمد رضا آل صادق : الصوت والاصداء ص٣٨.

(٢٩) مجلة الاعتدال ، العدد (٤ – ٥) السنة الرابعة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

(٣٠) الفرطوسي : الديوان ١ / ٢١٠ – ٢١١.

مصادر البحث ومراجعه

بحر العلوم : محمد صالح

١. ديوان بحر العلوم، مطبعة دار التضامن / بغداد ١٩٦٨ - ١٩٦٩.

الجزائري : محمد جواد

٢. ديوان الجزائري ، مؤسسة خليفة للطباعة / بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.

الحبوبي : محمد سعيد

٣. ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي / مطابع دار الرسالة / الكوفة ١٩٨٠م.

الحويزي : عبد الحسين

٤. ديوان الحويزي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٤م

الخاقاني : علي

٥. شعراء الغري أو النجفيات، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٣٧٣ - ١٣٧٦هـ ١٩٥٦ - ١٩٥٦م

الخضري ، عبد الأمير ، وعلي وعباس

٦. ومضات مشرقة من حياة الشاعر الشيخ عبد الغني الخضري ١٩٩٤م.

الخليلي : جعفر

٧. العوامل التي جعلت النجف بيئة شعرية، مطبعة الآداب / النجف الأشرف /١٩٧١م.

٨. هكنا عرفتهم، مطبعة الزهراء ودار التعارف / بغداد، ودار الكتب / بيروت

الرابطة الأدبية

٩. لمحات من حياة الشيخ اليعقوبي عميد الرابطة الأدبية / النجف الأشرف مطبعة النعمان / النجف الأشرف ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م زكي مبارك.

١٠. ملامح المجتمع العراقي ، مطبعة أمين عبد الرحمن / القاهرة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م.

السامرائي : ماجد احمد

١١. التيار القومي في الشعر العراقي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ حتى نكسة حزيران ١٩٦٧، دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٨٣م.

السلطاني : طالب خليف جاسم

١٢. محمد علي اليعقوبي، حياته وشعره، بغداد ١٩٩٠م

الصغير : احمد

١٣. ديوان احمد الصغير (مخطوط محفوظ في داره).

عبد الرزاق محمد اسود

١٤. موسوعة العراق السياسية ، الدار العربية للموسوعات / بيروت / الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

عناد غزوان

١٥. مقدمة كتاب ((فلسطين في الشعر النجفي المعاصر. للدكتور محمد حسين الصغير. مطابع دار العلم للملايين / بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

الفرطوسي : عبد المنعم

١٦. ديوان الفرطوسي مطبعة الغري الحديثة، النجف ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

محمد رضا صادق

١٧. الصوت والاصداء، مطبعة الآداب / النجف الأشرف، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

الوائلي : إبراهيم

١٨. ديوان الوائلي دار الخلود للطباعة والنشر/ بيروت ١٩٨١م.

الدوريات

١. مجلة آلاف باء – العدوان (٤٩٨ ، ٥٢٣) لسنة ١٩٧٨م.

٢. مجلة الغري – السنة الرابعة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.

٣. مجلة الرابطة الأدبية – السنة الثانية ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

٤. مجلة الاعتدال – السنة الثالثة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

جريدة البلاد – العدد (٧٠٠) لسنة ١٩٣٦م.

مصطلحا (الشعر وانثر)
((دراسة في مجالي الاستعمال اللغوي))

د. علي كاظم أسد
أستاذ النقد في كلية الآداب
جامعة الكوفة

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة النفاذ إلى مفهوم مصطلحي الشعر والنثر تداولهما الناس؛ ومنهم من تجول به أفكاره على ما تداول من مفهوم لهما صارفاً نظره، عمداً أو عن غير قصد، عن دلالتهما العرفية الأولى؛ بل ان كثيراً من الذين يستعملونهما لا يحققون في مدى انطباقهما على دلالتيهما الاصطلاحية الخاصة سواءً أكانت مفارقة لدلالتيهما اللغوية العامة أم تحمل غموضاً أو عدم انطباق على دلالتيهما الاصطلاحية الخاصة.

وإذا تجاوزنا من يستعمل المصطلح استعمالاً عابراً إلى الذين يرتبون نتائج على أساس دلالة هذا المصطلح أو ذاك، وجدنا ان مثل هذا الاستعمال (المتخصص) تردفه نتائج لا شكّ في خطورتها؛ ذلك بأن استعمال المصطلح عشوائياً سيفضي بالنشاط الفكري المتخصص إلى سبيل مجهول ويعرقل تطوره. وهذان المصطلحان وغيرهما مما يدور في حقليهما الدلالي كلها تتفرع عن مصطلح واحد هو مصطلح (الكلام) وابرزها هذا المصطلحان وأعني (الشعر والنثر)؛ هناك من يضعهما في سياق ثنائية واحدة فيشير إليهما كالإشارة إلى الشيء الواحد؛ وثمة بعض يعدّ كل واحدٍ مصطلحاً برأسه، فضلاً عن مصطلحات أخر تتفرع عنهما تفرع الصفة عن الموصوف: كالنظم، النثر الفني، والشعر التعليمي، إلى ما هناك. ولربما انطبقت دلالة بعض منها أو كلها

على تأليف أو نقد لهذا التأليف، فلم يحاول أحد من الذين يتداولونها ان يقف ويسأل النفس عن مدى إنطباق دلالة كل مصطلح عن مفهومه بصورة لغوية دقيقة، على كثرة من درس موضوعات هذين المصطلحين أو التمييز بينهما أو غير ذلك. ولربما كان عدم الانطباق طفيفاً لا يؤذن بتحول كبير، فما دام المنطوق يؤدي إلى المفهوم ويصوّره بوضوح ويؤدي صورة تطور واضحة أو ربما كافية فلا ضير في ان يختلف المفهوم اختلافاً طفيفاً عن المنطوق إذ لا مشاحة في الاصطلاح، كما يقولون؛ ولكن هذا الاستعمال المتعارف يجري هادئاً إلا وفي طياته المستقبلية تحولات تفضي إلى خلاف فخصام وربما إلى إلغاء لكثير من مشروعية التأليف على أساس مفهوم لم يكن قاراً في استعماله الأول؛ فما مصير الشعر الحر في عصرنا الذي نعيش فيه بعد ان تحول مفهوم الشعر عما كان عليه من مفهوم سابق، ولم يتحول مصطلح (الشعر) من حيث بنيته؟

لقد استعمل العابر والمتخصص مصطلح الشعر على أساس مفهومات كثير أبرزها على انه كلام موزون مقفى، وكان اكثر هذه المفهومات تنطبق بصورة أو بأخرى على النثر؛ فكلاهما يستعمل الوسيلة نفسها وهي اللغة وكلاهما يصاغ بإيقاع يتزن في الأول وقد يتزن في الثاني بقصد أو غير قصد وفي نهاية الأمر كلاهما كلام موزون، وكلاهما يحتوي تماثلاً (تقفوياً)، بل أن الحدود التي رسمها المستعملون نفسها اضطربت كثيراً بين أنواع الشعر نفسه حتى فصل الرجز عن أفق الشعر أو كاد يفصل، ونظر كثير من الذين يستعملونهما أو يستعملون أحدهما نظراً تمييزياً (تصنيفياً) واضحاً وربما نظر هؤلاء المصنفون أنفسهم نظرة تصدر عن هذا المفهوم؛ فإذا كان مصطلح (الشعر) مترجحاً بين الانطباق بصورة تامة على دلالته (في عهد المصطلح القريب من الواضع) أو عدمه؛ فكيف ونحن الآن نبتعد آلافاً من السنين تبعثرت في أثنائها تلال من التأليف؟ لا جرم الاختلاف المبدئي وان كان بسيطاً سيصير اختلافاً مركباً بعد المسيرة هذه أو بعد الابتعاد عن نقطة البدء. وها نحن نعيش

في ظل هذا الاختلاف ردحاً من الزمان بعيداً بعداً بدا واضحاً في أربعينات هذا القرآن، ولم يكن بهذا الوضوح، (وان وجد)، أو بهذه الشدة في القرون الأولى للهجرة؛ حتى أصبح الشعر الحر ليس شعراً عند بعض، وشعر له من المشروعية اكثر من الشعر الملتزم نفسه أو اصبح هو الشعر الذي يجب ان يكون معبراً عن الإنسان الجديد إذا كان الشعر الملتزم معبراً عن الإنسان القديم، وترجّح بين الشعرية وعدمها عند آخرين؛ ولم يستقر أحد على مفهوم مصطلح (الشعر) من الفرقاء المذكورين؛ فكل يضع مفهوماً بحسب المنجز الماثل بين أيديهم، ولم يحاول أحد أن يضع المنجز على المفهوم وذلك أراه لسبب بسيط ألا وهو ان لا مفهوم محدد لهذا المصطلح.

وهنا لا نحاول أن نضع مفهوماً – بعد أن مضت القرون والتأليف على هذا ولكن نريد ان نقف إزاء صياغة هذا المصطلح لنرى اينطبق منطوق المصطلح على دلالته؟ فقد انحدرت إلينا مصطلحات كثيرة وصرنا نرددها كترديد الصدى وكأنها مسلمات أو كأن لا مجال لمناقشتها أو تواضع على محك البحث؛ فلم نلتفت إلى دلالاتها ولا إلى آثار استعمالها على رغم هذا (الإهمال) بل طغت مفاهيم جديدة لهذه المصطلحات جاءتنا من بيئات لا تستعمل لغتنا ولا إنجازها على أساس إنجازنا لا تأليفنا الفني المعاصر ينطلق من فهمنا لخصائص لغتها.

فلكل لغة خصائص تتمثل في التأليف ومع هذا نجد أن المفهوم لجنس كلامنا المعاصر في كثير من الأحيان وفي بعض الأنواع الفنية مفهوم أجنبي وكلامنا عربي مبين ومع هذا نستعمل مفهومات أجنبية بحجج لا يخلو كثير منها من لباقة ظاهرها مقنع وواقعها عند التحقيق مريب؛ فالكلام نشاط أنساني عام ولكل أمة وجهة خاصة واعراف وتقاليد ولكل بيئة طريقة في استعمال العرف الخاص وسيبدو هنا على بناء الكلام لاني إذا كنت في الأفق الإنساني العام فلي خاصية تميّزني من غيري الذي له عرفه وتصوره الخاص في استعمال

هذا العموم، فلا يمكن ان اخرج عن عرفي الخاص، لان اللغة قانون يحكم الكلام، وهناك قدر مشترك بين اللغات، وثمة تأثر ينسرب في تمثل خصائص الأمم تستفيد منها الأمة بما لا يهشم خصائصها من دون تقليد أو استلاب أو رتكاس. وصفوة هذه المقدمة هي: ان بعض المقدمات قد حقق شيوعاً بشأن دلالته ولكنه يظل لا يدل على ما تحته من دلالة بصورة تامة؛ يجب التنبيه إلى هذا الدرس المتخصص.

الدراسة:

كثير من التداخل يفرضه (موضوع) الأنواع الأدبية أما لأنه يتعلق بقضية إنسانية تنأى عن التحديد وهي قضية التعبير الفني أو لشعب الثقافات أو تطور الإفادة بين نوع ونوع، وهذا كله يسبب تنبيه التخصص للفصل بين الأنواع؛ وقديماً حُسم أمر تقسيم الكلام بعبارات تعريفية موجزة – على عادة القدماء – فقال بعضهم: "لم يكن لدى العرب من شعر إلاّ الأبيات... وانما قصد القصيد.."(١)، فالأبيات – إذن – غير القصيدة لان القصيدة، إذا بحثنا في جذر المصطلح، هي مقصودة أو المقصود فيها إجراء الأداء على سمت وطول وانتظام مقصود قصداً؛ وليس قصد الأخبار المألوف؛ فالقصد أساس الأمر؛ فقد تقصد الشعر وقد تقصد غيره، ولكل قصد سلوك أو صورة يبدو بها التعبير؛ إذن تبدو القصيدة في مفهوم غير مفهوم الأبيات اليسيرة، فضلاً عن مفهوم القصيدة – وهذا ما افهمه من تحديد القدماء على عادتهم في التحديد في اعتمادهم التسمية – مقصود فيها العناد والاستمرار لانتاج صور مقصود بها الانتظام على وزن وقافية تكرر؛ فمفهوم القصيد هو: قصد الاستمرار على نمط تعبيري واحد على حين لا يقصد في الأبيات هذا، ولذلك تهيأ لنا أن نقول: إن الكلام أما ان يكون تأليفه أو صورة نظامه هي المقصودة فقد دخل في القصد الفني سواءً أكان بناء فنياً شعرياً (منتظماً) أم كان بناء فنياً نثرياً (غير منتظم) وأن تكون معانية (لا

صورة تأليفه) هي المقصودة فيخرج من مجال الفن سواء أكان منتظماً كالنظم التعليمي أم غير منتظم كالأخبار المعتاد او الانشاء المعتاد وكالمقالات العلمية.. الى ما هنالك.

إذن هناك جنس تحته نوع ولكل نوع خصوص له مهمة؛ فالكلام جنس تحته نوع فني وهذا له خصوص تبعاً لمهمته؛ فالشعر له مهمة الامتاع الأعلى أو الانفعال الأكثر بما ينماز من نوع آخر بشكل منتظم مقصود منه ان يتكرر وللنثر مهمة الامتاع الدنيا (مثلاً) والكلام المألوف له مهمة التواصل العامة والنظم التعليمي له مهمة الأخبار العلمي أو نقل معارف تصل بالوجود؛ وبعبارة أخرى: إذا كان المقصود من الكلام صورة تأليفه دخل في القصد الفني بناء شعرياً فنياً أو بناء نثرياً فنياً أو كان المقصود من الكلام مضمونه خرج عن المجال الفني سواءً أكان منتظماً أم كان غير منتظم فيكون على هذه الصورة

الكلام

- تأليفه مقصود لذاته
  - فني منتظم على وزن وقافية (شعري مقصود به الانتظام)
  - فني غير منتظم على وزن وقافية (نثر فني) غير مقصود فيه الانتظام
- تأليف غير مقصود لذاته، وسيلة للتواصل والتأليف العلمي والخطاب اليومي إلى ما هنالك
  - غير فني منتظم على وزن وقافية (نظم تعليمي مقصود به الانتظام)
  - غير فني تتوافر فيه العلاقات الاسنادية (لأنه كلام).

وهكذا يتصف الكلام بالفنية (الشعرية والنثرية) وذلك حينما يكون المقصود من تأليفه أو تركيبه أو بنائه صورته؛ لذا ان التقسيم المتعارف (نثر وشعر) لا يحسم السمات الرئيسة للكلام؛ ولا بد توخي الدقة في استعمال المصطلحات المستعملة في تقسيم السلوك التعبيري مهما كان هدفه.

هذه الدقة (المفقودة) قد تبدو في هذين المصطلحين لانهما ثنائية متضادة تحمل في أثنائها دلالة تفريق على ما هو شعر وعلى ما هو نثر من حيث مفهوم كلٍّ منهما ومن حيث دلالة الجمع بينهما تبدو بهذه النقاط:

١. ان مصطلح النثر مصطلح مفهوم عائم لأنه يدل على الكلام الفني (المقصودة صورته) وعلى الكلام الغير الفني (المقصود منه معناه أو فحواه) سواء أقرِن مع مصطلح (الشعر) أم لم يُقرن.

٢. ما النثر؟ هل هو اللغة عامة أي المفردات من دون تركيب أو بناء أو من دون علاقات إسنادية منثورة نثراً؛ (النثر) تدل على هذا أَيْضاً، أما إذا أسندت اللغة

بعضها إلى بعض فان الشعر ايضاً يشترك بهذا الوصف مع النثر (إذا قصد بالنثر الجمل المساندة) وفي هذا خلط كبير وتداخل اكبر بين نوعي الكلام. أما إذا كنا نقصد بالنثر: الكلام المبني من مفردات لغوية يرتبط بعضها ببعض بعلاقات اسناد على صورة جمل (اصغر صورة تأليفه دالة دلالة جزئية أو كلية للكلام المفيد) فلا بد من ان نقرنه بالشعر فنقول: ثمة ما هو شعر، وهناك ما هو نثر، إذا كانت مفردة (الشعر) تفيد معنى الانتظام والتساند الأعلى بين المفردات اللغوية فيكون الكلام غير المنتظم نسبة إلى الكلام المنتظم أو قياسياً إلى الكلام المنتظم منتثراً، هنا فقط تدل مفردة (النثر) هذه على أن ما تحتها كلام متساند، أو تدل على عدم الالتزام بنظام محدد كما تدل عليه كلمة الشعر أو ما يلتزم به الكلام الشعري.

وهنا نصل إلى: أن اعتمادنا على مصطلحي (الشعر والنثر) اعتماد على مصطلح عائم المفهوم لان بنية كل منهما لا تهدي إلى تحديد وانما على مستعمل هذين المصطلحين وعلى السامع أن يحدد بنفسه الدلالة على ما شاع لهما من مفهوم بصورة عرفية أو نفترض بهما (المستعمل والسامع) انهما عالمان بحقل دلالتهما؛ وهذا يبعدهما عن (المصطلحية) المنضبطة؛ فالنثر كلام منتظم أيضاً لأنه يردد في سياق إسنادي على أصول تركيبية متعارفة في بناء الجملة وهي أن الجملة العربية عموماً تبنى أما من فعل واسم أو من إسم وإسم أو غي ذلك من الصور ولكن اشهر صور بنائها يجري على هذين المبدأين؛ فإذا كانت من فعل واسم تقدم الفعل على الاسم؛ ولا يتقدم الاسم إلاّ لشأن جمالي أو بلاغي؛ وإذا كانت من اسمين اسند أحدهما إلى الآخر، فان المسند إليه (المبدأ) يتقدم على المسند (الخبر) على حين المسند في الصورة الأولى وهو الفعل هو الذي يتقدم وهكذا؛ إذن تبنى الجملة في النثر على نحو منتظم ولكن أدنى من الشعر فيتصف البناء بالترتيب الذي يفرضه المنطق المتعارف أما في الشعر فتبنى الجملة بانتظام فيتصف البناء بالترتيب الذي يفرضه الإيقاع المقصود انتظامه

قصداً لأتند كل جملة في السياق العام عنه، فكلا النوعين بناء إسنادي منتظم غير منتثر ولن يسوق إطلاق صفة الانتثار على أي كلام سواء أكان شعراً أم كان نثراً، اللهم إلاّ إذا كان الشعر منتظماً انتظاماً لا يرقى إليه الكلام غير الشعري من حيث التقيد بالقيود المعروفة في الكلام الشعري وفي حال اقترانهما في سياق الإشارة إليهما وهما معاً فيكون إطلاق كلمة (النثر) من باب المجاز وفي هذا خلط لا ترتضيه الدراسة الأكاديمية الجادة والمجالات الأخرى التي يسود فيها الانضباط، فإذا جاز لنا إطلاق صفة (النثر) على الكلام النثري جوازاً أو عرفاً أو تحت مبدأ (لا مشاحة في الاصطلاح) ترتب أمران:

١. وجوب اقتران المصطلحين معاً في الاستعمال (أو في حال اقترانهما في وصف لكلام أو إشارة) وإلا صارت مفردة (النثر) في حال انفرادها لا تدل على الكلام (الفني وغير الفني) لان الكلام ليس نثراً بالقياس إلى البناء الشعري؛ فيفقد في هذه الحال مصطلح النثر دقة مفهومه وقوته الدلالية على ما تحته لأنه سيكون مشروطاً بوجود قسيمة (الشعر).

٢. ومع اقتران النثر بالشعر لا يسوغ وصف الكلام بهذا المصطلح (النثر) لان في هذا إغفالاً للإسناد أو للعلاقات الاسنادية بين الكلم المتناثر؛ فليس كل كلام غير موزون ولا مقفى منتثراً حتى وان كان كلاماً اعتيادياً لأنه في سبيل افهامي تواصلي وتتوافر فيه شروط اسنادية منطقية اللهم إلاّ الهذيان واللغو؛ فكل كلام يبنى على أسس مستويات ففي المستوى العام لا يخضع الكلام إلى ضغوط تركيبية، وفي المستويات الفنية يخضع الكلام إلى الانفعال والموسيقى وضوابط تحديد الكميات.

أما إذا أردنا ان نقترح مصطلحاً غير مصطلح (النثر) للكلام غير الشعري قلنا: الكلام غير الشعري لاحتجنا إلى اقتران النوعين أيضا في ذهن السامع ولاستدعينا الشعر أيضاً.

أما مصطلح الشعر فهو عائم أيضاً من نواح:

١. إن الشعر إسم معنى لنشاط نفسي أو إدراك جمالي فهو معنى أو سبب يؤدي إلى نتيجة وهي السلوك أو التصرف اللغوي أي يؤدي هذا المعنى أو هذا السبب إلى مادة أو التصرف بمادة لغوية وبنائها على أسس متعالمة؛ فالشعر إدراك انفعالي يدفع إلى تعبير أو وصف.. إلى ما هنالك وهو صفة يتصف بها الشاعر لأنه قبل أن يقول شيئاً شاعر وليس هو بالقصيدة شاعراً وانما القصيدة دليل شاعريته إذا احتاج الشاعر إلى دليل مادي؛ وقد يكون هذا التصرف المادي لغوياً منتظماً على وزن وقافية وقد يكون منتظماً ولكن ليس على وزن أو قافية لان البناء اللغوي بناء مادي أي سبب لمسبب؛ فاختلاف الشعر (وهو مسبب) عما يسببه (كلام) اختلاف المادة عن المعنى أو السبب عن النتيجة أو العلة على المعلول؛ وعلى الرغم من ترابطهما يبقيان أمرين متقابلين، كل له استقلاله وخصائصه فكيف نطلق على العلة اسم المعلول أو بالعكس؟ فيفارق مصطلح الشعر الذي تداولته الناس على انه الكلام الذي سببه الشعر يفارق دقته الاصطلاحية؛ وربما كان إطلاق مصطلح (الشعر) على البناء الشعري وهو كلام اطلاقاً مجازياً من باب تسمية الشيء باسم نتيجته كتسمية المطر رزقاً أو الدواء عافية أو السيف موتاً؛ وقد يبدو إطلاق كلمة (النثر) على الكلام غير الشعري نثراً لعدم رقيّ هذا المستوى إلى المستوى المنتظم الموزون – قد يبدو هذا الإطلاق أهون من إطلاق كلمة (الشعر) على الكلام الشعري ذلك لان كلمة (النثر) قد تدل على أن ما تحتها كلام أي مادة بينما لا تدل (لغة) مفردة الشعر على مادة أو كلام وانما هي معنى أو شعور أو سبب المادة ولا سيما الأمر في سياق الاصطلاح ولا يسوغ الإطلاق المجازي – في ظني – في المجال الاصطلاحي لان هذا المجال هدفه توفير مفهوم منضبط ليتداوله المستعملون باحاطة موضوعية لا مجازية وبدلالة قارة لا تقود إلى فضاء غامض متسع يفضي إلى الفوضى لان الباحثين وهم في غمرة موضوعيتهم يتطلبون أدوات (منها المصطلحات) لا

شك في مهادها الثابت لكيلا تتعثر جهودهم وتختلط نتائجهم بما ليس منها ولتتخذ جهودهم سماتها العلمية؛ وهنا تشتبك المفاهيم في ابسط تصنيف للكلام.

٢. لقد استعمل العرب الفصحاء (في الجاهلية وبعدها) كلمة شعر لتدل عندهم على كل تعبير مؤثر وان كان نثراً (٢)، وكانوا يقولون (ان الشعر شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا)(٣)، وقال حسان بن ثابت لابنه عبد الرحمن وهو غلام صغير (شعرت وربِّ الكعبة) وذلك حينما دخل عليه باكياً فسأله عما به فقال: لسعني طوّيرٌ كأنه ملتف في بردي حبرة؛ واصفاً زنبور لسعه (٤)؛ ويدل على الشعر المنتظم ايضاً فقد قال جرير بشأن عمر بن أبي ربيعة (ما زال يهذي حتى قال الشعر) (٥)، وقد اختفى هذان المدلولان المتغايران للكلمة فيما بعد وفرقوا بين الشعر والنثر بحسب ما يمتاز كل منهما به من خصائص من دون خلط، ولا ننسى ان نذكر ان قريشاً وصفت القرآن بأنه شعر وان الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم شاعر على علمهم بما يفرق بين الجنسين؛ ولكن هذا التفريق لا يعني انهما استقرا على بنية ذات دلالة دقيقة لأنها بقيت أي (البنية) وتغير مدلولها.

٣. ان كلمة (شعر) لا تعني الانتظام بل لا تعني الكلام إلاّ حملاً على الإطلاق المجازي بإطلاق المسبب وارادة السبب ككلمة النثر لا تعني الائتلاف الاسنادي؛ فضلاً عن أن كلمة (شعر)في احسن احوالها لا تعني الكلام المنتظم على وزن وقافية، وان القرآن الكريم حين استعملها لتدل على (الكلام) بقوله الحق سبحانه ((وما علمناه الشعر...))(٦) وغيرها من الآيات – لم يكن بصدد وضع اصطلاح محدد يتداوله الناس وانما كان القرآن يسمي الأشياء بمسمياتها المتداولة عند العرب ومفاهيمها المعروفة لديهم وليس بصدد بحث كلمة (شعر) أو وضع مصطلح جديد لها؛ فما علمناه الشعر معناه: ما علمناه الكلام المؤثر الذي يبنى على أسس متعارفة كما يفعل أهل

هذا الفن الذين يعرفونهم في الأسواق والمنافرات وهم النظامون المشهورون — مثلاً — أو معناه: وما علمناه الشعر أو وما جعلناه شاعراً ينطق عن الهوى؛ وربما كان المعنى الأول هو المراد (والله اعلم بمراده) بدلالة وما علمناه؛ أي ما علمناه — من جملة ما علمناه — الشعر، وإلا لو علمناه كما تعلم منا (أخبار الماضين والآتين — وغيب الحاضر والماضي والمستقبل — وما يقوله المعاصرون له في أنفسهم... إلى ما هنالك) لقال الشعر ولكنه لا ينبغي له وإلا فهو افصح العرب ويكون له الشعر ولكنه لا ينبغي له لأنه وهو بصدد رسالة يتلو قرآناً فيه التشريع المنضبط والأخبار الصادق للاعتبار (لا للمتعة) وتثبيت القلوب بدلالة قوله تعالى: ((وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً))(٧) فالصدق للأخبار والعدل للتشريع فضلاً عن انه يتلو قرآناً يتحدى به العرب ليأتوا بمثل صياغته أو بمثله ولو قال شعراً لاحتجوا بأن الشعر أحد فنونهم فهلا جاء بشيء نشترك فيه فلسنا كلنا شعراء(٨) وهنا نقول ان الشعر نمط متميز من النثر (له أصول واسس) الذي يشترك به العرب كافة فليس كل كلام شعراً؛ إذن ميزوا بين الكلام الشعري (المتميز من النثر) والنثر.

هذا كله من حيث مفهوم كلمة (شعر) ومفهوم كلمة نثر، أما من حيث الجمع بينهما بكونهما مصطلحين فهناك تعارض واضح من نواح:

١. إن كلمة نثر لا تقابل كلمة شعر لان النثر هو ضد الانتظام، فأين مفهوم (الانتظام) الذي يتوقع ان تحمله كلمة (شعر)؟ انها لا تعني إلاّ الشعور؟ فالشعور عند الناثر أيضاً؛ فلو أريد الانتظام لمقابلة كلمة نثر التي هي ضد الانتظام لقيل: نظم ونثر — في الأقل — لان النثر اكتسب هنا مصداقية في تسمية نثراً لأنه يقابل النظم، وما هو بمنثور إلاّ بالإضافة (أي بالنسبة) إلى الشعر.

٢. إذن الجمع بينهما ليس فيه تقابل أو تضاد بل تغاير فمثل هذا الجمع المراد منه التفريق أو التمييز الدقيق باطل لان هناك فرقاً شاسعاً بين التغاير

والتضاد؛ فكل متضادين متغايران ولكن ليس كل متغايرين متضادين – إذا استعملنا تعبير أدل المنطق – لان التضاد أخصُّ من التغاير في هذا المجال، فالتضاد يجمع بين مفردتين متطابقتين تطابقاً تماماً ليدلا على شيء واحد وكل مفردة منهما تحمل وجهاً منه كالليل والنهار فالليل يحمل وجهاً لليوم وبهما يكمل اليوم فهما نوعان زمنيان يتممان جنساً ويتغايران نوعاً أو وظيفة ولكل المتقابلين في جنس الكلام هما الكلام الفني وغير الفني لان لكل فعل قصداً وقصد الكلام الفني هو غير قصد الكلام غير الفني.

في حين لا يدل العصر والليل على هذه المدة الزمانية المستقلة المحددة (اليوم) لأنه جمع ناقص والنقص يأتي من عدم اكتمال اليوم بالعصر والليل لانهما متغايران، وكذلك الجمع بين النثر والشعر جمع بين متغايرين لا يعبر عن جنس الكلام بنوعيه لان الشعر – كما ذكرنا – شعور وليس كلاما فهو سبب لبناء مادي وليس هو البناء فضلاً عن الشعر وهو شعور معنوي (لا مادي) قد لا يدفع إلى بناء أو كلام شعري أو حتى تصرف لغوي فقد يدفع إلى بكاء مثلاً أو إلى ضحك أو إلى رؤية شاعرية للأمور أو يدفع – كما هو معروف – إلى بناء قصيدة أو بيت أو مقطوعة أو موشحة مثلاً أو إلى بناء لغوي شعري على غير نظام وزن وقافية(٩) فلا يكون في هذه الحالات كلها – عدا حالة دفع الشاعر إلى قصيدة أو بيت أو مقطوعة – قسيماً للنثر أو مقابلاً له؛ فضلاً عن ان ليس كل شاعر كاتباً أو مؤلفاً أو مقصداً على حين تدل كلمة (النثر) على بناء تعبيري لغوي فهو مفهوم لنتيجة مادية لسبب معنوي وهو التعبير عن إحساس أو إدراك أو حاجة للتواصل؛ فالجمع بين شعر ونثر جمع لسبب ونتيجة ولكنه ليس جمعاً مشروعاً لان نتيجة الشعر هي البناء الشعري وليس البناء النثري فهو سبب ونتيجته غائبة عن الحيز المتضاد فضلاً عن ان (النثر) ليس سبباً للكلام ولا نتيجة له فهو نتيجة سببها غائب أيضا في الحيز المتضاد؛ وإذا مثلنا هذا في هذه الصورة لكان الجمع المعتاد المجرد على الصورة الآتية :

سبب ⟵ نتيجة (جمع مجرد نظري) حيز مشروع

ولكن عندنا هنا الأمر على الصورة الآتية :

شعر (سبب) ⟷ نتيجة غائبة عن الحيز المتضاد

سببه غائب ⟷ نثر نتيجة ⎬ حيز متضاد غير مشروع

فالجمع مشروع يكون

شعر (يسبب كلام شعري) يقابل إدراكاً (يسبب كلام غير شعري)

سبب ونتيجة ١ ــــــ سبب ونتيجة ٢

أو بناء شعري يقابل بناء غير شعري

أو بناء مقصود لنفسه (هدف جمالي) يقابل بناء غير مقصود لنفسه (وسيلة نفعية).

إذن لا يدل هذان المصطلحان على نوعية الكلام وإذا مضينا في التدقيق وجدناهما لا يدلان أيضاً على فنية الكلام أو عدمها بل لا يستوعبان كل اوجه التعبير فالكلام الشعري والكلام غير الشعري اسمان يستوعبان – مؤقتاً – كل أوجه الكلام من حيث القصد والفنية أيضاً؛ ففي تسمية الكلام غير الشعري نثراً إبهام وغموض ذلك بأن البناء الذي سببه الشعر يكون بناء منتظماً في سياق لغوي مؤثر يأتي من كثافة وسائل الأداء والعناية بانتقاء المفردات بسبب الموسيقى التي هي سبب التركيز والتكثيف بمعنى: ان مثل هذه العناية ومثل هذا التركيز يقل أو يغيب في البناء الذي لا يسببه الشعر؛ فالتقسيم والترديد والتكرار البحث عن مصادر الموسيقى في اللغة.. إلى ما هنالك وسائل ولكنها في الكلام الشعري أهداف أو ضروريات بنائية أو تصبح منهجاً لبناء هذا السياق. وهذا كله لا يعني انتثار الكلمات في البناء غير الشعري لأنه، أيضاً جمل وسياقات متآلفة اشتدت عناية المؤلف في انتقائها، أما انها غير مبنية بوسائل موسيقية محددة فان هذا لا يعني انتثارها بل ان الفرق الواضح بين الكلام غير الشعري والكلام الشعري يبدو في كثافة العناية في الثاني عما

عليه في الأول، أي ان العناية في الكلام الشعري اكثر بل ان الانتظام المتعارف لتكوين الجملة في البناء غير الشعري يكون ملتزماً وموضوعياً ويجري على وفق الأصول الموضوعية في بناء الجملة ومن التزم بقوانين النحو لان الناثر لا يضطر اضطرار الشاعر إلى مجانبة الأصول العامة في التأليف، لان بناء الشاعر بناء ذاتي ليكون لكلامه تأثير فيسلك، والشعر كله ضرورة، سلوكاً ذاتياً بمعنى: يسلك سلوكاً اجتهادياً تضطره إليه الموسيقى فيعتدي – ان صح هذا التعبير – على الأصول التأليفية (الموضوعية) في بناء الكلام فينبع من قوانين التجربة الانفعالية لامن قوانين متعارفة؛ فينشئ لنفسه نحواً لشعره غير النحو المتعارف، على حين ينجو الكلام المباشر في سطوة الموسيقى أو ان الموسيقى لا تكون طرفاً في التعبير لتفرض نظاماً تأليفياً مخصوصاً، أو في الأقل تخفت الموسيقى ولا تكون مصدراً تأليفياً فيختلف الأمر في الكلام غير الشعري كثيراً، لان الهدف من الانتظام التأليفي في الكلام غير الشعري يبقى للتواصل والتخاطب مع وجود التأثير مهما علت فنيته على حين يبقى الهدف الأساس للبناء الشعري للتأليف مع كونه تأليفاً تواصلياً تأثيرياً.

فالتأليف في الشعر ينبع من اتباع قوانين تحدد كمّاً متوازناً يستدعي كميات تركيبية ينسجم بعضها مع بعض في زمان محدد فهناك نظام يفرض زماناً تأليفياً وتكون الموسيقى هي المصدر؛ وإذا تواخينا الدقة لقلنا إن الشعر أصوات موسيقية (زمن محدد بكميات لغوية منسجمة) والموسيقى كميات زمنية تتخذ تتخذ من اللغة ذريعة للظهور على حين تنعكس القضية في الكلام غير الشعري فتكون الموسيقى نابعة من محض الاتفاق لا القصد وهذا الاتفاق يبدو بحكم تجاوز الكلمات واتفاقها على إيقاع معين وتواردها على انسجام عفوي وهي في سياقاتها التأليفية الموضوعية لما بين كلمات اللغة العربية من انسجام أو مرونة أو طبيعة موسيقية (إيقاعية منسجمة) مع التزام المنشئ بقوانين النحو العام؛ فأين الانتثار هنا؟ اللهم إلاّ ان يكون من مقابلة الانتظام

على وزن وقافية وكميات تأليفية منظورة لا نجدها في البناء الذي يخلو من هذا الترتيب (الهارموني)؛ فالبناء الشعري، وليس الشعر، فرض جنساً أدبياً آخر مغايراً له. وكذلك نجد الفرق بين البنائين يبدو في اختلاف القصد أو المنهج. فكلاهما يستعمل اللغة وهي مادتهما جميعاً على حين لا يتوافر النظام أو يتوافر لوجود الغاية منهما فهي التي تحدد جنس التعبير بغض النظر عن موهبة الشاعر أو سلوك غير الشاعر أو خيال الشاعر واختلافه عن خيال غيره فهناك منحى مختلف، فضلاً عن أن الموسيقى تضيف منحى مختلفاً لا يمكن ان يكون في بناء يخلو منها.

ومجمل القول إن اللغة الشعرية لغة خاصة - داخل اللغة العامة - كما يقول البنائيون أو تحطيم للنظام اللغوي المتعارف لاقامة نظام آخر له القدرة على نقل التجربة كثيراً أو قليلاً - في معنى من المعاني - أي بتفاوت قدرات الشعراء على هذا التنظيم.

وحينما تظل الحاجة إلى مصطلح بديل أو إلى مصطلحين لتقسيم الكلام يتميزان (أي هذا المصطلحان البديلان) بالدقة والتحديد غير مصطلحي الشعر والنثر اللذين لايدلان على ما تحتهما لما ذكرنا من نقد يفقدهما الكفاية الاصطلاحية يبدو لنا في الأفق حديث النبي صلى الله عليه واله وسلم: ((ان من البيان لسحراً وان من الشعر لحكمة))(١٠) يمكننا فهي الركون إلى تقسيم الكلام الفني المؤثر بالاعتماد على تقسيمه التلقائي الذي قسم فيه الكلام المؤثر (فقط) بعد ان تعجب أو تأثر بكلام بعض العرب، لان مصطلح النثر لا يدل على ما تحته في حال ابتعاده عن قسيمة أو عن هذه المقابلة الناقصة فضلاً عن ان تقسيم الكلام إلى كلام شعري وكلام غير شعري لا يحسم الأمر إلاّ مؤقتاً وتظل قضية الاقتران قائمة؛ ولكن النبي صلى الله عليه واله وسلم وضع قسيماً للشعر وهو (البيان) وترك (النثر) وكأنه صلى الله عليه واله قد رأى في (البيان) نضجاً يدل على الإبانة والوضوح أو الإيضاح الذي لا يأتي إلاّ

من سياق لغوي متآلف مع خلوها من أسس التأثير كالوزن والقافية المقصودة في الكلام الشعري وكأنه تعجب من تأثير هذا الكلام مع خلوه من موجبات التأثير وتعجب من صدور الحكمة التي تصدر من بين الالتزام بالوزن والقافية؛ وقد يبدو في تضاعيف تأييدنا لهذا (المصطلح) اعتراض هو: أن النبي صلى الله عليه واله لم يكن بصدد الاصطلاح أو التقسيم أو إيجاد بديل لمصطلح النثر فنقول: إن هذا هو الذي يدفعنا دفعاً إلى اعتماده ذلك بأن اختيار الرسول صلى الله عليه واله لهذه الكلمة (البيان) لم يكن تلقائياً فقط بل لاحساسه ان كلمة النثر غريبة عن المستوى الفني التأثيري العالي غرابة تبعدها عن استعماله لها فضلاً عن بعده عن أصول الاصطلاح والتقعيد تلك العصور التي شهد مصطلح (البيان) عمقاً جعله يكون علماً قائماً برأسه تنسب إليه البلاغة العربية برمتها ثم يتحول الأمر فيكون فرعاً من علم البلاغة العربية بعد ان تكاثرت المصطلحات وتنوعت وتحددت ولم يستقر الأمر إلى الآن في حيز التثبيت والانطلاق إلى آفاق التطبيق على النصوص الفنية فيما يتصل بعلم البلاغة كله فوقعت بين نظرة المحدثين إليه على انه علم لم يبلغ النضج والاكتهال ونظرة القدامى الذين جعلوه من بين مجموعة أدوات أو وسائل تخدم النص القرآني من جهة والنصوص الفنية كلها من جهة أخرى أو ان استقرار علم البلاغة الذي لا يعني إلاّ تحولاً من الأدبية إلى الفلسفية أو في احضان أهل الكلام ولهذا يجنبنا هذا الاعتماد على هذا (المصطلح) لان صدوره لم يكن في هذه العصور التي فشا فيها التقعيد، ومع بعده من هذه العصور يظل دقيقاً نافذاً ملائماً لطبيعة الكلام غير الشعري الذي هدفه الإبانة والمباشرة مع امتلائه بالتأثير والفنية وبعده أو تساميه عن التعاطي اليومي المألوف ومستويات أخرى هابطة ويفرزها عن الكلام الفني الرفيع.

إن إقتراحنا مفردة (البيان) مصطلحاً بديلاً عن مصطلح (النثر) اقتراح مكين – في نظري – ذلك لان الشعر هدفه البيان لأنه يسلك طرقاً ومستويات

أداء تأثيرية وانطباعية وانفعالية كثيرة؛ وكثير من الأفكار التي ترد في تيار الشعر تصل إلى المتلقي إلاّ وتسابقها الموسيقى وألوان الأداء الجمالية؛ فضلاً عن أنَّ كثيراً من المضامين التي ترد في مجرى الشعر قد تتخذ طريقها إلى قلب المتلقي وهو لا يؤمن بها ولكنه يتلذذ بسماعها وترديدها وتتخذ مكانها من سلوكه لأنه ليس بصدد الإيمان بها أو الاقتناع بها وانما هو في صدد آخر هو التمتع بها والتأثر بها جمالياً.

أما إذا جاء البيان من خلال هذه المستويات فانه يأتي عرضاً وليس من أهداف الشاعر توصيل شيء أو بيانه لان ما يريد قوله أو ايصاله هو هذه الصورة التأليفية لمستوياتها الجميلة.

ان حديث الرسول صلى الله عليه واله وسلم يركز تركيزاً بيناً على ما تقدم لان (من) تبعيضية في قوله: ان من الشعر لحكمة...

هذا يعني ان الشعر ليس بصدد الحكم والحكمة معنى عميق يوجه إلى جعل الأمور في مواضعها فليس هو افكاراً مباشرة تتخذ طريقها بتجرد إلى ذهن المتلقي وتأخذ مكانها من سلوكه في الحياة بل هو سحر أي تأثير لأنه يتخذ طريقه إلى الذهن والى الاقتناع مع عدم أيمان المتلقي بما يرد فيه من مضمون فهو إذن سحر لكن منه – مع هذا – الحكمة! أما البيان (الكلام غير الشعري) فهو ايضاح ومباشرة وهدفه كذلك أما إذا جاء على شاكلة الكلام الشعري من اعتماد لوسائل التأثير التي (تسحر) المتلقي فهذا من الفضائل وليس من الأهداف أو من طبيعته. لذا ركز الحديث على ان البيان حكمة ولكن منه قد يأتي ساحراً؛ وهذا هو جوهر حديثه صلى الله عليه واله وسلم إذا وقفنا في عمقه فانه يقلب الأمور على هذه الصورة

ان الشعر سحر وان البيان حكمة

وهذه طبيعة النوعين ولكن التعجب يجعله هكذا: ولكن قد يأتي البيان بالسحر وقد ترد الحكمة في الشعر أي يكون العكس اتفاقاً.

وهنا كقولنا: ان من الشراب غذاءً أو شبعاً وان من الطعام ريّاً، إذا حدث اتفاقاً ما يقلب حقيقتهما لان في الطعام الشبع ولان في الشراب الريّ ولكن إذا كان الطعام على شاكلة الشراب لاحتوائه سوائل كثيرة أو اكثر من المعتاد واحتوى الشراب دهوناً مثلاً أو ألياقاً وغيرها من مقومات الشبع، أو كقولنا: ان في بعض أفعال النساء لرجولة، وان في بعض أفعال الرجال لانوثة، إذا عجبنا من انقلاب حقائق الأشياء اتفاقاً وازيلت جواهرها المعتادة، وكذلك حديث النبي صلى الله عليه واله يعجب من انقلاب طبائع الكلام إذ يرد السحر من البيان والحكمة من الشعر فهو ليس تقريراً لواقع بل تعجب؛ لذا نفيد منه تقسيماً للكلام بعيداً عن ضبابية مصطلح النثر ومن دون التورط بآفاق مصطلح البيان ويفيدنا وصفاً لطبيعة الشعر فنقول ان الكلام الفني: شعر وبيان و (بيان) هنا ليس صفة لمحذوف تقديره: النثر وانما هو اسم مادة الكلام بديل وجود مفردة (الشعر) التي لم يكن حديث النبي بصدد الاصطلاح أو التقسيم المدرسي وانما استعملها كما يستعملها عصره في إطلاق الشعر على الكلام الشعري فالحديث حلّ نصف المشكلة أو مشكلة واحدة حينما أطلق على القسيم الثاني للكلام كلمة واضحة محددة منضبطة تصلح ان تدور بكفاية استعمال الدارسين وتصلح اسماً لجنس الكلام غير الشعري بكفاية.

وهنا نسوغ اعتمادنا على هذه المفردة مصطلحاً بديلاً من النثر بما يأتي :

١. أن الحديث نص في تقسيم الكلام الفني سواء أكان منتظماً (شعراً) أو غير منتظم لأنه تعقيب على كلام مؤثر ويتجاوزن كون قسيم الشعر غير منتظم فلم يقرن (غير المنتظم) بالتعبير الغامض (النثر) وانما نصّ نصاً واضحاً على كلمة (البيان) فصحّ الاعتماد عليه لأن (البيان) إذا ورد منفرداً من دون مقابلة بالشعر سيبقى حاملاً دلالته على الكلام غير الشعري وبهذا وضع الحديث طبيعة الكلام غير الشعري واضعاً محدداً واضحاً، أي صفة الكلام غير الشعري هي الإبانة وهي هدفه؛ فهو غير مشروط بالاقتران بالمنظوم لأنه لا

يضمر اسم الكلام غير الشعري (النثر) ثم يصفه بالبيان أو بصفة البيان بل يقرره تقريراً فيقول الكلام: بيان وشعر.

٢. ان طبيعة الحديث طبيعة تقريرية هدفها التقسيم وقاصدة قصداً واضحاً ولم تأت في سياق آخر غير التقسيم.

٣. ان الحديث نص بعيد عن عصر التقعيد والمدرسية، أما قضية الشك في نسبته إلى الرسول صلى الله عليه واله نصاً أو معنىً قضية متجاوزة لأننا استفدنا كلمة تحمل مقومات الاعتماد عليها لتكون مصطلحاً وليس من مهمة البحث تجريح الحديث أو تعديله نصاً أو رواية ولنا اقتناعنا في الاعتماد عليه مصطلحاً.

٤. النص هنا في صدد تقسيم الكلام المؤثر (الفني) وكذلك الكلام غير المؤثر وبهذا يستوعب أنواع الكلام بأجماله البليغ هذا.

٥. يقرر طبيعة الأنواع الأدبية لأنه تعجبي فضلاً عن ان دلالة النص واضحة على الإشارة إلى طبيعة الكلام الشعري؛ ولم نستكثر على النبي صلى الله عليه واله وعصره فهم خصائص الكلام الفني وغير الفني ومعجزته صلى الله عليه واله هي النظم البليغ.

٦. النص ليس بصدد تقرير صفة لموصوف بل بصدد تعجب من اتصاف موصوف بصفة غيره طارئة عليه وليس من طبيعته وانما تصف اتصافاً إيجابياً فافاد شيئاً جديداً فوق سماته وخصائصه؛ فالبيان مباشر ولكنه قد يسحر أي يؤثر، وان الشعر ساحر (مؤثر) ولكنه قد يفيد خبرة هي من مهمات البيان أو من أهدافه فكيف تبادلا المواقع أو الأهداف فهو في سياق مدح، وهو يدل دلالة خفية على شيء وهو أن الشعر دائماً بعيد عن الإبانة وعن الاهتمام بالمضامين الحكمية وليس من مهماته فيعجب من اقتران الشعر بالمضمون الحكمي لأنه صياغة وفي الصياغة عين معناه؛ فجاءت الدقة من خلال هذا التقسيم؛ ولا نريد ان نكون اكثر طمعاً فنقول: ليت النص قد حل مشكلة

مصطلح (الشعر) ايضاً؛ لان العصر كان بعيداً عن التدقيق فيما شاع لانواع الكلام من اصطلاحات متعارفة ولا نطمع في ان يطلق على الشعر مصطلحاً دقيقاً فما جاء فيه من تبديل لمصطلح النثر لا يعني أننا نريد منه كل شيء واكتفى بالإطلاق المجازي (الشعر) واكتفى فالشعر كلمة تحمل المبالغة والتهويل في شأن الكلام الشعري وكونه لدقته وكثافته ومستويات أدائه وتأثيره واحتفال العرب به فكأنه محض شعور وأدراك كما أطلق العرب على الرجل العادل (عدل) فكانه من توخيه العدل في كل شيء صار هو نفسه عدلاً أو إطلاق المعنى على الذات في قول الشاعر: فإنما هي إقبال وإدبار.

من كثرة اقبالها (البقرة الوحشية التي قتل رضيعها بين يديها) وادبارها صارت هي نفسها اقبال وادبار وقد اقر سيبويه مثل هذا الإطلاق في كتابه لأنه أسلوب من أساليب العرب إذا كثر الفعل عن الفاعل فاتصف به صحّ إطلاق المعنى على الذات(١١).

ولكن تبقى ملاحظة أخرى هي: ان من يطلق على الكلام الشعري: الكلام المنظوم لارادة الدقة وفي مجال المقابلة فقط مع الكلام غير المنتظم قد صاحبه الصواب في هذا أما إذا أراد مصطلحاً مجرداً من المقابلة للكلام غير الشعري فهذا الحديث قد رفدنا بمصطلح مانع جامع يدل على ما تحته من مفهوم.

مصادر البحث

القرآن الكريم

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحـ: هـ. ريتر ، مكتبة المثنى، بغداد، طبعه بالاوفسيت، ١٩٧٩.

أساس البلاغة للزمخشري، الهيأة العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥.

البيان والتبيين، الجاحظ، تحـ : عبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥.

البيان العربي، د. بدوي طبانة، مطبعغة الرسالة، ١٩٦٢.

التعريفات للسيد الشريف الجرجاني، تقديم د. احمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د. ت.

دفاع عن الشعر (بحث) د. علي كاظم أسد، مجلة آداب القادسية، العدد ٦ سنة ١٩٩٩.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحـ: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤.

الشعر والشعراء لابن قتيبة تحـ: احمد محمد شاكر، دار التراث العربي، ط٣، ١٩٧٣.

صحيح الترمذي بشرح الأمام أبي بكر بن العربي المالكي، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٩٣٤.

صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، القاهرة، د. ت.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢.

عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحـ: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

عيون الأخبار لابن قتيبة، شرح وضبط د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

فتح الباري، شرح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحـ: عبد العزيز محمد باز، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣.

قطر الندى وبل الصدى لابن هاشم الأنصاري، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، دار أحياء التراث العربي ، بيروت، ١٩٦٣.

الكتاب : سيبويه، تحـ : عبد السم هارون، الهيأة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٧.

الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، دار المعرفة بيروت.

لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

مقدمة بن خلدون، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط٤.

الموشح مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، تحـ : علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥.

نقد النثر لقدامة بن جعفر تقديم عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

هوامش البحث

(١) ورد هذا النص في مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٢) انظر اللسان: مادة شعر، نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر، عز الدين الأمين، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ : ١٧ ؛ وانظر : دلائل الأعجاز : ٢٧١، انظر : التعريفات : ٩٢.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت: ١٣٣/١، انظر: أسرار البلاغة : ٦٩؛ واساس البلاغة: ما دة شعر.

(٤) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تر: هـ. ريتر، ط٢، ١٩٧٩ : ١٧٥.

(٥) الموشح : مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، تح: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥ : ١٥٨.

(٦) ٦٩ يس.

(٧) ١١٥ الأنعام.

(٨) وكذلك لقال شعراً لقيل شاعر يتكلم من تلقاء نفسه ولذلك كثرة في القرآن مادة : (قل) فضلا عن ان الشعر له شبهة العالم السفلي والهام الجن والشياطين عند العرب ولذلك قال : (وما علمناه الشعر...) لأنه كلام من عندنا وما ينبغي له لأنه الهام من شياطين كما تعتقدون. انظر: الكشاف: ١٧١/٢، والعمدة: ١٧٩/١.

(٩) وبهنا يكون مصطلح (الشعر الحر) أيضاً مصطلحاً مهزوزاً من حيث ما أراد المصطلحون عليه لانهم يريدونه شعراً كالقصيد الملتزم وهو من جوهرة رؤية شاعرية إلى الوجود بلا التزام شكلي أو عرفي أو تقليدي وبهنا يدخل النثر أيضاً لأنه نظر شاعري إلى الأمور بغير التزام، انظر : دفاع عن الشعر : ٩.

(١٠) المعجم المفهرس : ١ / مادة بين : البخاري : نكاح : ٤٧، الترمذي، بر ٨١، احمد بن حنبل : ٢٦٩/١، ٦٦/٢، ٩٤/٣، ٢٦٣/٤، انظر : البيان والتبيين: ١٧/١٠ ، البيان، بدوي طبانة : ١٦١، نقد النثر : ٦٩، مقدمة ابن خلدون : ١٧.

(١١) الكتاب لسيبويه ، تح : عبد السلام هارون ، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ : ١٣٢/١.

مقتل الزبير في شعر جرير

استثمار الحادثة التاريخية في الهجاء

د. حاكم حبيب عزر الكريطي
كلية الآداب / جامعة الكوفة

ترسخت المثل العليا والقيم الإنسانية التي وسمت بها الحياة العربية قبل الإسلام، في العصر الإسلامي، لان تلك المثل والقيم التقت مع قوانين الرسالة الإسلامية التي أكدت المنطلق الأخلاقي للمجتمع الإسلامي، ومنحته بعداً روحياً عميقاً، وصار من المتعذر الفصل بين ما هو جاهلي وما هو إسلامي في تلك المثل العليا والقيم الإنسانية.

وفي العصر الأموي، عادت العصبية القبيلة إلى ما كانت عليه في العصر الجاهلي، وصار الانتماء القبلي عنواناً للحياة العربية في هذا العصر بفعل عوامل كثيرة [١] وراح أبناء القبائل يثيرون تلك العصبيات ويتحدثون فيها ويتعقبون ما كان منها في الجاهلية وما يتصل منها في الإسلام، إلى الحدّ الذي تناسوا فيه ما جاء الإسلام به من نبذ التفاخر والتكاثر، وحرصت القبائل على البحث عن كل ما يُمجدّها ويصف بطولات أبنائها في الجاهلية والإسلام، وفي الوقت نفسه حرصت القبائل – أيضاً – على صيانة انفسها مما يُعد خروجاً عن المثل والقيم

(١) ينظر التطور والتجديد في الشعر الأموي ١١٠، الشعراء نقاداً٨٦.

المشار إليها. وكان جهد الشعراء وسط غليان العصبية القبلية يتوجه إلى تنقية وجوه قبائلهم من السمات السلبية، بعد أنْ استعر الهجاء بينهم، وراح الشعراء المتخاصمون يبحثون في تاريخ قبائلهم عما يمكن ان يكون مادة للافتخار، ويبحثون في الوقت نفسه في تاريخ خصومهم عما يمكن ان يكون مادة للهجاء، إذ ان التحلي بالقيم العربية الأصيلة يعني حسن الثناء للشاعر وقبيلته، وفقدانها يعني تجريد الشاعر وقبيلته من عنوان الفخر الرئيس.

وحينما هاج الهجاء بين قطبي قبيلة تميم جرير والفرزدق، شعر جرير انّه امام شاعر كبير طالما تباهى بحسبه وقوة محتدّه، فهو من بيت مجاشع بن دارم بيت الشرف في تميم [١]، وجرير من بني كليب بن يربوع الذين ليس لهم من الشرف ما لمجاشع بن دارم [٢].

وكان جرير مدركاً لهذه الحقيقة، فهو يشعر بوضاعة نسبه، وانه لا يجارى الفرزدق في شرفه، حيث روى عنه بعد ان درى نادرة عن أبيه أنه قال: ((فكيف برجل يريد ان يسامى بني دارم بهذا)) [٣]، لذلك نأى بنفسه عن الفخر ببني كليب بن يربوع، وافتخر بأبناء عمومته بني رياح بن يربوع، فقال مخاطباً الفرزدق:

أتوعِدُني وراءَ بني رياحٍ ... كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يداك دوني [٤]

إذا وجدت في تاريخ رباح ما يعنيه على ان يكون نداً للفرزدق، فبنو رياح

---

(١) ينظر جمهرة انساب العرب ٢٣٠.

(٢) ينظر م.ن ٢٢٥، والفرزدق يعد قريش القبيلة الوحيدة التي ترقى إلى مستوى قومه في الشرف، ينظر النقائض ٧٤٧.

(٣) الأغاني (بولاق).

(٤) الديوان ٥٧٧.

هم أرداف الملوك في الجاهلية [١]، ومنهم سيحيم بن وثيل الرياحي الذي نافر غالباً والد الفرزدق في الإسلام [٢].

وكان الفرزدق من الطرف الآخر يزدري جريراً ورهطه، وينظر إليه بوصفه راعياً حقيراً، وينظر إلى بني كليب بوصفهم لا يملكون من الشرف ما يملكه بنو مجاشع. يقول الفرزدق في هذا المعنى :

فيا عجباً حتى كليب تسبني وكانت كليب مدرجاً للشتائم [٣]

ومن هنا راح جرير يبحث عن عيب اجتماعي في الفرزق ورهطه بني مجاشع كي يسدد من خلاله سهام هجائه إليهم، فأعياه ذلك، والتفت إلى تاريخ بني مجاشع فأمدّه التاريخ بحادثة مقتل الزبير بن العوام غيلة بسيف عبد الله بن جرموز في مضاربهم، فتلقف جرير هذه الحادثة وادارها في رأسه كثيراً، ثم جعلها محوراً من ثلاثة محاور رئيسة ادار حولها هجاءه للفرزدق وبني مجاشع [٤]. فكيف قدر له – أي لجرير – ان ان يجعل هذه القضية مثلبة اجتماعية تشين تاريخ الفرزدق ورهطه بني مجاشع فيما يعتقد هو؟.

يقول التاريخ ان الزبير بن عوام (رض)، بعد ان ترك معسكر عائشة وطلحة بن عبيد الله يوم الجمل، واعتزل القتال، جاء ((ووقف على مسجد بني مجاشع فسأل عن عياض بن حمار بن أبي حمار. فقال النّعر بن زمام المجاشعي: هو بوادي السباع، فمضى الزبير يريده، وخرج النّعر بن زمام مع الزبير رحمه الله تعالى حتى بلغ النّحيت ثم رجع)) [٥]، وجاء عبد الله بن جرموز وقتله غيلة

---

(١) ينظر جمهرة انساب العرب ٢٢٧.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر الموشح ١٩٤ – ١٩٥.

(٤) ينظر الأغاني (دار) ٣٤٢/٩، الموشح ١٩٣.

(٥) الموشح ١٩٤.

واخذ سلبه [1] . فبنو مجاشع على وفق الرواية التاريخية لم يفرّطوا بجوار الزبير، وهو لم يستجر بهم، ولكنّ جريراً جعل جوار الزبير لبني مجاشع أمراً واقعاً، إذ عدّ المرور بمضاربهم والوقوف على مسجدهم

نمطاً من الجوار، كان عليهم ان يحفظوه. لذلك عمد إلى قطع السبيل امام من في نفسه ان يُبرئ بني مجاشع من هذه القضية. فقال مخاطباً الفرزدق:

لو كنت حراً يا ابنَ قينِ مجاشعٍ ... شيعت ضيفك فرسخين وميلا [2]

فهو يريد الفرزدق وبني مجاشع ان يشعيوا الزبير حتى يخرجوه من مضاربهم ولكنهم لم يفعلوا ذلك، كما يريد هو وليس كما يذكر التاريخ، وبهذا هيأ جرير لنفسه ما يستطيع من خلاله تقرير خروج بني مجاشع من القيم العربية الأصيلة، من خلال انتزاع القيمة الرئيسة (الجوار) منهم.

ان تمسك جرير بوهم الغدر وعدم حفظ الجوار عند بني مجاشع، نابع من حرصه الشديد على انتزاع ركيزه من ركائز فخر الفرزدق بنفسه، ركيزة الجوار، إذ ذاع صيت الفرزدق بين العرب، انه كان يجير كل من لاذ بقبر أبيه، على شاكلة ما كان يجير الجاهليون من عاذ بقبور آبائهم وأجدادهم، وقد احتفظ أبو عبيدة والمبرد بعدة من اجاراته لغير واحد ممن قصدوا قبر أبيه بكاظمة [3] . فهل تحقق لجرير ما كان يحرص على تحقيقه؟ وكيف استثمر ما الصقه خياله ببني مجاشع عامة وخصمه الفرزدق خاصة؟.

لقد احتلت هذه القضية مساحة كبيرة من الجهد الفني لجرير في شعره، إذ كرر الإشارة اكثر من خمس وأربعين مرة، وفي كل مرة يحاول ان يفتح

---

(١) تنظر تفاصيل ذلك كله في تاريخ الطبري ٥٣٥/٤، النقائض ٨٠/١.

(٢) الديوان ٤٥٤.

(٣) ينظر النقائض ٨٧٠/٢ وما بعدها، الكامل ٧٥/٢ وما بعدها.

آفاق متابعة أوسع تفصيلاً، يسانده في ذلك خيال خصب ورغبة في تصديق ما يقرره خياله، فيعمد إلى جرّ الملتقي إلى مشاركته في ذلك كله. ولكي يضفي جرير على مقتل الزبير بجوار مجاشع الواقعية التي يبتغيها، عمد إلى تخيل ما يمكن أو تقوله أو تفعله قريش بعد ان تعتقد بما اعتقده هو، لذلك سعى إلى اشراك قريش في البرم والاشمئزاز والنفور من عذر بني مجاشع، وتحدث بلسانهم كثيراً عن مقتل الزبير، وهو بهذا يسعى – كما نعتقد – إلى تحقيق أمرين:

الأول : ان قريشاً هم قبيلة الزبير، ومن حقهم ان ينكروا هذا الصنيع من مجاشع وانكارهم يعني تقرير لما يريده هو من إثبات قدر مجاشع.

الثاني: ان منزلة قريش بين العرب، تسّهل تسريب هذا الاعتقاد بغدر بني مجاشع إلى القبائل العربية كلها، حينما يتوافد أبناءها إلى قلة في أيام الموسم ويسمعون ما يسمعون من قريش. ويعودون بما سمعوا إلى قبائلهم، وحينما يريدون الإنصاف ويوازنوا بين فخر الفرزدق بالاستجارة بقبر أبيه، وبين ما ألصقه به جرير من غدر فترجح كفة جرير في ذلك كلّه. يقول جرير واصفاً ما يمكن ان تفعله قريش:

ومجاشع قصب هوت أجوافُه ... غرّوا الزبيرَ فأيَّ جار ضيعوا
إنّ الرزيَّة من تضمَّن قبره ... وأدى السباع لكل جنبِ مصرع
لما أتى خبر الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال الخشع
وبكى الزبير بناته في مأتمٍ ... ماذا يردُّ بكاء من لا يسمع
قال النوائح من قريش إنما ... غدر الحتات ولبين والاقرع
ترك الزبير على منى لمجاشع ... سوء الثناء إذا يُقضّى المجمع
قتل الاجارب يا فرزدق جاركم ... فكلوا مزاود جاركم وتمتعوا [1]

(١) الديوان ٣٤٥.

فجرير في هذه الأبيات يظهر هول مصرع الزبير، وعظم خطب مقتله، ليصل من هذا إلى ما تردده النوائح من قريش في مجالس عزائهن من الحديث من غدر مجاشع (الحتات ولين والاقرع)، وهذا كله يقود إلى سوء الثناء لهؤلاء عند اجتماع الحجيج في منى، وبعد انقضاء الموسم. ويكرر هذا المعنى في أبيات أخرى فيقول:

ألـم تـرَ ان الله اخـزى مجاشـعاً ... إذا ضـم أفـواج الحجـيج المعـرف
ويـوم منـى نـادت قـريش بغـدرهم ... ويـوم الهـدايا والمشـاعر عكـف
وكان حديث الركب غدر مجاشع ... إذا انحـدروا مـن نخلتين واوجفوا (١)

لقد اتخذ جرير من الشعائر المقدسة في الحج سبيلاً لفضيحة بني مجاشع على لسان قريش، فيوم عرفات ويوم منى ويوم النحر هي أيام اجتماع الحجاج في الموسم، وفي هذه الأيام نادت قريش بقدر مجاشع لتشيع هذه السمة الممقوتة بين القبائل، ثم تتحدث الركبان بهذا الغدر بعد انقضاء الموسم. وكأن جريراً هنا يستحضر عادة العرب في الجاهلية حينما كانوا يرفعون راية في مجامع العرب لمن يغدر، ليكون ذلك فضيحة يشهد عليها المجتمعون في المواسم (٢).

ولكي يوغل جرير في اشراك قريش فيما يعتقده هو – كما المحنا – من غدر مجاشع بالزبير، راح يهجوهم بلسان قريش. فيقول:

قالـت قـريش وقـد ابليـتم خـوراً ... ليست لكم يا بني رغوان ألبابُ (٣)

ويقول أيضاً:

---

(١) م. ن ٣٧٦.

(٢) يقول الحادرة الذبياني في هذا المعنى. الديوان.

فسـمي ويحـك هـل سـمعت بغـدرة ... رفـع اللـواء لنـا بهـا فـي مجمـع

(٣) الديوان ٤٧.

تقول قريش بعد غدر مجاشع ... لحا الله جيران الزبير ورجعوا [1]

إذن شاركت قريش جريراً فيما قرره من غدر مجاشع بالزبير، وكأنه بمشاركة قريش هذه، يستطيع ان يؤشر بهجائه موقعاً هابطاً لمجاشع في سلم قيم العرف الاجتماعي، بعد ان قدر له – فيما يعتقده هو – ان ينزل بهم من قمة المجد الاجتماعي الذي كانوا عليه، ولكي يرسخ هذا الاعتقاد في نفوس الملتقين، خص حكماء قريش بالحديث عن غدر مجاشع، فقال:

يقول ذوو الحكومة من قريش ... أتفخرُ بعد جاركم المُصابِ
غدرت وما وفيت وفاء حزنٍ ... فأورثت الوفاء بني جنابِ [2]

فالحكماء من قريش يستفهمون – وهم ينكرون –، أيفخر الفرزدق بابيه بعد مقتل جاره الزبير؟. ثم يفخر جرير بقومه من طرف خفي، ويجعل هذا الفخر على لسان حكماء قريش أيضاً، حينما يخاطبون الفرزدق بأنه غادر ولا يمكن ان يكون وفياً كحزن، الذي منع قومه من ظلم ضيفه، فجعل الوفاء إرثاً في بني جناب بن يربوع [3].

وينتقي جرير بيوت الشرف من قريش ليظهر برمهم من غدر مجاشع فيقول:

ويلومكُمُ العصاةُ وال حرب ... ورهط محمد وبنو هشام [4]

وفي أغلب الظن أن جريراً في اشارته إلى هذه البيوت الأربعة من قريش، لا يريد أن تفلت الفرصة من يده قبل ان يسرب هذا الاعتقاد إلى نفوس خلفاء بني

---

(١) الديوان ٣٦٣.

(٢) م . ن ٥٠.

(٣) حزن رجل من بني كليب بن يربوع، نزل به ضيف، فارد قومه بأن يركبوه ويظلموه فمنعه حزن. ينظر الديوان ٥٠هـ ٢.

(٤) م . ن ٥١٠.

امية، فمادام آباؤهم قد اتخذوا هذا الموقف من بني مجاشع، فحري بهم ان يسيروا على خطاهم في وسم بني مجاشع بالغدر، وهذا قد يحقق له طموحاً في الاستئثار بالبلاط الأموي مع غريمه الآخر الاخطل دون الفرزدق.

فيبعد الفرزدق ولو إلى حين عن منافسته في ذلك من جهة، ويقلل من ولعه في الافتخار بجوار أبيه وبني مجاشع من جهة أخرى. ولذلك ركز على هذا الايحاء في موطن آخر حيث قال:

إذا نزلوا نجداً سمعتم ملامة ... بمجمع من الاعياص أو آل هاشم [1]

فالذي يعني جرير – فيما نعتقد – هو جمع الاعياص أولاً، لان ذكر هؤلاء كفيل بتحريك مشاعر الخلفاء من بني مروان ضد بني مجاشع، لانهم يأنفون من مخالفة اسلافهم، الذين قر في نفوسهم هذا النفور من رهط الفرزدق، أما ذكر بني هاشم فهو تتميم لصورة الخلفاء الدينية، فالصيغة الدينية للخلفاء يجسدها ذكر الهاشميين أبناء عمومتهم الذين يشاركوهم لوم مجاشع.

ويستثمر جرير أداة أخرى، آل إليها في مواجهته مع الفرزدق، تتمثل في منزلة الزبير الدينية بوصفه حواري رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – وقد اتكأ على هذه المنزلة كثيراً وهو يلهب ظهور بني مجاشع بسياط هجائه. يقول في ذلك:

يقبح جبيرل وجوه مجاشع ... وتنعى الحواري النجوم الطوالع

إذا قيل أي الناس شر قبيلةً ... واعظم عاراً قيل تلك مجاشع [2]

فإذا كان جبريل – عليه السلام – الذي عرفه المسلمون بوصفة الملك المقرب من الله تعالى، وهو الذي يقبح وجوه مجاشع، فهذا اشد وقعاً في النفوس

---

(١) الديوان.

(٢) م. ن ٣٧٢.

واكثر ايلاماً للخصوم. ومن هنا تكون مجاشع في ذروة الشر بين القبائل، واعظم عاراً من غيرها.

وحينما يفكر مجاشعي بالذهاب إلى الحج التماساً لغفران الذنوب، فقد لا ينفعه هنا لان ستر البيع العتيق يبغضه، وكذلك يبغضه حجاب البيت والعباد المتطوفون. يقول جرير في هذا المعنى:

ويبغض ستر البيت آل مجاشع — وحجابه والعابد المتطوف
وان الحواري الذي غر حبلكم — له البدر كاب والكواكب كسف [1]

ويحرص المسلمون على ان يكون لهم سبيل مع رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – في يوم الجزاء، فان بني مجاشع لا يرجون ذلك، لانهم تركوا خليله الزبير يقول:

أفبعد متركهم خليل محمدٍ — ترجو القيون مع الرسول سبيلا [2]

إنَّ جرير في نظرته إلى مكانه الزبير الدينية، وما يجره ذلك على خصومه ببني مجاشع، لا يخضع للتفاصيل التاريخية للحادث، كي ينطلق إلى تجسيد نظرته تلك، وانما ينطلق من الحقيقة التاريخية ليسجل ملامح الاستشراف الطامح إلى تحديد صورة بني مجاشع بعد غدرهم الموهوم بالزبير. سعى إلى تجسدي حقيقة ان الله تعالى غير راض عنهم لفعلهم هنا، لذلك كان الخزي والاهانة التي لحقت بهم جاءت منه – عزَّ وجل – بقول جرير:

ألم ترى أنَّ الله أخزى مجاشعاً — إذا ذكرت بعد البلاء أمورها
بأنهم لا محرم يتقونه — وان لا يفي يوماً لجار مجيرها [3]

---

(١) م . ن ٣٧٦ – ٣٧٧.

(٢) الديوان ٤٥٤.

(٣) م . ن ٢٦٩.

ويقول أيضاً :

لقد غر القيون دماً كريماً ورحلاً ضاع فانتهب انتهاباً
علام تقاعسون وقد دعاكم أهانكم الذي وضع الكتابا
أتنسون الزبير ورهط عوف وجعثن بعد أعين والربابا (١)

وكان الفرزدق كثيراً ما يفخر بالحبوة عند قومه، فهي علامة العزة والمنعة والشرف، وحينما قال ابياته المشهورة في هجاء جرير:

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول
بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يجتبى بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عد الفعال الأفضل
ليس الكرام بناحليك اباهم حتى ترد إلى عطية تعتل
ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل (٢)

شعر جرير بقسوة هذه الأبيات عليه، لأنها تجسد حقيقة يحسث بها قبل غيره – كما المحنا من قبل –، فحنق على الفرزدق كثيراً، وادار هذه الأبيات في رأسه متأملاً، فالتقط بذكائه المعهود صورة الحبوة وهي مدار فخر الفرزدق في الأبيات، واستثمرها باتجاهه مغاير، حتى صارت عنده عنواناً للذل والهوان لأنها تمنع صاحبها من الحركة، وجعل ذلك سبة على بني مجاشع، لانهم لم يتحركوا لحماية جارهم الزبير، وظلموا عاقدين حباهم لا يأبهون بما حل به، يقول في هذا المعنى منكراً على الفرزدق فخره بالحبوة:

قتل الزبير وأنت عاقد حبوة قبحاً لحبوتك التي لم تحلل

(١) م . ن ٦٨.

(٢) الديوان.

وافاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثكم بذات الحرمل [1]

وهكذا جعل موطن فخر الفرزدق هجاء له، وظل يلح على هذه القضية ليجعل الملتقى يشاركه هذا التغيير الذي احدثه بنقل الحبوة من الشرف والعزة إلى الامتهان والذلة يقول:

اتفخر بالحبى وخزيت فيها وقبل اليوم ما فضحت حباكا [2]

فها هو ينكر على الفرزدق فخره بالحبوة، بعد ان انتقلت دلالتها إلى ما أراد هو فجاء بهذا الاستفهام الإنكاري ليؤكد ذلك. ومن هنا فإذا قدر لبني مجاشع ان يظلوا عاقدين حباهم بعد هذه الواقعة، فهذا يعني ان عقد الحبى عندهم قد انتقل تماماً إلى سمة الغدر يقول:

شددتم حبكم على غدرة بجيشان والسيف لم يغمد [3]

وبعد ان اطمأن جرير إلى هذا التحول الذي احدثه في دلالة الحبوة الاجتماعية عند بني مجاشع، أباح لنفسه ان يتسامى معهم في هذه الخصلة التي استأثروا بها من قبل بوصفها معقلاً من معاقل عزهم. فقال يخاطبهم:

فشدوا الحبى للغدر إني مشمرء إذا ما علا متن المفاضلة محملي [4]

وإذا قدر لجرير ان يلصق الغدر ببني مجاشع، فانه سعى في الوقت نفسه إلى تجسيد طموحه المشروع في الحديث عن وفاء قومه بني يربوع، كي يحقق لنفسه وقومه الموقع الذي يستحقونه بعد ما اشاعه من غدر خصومهم، إذا تكاد الحقائق تقرر ان الشعر كان الوسيلة شبه الوحيدة التي تؤشر مواقع الأفراد

(١) الديوان ٤٤٥.

(٢) الديوان ٤١٠.

(٣) م . ن ١٣٠.

(٤) م . ن ٤٥٨.

والجماعات بفعل الأسباب التي أشرنا إليها في موضع سابق. ومن هنا راح جرير يوازن بين استجارة الزبير الموهومة ببني مجاشع، وبين استجارته بهم لقد قدر لها ان تكون، ليظهر من خلال ذلك وفاء قومه، وبهذا يحقق غايتين في آن معاً، هجاء الفرزدق وقومه، والافتخار بنفسه ورهطه بني يربوع على مألوف ما ابتدعه هو والفرزدق من مزج الفخر بالهجاء بهذه البراعة الفنية [1].

واول ما استوقف جرير بهذا الإطار، ما انتحله على لسان قريش – كما مر بنا – من حديثها من غدر مجاشع، فقال مشيراً وموازناً:

ولو نزل الزبير بنا لجلى ... زياد فوارسي رهج القتام
لخافوا ان تلومهم قريش ... فردُّوا الخيل دامية الكلام [2]

فالخشية من لوم قريش تحتم على مجاشع ان يحفظوا جوار الزبير، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. ولو نزل الزبير في بني يربوع لردوا خيل اعدائه دامية وهم يقاتلون دونه، فجرير أشرك قريش في موازنته التي اقامها، ليضفي على الغدر والوفاء سمة واقعية. فما تقول قريش هو حكم قبل ان يكون شهادة ولهذا كرر الإشارة إلى قريش في موطن آخر يقول فيه:

فما وجد الجيران حبل مجاشع ... وفياً وذا مرة في العزائم
ولامت قريش في الزبير مجاشعاً ... ولم يعذروا من كان أهل الملاوم
وقالت قريش ليت جار مجاشع ... دعا شبثاً أو كان جار إبن خازم
ولو حبل تيمي تناول جاركم ... لما كان عاراً ذكره في المواسم [3]

(١) ينظر العصر الإسلامي ٢٤١ وما بعدها.

(٢) الديوان ٥٠١.

(٣) م. ن ٥٦١.

لقد اختار جرير فارسين من فرسان العرب عصر ئذ ليكونا مستندين له في تجسيد غدر بني مجاشع وجبنهم، فقد تمنى بلسان قريش – أيضاً – ان يكون الزبير قد استجار بشبث بن ربعي الرياحي اليربوعي [1] أو بعبد الله بن خازم السلمي لما حل به ما حل، واختيار هذين الفارسين يعني فيما يعينه، ان بني مجاشع يفتقرون إلى مثلهما في الشجاعة وشدة البأس وحفظ الجوار، وبهذا أضاف جرير سمة أخرى إلى بني مجاشع هي سمة الجبن التي جسدها بهذه الموازنة. وإذا كان شبث بن ربعي من رهطه الذي يحق له ان يفخر بهم، فذكره لعبد الله بن خازم السلمي، يندرج في إطار محاولة جر بني سليم إلى صف الذين يعتقدون بما يقوله، لان ذكر الفارس سعني تمجيداً لقبيلته.

ويدخل في هذا الإطار حديث جرير في قصيدة له، يمدح بها قبيلة الازد إذا استثمر الموازنة بينهما وبين بني مجاشع ليؤكد الحقيقة التي توهمها وهي الغدر بالزبير. يقول مخاطباً الفرزدق:

غدرتم بالزبير وما وفيتم ... وفاء الازد إذْ منعوا زيادا
فاصبح جارهم حياً عزيزاً ... وجار مجاشع اضحى رمادا
ولو طرق الزبير بني علي ... لقالوا قد أمنت فلن تكادا
وجار من سليمة كان أوفى ... وارفع من قيونكم عمادا
وجدنا الازد أكرمكم جوارا ... واوراكم إذا قدحوا زنادا [2]

اهتم جرير في هذا المقطع بتصوير مواصفات النموذج الأخلاقي الأمثل الذي تجسد في قبيلة الازد، حينما ركز على سمة الوفاء بوصفها الركيزة الرئيسة في تأمله للنموذج الأخلاقي المشار إليه، لان هذا يتناغم مع عشق العرب

---

(١) ينظر جمهرة أنساب العرب ٢٢٧.

(٢) الديوان ١٤٤.

لهذه القضية، ولأن تاريخ الازد يمده بالنماذج الفردية والجماعة التي تتبلور فيها هذه السمة. فزياد بن أبيه كان خليفة ابن عباس على البصرة، وثارت بها العثمانية فلجأ إلى صبره بن شيمان الازدي فمنعه منهم [١]، وكل هذا الذي قيل يقابله سمة سلبية بتلطخ بها بنو مجاشع، وهذا ما يريده جرير فهو يسعى إلى الموازنة بين وفاء الازد وغدر مجاشع حيث زهو الازد - ومديحهم باعث القصيدة الرئيس - بقيمة الوفاء واكرام الجار وحمايته، وحيث تصاغر مجاشع من مثلبة الغدر بالزبير. فجرير إذن نشر فضائل الازد ومخازي مجاشع بين الناس في خطين متوازيين وفي قصيدة واحدة بهذا الأسلوب الذي ابتدعه والذي يمكن ان نسميه (الموازنة في الهجاء).

وبهذه الطريقة الفنية التي ابتدعها، دافع جرير عن مخرق بن شريك بن ثمام الهذلي الذي كان ضلعه معه [٢] فنهاه الفرزدق مرتين فلم ينته. فقال الفرزدق فيه:

ولقد نهيت مخرقاً فتخرقت ... بمخرق شطن الدلاء شغور [٣]

فاجابه جرير وهو يوجه سهامه إلى المقتل الرئيس (الغدر بالزبير):

ولقد نهيتك ان تسب مخارقاً ... وفراس امك كلبتان وكير
يا ليت جاركم استجار مخرقاً ... يوم الخريبة والعجاج يثور [٤]

فها هو يجمع بين هجاء الفرزدق ومديح مخرق بالموازنة التي أشرنا إليها، إذا جمع ذلك في بيت واحد تتجسد فيه البراعة الفنية التي عرفناه بها.

أما إذا أراد جرير ان يوازن بين قومه بني يربوع وبين بني مجاشع - فانه

---

(١) ينظر تاريخ الطبري ١١/٥.

(٢) ينظر النقائض ٨٤٦.

(٣) الديوان.

(٤) م. ن ٣١٦.

يضفي من قدرته الفنية ما يمتع به الملتقى، وهو ينظر إلى مقتل الزبير بإطار فني لا يبتعد كثيراً عن الحادثة التاريخية، يقول:

إنـي تـذكرني الزبيـر حمامـة ... تـدعو بجمـع نخلتـين هـديلا
لـو كـان يعلـم قـدر آل مجاشـع ... نقـل الرحـال فاسـرع التحـويلا
يـا لهـف نفسـي إذْ يغـرك حـبلهم ... هـلا اتخـذت علـى القيـون كفـيلا
ولـو ظهـورهم الاسـنة بعـدما ... كـان الزبيـر مجـاوراً ودخـيلا
أفتـى النـدى وفتـى الطعـان غـررتم ... وفتـى الشـمال إذا تهـب وخـيلا
قتـل الزبيـر وانـتم جيرانـه ... غيـاً لمـن غـر الزبيـر طـويلا
لـو كنـت حـين غـررت بـين بيوتنـا ... لسـمعت مـن صـوت الحديـد صـليلا
لحمـاك كـل مغـاور يـوم الـوغى ... ولكـان شـلو عـدوك المـأكولا [١]

يبدي جرير في هذه الأبيات ألماً مصطنعاً على مصرع الزبير، إذْ يذكره نوح الحمام بذلك المصرع وبمن قدر به من بني مجاشع، ويلتفت إلى السمات الشخصية للزبير ليؤكد عظم خطب مصرعه، ومن ثم عظم الغدر به، حتى إذا اطمأن إلى ما استقر في نفوس المتلقين عاد إلى اسلوبه في الموازنة. وهذه المرة بين قومه بني يربوع وبين بني مجاشع، من قبل قادراً على ذلك، لانه يدرك ان الفرزدق وقومه في ذروة الشرف والسيادة من تميم، ولكنّ ما اعتقد به جرير من استقرار غدر مجاشع بالزبير في النفوس اغراه بالوقوف بوجه الفرزدق ببني يربوع.

ويلجأ جرير إلى اسلوب السخرية اللاذعة والتهكم الموجع الذي عرف به، وراح يلهب ظهور بني مجاشع بسياط هجائه الساخر، لادراكه الاثر العميق الذي يتركه هذا الاسلوب في الملتقى معجباً والمهجو موجعاً في آن معاً، فقد روي

---

(١) الديوان ٤٥٥.

عنه قوله ((إذا هجوت فاضحك)) [1] ، وعلى الرغم مما يتطلبه الحديث عن مصرع الزبير من رصانة في التعبير ووقار في الالفاظ تتناسب مقامه الديني، فان جريراً حاول ان يوازن بين الأمرين من خلال التركيز على مكانة الزبير الدينية وادعاء الحزن عليه ثم الانتقال إلى السخرية. يقول

زال الجمال بنخل يثرب بالضحى   أو بالرواجح من اباض العامر
ليت الزبير بنا تلّبس حبله   ليس الوفي لجاره كالغادر
وجد الزبير بذي السباع مجاشعاً   للحيثلوط ونزوة من ضاطر
عرفت وجوه مجاشع وكأنها   عفل تدلى دون مدرى الشاصر
باتوا وقد قتل الزبير كأنهم   خور صوادر من نجيل قراقر [2]

لقد فقد نخيل يثرب جماله بمقتل الزبير. وكذلك نخيل (اباض العامر) حيث مصرع زيد بن الخطاب [3]، ولو تعلق حبل الزبير ببني يربوع لوجدهم اوفياء بخلاف مجاشع الغادرين، ثم يصل جرير إلى رسم صورته الساخرة لبني مجاشع، فاختار عبدين مشهورين هما (الحيتلوط والضاطر) ليكونا رمزاً لمهانة مجاشع [4] ثم يصل إلى ذروة السخرية والهزء، حينما يصف مجاشع بانهم تعشوا الخزيز وامتلأت به بطونهم، فصاروا كالإبل التي باتت ليلها تسلح من اكل الحمض.

ويتذكر جرير الحبى – التي مر ذكرها – بوصفها من مفاخر الفرزدق، ويتناولها بسخرية لاذعة، حينما يقابل بينها وبين اكل (الخزيز) فيقول

ودعا زبير فما تحركت الحبى   لو سمتهم جحف الخزيز لثاروا [5]

---

(١) العقد الفريد.

(٢) الديوان ٣٠٦.

(٣) ينظر معجم ما استعجم (اباض العامر).

(٤) الديوان ٣٠٦ هـ ٤.

(٥) م. ن ٢٠٣.

ومنبع السخرية هنا هذه المقابلة الطريفة بين الحبن والخنزير، فيجعل تحركهم لاكل الخزير ثورة، اما إذا استجارهم احد، فهم موثقون بحباهم [٦]

ويضحك جرير – وربما اضحك كثيراً من المتملقين – حينما يشبه مجاشع بالقنافذ الضخمة وبصغار الغنم الدميمة لانهم غرّوا الزبير، يقول:

أجيران الزبير غررتموه كأنكم الدلادلُ والقهودُ [١]

ويبدو ان جريراً اختار هذه الصورة الساخرة الماكرة لمناسبتها لما عرف من قصر قامة الفرزدق، فوسم بني مجاشع كلهم بهذا الوسم، دون ان يخفى ما للفظتين من رنين قوي توفره لهما الغرابة، فيكون رنينهما ساخراً [٢]

وإذا كان الفرزدق كثيراً ما يفخر بحلل الملوك، فان جريراً لا يستطيع ان ينفي هذه الحقيقة التي يتقدم بها عليه غريمه، فجاء مقتل الزبير لينهي هذه المفخرة، فلا قيمة لمجد قديم يتلوه عار مقيم كمقتل الزبير يقول :

لا تذكروا حُلل الملوك فإنّكم بعد الزبير كحائضٍ لم تغسل [٣]

ان صورة الحائض التي لم تغسل صورة تدعو إلى القرف والاشمئزاز وهي مثار سخرية وتهكم واستخفاف وتحقير [٤] لما تنطوي عليه من فقدان الطهارة وعدم استواء الدين.

ولعل جريراً استحسن هذه الصورة فراح يشبع نهمه وربما نهم الملقين بصور مشابهة كقوله:

---

(٦) ينظر عن سخرية جرير في شعره، جرير حياته وشعره ٣٣٨ – ٣٤٠.

(١) الديوان ١٦٣.

(٢) ينظر الهجاء والهجاؤون ١/ ٣٠.

(٣) الديوان ٤٤٥.

(٤) التهكم والاستخفاف من ابلغ الهجاء واملحه، ينظر العمدة ٢/ ١٣٩.

وقد لبست بعد الزبير مجاشع ... ثياب التي حاضت ولم تغسل الدما
وقد علم الجيران ان مجاشعاً ... فروخ البغايا لا ترى الجار محرما (٥)

فقسوة الهجاء وسخريته هنا نابعة من ارتداء مجاشع بعد مقتل الزبير الثياب النجسة التي لم تتخلص من ادرانها، وهي المرأة الحائضة، ثم اعقبها بصورة اخرى انكى من الأولى، تتمثل في ان مجاشعا فروخ بقايا لا يعرفون للجار محرماً.

ويلتفت جرير إلى صورة ساخرة اخرى لغدر مجاشع ويمزجها بصورة جادة في تفنن عرف باحكامه، يقول:

ومجاشع قصب جوف مكاسره ... صفر القلوب من الاحلام والدين
ينفشون لحاهم بعد جارهم ... لا بارك الله في تلك الثعانين
مثل الضباع تغنيهن نائحةٌ ... تبكي على كمر القتلى بصفين
قالت قريش وللجيران محرمةٌ ... اين الحواري يا فيش البراذين (١)

يقرر جرير في البيت الأول ان مجاشعاً لا احلام لهم ولا دين، فقلوبهم صفر من هاتين الصفتين، وبذلك يشبهون القصب المجوف الذي ينكسر دون جهد. ثم ينتقل إلى هجائه المقذع (٢)، حينما يصورهم وهم ينفشون لحاهم بعد مقتل الزبير، فنفش اللحى هو سمة الوقار عند أهل الدين، ونفش مجاشع للحاهم هو سمة الغدر، فانتقل بهذه الصورة من معناها المألوف إلى معنى مناقض له بدعابة طريفة، ثم يكمل الصورة التهكمية بالدعاء على تلك الثعانين التي نبتت فيها اللحى، ويقفي هذه الصورة بصورة اخرى لا تقل سخرية عن سابقتها، حينما

---

(٥) الديوان ٥٤٦.

(١) الديوان ٥٨٧.

(٢) عن الهجاء المقذع، ينظر الاغاني ٢/٢٥٣، العمدة ٢/١٣٨.

يصورهم بصورة الضباع التي تبكي على كمر القتلى في معركة صفين، وفي الصورة من القساوة ما لا يخفى. ويبدو ان اختيار جرير لمعركة صفين مردهُ إلى كثرة القتلى في هذه المعركة [٣]، ويعود – مرة اخرى – ليتحدث بلسان قريش مستفهماً عن حرمة الحواري، فيخاطهم بقوله (يا فيش البراذين)، مختاراً اذل مركوب عند العرب، ومختارا منه أسوأ ما فيه. وهنا لا نستبعد ان يكون المتلقون قد استغرقوا ضاحكين من هذه الصور الساخرة التي رسمها جرير لخصومه بني مجاشع [٤]

على ان ما ينبغي ان نشير اليه، ان صورة نقش اللحى قد استوقفت جرير كثيراً لطرافتها فراح يكررها في اكثر من موطن في شعره كقوله:

سقى جدث الزبير ولا سقاهم بعيج الودق منهمر الغمام

لا عظم غدرةٍ نفشوا لحاهم غداة العرق اسفل من سنام [٥]

إذن استطاع جرير ان يجعل نفش اللحى مقروناً بالغدر عند مجاشع، وهذا ما كان يتمناه، ليكبح جماح خصمه الفرزدق الذي كثيراً ما كان يزهو بشرف محتده في فخره، الذي بزّ به الشعراء، لانه كان يتلفع بالشرف من هامته إلى قدمه [٦].

والان بعد هذه الرحلة مع جرير ومقتل الزبير بن عوام، من حقنا ان نتساءل هل كان جرير في هجائه هذا للفرزدق صادراً من محبة للزبير، بحيث اظهر هذا الالحاح العنيف على هذه القضية، ام انه استثمرها دون عاطفة صادقة تشده إلى

---

(٣) ينظر واقعة صفين ٥٥٦.

(٤) ينظر السخرية في الاداب العربي ١٠٣ – ١٠٥.

(٥) الديوان ٥٠١.

(٦) كان الفرزدق يعتد كثيراً بنسبة ويرى نفسه نظيراً للخلفاء في الشرف، ولذلك هجا الخلفاء والامراء دون مبالاة، ينظر طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٠١ وما بعدها.

الزبير؟.

لعلنا لا نغالي إذ قلنا ان جريراً لم يكن يعينه مقتل الزبير بوصفه صاحب المكانة المعروفة في التاريخ الإسلامي، وانما كان يسعى إلى إيذاء خصمه الفرزدق من خلال هذه الحادثة، حينما حمل الفرزدق ومجاشع جوار الزبير ولم يكن الامر كذلك كما مر في ثنايا البحث. يؤيد هذا اننا لم نجد في شعر مقتل الزبير في ديوان جرير هجاءاً لعبد الله بن جرموز الذي غدر بالزبير، وكان ينبغي ان يأخذ ما يستحق من الهجاء، وكل الذي وجدناه اشارة واحدة إلى الحادثة، هي قوله:

اغرك جار ضل قائم سيفه ... فلا رجع الكفين إلاّ مكنّعا
وآب ابنُ ذيّال جميعاً وانتمُ ... تعدون غنماً رحله المتمزعا[1]

فجرير يعير الفرزدق ورهطه بعودة (ابن جرموز) سالماً بعد قتله الزبير، دون ان يذكر بسوء، بخلاف ما يقتضيه المقام بوصفه هو القاتل الغادر، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا، اننا نستشعر بان في البيتين ما لا يمكن اخفاءه من الاطراء بابن جرموز، حينما عاد جميعاً أو ظافراً دون ان يعباء ببني مجاشع، ولا نستغرب هذا الاطراء الذي تلمسناه في البيتين، لاب ابن جرموز هو الذي هيأ لجرير فرصة هجاء مجاشع بمثلبة الغدر.

ونجد في ابيات اخرى ما يقوي هذا الاعتقاد الذي قلنا به من موقف جرير من ابن جرموز، حينما ذكر بني سعد بقوله:

لقد نزل الفرزدق دار سعدٍ ... ليالي لا يعفُّ ولا يحامي
إذا ما رُمتَ ويل أبيك سعداً ... لقيت صيال مقرمة سوام
هم قتلوا الزبير فلم تنكر ... ودقوا حوض جعثن في الظلام

---

(١) الديوان ٣٣٨.

اضـيئوا للفـرزدق نـار ذل ... لينظـر فـي اشـاعرها الـدوامي

وهـم جـروا بنـات ابيـك غصبـاً ... ومـا تركـوا لجـارك مـن ذمـام

وخـالي ابـن الأشـد سـما بسـعدٍ ... فجـاوز يـوم ثيتـل وهـو سـامي (٢)

فجرير يفتخر ببني سعد، ويهدد الفرزدق ويتوعده بهم، ثم يأتي بادلة على ما يريد، فيذكره بقتلهم الزبير وما فعلوه بجعثن، ويبلغ ذروته حينما يستحضر تاريخ بني سعد في العصر الجاهلي، مشيراً إلى قيادة ابن الأشد (سنان بن سميّ) لبني سعد في يوم (ثيتل) على بكر بن وائل (١).

وهكذا فبنو سعد هم الذين أذلُّوا الفرزدق وقومه، حينما هتكوا جوارهم بمقتل الزبير، ويبدو ان جريراً الذي لجّ كثيراً في هذه الحادثة لا يريد ان يناهض ابناء عمومته (بني سعد)، وهذا يغرينا بالقول، انه لم يعترض على مقتل الزبير، بقدر اعتراضه على مقتله بجوار مجاشع، فترك لب القضية وتمسك بأذيالها، لان هذا يحقق له ما يريد من الحاق الغدر ببني مجاشع. هذا فضلاً عن ان بني سعد ايضاً، هم الذين اعترضوا جعثن فأسقطوها عن رحالها فهيأوا لجرير قضية أخرى، رأها بعينه مثليه لا تقل عن سابقتها، لذلك الحّ عليها في شعره، وغالباً ما يرد ذكرها مقروناً بذكر مقتل الزبير (٢).

ومع هذا كله فاننا لا نستطيع ان نهمل تماماً ميل جرير إلى ال الزبير حقاً، لان قبيلته (بني يربوع) بايعت عبد الله بن الزبير بالخلافة(٣)، وتصادف هذا

(٢) م. ن ٥٠٢.

(١) يوم ثيتل ايام تميم على بكر بن وائل، ويسمى يوم (النباج)، ينظر النقائض ١٠٢٣/٢، مجمع الامثال ٤٠٧/٢، في التاريخ ٥١٣/١، نهاية الادب ٣٨١/١٥.

(٢) ينظر الموشح ١٩٤ – ١٩٥، وينظر عن قصة جعثن النقائض ٢٢٢/١، الشعر والشعراء ٤٤١/١.

(٣) تاريخ الطبري ٩٥/٦.

مع لجوء (النوار)

زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير فأعانها عليه [٤]، مما جعل الفرزدق يهجوه [٥]، فاصبح الحديث عن مقتل الزبير بهذه الطريقة التي يظهر فيها جرير ميلا واضحاًالى ال الزبير، يحقق له تقرباً منهم، حيث ينسق هذا مع رغبة قبيلته، ويخال ميل خصمه الفرزدق.

وإذا كانت هذه الأسباب هي التي دفعت جريراً إلى استثمار هذه القضية فان هذا لا يعني انه التزم بها بصدق تام، فميل المتلقى عصر ئذ إلى التمتع بما يورده الشعراء في نقائضهم، ابعدها عن دائرة الجد الخالص وادخلها في اطار المتعة الفنية التي استقطبت الناس، ولو كانت حقيقة لشهرت معها السيوف [٦]

وهكذا اتيح لجرير ان يستثمر التاريخ في اطاره العام، ويخضعه لتجربته الشخصية، ويعيد صياغته على وفق ما يحتاج إليه، تسانده في ذلك براعة فنية، امكنته من إعادة صياغة الحادثة وإظهارها بثوب فني جديد، وحققت له ما يريد من وقف مدّ الفرزدق في فخره بنفسه وآبائه، وعلى الرغم من هذا كلّه، ظل الفرزدق يتقدم عليه بالفخر، وان كان جرير قد بزه في الهجاء.

(٤) ينظر طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٦.

(٥) ينظر ديوان الفرزدق ٨٧٣.

(٦) ينظر العصر الإسلامي ٢٥٠ - ٢٥١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – طبقة بولاق.

٢. الأغاني – مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. وطبعة دار الفكر ١٩٨٦م.

٣. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) – الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف – مصر ١٩٧٩.

٤. التطور والتجديد في الشعر الأموي – د. شوقي ضيف. ط٢، دار المعارف – مصر ١٩٨٩م.

٥. جرير – حياته وشعره د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – مصر ١٩٦٨.

٦. جمهرة انساب العرب – ابن حزم الأندلسي – تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٢ – ١٣٨٢هـ.

٧. شرح ديوان جرير – تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي – مكتبة محمد حسين النوري، الشركة اللبنانية للكتاب – بيروت د. ت.

٨. ديوان الحادرة – تحقيق د. ناصر الدين الأسد – بيروت ١٩٧٣م.

٩. ديوان الفرزدق – دار صادر – بيروت – لبنان.

١٠. السخرية في الأدب العربي – د. نعمان محمد أمين طه – دار التوفيقية – مصر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

١١. الشعراء نقادا – د. عبد الجبار المطلبي – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط١ ١٩٨٦م.

١٢. الشعر والشعراء – ابن قتيبة – تحقيق وشرح احمد محمد شاكر – دار المعارف، مصر. د. ت.

١٣ .طبقات فحول الشعراء – ابن السلام الجمحي – تحقيق محمود محمد شاكر – مطبعة المدني – القاهرة. د. ت.
١٤ .العصر الإسلامي – د.شوقي ضيف – دار المعارف – مصر – ١٩٦٣م.
١٥ .العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي – تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
١٦ .العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط٤، دار الجيل – بيروت – لبنان ١٩٧٢.
١٧ .الكامل في التاريخ – ابن الأثير – تحقيق محمد يوسف الدقاق – ط١، دار الكتب العلمية بيروت – ١٩٨٧م.
١٨ .الكامل في اللغة والأدب – المبرد – مؤسسة المعارف – بيروت.
١٩ .مجمع الأمثال – الميداني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة / مصر ١٩٥٩م.
٢٠ .معجم ما استعجم – البكري – تحقيق مصطفى السقا – القاهرة ١٩٤٥ – ١٩٥١م.
٢١ .النقائض – أبو عبيدة – تحقيق بيفن – ليون ١٩٠٥ – ١٩٠٨.
٢٢ .نهاية الارب في فنون الأدب – النويري، مصورة عن طبعة دار الكتب.
٢٣ .الهجاء والهجاؤون في الجاهلية – د. محمد محمد حسين – ط٣، دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٠م.
وقعة صفين – نصر بن مزاحم المنقري – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط٢ – ١٣٨٢هـ المؤسسة العربية الحديثة – مطبعة المدني / القاهرة.

خصائص الاقتصاد العثماني خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر

الاستاذ المساعد الدكتور
طاهر يوسف الوائلي
جامعة الكوفة /كلية للتربية للبنات

بلغت الدولة العثمانية قمة مجدها العسكري ، وأتساعها الإقليمي ، وثرائها الاقتصادي خلال القرن السادس عشر . كما تكاملت تشكيلاتها الإدارية الاقتصادية والاجتماعية خلال الفترة ذاتها[1] إلا أن تطورها الاقتصادي أبان تفوقها كانت تحده ومنذ البداية حدود معينة[2] ، ويعود هذا في جزء منهُ إلى طبيعة النظام الاقتصادي العثماني ، الذي كان مستمداً عن تصور تقليدي للنظم الاقتصادية ، التي كانت سائدة في مجتمعات سبقت قيام الدولة العثمانية . وتبعاً إلى ذلك سعت الدولة إلى ممارسة سيطرة فعالة على جميع أنماط النشاط الاقتصادي في محاولة للحد من تراكم رأس المال ورعاية الإنتاج الحرفي[3] . وعلى ذلك لم يبلغ الاقتصاد حتى في فترة عنفوانهُ مستوى يتناسب مع مستوى الدولة العثمانية . بحيث بقيت القوة المحركة للتوسع العثماني عسكرية في طابعها[4] . مما يفسر لنا بالتالي هشاشة البنية ، التي كان يتسم بها الاقتصاد العثماني فلم يعد بإمكانهُ ، والحال هذا مواجهة التطورات الاقتصادية ، التي حدثت في غرب أوربا منذ أواخر القرن السادس عشر ، والتي أدت بالتالي إلى

تدهور النظام الاقتصادي للدولة العثمانية بأسره.

أن جانباً من هذا التدهور والانحلال ، يعزى إلى عوامل داخلية في نظام الحكم العثماني نفسهُ . وعوامل خارجية ترتبط بالمتغيرات ، التي حدثت في غرب القارة الأوربية ، والتي كان تأثيرها حاسماً في تدهور الوضع الاقتصادي للدولة العثمانية (٥) .بدأت أولى المتغيرات الخارجية على أثر قيام حركة الاستكشافات الجغرافية ، واستعمال طريق رأس الرجاء الصالح . وقد أدى هذا أولا : إلى تحويل طرق التجارة مؤقتاً من البحر المتوسط ، عبر أفريقيا ، وحرمان الدولة العثمانية من رسوم الترانسيت (المرور) . وثانياً : تدهور مدن مهمة كمراكز للصناعة والتجارة مثل حلب وبروسة . ثالثاً / أدى التحول في طرق التجارة إلى نشوء الاقتصاد الأطلسي ، وظهور نمط جديد من التجارة مما أدى إلى تدهور النظام الاقتصادي العثماني . ومع أهمية هذا العامل إلا إن تأثيره لم يظهر واضحاً إلا بعد مرور نحو قرنين على بدء الانحلال العثماني (٦) .

أما المتغير الثاني وهو الأشد تأثيراً ، فقد أبتدأ من عام ١٥٨٠ بسبب تدفق الفضة من الأمريكيتين على غرب أوربا ، والدولة العثمانية فيما بعد ، وكانت النسبة بين قيمة الذهب والفضة داخل الدولة العثمانية ، أدنى منها في غرب أوربا ، مما جعل عملية تصدير الفضة إليها أمرا مربحاً للتجار الأوربيين ، الذين كانوا يستبدلونها بالذهب . مما أدى إلى انخفاض سعر العملة الفضية العثمانية (الاقجه) . و ارتفاع الأسعار بشكل متصاعد(٧) . والمرجح إن الارتفاع في الأسعار في الدولة العثمانية – كما هو الحال في دول اوربا عموماً وخاصة في اسبانيا وانكلترا وفرنسا خلال تلك الفترة – قد نجم عن زيادة كمية النقود التي وردت الى هذهِ الدول من العالم الجديد ، ثم انتقلت منها الى الدولة العثمانية . ولم يكن بإمكان الاقتصاد العثماني مواجهة مثل هذه التطورات ، والارتقاء إلى مستوى الأسواق العالمية ، و لاسيما إن مواردهُ كانت مقتصرة على المواد الأولية ، وعدد محدد من المنتجات الحرفية (٨) . لذلك أصيبت الميزانية

العثمانية بعجز شبه مستمر ، ضاعفهُ ارتفاع تكاليف الصراع مع روسيا القيصرية ، و فارس ،(و الإمبراطورية الرومانية المقدسة) إلى الدرجة التي وصلت فيها مداخيل الخزينة العامة (٩) للدولة إلى مستوى قريب من الصفر (١٠) ، وكانت نتائج هذه الأزمة المالية زيادة نسبة الضرائب المفروضة على السكان ، والتي ألحقت الخراب بالطاقة الإنتاجية للاقتصاد الزراعي العثماني بعد هجرة أعداد كبيرة من الفلاحين لقراهم .

والى جانب نضوب المورد الأساسي للدولة وهو الزراعة ، تميز النظام الاقتصادي العثماني بظواهر أساسية ، منها عدم وجود ميزانية منظمة للدولة حتى عام ١٨٦١ وهو العام الذي نشرت أول ميزانية على النمط الأوربي الحديث (١١) . ناهيك عن انعدام دوائر الرقابة المالية ، وانتشار ظاهرة الفساد الإداري(١٢) .

ما أزفت سنوات القرن الثامن عشر بالانصرام حتى كانت الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة خطيرة من التدهور والانحطاط ، فالمؤسسة العسكرية (الانكشارية) أصابها التحلل وتحولت إلى عامل ضعف ، بعد أن كانت عماد قوة الدولة (١٣) بينما استمرت ظاهرة العجز شبه الدائم في الميزانية العامة ، باستمرار مصادر استنزافها (١٤). ويعني هذا إن اغلب الاتجاهات والسمات التي اتصف بها الاقتصاد العثماني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر قد استمرت خلال القرن التاسع عشر ، فضلاً عن ظواهر أخرى فرضتها متغيرات الوضع السياسي والاقتصادي العالمي .

وفي الحقيقة إن ابرز ظاهرتين أساسيتين ، امتاز بهما الاقتصاد العثماني خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر أولهما : تغير ميزان القوى لصالح الحكومة المركزية في صراعها مع أعيان الأقاليم * فبعد أن كان القرنان السابع عشر والثامن عشر يمثلان أوج قوة الأعيان شهدت العقود الأولى من القرن التاسع عشر تدهوراً سريعاً في نفوذهم السياسي والاقتصادي . وخلال العشرينات والثلاثينات من ذلك القرن صودرت العديد من ممتلكاتهم وبذلت

الدولة محاولات جديدة للسيطرة على جباية الضرائب وكان هذا الاتجاه يتماشى مع إعادة المركزية في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٩-١٨٣٩)[١٥] . وخلال الأربعينات من ذلك القرن تمكنت الحكومة من تقويض قوى الأعيان ، بدعم سياسي وعسكري أجنبي عندما تدخلت بريطانيا لصالح الدولة العثمانية في صراعها مع والـي مصر القوي محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨). وكان هذا التحول في صالح الحكومة المركزية التي حاولت أضعاف وتقويض قوى الأعيان من جهة وخلق مجال للمناورة باستخدام قوة أوربية ضد أخرى . وبالمقابل كان من مصلحة الدول الأوربية الكبرى والرأسمال الأوربي ، التوصل إلى تفاهم أو اتفاق مع الحكومة المركزية وصولاً إلى تحقيق عملية اندماج الاقتصاد العثماني بالسوق العالمية[١٦]

أما الظاهرة الثانية التي امتاز بها تاريخ الاقتصاد العثماني بدءاً بالعقد الثاني من القرن التاسع عشر فهي عملية التوسع في التبادل التجاري العثماني مع الخارج في ظل السيطرة البريطانية أو ما يمكن تسميتها (عملية التغلغل الأولي للرأسمال الأجنبي في الاقتصاد العثماني) . والتي كانت الشكل الأول لعملية التغلغل الرأسمالي الواسع والسيطرة الأوربية على الاقتصاد العثماني بعد النصف الثاني من ذلك القرن[١٧] .

لقد حولت الثورة الصناعية اقتصاديات بريطانيا ومن ثم أوربا الغربية إلى منتجين كبار للسلع الرخيصة . وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر حاولت الدول الأوربية الصناعية الرائدة إيجاد أسواق لسلعها المنتجة من جهة وتأمين مصادر وفيرة ورخيصة للمواد الغذائية والأولية من جهة أخرى . وأصبحت بريطانيا بعد الحروب النابليونية محتكرة للأسواق العالمية . وتحولت على نحو متزايد باتجاه الأسواق الخارجية ومنها السوق العثماني .

وأثناء الفترة ذاتها ازدادت التجارة الأجنبية مع الدولة العثمانية بنسب لا مثيل لها من قبل فخلال الأعوام (١٨١٦-١٨٢٢) بلغت قيمة الصادرات

البريطانية إلى الدولة العثمانية نحو (٧٦٤,٠٠٠ ليرة عثمانية) [١٨] وارتفعت عام ١٨٢٩ إلى (٣,٦٧٤,٠٠٠ ليرة عثمانية) . وخلال أربعينات القرن التاسع عشر وحتى عام ١٨٥٣ كانت الصادرات البريطانية بازدياد مضطرد [١٩] . وفي الوقت الذي ازدادت فيه نسبة التجارة الأجنبية مع الدولة العثمانية تدهورت الصناعة الحرفية العثمانية بسبب المنافسة الأجنبية وبالأخص في حقل الصناعة النسيجية [٢٠] . ولان الرأسمال الأوربي قد بدا بالتوسع لم تعد هنالك حاجة للاعتماد على المنتجات الحرفية العثمانية ، وأصبح بإمكان الاقتصاد الأوربي الذي يتمتع بشروط (الامتيازات الأجنبية Capitiulation) * في الدولة العثمانية – احداث تغير كبير في التجارة الدولية [٢١] .

إن عملية التوسع البريطاني في التبادل التجاري البريطاني – العثماني يمكن ملاحظتها في التغير الذي طرأ في عملية الصادرات بين بريطانيا والدولة العثمانية . فبينما كانت بريطانيا تستورد المواد الخام اللازمة لصناعة الأنسجة ، أصبحت مصدرة لأجود وارخص الصناعات النسيجية . فعلى سبيل المثال بلغت قيمة صادرات الأنسجة القطنية البريطانية إلى الدولة العثمانية (١٠٨٣٤ جنيه إسترليني) عام ١٨٢٨ ، وارتفعت إلى (٣٩٩٢٠ جنيه) عام ١٨٢٩ والى (٩٥٣٥٥ جنيه) عام ١٨٣٠ ثم (١٠٥٦١٥ جنيه) عام ١٨٣٩ . أي بزيادة قدرها عشرة أضعاف في أعوام فقط [٢٢] . وبعد توقيع معاهدة التجارة البريطانية العثمانية في الثامن عشر من آب ١٨٣٨ [٢٣] ازدادت عملية اختراق الرأسمال البريطاني خاصة والأوربي عامة للاقتصاد العثماني ، فقد نصت هذه المعاهدة على حظر جميع أنواع الاحتكارات في الدولة العثمانية والسماح للتجار البريطانيين بشراء السلع من أي مكان فيها دون دفع أي ضرائب عدا رسوم الصادرات والواردات أو ما يعادلها من رسوم داخلية و تحديد نسبة الرسوم المفروضة على الواردات والصادرات العثمانية بـ ٣٪ و١٢٪ على التوالي [٢٤] وقد كانت هذه المعاهدة موجهة أساساً ضد الاحتكارات التي أقامها محمد

علي باشا في مصر وسياستهُ التجارية الرامية إلى تشجيع الصادرات وتقييد الواردات [٢٥] على عكس ما كانت تنتهجه الحكومة العثمانية . لذلك ينبغي تفسير هذه المعاهدة كجزء من الجهود البريطانية على المستوى العالمي بأكمله ، وكترتيب يستهدف تسهيل انفتاح الاقتصادي العثماني أمام التجارة الأجنبية[٢٦] . حيث تلتها معاهدات أخرى جرى توقيعها بين الدولة العثمانية وفرنسا (تشرين الثاني ١٨٣٨) بروسيا (١٨ مايس ١٨٣٩) سار دينيا (٣ أيلول ١٩٣٩)، السويد والنرويج (٣١ كانون الثاني ١٨٤٠)، بلجيكا (٣٠ نيسان ١٨٤٠)[٢٧] .

لقد كان من نتائج هذه المعاهدات إغراق السوق العثمانية بالبضائع الأوربية مما نتج عنهُ انهيار غالبية الصناعات الحرفية العثمانية [٢٨] ، وتحويل البلاد إلى سوق للبضائع الأوربية ومصدر للمواد الخام اللازمة للصناعات الأوربية ،وبعد توقيع المعاهدة التجارية البريطانية العثمانية أخذت الصادرات البريطانية بالارتفاع . فخلال الأعوام ١٨٣٩-١٨٥٥ ارتفعت صادرات الأنسجة القطنية من (١٥،٨٤٦،٦٧٨ م) إلى (١٢١،٢٥٤،٤٣٩ م) استيرادات الأنسجة الحريرية ارتفعت من (٢٠٨٩٨ كغم) إلى (٨١،٢٨٦ كغم) . استيرادات الأنسجة الكتانية ارتفعت من (٣٣٨٠٧ كغم) إلى (١٤٨. ٥٩٩ كغم) . استيرادات الأنسجة الصوفية ارتفعت من (٥٢٨١٩ كغم) إلى (٩٠٦،٦٠٢ كغم) [٢٩] ، مقابل انخفاض حاد في نسبة الصادرات العثمانية . مما انتج عنهُ تدهور غالبية الصناعات النسيجية . فعلى سبيل المثال انخفض عدد الأنوال في ألبانيا من (٦٠٠ نول) عام ١٨١٢ إلى (٤ أنوال) عام ١٨٢١ . في تيرنوفا من (٢٠٠٠ نول) في العام نفسهِ إلى (٢٠٠ نول) عام ١٨٣٠ في بروسه من (١٠٠٠ نول) إلى (٧٥ نول)[٣٠] مع انخفاض الأنسجة الخام والتي أدت بدورها إلى انخفاض الإنتاج في مدن أخرى مثل اسكودار وانقرة ، ودمشق وأسطنبول وديار بكر ، وحلب [٣١] . ولم تقتصر عملية تدهور الصناعة الحرفية العثمانية على الصناعات

النسيجية . فقد تعرضت جميع فروع الصناعة العثمانية إلى وضع مماثل خلال العقود التي تلت منتصف القرن التاسع عشر (٣٢) . عندما تحققت عملية اندماج الاقتصاد العثماني بالرأسمال الأوربي ، حيث تحولت الدولة إلى شبه مستعمرة أمام تغلغل الرأسمال الأوربي .

ولوقف هذا التدهور والانحلال بدا قادة وسلاطين الدولة العثمانية ومنذ وقت مبكر بذل محاولات لا صلاح نظم الدولة بالاستفادة من التقدم الأوربي . وتعد محاولة السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) من ابرز المحاولات جدية في هذا المجال (٣٣) بيد إن تركيزهُ على الإصلاح العسكري كوسيلة لوقف انحطاط الدولة ، قد أدى بالنتيجة إلى إفراغ عملية التحديث من محتواها . ولم تتوفر جهود عامة لتحديث الاقتصاد والمجتمع . لذلك ازدادت نسبة التضخم بسبب انخفاض قيمة العملة العثمانية وارتفاع نفقات الحكومة ورجال القصر والحريم وكان غياب الميزانية سبباً في حدوث فوضى اقتصادية ، حيث ينفق موظفو الدولة كيفما شاءوا دون رقابة تذكر (٣٤) وفي النهاية أجهضت إجراءات السلطان بخلعهِ على يد الانكشارية عام ١٨٠٧ ثم قتلهُ فيما بعد لتبدأ مرحلة أكثر شمولية من سابقتها .

تكتسب إصلاحات السلطان محمود الثاني أهمية خاصة ، فقد جاءت في مرحلة تاريخية معقدة من حياة الدولة العثمانية ،كما تزامنت مع تطورات مهمة شهدها الاقتصاد الأوربي والعثماني .

بدأ السلطان إجراءاته لإصلاح الجهاز الإداري والاقتصادي بعد تصفية الانكشارية في السادس والعشرين من حزيران ١٨٢٦ . فأمر عام ١٨٣١ بإلغاء نظام الإقطاعيات و إعادة ملكية الأرض للدولة . كما أمر بمسح الأراضي وتقدير الضرائب والسيطرة على أسلوب جبايتها . واسترجاع أراضي الأوقاف وربطها رسمياً بخزينة الدولة . ثم اتخذ عدداً من الإجراءات الأخرى بهدف تحسين الإنتاج الزراعي والصناعي وبناء الطرق و إصلاح الموانئ وإنشاء

دور ضرب العملة ... وغيرها [٣٥] . كما ظهرت في عهدهِ أول ميزانية للدولة رغم كونها بعيدة عن السيطرة على إدارة الإيرادات والنفقات . ولم ينشر منها سوى الإيرادات [٣٦] .ولهذا تعد هذه الإجراءات جريئة إذا ما قيست بالعهد الذي ظهرت فيهِ بيد إن الآثار السلبية التي تركتها على الاقتصاد العثماني كانت كبيرة للغاية فعلى الرغم من قضاء السلطان على اخطر عقبة اعترضت عملية الإصلاح (الانكشارية) . إلا إن هنالك عقبة كان على السلطان إدراكها إلا وهي البناء الاجتماعي – الاقتصادي المتخلف للمجتمع العثماني عموماً . فبالرغم من إن الجيش الجديد الذي حل محل الانكشارية قد نظمت تشكيلاتهُ على النمط الأوربي وتحديداً النابليوني . إلا أن التجنيد كان فيهِ عبودياً ، حيث حددت مدتهُ باثني عشر سنة ، و لم تؤخذ الاعتبارات المحلية فيها بنظر الاعتبار . فالاقتصاد العثماني اقتصاد زراعي قائم على إنتاج القرية وعاجز عن إحداث تراكم في راس المال ،ولا يمكنه بناء صناعة متطورة أو الاحتفاظ بجيش قوي [٣٧] .

ومن جانب آخر فقد تركت إصلاحات السلطان آثار سلبية بعيدة المدى على الاقتصاد العثماني ، حيث أدت فداحة الضرائب المفروضة على الفلاحين إلى إلحاق الخراب بالطاقة الإنتاجية للاقتصاد الزراعي العثماني ،وهجرة العديد من الفلاحين وتزايد الأراضي البور ، وتفجر الاضطرابات الشعبية التي جرى إخمادها بقسوة [٣٨] .

وبذلك يتضح إن العصر الذي تم فيهِ إدخال النظم الاقتصادية لم يكن عهد ثبات واستقرار في اقتصاد الدولة . وكانت محاولة إدخال النظم المالية الجديدة أمرا صعباً جداً . بسبب سيادة الطابع العسكري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وتزايد الضغط الخارجي في النصف الثاني منهُ [٣٩] . ويعتبر هبوط قيمة العملة العثمانية خلال هذه الفترة دليلاً على تدهور الوضع الاقتصادي للدولة .كما يلاحظ على إصلاحات السلطان أيضا نسبة الأموال الكبيرة التي

تم إنفاقها على الجانب العسكري ولم يخصص للمشاريع الاقتصادية الأخرى إلا القليل [40] فضلاً عن أن الدولة لم تبذل جهداً يذكر لرفع مستوى رعاياها إلى حياة افضل أو تمهد الطريق لتحولات اجتماعية واقتصادية اكثر عمقاً .فاقتصرت تلك الإصلاحات على المراسيم . أما التنظيمات الرسمية ، فقد اتخذت صيغة مظهرية لم يكتب لها النجاح على هذا النحو [41] . واتضح بان ولاة السلطان وموظفيه كانوا اكثر ظلماً من الأعيان الذين سبقوهم [42].

بعد وفاة السلطان محمود الثاني دخلت الدولة العثمانية في طور التجديد من الإصلاحات عرفت باسم (التنظيمات الخيرية Tanzimat) وقد عالجت في لوائح ومراسيم مختلفة جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متعددة في الدولة العثمانية .

صدر أول مرسوم للإصلاح في سلسلة تلك التنظيمات في الثالث من تشرين الأول ١٨٣٩ وعرف باسم ((خط شريف كولخانة)) وذلك في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) . وقد تضمن هذا المرسوم اثنا عشر بند مختلفاً لعل ابرز ما جاء فيها في المجال الاقتصادي هو اعتراف الدولة بمساوئ نظام الالتزام وآثارهُ المدمرة على الاقتصاد الزراعي العثماني لذلك أعلن المرسوم بان الضرائب سيجرى توزيعها بصورة عادلة على جميع رعايا الدولة . وتعهد من جانب آخر بتحديد مدة الخدمة العسكرية منعاً للتدهور الحاصل في الزراعة ، كما تضمن المرسوم وعداً من الإصلاح الإداري والاقتصادي والقضاء على الرشوة عن طريق دفع الرواتب والأجور بانتظام [43] .ولكن بالرغم من اعتراف الدولة بمساوئ نظام الالتزام وآثارهُ السلبية . ألا أنها عجزت عن إيجاد بديل لهُ مما أدى إلى استمراره. فكان سبباً مباشراً في الخراب الذي حل بالاقتصاد الزراعي العثماني [44] . ولذلك يتضح إن هذه الإصلاحات كانت إصلاحات مظهرية لم يكن هدفها إصلاح الوضع الاقتصادي المتدهور بقدر ما كانت تستهدف رفع عوائد الخزينة العامة للدولة لمواجهة متطلبات الإصلاح

العسكري . وبقيت هذهِ الإصلاحات بعيدة عما حدث في أوربا من تطورات اقتصادية مهمة لذلك يمكن القول بان عملية تحديث الاقتصاد العثماني بما ينسجم والتطورات التي شهدتها أوربا قد جاءت متأخرة قياساً إلى دول ومجتمعات أخرى (٤٥) . ولم تأخذ هذهِ العملية مداها الأوسع إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر وبضغط من الدول الأوربية التي وجهت عملية الإصلاحات بما يتفق وتطلعات الرأسمال الأوربي الذي بدأ يتغلغل في الدولة على نطاق واسع بعد هذا التاريخ .

الإحالات والملاحظات

(١) للتعرف على طبيعة النظم العثمانية انظر :

Lybyer, A .H, The Government of the Ottoman Empire, (New York , ١٩٦٦);

جب ، هاملتون ، و بوون، هارولد ، المجتمع الإسلامي والغرب ، جزأن ، ترجمة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ،(دار المعارف ، القاهرة ،١٩٧١).

(٢) اندرسون بيري ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ،(دار الحداثة ، بيروت ، ط١، ١٩٨٢)، ص٢٥ .

(٣) للتفاصيل عن طبيعة النظام الاقتصادي العثماني انظر :

Inalcik, H, "Capital Formation in the Ottoman Empirn" , The Journal of Economic History , Vol. xix , pp.٩٧-١٤٠

(٤) اندرسون المصدر السابق ، ص٢٤ .

(٥) Inalcik, H, The Ottoman Empire : Conquest , Organization and Economy . Collected Studies , (London , ١٩٧٨), pp .٣٣٨-٤٢ Vucinich Wayne .S, The Otto an Empire , It's Record and Le gasy , (New york , ١٩٦٥) , pp.٧٨-٩٠ .

(٦) جب وبوون ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٤٤ : اسلاموجلو ،هوري ، وكيدر ساجلار،" قراءة جديدة للتاريخ العثماني" ، في : نوبار هوفسبيان (المحرر) وفيروز احمد وآخرون ، تركيا بين الصفوة البيروقراطية والحكم العسكري . (مؤسسة الأبحاث العربية ، ط١ ، بيروت ،١٩٨٥)، ص٨٥ .

Inalcik, H. The Ottoman Empire, The Classical Age ١٣٠٠- ١٦٠٠ (London,١٩٧٣) (٧) pp.٩٦ –٧

هرشلاغ ، ز.ي ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني، (دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣)، ص١٤ ، اندرسون ، المصدر السابق ، ص٣٠ .

(٨) هرشلاغ ، المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٩) كانت للدولة العثمانية خزينتين : الأولى هي الخزينة العامة والثانية هي الخزينة الخاصة أو خزينة السلطان التي كانت تستأثر بمداخيل مالية مهمة. وهو ما شكل عبأً غير يسير على الميزانية العامة في ظل الإسراف المفرط لمعظم السلاطين العثمانيين. ولم يتم تحديد ميزانية السلطان إلا في أيلول عام ١٨٥٥ بمبلغ (١٢,٠٠٠,٠٠٠ مليون قرش) أو نحو (مليون جنيه إسترليني). انظر : الساحلي ،خليل، " سنو الازدلاف أو الأزمات المالية في الإمبراطورية العثمانية "، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٣ ، تموز ١٩٧٨ ، ص ٧٢-٧٣ .

(١٠) الساحلي ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(١١) هرشلاغ ، المصدر السابق ، ص ٧٢-٧٣ .

(١٢) مراد،خليل علي ، " تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية ١٨٥٤ – ١٩١٤ "، دراسات تركية ، جامعة الموصل ، العدد الثاني ، كانون الثاني ١٩٩١، ص ١٣٤-١٣٥ .

(١٣) حول دور الانكشارية في التدهور العثماني انظر :
نورس،علاء موسى كاظم ، " مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٢ ، ١٩٨٢ .

(١٤) مراد ، المصدر السابق ،ص ١٣٤-١٣٥

× خاضت الدولة العثمانية وخلال عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) صراعاً مريراً مع أعيان الأقاليم في الأناضول والبلقان بعد تحديهم سلطة الحكومة المركزية . ورغم النجاحات التي حققتها قوات السلطان إلا إن المشاكل الداخلية والغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ أرغمت السلطان على عقد الصلح معهم . للمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين أعيان الأقاليم والحكومة المركزية انظر: مصطفى، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ

العثماني ، (دار الشرق ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢) ، ص ١٨١-١٨٤ .

Pamuk Sevket ,;Ottoman Empire and European Capitalism , (Cambridge (١٥) University Press , ١٩٨٧) ,pp.٨-٩.

(١٦) Ibid , P.٩ .

(١٧) I bid , P.١١ .

(١٨) Issawi ,Charles , "The Ottoman Empire in the world Economy ١٦٠٠-١٩١٤ ," in: Karapat, H. Kemal , (ed); The Ottoman state and It's Place in the world History , (Leden , ١٩٧٤) , p.١١٥

(١٩) أ.د. نوفيجيف ، تاريخ تركيا ، عصر التحديث ، الجزء الثاني (١٨٣٩-١٨٥٣) باللغة الروسية (جامعة لينينغراد، ١٩٧٣) ، ص ١٥٨ .

(٢٠) Pamuk , Op .cit., P.١١.

× تعود الامتيازات الأجنبية في نشأتها إلى عام ١٥٣٥ عندما منح السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ –١٥٦٦) الملك الفرنسي فرانسوا الأول (١٥١٥ – ١٥٤٧) بموجب المعاهدة المعقودة بينهما مجموعة من الامتيازات الدينية والقانونية والتجارية . وبنهاية القرن الثامن عشر حصلت معظم الدول الأوربية على نفس الامتيازات ، ثم تبعتها الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨١٨ . وقد تحولت هذه الامتيازات إلى أهم أداة لتغلغل المصالح الأجنبية في الدولة العثمانية . للتفاصيل عن نشأة الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية انظر : سوسة، نسيم ، التعليل التاريخي لمنشأ الامتيازات الأجنبية الخاصة في الإمبراطورية العثمانية ،(مطبعة الجمعية الخيرية ، بغداد ، د.ت).

(٢١) بيروكلو، بيرج بيير ، تركيا في أزمة من رأسمالية الدولة إلى استعمار الجديد ، ترجمة مركز البحوث والمعلومات ، (لندن ، ١٩٨٥) ،ص ٤ .

(٢٢) Sark, O.C,"Ottoman Indsturial Policy ١٨٤٠ –١٩١٤"in: Issawi Charles ., (ed) ; The Economic Histiry of the Midlle East ١٨٠٠-١٩١٤ , (University of Chicago Press , ١٩٦٦), P.٤٩.

(٢٣) انظر عن هذه المعاهدة :

Lssawi ,Charles ., The Economic History of the Midlle East , ١٨٠٠-١٩١٤), (University of Chicago Press , ١٩٦٦), , pp.٣٩-٤٠ .

(٢٤) عيساوي ،شارل ، التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ترجمة سعد رحمي ، (دار الحداثة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٥) ،ص٣٧ .

(٢٥)المصدر نفسهُ ،ص٣٨-٣٩ .

(٢٦) Pamuk , op .cit ., p.١١.

(٢٧) علي ،أحمد ، التطور الاقتصادي في تركيا ، ترجمة مركز البحوث والمعلومات ،(باريس ،١٩٨١) ،ص١٨ .

(٢٨) Ubicine ,M.A., Letters on Turkey , Translated From Franch by Lady Easthope , (London , ١٨٧٦) , p٣٣٩ .

(٢٩) Baily,F.E, British policy and the Turkish Reform Movement , (Harfard , ١٩٤٢), Table No. ٣،٥،٦،٧ .

(٣٠) هرشلاغ ، المصدر السابق ،ص٩٥ Sark,op, cit.,pp.٤٩-٥٠ .

(٣١) بيروكلو ، المصدر السابق ، ص٦ . Ubicine , op.cit ., p.٣٣٩ .

(٣٢) بيروكلو المصدر السابق ، ص٦

(٣٣) زيادة ،خالد ، اكتشاف التقدم الأوربي ، دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر ،(بيروت ، ١٩٨١)، ص١٨-٣١ .

(٣٤)مصطفى ، المصدر السابق ،ص١٨١ .

(٣٥)انظر : تفاصيل هذهِ الإصلاحات في : البحراوي ،محمد عبد اللطيف ،حركة الإصلاح العثماني في عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٩-١٨٣٩ ، (مطابع المختار الإسلامي ، دار السلام ، ١٩٧٨) ،ص٢٢٨-٢٢٣.

(٣٦)المصدر نفسهُ، ص٢٧١ .

(٣٧)هرشلاغ ، المصدر السابق ،ص٤١ .

(٣٨)المصدر نفسهُ .

(٣٩)البحراوي ، المصدر السابق ،ص٢٦٨-٢٧٠ .

(٤٠)المصدر نفسهُ ، ص٢٦٩ .

(٤١)هرشلاغ ، المصدر السابق ،ص٤٣ .

(٤٢)اندرسون ، المصدر السابق ، ص٣٩ .

(٤٣) جحا، شفيق ، " التنظيمات أو حركة الإصلاح في الدولة العثمانية ١٨٣٩-١٨٧٦ " ، مجلة الأبحاث بيروت، الجزء ٢١ ، حزيران ١٩٦٥ .

(٤٤)مراد ، المصدر السابق ،ص١٣٥ .

(٤٥) الجميل ،سيار كوكب ، " تحديث الاقتصاديات العثمانية دراسة في فهم طبيعة المشاكل الاقتصادية التركية خلال القرن التاسع عشر " دراسات تركية ، جامعة الموصل ، العدد ، كانون الثاني ١٩٩١ ، ص٧٧-٧٨.

بدل إخلاء العين المؤجرة
((السرقفلية))
دراسة فقهية مقارنة

الأستاذ المساعد الدكتور
صاحب محمد حسين نصار

بسمه تعالى

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد واله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

المقدمة

يعد بدل إخلاء العين المؤجرة (السرقفلية)من الموضوعات المهمة والاساسية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتأتي أهميته من خلال التعامل المستمر فيها للمحال التجارية وغيرها بعد التطور التجاري الذي شهده العالم بصورة عامة ،ولكثرة الشُبه التي تحوم حول أوجه التعامل به، والتي تكون أما من المالك أو المستأجر؛ لذا ارتأت ان استعرضها دفعا للأشكالات الفقهية الشرعية وأن اورد بعض المسائل التي تخص هذا التعامل المستجد نتيجة الظروف القانونية المستحدثة،بغية ان لا تؤدي بعض الأوجه إلى التعامل المحرم وغير الجائز شرعا .

إن مسائل((بدل الأخلاء))أو بيع المنافذ المشتراة هو أحد مفردات موضوع (الاجارة)التي ينضوي ضمن مفرداته،والملاحظ انه لم تتعرض له كتب الفقه الخاصة والموسوعية منذ عصر الرسالة حتى برزت بصورة واضحة وبمجال

أوسع في الآونة الأخيرة في القرن العشرين الميلادي ،القرن الثالث عشر الهجري،عدا بعض المسائل البسيطة جدا التي برزت في القرن العاشر الهجري في مصر ،علما بأن مسائله ومباحثه

تنصب على المحلات التجارية واحيانا قليلة تشمل مسائل أخرى تخص الدور والمسارح ذات الملكية الخاصة وما شابه ذلك .

ومن الجدير بالذكر انه ثبت في الشريعة الإسلامية بأنه(ما من واقعة إلاّ لله وفيها حكم)[1]

لذلك كان لكل مسالة وقضية حكمها الخاص على الصعيد الفقهي بمختلف مفرداته وحيثياته .

وقد حاولت جاهدا ان أكون اكثر استيعابا لاراء فقهاء المذاهب الإسلامية حتى يكون البحث أوسع شمولية ودقة واستعراضا لاراء علماء المسلمين وفقهائهم ليعطي للبحث بعدا علميا رصينا،وهذا يتطلب استقراء ومراجعة لكل ما يتصل بالموضوع فقهيا بغية التوصل إلى الرأي السليم السديد والقول المصيب ،على الرغم من صعوبة الموضوع لكونه جديدا ومستحدثا عرضا وعملا ،وتكمن هذه الصعوبة في جدة الموضوع وحداثته لذا يجب الأحاطة التامة بالموضوع والتعمق والتأكد ويواكب هذه الصعوبة تعذر الحصول على المصادر الكافية الجديدة التي تتحدث عن الموضوع سوى بعض الإشارات البسيطة لبعض المسائل المشابهة لها والتعرض لها من قبل الفقهاء المعاصرين مما لا يتجاوز بعض الصفحات القليلة جدا ،أما على صعيد الدراسات الأكاديمية ،فلم أجد حسب علمي دراسة متكاملة سوى بحث المؤتمر المنعقد في جدة عام ١٩٨٨ م بخصوص الموضوع ولم أوفق للحصول على هذه البحوث على الرغم من

---

(١) الوسائل- محمد ابن الحسن الحر العاملي١٣١/١٨ كتاب القضاء

التفتيش عنها عدا بعض الإشارات عنه في بعض المجلات العلمية وذكر قسم من أساتذة الشريعة لها.

وقد انتظم البحث كالآتي وهو بيان حقيقة وماهية المعنى اللغوي الأصطلاحي له ومن ثم عرجت على الأستعراض للمسار التاريخي وبداية العمل به.

وبعد ذلك أوضحت أدلة مشروعية العمل به،وبعدها حاولت بيان أوجه التعامل بالعين المؤجرة من خلال(بدل الأخلاء) وابرز مسائله،ثم قمت بذكر أهم آرىء فقهاء المذاهب الإسلامية بهذا الشأن،ومن ثم أوردت ابرز الشروط المعتمدة والتي هي في نفس الوقت ضوابط للعمل به.

وأخيرا أوضحت أبرز النتائج التي ختمت البحث وتوصلت إليها ساردا بعدها أهم المصادر والمراجع المعتمدة.

أرجو من الله العلي القدير أن أوفق في أعطاء الموضوع حقه ولو بجزء يسير خدمة لشريعة المصطفى الغراء.

انه نعم المولى ونعم النصير.

حقيقة ومفهوم بدل الاخلاء لغة واصطلاحا

ولتوضيح الحقيقة اللغوية والاصطلاحية لمفهوم بدل الإخلاء ينتظم المبحث كالآتي:

أولا: المعنى اللغوي للخلو : ـ الخُلو بضم الخاء :المصدر إخلاء،والخلوة الاسم والخلو

بكسر الخاء الفارغ البال من الهموم،أو المنفرد ويقال:خلا المكان والشيء يخلو خلواً أو خلاء

وكذلك أخال لكذا تركه ،وأخل بالمكان تركه ،وخلو أو إخلاء فهو خال فهو من مادة (خلا)خلوا وخلاءً الإناء :فرغ (وخلا المكان):رَحَلَ

ساكنوه...واخلاء المكان:جعله أو وجده خاليا [١] هذه وغيرها لكثير معان لغوية لكلمة (خُلو)وقد حاولت الاقتصار على بعضها.

ثانيا :المعنى الاصطلاحي للخلو :أي باصطلاح الفقهاء

وهو(أخذ مقدار من المال بأزاء المالك أو المستأجر حق إيجار العين إلى أي شخص شاء في أية أراد أو بأية قيمة توافقا عليها)[٢] وسمي بالخلو لأنه(مأ من تخلية اليد إلى الغير)[٣]

وبدل الإخلاء (السرقفلية)هي اصطلاح سوقي وفكرتها أخذ المال لأجل تمكين آخر ان (يقفل)المكان له أو يحجزه لاستعماله ومن هنا سميت (السرقفلية) ومن المعلوم أن حق إغلاق المكان أو أقفاله إنما يكون لصاحب اليد .فبذلك يكون المعنى :أن المال مأخوذ لتبديل اليد،يعني التخلية من قبل الآخذ للمال والاشتغال من قبل دافعه.[٤]

نرى مما تقدم وغيره الكثير من التعاريف الاصطلاحية الشرعية أن المراد من ((بدل الاخلاء))اصطلاحا هو :(إسم للمنفعة الشتراة) و هذا يعني جواز بيع المنافع منفردة عن الأعيان و عليه لا فرق جوهريا بين الخلو وبيع مالك المنفعة (منافع العين)فان بدل ((الاخلاء)) الخلو هو إسم للمنافع المشتراة أما ما

---

(١) لسان العرب: ابن منظوردار صادر ،بيروت،عام ١٩٥٥ م ١٤ /٢٣٧

المصباح المنير :احمد بن علي الفيومي،المطبعه الميمنية ،مصطفى البابي ،مصر(ب ت ط) ٨٨/١

المنجد :لويس معلوف اليسوعي ،المطبعة الكاثوليكية،بيروت (ب ت ط)ص ١٩٤

(٢) المسائل المستحدثة:محمد صادق الوحاني الحسيني/مطبعة دارالفكر إيران ط١ ١٣٨٤ه ١ /١٨

(٣)بحوث فقهية:عز الدين بحر العلوم/مطبعة الآداب ،النجف الأشرف ط١ ١٩٦٤ م ص ١١٩ .

(٤) ما وراء الفقه :محمد الصدر ،مطبعة القضاء ،النجف الأشرف ط١ ١٩٥٥ م ٣٩٨/٤ .

شاع بين الناس ببدل الخلو ففيه مسامحة .

ولتأييد وتأكيد ما أوردته بشأن المنفعة المشتراة فقد أوضح القرافي ذلك بصورة تامة وواضحة من خلال بيانه ل(تمليك المنفعة)فقد ذكر ما نصه :- هي(عبارة عن الأذن للشخص في أن يباشر هو بنفسه أو يمكن غيره من الانتفاع بعوض كالاجارة وبغير عوض كالعارية كمن استأجر دارا أو استعارها فله أن يؤاجرها ،من غيره أو يسكنه بغير عوض وأن يتصرف في هذه المنفعة تصرف الملاك في أملاكهم على جري العادة على الوجه الذى ملكه فهو تمليك مطلق في زمن خاص حسب تناوله عقد الاجارة أو شهدت به العادة في العارية بمدة كانت له تلك المدة ملكا على الإطلاق يتصرف كيف يشاء بجميع الأنواع السائغة في التصرف في المنفعة في تلك المدة ويكون تمليك هذه المنفعة كتمليك الرقاب)[١]

فان إطلاق (تصرفا في تلك المنفعة)هو إطلاق عرفي اكثر مما يكون شرعيا فهو تخلية للعين المؤجرة ولكن في الفقه الإسلامي هو تصرف في المنافع المؤجرة وأن جواز التصرف بالعين المستأجرة سواء أكانت دكانا أم دارا أم فندقا أم مسرحا خاصا وما شابه ذلك كون ذلك التصرف تصرفا في المنفعة المملوكة لا في العين المؤجرة و سأدرج أدناه ما أوضحه صاحب كتاب الإجارة بهذا الخصوص بما نصه:-

(إن اللازم في باب الإجارة يمكن المستأجر من إستيفاء المنفعة لا التسليط على العين)[٢]

---

(١) الفروق:القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أدريس/دار إحياء الكتب العربية،مكة المكرمة ط١ ١٣٤٤ ه

(٢) كتاب الإجارة :محمد حسين الأصفهاني ،مطبعة النعمان،النجف الأشرف ط١ ١٩٥٦ م ص ٣٥ .

وتأكيدا لذلك ما اورده ابن عابدين بشأن تمليك المنافع وهو :(تمليك المنافع بعوض)[1]

من خلال بيان تعريف الإجازة.

عرض للمسار التاريخي للعمل ببدل الإخلاء:

اشتهر تسمية بدل الإخلاء بالسرقفلية عرفا وهي كلمة غير عربية ترمز إلى ما تعارف عليه الناس في ذلك الوقت من أخذ مقدار من المال بأزاء تفويض المالك أو المستأجر الأول حق إيجار العين إلى شخص شاء في أية مدة أراد و بأية قيمة توافقا عليها .و يطلق عليها بالعُرف العراقي بالسرقفلية ،وتعرف لدى العرف المصري ب(خلو رجل)وفي لبنان(بالخلو)،و(الجلسة والإنزال)في عرف المغرب العربي .

تاريخه

إن السرقفلية نشأت في وقت متأخر نسبيا ،وهي من الاعتبارات العرفية القائمة فعلا ،ويبدو من خلال مراجعة مصادر عدة بهذا الخصوص إن السبب في نشوءها حيث كانت في بدايتها أسلوبا للحصول على مبالغ أعلى للإيجار من المبالغ السابقة بعد غلاء الأسعار ،وكان أصحاب العقارات والأملاك لا يستطيعون زيادة الأسعار ،لأن القانون لا يكون بجانبهم فأختارو طريقا آخر وهو طريق المؤجرين فأتفق المالك مع المستأجر لتأجير العين المؤجرة حتى يستطيع المالك أن يزيد نسبة المبالغ و بعد ذلك تطورت هذه الحالة حتى وصلت إلى ما نراه الآن .

---

(١) حاشية ابن عابدين :أبن عابدين ٢/٥ .

وقد وردت قوانين عدة في باب الإجارة وهي أنه ليس للمالك المؤجر إخراج الستأجر وأخذ العين المستأجرة منه بعد انقضاء الإجارة و لا أن يزيد في كرائها خلافا للقانون .فأضطر ملاك الأماكن من الدكاكين والفنادق والمنازل و غيرها لأجل تنمية الثروة إلى أن، يؤجروا أماكنهم بأنقص من كرائها ويفوضوا أمر الأيجار إلى المستأجرين بأزاء مقدار من المال –مثلا- يأخذ المالك ألف دينار بعنوان الإيجار بعد مضي السنة إلى المستأجر وقد صار ذلك أمرا عرفيا شائعا في الأسواق.[١]

أوضح الشيخ مغنية بهذا الشأن أن السبب الأساس في بروز هذا النوع من التعامل أنه :-

(من المعلوم أن القانون في هذا العصر يمنع المالك من إخراج المستأجر من ملكه بعد أنتهاء أمد الاجارة المتفق علها بين المؤجر والمستأجر وأيضا يمنعه من زيادة الأجرة ...بل إن قانون الإيجار كثيرا ما يُعدل ويفرض نقصان الأجرة على المؤجر رغم اتفاق بينه وبين المستأجر على المبلغ المعين)[٢]

وقد اصبح التعامل بالخلو مظهرا متعارفا عليه وشيع التعامل به وتعددت صوره ((بين الجواز وعدمه))مما حدا بالفقهاء كافة إلى مدارسته ومعالجته فقد وردت أراء فقهية منها ما أتفقت ومنها ما اختلفت وتشابكت مظاهره وصوره وكذلك برزت مؤتمرات فقهية لمعالجة هذه الحالة منها مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي والذي يبحث (بدل الأخلاء) في جدة بالمملكة العربية السعودية للمّدة من ١١/٦ شباط ١٩٨٨ .

أبرز أوجه التعامل بالعين المؤجرة ((بدل الأخلاء))في الوقت الحاضر

---

(١) المسائل المستحدثة:محمد صادق الروحاني ١٨/١ .

(٢) فقه الأمام الصادق :محمد جواد مغنية/دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٦٦ م ٢٦٢/٤ .

في أدناه أحاول عرض وبيان أبرز أوجه التعامل بالعين المؤجرة وهو ((بدل الأخلاء))في الوقت الحاضر وكما يأتي :-

أولا: أعطاء بدل أخلاء للمالك من المستأجر .

ان المتعارف عليه من خلال التعامل ان المستأجر يقدم مبلغا من المال إلى المالك فضلا عن الأجر المتفق عليه المستمر ويكون حسب اتفاقهم على المحال التجارية والصناعية و ما شابه ذلك .ومقابل ذلك يستحق المستأجر حق التصرف في العين المؤجرة وفق المتفق عليه.

وكان السبب الرئيس الذي أدى إلى هذا النوع من المعاملة المستحدثة صدور بعض القرارات القانونية في أوائل القرن العشرين بشأن العين المؤجرة وتنظيم التصرف بها في بعض البلاد العربية الإسلامية إلى منع المالك من أخراج المستأجر من العين المستأجرة حتى مع انتهاء مدة العقد كما منعت المالك من الزيادة على الأجرة المتفق عليها فأدى ذلك إلى تنبيه الملاك إلى ضرورة تعويض ما يفوتهم عن طريق أخذ ((بدل الاخلاء))السرقفلية .

تعقيب:

ان للمالك أن يأخذ بدل الأخلاء لكونه مالكا للعين المؤجرة ومنافعها فله الحق في المبادلة على المنافع كما يشاء لأن المبلغ الذي يأخذه المالك من المستأجر فضلا عن الأجر المتفق عليه سنويا أم شهريا إذا لم يصرح بأنه جزء من الأجرة فأنه يبقى على الأشكال علما بأن هذه المعاملة أخذت بعداً يكاد أن يكون استغلالا ، لذا يجب أن يكون هذا التعامل مقيدا بشروط تتفق عليها جميع الأطراف مالكا ومؤجرا .

ثانيا: إعطاء بدل الأخلاء للمستأجر من المالك .

أحيانا ان مالك العين المستأجرة يروم استعادة العين من المستأجر

فيرفض المستأجر إعادتها إلاّ بمقابل عوض يدفعه المالك للمستأجر مقابل هذه الإعادة .

وأحاول ان استعرض مدى مشروعية وجواز هذا التعامل وكما يأتي : .

١ .إذا كان المستأجر قد ملك المنافع مقابل بدل الأخلاء المدفوع للمالك طبقا لعقد مبرم مشروع وصحيح ورغب المالك في إنهاء عقد المستأجر واستعادة العين المستأجرة مقابل عوض يدفعه للمستأجر فان له ذلك حسب اتفاقهم لأنه بيع المنافع ممن يملكها وهو المستأجر وسواء كان ذلك بقدر العوض الذي دفعه للمالك أم أكثر .

٢ .إذا رغب المالك في استعادة العين المؤجرة قبل انتهاء مدة العقد حالة توقيته مقابل عرض يدفعه للمستأجر ، فان له ذلك أيضا لانه مبادلة على المنافع المتبقية في مدة العقد وفي حالة موافقة طرفي العقد المالك والمستأجر .

٣ .أما إذا كان المستأجر بقوة القانون، وانتهت المدة المتفق عليها . ورغب المالك في استعادة العين المستأجرة مقابل عوض يدفعه للمستأجر وفي حالة موافقة طرفي العقد فانه يتملك أجراء العقد.

ثالثاً : أن يأخذ المستأجر بدل الإخلاء من مستأجر جديد لاحق.

وهذا القسم هو الأكثر شيوعاً في سوق التعامل وهو محل النزاع الفقهي والخلاف بين الأفراد، وهو من الأسباب الرئيسية التي دعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع والتحري عن مفرداته، وهي على حالتين وكما يأتي:

الحالة الأولى: ان يكون المستأجر قد ملك منافع العين المستأجرة بطريق مشروع كعقد صحيح أو شراء بدل إخلاء، فان المستأجر ان يبيعه لمستأجر جديد مقابل عوض، فهو يتصرف باعتباره مالكاً للمنفعة في حدود المتفق عليها، فإذا كانت مدة مقررة جاز للمستأجر الأول بيع منافع العين لاخر إلى نهاية مدة العقد على ان يكون ضمن اتفاق الطرفين المالك والمؤجر .

الحالة الثانية: ان لا يكون للمستأجر في العين المستأجرة بدل إخلاء صحيح، بل هو مستأجر بعقد ثم انتهت مدة العقد، إلا ان المستأجر كان قد بذل مالا لمستأجر قبله مكنه من الانتفاع بالعين المستأجرة، فهل له ان يأخذ بدلا أو عوضا مقابل تسليم العين المستأجرة إلى مستأجر لاحق؟ الجواب لا.

تعقيب ومناقشة:

وهذه الحالة بالذات هي الأكثر شيوعا وتداولا وحكم المعاملة في هذه الحالة لا ينطبق عليها بدل الإخلاء، لان مدة العقد لما انتهت اصبح حق التصرف لمالكها فقط لان (الناس مسلطون على أموالهم) [1] وليس لمستأجرها أي حق في تأجيرها لاخر، لانه يبيع منافع لم تكن مملوكة له فهو متعدٍ، وعليه رد ما قبضه للمستأجر اللاحق ان كان قد قبض منه شيئاً. وتسليم العين المستأجرة إلى مالكها.

استعراض أهم آراء فقهاء المذاهب الإسلامية ببدل الإخلاء مع بيان ادلة مشروعة وجوز التعامل به:

من خلال استعراض وبيان ابرز واهم اوجه التعامل بشان بدل الإخلاء – السرقفلية – ومدى جواز ومشروعية ذلك، واحاول الآن عرض آراء فقهاء المذاهب الإسلامية بهذا الشان حيث انهم يعرضون ويوضحون التعامل وفق ادلة شرعية يعتمدون عليها ويخرجون عليها المعاملات المشابهة لها لانها من المعاملات المستجدة ولكنهم جميعا يحددون ويقيدون هذا التعامل بشروط وضوابط حتى لا يؤدي هذا النوع من التعامل إلى المعاملة المفضية إلى الحرمة وعدم الجواز، وفي أدناه أعرض آراء فقهاء المذاهب الإسلامية مع ما استندوا عليه

(١) الوسائل: الحر العاملي١٢/٥٥/ القواعد الفقهية محي هلال السرحان، مطبعة اراكان ط١ بغداد ١٩٨٧، ص٦٨.

من دليل يؤيد ما ذهبوا إليه مع التعقيب عليها ان تطلب ذلك وكما يأتي:

أولاً: آراء فقهاء المالكية:

اغلب فقهاء المالكية المتأخرين يجيزون التعامل ولكن بشروط حتى تشدد القسم الآخر بضوابط اكثر، ومن الجدير بالذكر والبيان ان فكرة بدل الإخلاء لم يتعرض لها ويذكرها فقهاء المالكية عن الامام مالك بل هي مستفادة من الذين جاءوا بعده – ويبدو لي – ان أول من تعرض لها من فقهاء المالكية سيدي خليل في كتابه التوضيح وهو اشهر شروح جامع الأمهات لابن الحاجب من خلال باب الشفعة بما نصه:

(وينبغي ان يتفق في الاحكار [1] التي عندنا بمصر التي تجب الشفعة في البناء القائم بها لان العادة عندنا ان رب الأرض لا يخرج صاحب البناء أصلا وكان ذلك بمنزلة مالك الأرض)[2] وكذلك وردت فتوى ناصر الدين الاللقاني واخيه شمس الدين في القرن العاشر الهجري عام (٩٣٥هـ) اجابه عن سؤال بشان خلوات الحوانيت التي صارت عرفا بين الناس في هذه البلدة ((القاهرة)) أو غيرها حتى وصل الحانوت في بعض الأسواق أربعمائة دينار ذهباً والسؤال كان الآتي: (هل إذا مات شخص وله وارث شرعي يستحق خلو حانوت مورثه عملا بعرف الناس؟

فأجاب بما نصه: ((نعم إذا مات شخص وله وارث شرعي يستحق خلو حانوت مورثه عملا بعرف ما عليه الناس وإذا مات من لا وارث له يستحق ذلك

---

(١) الاحكار: هنا بمعنى الاجارة الطويلة الامد مقابل اجر سنوي فالمستاجر مالك لمنافع الأرض فان كانت في هذه الأرض ما واراد صاحب الأرض ان يبيع هذا البناء فانه يثبت لمالك المنفعة حق الشفعة في هذا البناء

(٢) منح الجليل: عليش ٤٨٨/٣.

بيت المال، وإذا مات شخص وعليه دين ولم يخلف ما يفي بدينه فانه يوفى من خلو حانوته والله اعلم بالصواب كتبه الفقير ناصر الدين اللقاني المالكي حامداً ومصلياً)[1] كما افتى علماء تونس المتأخرون في (جملة تقارير وفتاوى في الخلوات والأنزلات عند التونسيين)[2].

تعقيب:

-يبدو لي- من عرض لهذه الآراء وغيرها بان آرائهم مبنية على العرف والعادة ولما له اثر في أجراء المعاملات وان فكرة الخلو انبثقت عندهم قبل فقهاء المذاهب الإسلامية وان بيع الخلوات صحيح عندهم ومن اشترى الخلو فانه ملك المنفعة فيجوز له التصرف بها بيعا واجارة واعارة ورهنا وتورّث عنه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الفقه المالكي منتشر في المغرب العربي ومعمول في المحاكم والقضاء التونسي وغيره.

ثانياً: آراء فقهاء الحنفية:

أوضح ابن نجم من فقهاء الحنفية بشان بدل الإخلاء ما نصه:

(بان ما يقع في بعض احياء القاهرة من خلو الحوانيت لازم ويصير الخلو في الحانوت حقا له. فلا يملك صاحب الحانوت حقا في اخراجه منها ولاجارتها لغيره) [3]

ورد في نص أخر بأنه قد وقع أخر بأنه (قد وقع في حوانيت الجملون بالغورية بان السلطان الغوري لما بناها اسكنها للتجار بالخلو وجعل لكل

---

(١) حاشية الدسوقي: الدسوقي ٤٣٣/٣.

(٢) الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد: وهبة الزحيلي /ط٥٦٥/١/٢.

(٣) الاشباه والنظائر على مذهب ابي حنيفة النعمان: زين العابدين بن نجيم، تح عبد العزيز محمد الوكيل. الناشر مؤسسة الحسني. مصر القاهرة عام ١٩٦٨م ص١٠٣ – ١٠٤.

حانوت قدراً اخذه منهم)[1].

وذكر أيضا في حاشية ابن عابدين ما نصه (فقد أوضح الحنفي عبد الرحمن افندي العماري هدية ابن العمار بجواز الخلو قياسا على بيع الوفاء خروجاً من الربا)[2] يظهر من نص ابن عابدين بان بيع الخلو اجيز وفق بيع الوفاء على الرغم مما يدعون من فساده – ويبدو لي – ان الحنفية أكثر تشددا في هذه المعاملة من بقية المذاهب الإسلامية.

لان مالك المنفعة ليس حر التصرف فيها من خلال الإجارة حيث أوجبوا ان لا يزيد مالك المنفعة عن اجر المثل فيما لو أراد ان يؤجرها لغيره إلا إذا اضاف إلى العين المستأجرة شيئاً. علما بانهم لم يقيسوا مسالة التصرف بملك المنفعة (كالخلو) على مسالة تجديد الوقف والوصية بالمنافع. لان المالك فيها لا يملك إجارة المنفعة وقد ورد ما يؤيد من ذكرته آنفاً وهو:

(وقد ذهب الحنفية إلى ان المنافع ليست أموالا، لان المال ما يقتنى ويدخر للانتفاع به عند الحاجة، والمنافع لا تدخر بل هي أعراض لا تتحقق إلا بطلبها واكتسابها، وتنتهي بانهاء وقتها... وذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى ان المنافع أموالا لان العقار والمنقول إنما يقتنى لمنفعته والمنافع تحرز بإحراز اصولها ومصادرها وهي الاعيان المنتفع بها، جاز ان تقابل بالمال. كاجارة الدابة والدار والسيارة وغيرها وبهذا اخذ التشريع الوضعي)[3].

---

(١) م. ن.

(٢) حاشية ابن عابدين: ابن عابدين ٥٢٣/٤.

(٣) الولاية على المال والتعامل بالدين في الشريعة الإسلامية: علي حسب الله، معهد البحوث والدراسات العربية مصر القاهرة ١٩٦٧. ص٩٣.

ثالثاً: رأي فقهاء الحنابلة:

لم اعثر بحدود تتبعي – لبدل الإخلاء تطبيقياً – لدى فقهائهم القدامى، فقد ورد في كتاب (مطالب أولي النهى) لمصطفى السيوطي وهو من المتأخرين بأنه صحح العمل بها ولكنه خرجها على بيع منافع الوقف ((عندهم) (ان الخلوات المشهورة يمكن تخريجها عندنا من جواز بيع المنفعة مفردة عن العين إذ العوض فيها مبذول في مقابل جزء من المنفعة (ويقصد من هذه المسالة) هو بيع شجرة يابسة موقوفة ما تقدم من جواز بيع المنفعة مفردة عن العين كعلو بيت يبنى عليه ونحوه)[١]

تعقيب و مناقشة:

من المعلوم ان وسائل الوقف تختلف اختلافا جذريا عن المسائل الأخرى لان الوقف بابا مستقلا في الفقه وذلك للتشدد بمسالة وعدم التفريط بالعين الموقفة إلا في حالات استثنائية جداً ومن خلال الرأي الانف الذكر وغيره كما ورد عن البهوتي بان مالك الخلو مالك منفعة وان رايه يعتمد القياس والعرف والعادة ويحاول فقهاء الحنابلة تطبيق مسائل الخلو عن مسائل الوقف كم ورد عن المالكية بان الخلو منفعة ملكت بعوض.

رابعاً: رأي فقهاء الشافعية:

اجاز الشافعية لمالك المنفعة مستاجرا أو غيره ان يؤجر المنفعة التي ملكها وان كان ذلك باكثر من اجرها المقرر أو اجر المثل بناء على انه مالك يتصرف بملكه، وعلى ذلك جاز لمالك المنفعة ان يتنازل عنها مقابل عوض لكن

---

(١) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى السيوطي الرحيباوي، مشوارات المكتب ، الإسلامي، دمشق (ب.ت.هـ) ٤ – ٣٧١. ينظر / كذلك المغني: ابن قدامة ٣٩٨/٥/ حاشية الدسوقي ٢/٤.

ذلك مقيد بمدة العقد [١].

خامساً: رأي فقهاء الأمامية :

يجيز فقهاء الأمامية التعامل ببدل الإخلاء (السرقفلية في العرف التجاري اليوم الذي تعارف عليه الناس) وهو اخذ مقدار من المال أو عوض أخر غير مالي كسكن دار أم محل أو شيء أخر على تفويض المالك أو المستأجر الأول حق الإيجار الذي تحت سيطرته عيناً وانتفاعا إلى أي شخص شاء وفي أي مدة، وبأي قيمة يتفقان عليها وفق ضوابط وشروط لا تفضي إلى المكاسب المحرمة [٢] فقد اتفق اغلب فقهاء الأمامية ان بذل المال في هذه المعاملة على وجه الهدية الموجبة لقضاء الحاجة المباحة فلا حظر فيه كما يدل عليه ما ورد في الوسائل بان الرجل يبذل المال هدية ليتحرك لمنزله فيسكنه فذكر بأنه لا باس به – مستندين في ذلك إلى نص الرواية الواردة وهي: (عن محمد بن مسلم قال: سالت ابا عبد الله الصادق (عليه السلام) عن الرجل يرشوا الرجل الرشوة (يعني يقدم له هدية) على ان يتحول من منزله فيسكنه، قال لا باس به)[٣] وكذلك خرج هذا النوع من التعامل عند قسم من فقهائهم على الهبة أو الجعل أو الصلح وما شابه ذلك [٤] وقد عقب محقق كتاب المكاسب بان المحتمل قوياً استفادة جواز أخذ (السرقفلي) الذي هو اعطاء مبلغ إلى النازل في المنزل والساكن فيه حتى يرفع اليد عن ذلك وعن حق سكناه الشرعي.

---

(١) روضة الطالبين: النووي ١٩٦/٥ / مغني المحتاج: الشربيني ٣٣٨/٢.

(٢) المسائل المستحدثة : محمد صادق الروحاني ١٨/١ / بحوث فقهية: عز الدين بحر العلوم ص١١٩.

(٣) الوسائل: الحر العاملي ٢٠٧/١٢ كتاب التجارة.

(٤) المكاسب: الشيخ الأنصاري٤١٦/٢/ أحكام خصم الكمبيالات : الميلاني ص٣ وما بعدها.

وان المراد من المنزل معناه الاعم وهو مكارم النزول ومحله سواء أكان دارا أم حانوتا وما إلى ذلك [1].

تعقيب ومناقشة:

-يبدو لي- بعدما تقدم بشان هذه المسالة انهم يجيزون ذلك معتمدين على العرف أو العادة كالحنفية والمالكية والقسم الأكبر من الشافعية يرون جواز تصرف مالك المنفعة بملكه والأمامية يجيزون ذلك معتمدين على روايات مشابهة ومؤكدة لرأيهم يخرجونها عليها.

من كل هنا يستفاد جواز هذه المعاملة ولكن بضوابط وشروط في سبيل الوصول إلى معاملة صحيحة وجائزة من الناحية الشرعية وبعيدة عن الشبه المحرمة.

ابرز شروط صحة بدل الإخلاء (السرقفلية)

أحاول الآن بيان أهم شروط حصة (بدل الإخلاء) وكما يأتي:

١ .ان يكون بائع الخلو مالكا صحيحا كمالك العين بمنافعها أو مالك منافع العين فقط أو مالك الخلوات

٢ .ان يكون الساكن الذي اخذ الخلو (أي بدله) يملك منفعة العقار مدة، ومعنى ذلك ان تحصل للساكن المذكور شهرة في ذلك المحل ويضيف إلى المنفعة زيادة وهو ما يسمى اليوم (بالاسم التجاري) فإذا أراد بيعه واشترى من عنده يكون لدافع الثمن شراءه مقابل انتفاعه بتلك الشهرة وتلك المنفعة المضافة في تلك المدة من طرف الساكن قبله من ذلك المحل المالك لخلوه.

٣ .ان يكون المستأجر في بيعه للخلو حاملا عقد إجارة صحيح وان تكون الإجارة باجر المثل، وهي خاضعة لتقدير العرف وهي المقدرة حيث العقد غالبا

---

(١) المكاسب : الشيخ الأنصاري ٢/ ٤١٦.

وان يكون متفقاً مع المالك الأصلي على التصرف بالحصول على بدل الإخلاء أو وكيله المعتمد.

٤. إذا كان بائع الخلو مالك العين ومنافعها فلكي يصح بيع الخلو يجب ان يكون مالكا حقيقيا رشيدا له أهلية التصرف الشرعية.

٥. والاهم من ذلك كله (هو ان تكون الموافقة الأساسية والأولى من المالك في كل حاله من حالات الإخلاء)[١]

الخاتمة ونتائج البحث

وفي خاتمة المطاف وبعد ما تقدم حاولت جاهدا التوصل إلى نتائج تكاد تكون ذات أهمية واثر في توضيح وبيان (بدل الإخلاء) السرقفلية على صعيد الدراسات الفقهية وبيان أحكامه وأنواعه ومدى مشروعيته من الحلية والحرمة وكذلك عرضت ابرز الضوابط والشروط التي تحدد العمل به وفيما يأتي ابرز ما توصلت إليه محاولا بيانها على شكل نقاط وهي:

١. ان مسائل (بدل الإخلاء) السرقفلية من موضوعات عقد الإجارة.

٢. ان المالك يبقى هو صاحب الرأي الأول والأخير لانه هو المسلط على ماله لقاعدة (الناس مسلطون على أموالهم)[٢].

٣. إذا كان هناك عرف في بلد ما يؤكد ويؤيد عن قبض المالك (لبدل الإخلاء) السرقفلية فان ذلك في الحقيقة إذن منه للمستأجر بإعطائه الحرية في الإيجار لمن يريد كان يكون هذا المعنى شرطاً ضمنياً في نظرهم فان (المؤمنون عند

(١) الأحكام الفقهية: محمد سعيد الحكيم، دار الصفوة/ بيروت ط عام ١٩٩٧م ص٢٢٠.

(٢) الوسائل: الحر العاملي ١٢/٥٥.

شروطهم)[١] ولا بد من الإمضاء على ان يكون هذا العرف غير مسكوت عنه في بنود العقد حتى لا تحدث أي مشكلة مستقبلا.

وان يكون (بدل الإخلاء) السرقفلية مدفوعة في الموعد المتعارف، فلو لم يكن المورد متعارفا كما لو لم يكن وجه فقهي للجواز فيما إذا أصبحت في مواردها متعارفة بحيث صارت كالشرط الضمني في الإجارة.

٤. لا يجوز للمستأجر الثاني ان يدفع إلى المستأجر السابق ما لا ليفرغ له المكان إذا كان العقد قد انتهى وذلك لسببين:

أ- ان هذا التفريغ واجب عليه للمالك بعد انتهاء مدة أجارته فلا يجوز اخذ الأجرة عليه.

ب- ان اشتغال الثاني لا يجوز إلا بإذن المالك ولا علاقة للشخص السابق فيه ليأخذ عليه الأجور.

٥. ليس للمستأجر الحق في العين المستأجرة بعد انقضاء مدة الإجارة، بل عليه تسليمها للمالك ان أرادها إلا مع شرط أو عقد يثبت حقا له في العين المؤجرة.

٦. يحق للمستأجر اخذ (بدل الإخلاء) في حالة دفع السرقفلية للمالك فيما سبق، فلو لم يكن قد دفعها لم يكن له حق الاستمرار بالإيجار، ووجبت عليه التخلية لدى انتهاء المدة المحددة مسبقاً إلا مع الرضاء بالتجديد.

٧. لا يحق للمالك ان يسقط حق المستأجر في حالة اتفاقه بالتصرف بالعين المؤجرة إلا إذا كان تصرف المستأجر في العين المستأجرة خارج النطاق المتفق عليه.

٨. يحق للمالك ان يزيد في مبلغ إيجار في حالة تغيير القيمة السوقية على ان لا

(١) صحيح البخاري: البخاري ٢/ ٢٤ / القواعد الفقهية: البنجوردي الآداب النجف الأشرف ١٩٧١م ٣٢،٢١٨.

يضر بمصلحة الآخرين وان لا يتعسف في استعمال الحق.

٩-سقوط حق المستأجر في العين المستأجرة بعد انتهاء المدة المحددة، وفي حالة عدم وجود المالك الذي يؤخذ منه الآذن في تجديد العقد أو الوكيل أو الوصي والا فلا يجوز.

١٠. واخيرا اورد وجوه وصور التعامل الصحيحة وفق الشروط والضوابط المحددة وكما يأتي:

- ان يكون الاتفاق بين مالك العقار وبين المستأجر عند بدء العقد وكالأتي:

أ- إذا اتفق المالك والمستأجر على ان يدفع المستأجر للمالك مبلغا مقطوعا زائدا عن الإجارة المتفق عليها (بدل الإخلاء) فلا مانع شرعا من دفع هذا المبلغ المقطوع على ان يعد جزء من أجرة المدة المتفق عليها وفي حالة الفسخ تطبق على هذا المبلغ أحكام الأجرة.

ب- ان يكون الاتفاق بين المستأجر والمالك وذلك في أثناء مدة العقد أو بعد انتهائه وكالأتي:

إذا تم الاتفاق بين المالك والمستأجر أثناء مدة الإجارة على ان يدفع المالك إلى المستأجر مبلغا مقابل تخلية عن حقه الثابت بالعقد في ملك منفعة بقية المدة، فان (بدل الإخلاء) هذا جائز شرعاً، لانه تعويض عن تناول المستأجر برضاه عن حقه في المنفعة، أما إذا انقضت مدة الإجارة ولم يتحدد العقد صراحة أو ضمنا عن طريق التجديد التلقائي حسب الصيغة المقيدة له، فلا يحل له بدل الإخلاء، لان المالك أحق بملكه بعد انقضاء حق المستأجر.

جـ- ان يكون الاتفاق بين المستأجر وبين مستأجر جديد، وفي أثناء مدة العقد أو بعد انتهائه، شريطة ان يكون هذا الاتفاق مقروناً ومدعماً بموافقة المالك وكالأتي:

وفي حالة الاتفاق بين المستأجر الجديد أثناء مدة الإجارة على التنازل عن بقية مدة العقد لقاء مبلغ زائد عن الأجرة شريطة موافقة المالك واطلاعه على

عقد الإجارة المبرم وان لا تكون فيه منافيات الأحكام الشرعية (بدل الإخلاء) هذا جائز شرعاً، فلا يجوز للمستأجر إيجار العين المستأجرة لاخر ولاخذ (بدل الإخلاء) إلا بموافقة المالك هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بعد انقضاء المدة المتفق عليها بين المالك والمستأجر فلا يحق للمستأجر تأجيرها لمستأجر جديد.

د- ان يكون الاتفاق بين المستأجر الجديد وبين كل من المالك والمستأجر الأول قبل انتهاء المدة وبعد انتهائها

وختاماً أرجو من الله العلي القدير التوفيق والسداد انه نعم المولى ونعم النصير.

أهم المصادر والمرجع

١. أحكام خصم الكمبيالات: عباس الميلاني، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٣٨٣هـ.

٢. الأشباه والنظائر: زين العابدين بن نجيم / تح عبد العزيز محمد الوكيل، الناشر مؤسسة الحلبي مصر، ١٩٦٨م.

٣. بحوث فقهية: عز الدين بحر العلوم / مطبعة الآداب، النجف الأشرف ١٩٦٤م.

٤. حاشية ابن عابدين: محمد أمين ابن عابدين (ب م ط) مصر ط٢ ١٢٥٢هـ.

٥. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: شمس الدين محمد عرفة الدسوقي / مطبعة عيسى السباتي الحلبي مصر ١٢٣٠هـ.

٦. روضة الطالبين: يحيى بن شرف النووي / تح المكتب الإسلامي للطباعة والنشر/ دمشق (ب ت ط).

٧. الغرر وأثره في العقود: الصديق محمد أمين الضرير/ مطبعة دار نشر الثقافة مصر القاهرة ط١ ١٩٦٧م.

٨. فقه الموضوعات الحديثة: محمد الصدر/ مطبعة القضاء/ النجف الأشرف ط١ ١٩٩٦م.

٩. فقه الامام الصادق: محمد جواد مغنية/ دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٦٦م.
١٠. الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد: وهبة الشرجيلي (ب م ط) ط٢ (ب ت ط).
١١. الفروق: اشهاب الدين أبو العباس القرافي/ مطبعة دار احياء الكتب العربية/ مكة المكرمة ط١ ١٣٤٤هـ.
١٢. لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين (ابن منظور)/ دار صادر بيروت- لبنان/ ١٩٥٥م.
١٣. ما وراء الفقه: محمد الصدر/ مطبعة القضاء/ النجف الأشرف ط١ ١٩٩٥م.
١٤. المسائل المستحدثة : محمد صادق الروحاني/ مطبعة دار الفكر إيران/ ط١ ١٣٨٤هـ.
١٥. المصباح المنير: احمد ابن علي القيومي/ المطبعة الميمنية / مصطفى السباتي الحلبي/ مصر (ب ت ط).
١٦. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى السيوطي الريحاني/ منشورات المكتب الإسلامي دمشق (ب ت ط).
١٧. المغني : ابن قدامة المقدسي (موفق الدين)/ نشر دار الكتب العربي مصر/ ١٣٦٠هـ.
مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: محمد الشربيني/ (ب م ط) (ب ت ط).
١٨ .مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: محمد الشربيني/ (ب م ط) (ب ت ط).
١٩ .المكاسب: مرتضى الأنصاري/ تح محمد كلانتر/ مطبعة الآداب النجف الأشرف ١٩٧٣م.
٢٠. منح الجليل شرح مختصر خليل: محمد عليش (ب م ط) (ب ت ط).
٢١. الوسائل: محمد بن الحسن الحر العاملي/ المطبعة الإسلامية طهران/ ١٣٧٦هـ.
٢٢. الولاية على المال والتعامل بالدين في الشريعة الإسلامية: علي حسب الله/ معهد البحوث والدراسات الإسلامية مصر ١٩٦٧م.

الاستثمار الاجنبي وآثاره

مع دراسة تحليلية في مسودة القانون الصادر عن سلطة التحالف حول الاستثمار الاجنبي في العراق

الاستاذ المساعد الدكتور
رضا صاحب ابو حمد
كلية الادارة والاقتصاد
جامعة الكوفة

المقدمة:

الاستثمار، يقصد به تكوين رأس المال العيني الجديد، الذي يتمثل في زيادة الطاقة الانتاجية، وهو بذلك يعد الزيادة الصافية في رأس المال الحقيقي للمجتمع، وتتكون عناصره من الموجودات: الأرض والمباني والآلات والمكائن والتجهيزات ووسائل النقل... الخ. وبمعنى أوسع هو عمليات توظيف الاموال بالموجودات والممتلكات والحقوق والأسهم والسندات، وفي القانون تعني الكلمة منح الشخص حقاً او منفعةً في شيء. أما الاستثمار الاجنبي، فيعني الاستثمار في مشروعات داخل البلد يسيطر عليه القائمون في بلد آخر، ويأخذ هذا الاستثمار عادة صورة اقامة فروع او شركات فرعية.

ويستأثر موضوع الاستثمار الاجنبي اهتماماً خاصاً من قبل الدول المتقدمة التي تتدفق من خلالها معظم الاستثمارات الاجنبية والدول النامية المضيفة لهذه الاستثمارات. فبالنسبة للدول المتقدمة تحاول ان تحقق من هذه الاستثمارات اقصى الارباح وتزيد من تبعية اقتصادات معظم الدول النامية

لاقتصاداتها، وبالمقابل تسعى الدول النامية الى الاستفادة من التكنولوجيا التي تحملها الشركات متعددة الاجنبية والاستثمارات الاجنبية، وإلى تطوير وتنويع اقتصاداتها والى زيادة قدراتها العلمية والتكنولوجية، وهي قد تنجح في ذلك، وقد لا تفوق وتصبح تابعة لاقتصادات الدول المتقدمة وغارقة في مديونية كبيرة من وراء هذه الاستثمارات الاجنبية.

وفي ضوء ما تقدم ولاهمية الاستثمارات الاجنبية سيتم دراسة الآتي:

١-الاستثمار الاجنبي والشركات متعددة الجنسية.

٢-أهداف الاستثمارات الاجنبية في الدول النامية.

٣-آثار الاستثمار الاجنبي على اقتصادات الدول النامية.

٤-التحديات التي تواجه الاقتصاد العراقي.

٥-دراسة تحليلية في مسودة القانون الصادر عن سلطة التحالف حول الاستثمار الاجنبي في العراق.

والله الموفق.

المبحث الاول
الاستثمار الاجنبي.. طبيعته وأهدافه وآثاره

أولاً: الاستثمار الاجنبي والشركات متعددة الجنسية:

ان التلازم بين الاستثمار الاجنبي والشركات متعددة الجنسية من سمات هذا العصر. اذ نجد ان احدهما يجذب الآخر فالاستثمارات الاجنبية تتسم في تكوين وإنشاء الشركات متعددة الجنسية وتوسيعها وتمويلها، بينما تقوم الشركات متعددة الجنسية يجذب الاستثمارات الى مجالاتها ونشاطاتها وتعمل على خلق استثمارات اخرى جديدة. [1]

وتقوم التجارة الدولية بربط انتاج الشركات متعددة الجنسية من مكان او اماكن من العالم مع المستهلكين في مكان او اماكن اخرى من العالم في

أسواق عالمية او محلية من خلال التصدير والاستيراد والمنافسة، واتاحت سياسات التحرير التجاري (حرية التجارة) للسلع والخدمات ، وتدفق الأموال والتكنولوجيا والمعرفة للشركات متعددة الجنسية بتشجيع الاستثمارات العالمية وحريتها وزاد ذلك من عدد الشركات متعددة الجنسية وتوسع احجامها ونشاطاتها وانتشارها باعتبار ان الاستثمارات الاجنبية المباشرة مصدراً لرأس المال والتكنولوجيا والإدارة المعرفية ودخول الاسواق.

وقاد ذلك من جهة اخرى تلك الشركات للبحث عن الكفاءة الاقتصادية من خلال المنافسة وسياسة contestability (سهولة الدخول الى والخروج من السوق)، ويبلغ عدد الشركات متعددة الجنسية عام ١٩٩٨ نحو (٣٠) الف شركة اجمالي حجم نشاطاتها وفاعليتها الاقتصادية اكثر من نصف الناتج العالمي وتقدر قيمة اصولها بأكثر من (٩٢) تريليون دولاراً (التريليون يساوي ١٠٠٠ مليار) ويعمل بهذه الشركات نحو (٣٥) مليون عامل وموظف، ولادراك وتوضيح ما تعنيه بعض هذه الأرقام، فإن احصاءات البنك الدولي تشير الى ان حجم اعمال خمس شركات متعددة الجنسيات في العالم، تجاوز عام ١٩٩٦ مجموعة الناتج المحلي لدول آسيا وأفريقيا الصحراوية، والدول الأكثر فقراً في العالم بدءاً من (بنغلادش) و(الهند) وليس بالصومال الذي يصل فيه متوسط دخل الفرد الى نحو (٨٠) دولاراً في العام.[٢]

ان نمو اعمال ونشاطات الشركات المتعددة الجنسية يتوقع لها في ضوء الانتقادات الاقتصادية الدولية المزيد من التعاظم والمزيد من التوسع في قارات العالم فجولة (اورغواي) ومن بعدها الاتفاقات التي ابرمت من جانب الدول المنتمية الى منظمة التجارة العالمية في مراكش، ومن ثم جولة المؤتمر الوزاري في سياتل، هذه الاتفاقات التي ستحرر التجارة العلمية توقعت ومنذ عام ١٩٩٤، انه مع سريان مفعول اتفاقات مراكش عام ٢٠٠٥ ستتمكن الشركات المتعددة الجنسية من تحقيق ارباح لم تشهدها منذ ولادة الثورة الصناعية والتكنولوجية

في اوروبا وهذا الكلام ليس فيه شيء من المبالغة فإذا كان تسهيل انتقال الاستثمارت الخارجية هو ابرز عنوان من عناوين اتفاقات (غات) فهذا يعني ان عقدة انتقال تلك الرساميل الى البلدان التي مازالت تمثل اسواقاً عذراء او واعدة، وتشير الاحصاءات بهذا الشأن، ان حجم الاستثمارات في الدول الصناعية وصل عام ١٩٩٥ الى (٣١٥) مليار دولار، ذهب ثلثها حسب افضل التقديرات للدول النامية، ومع الاشباع الذي اصاب الاستثمارات في الدول الصناعية، تمثل طموح الشركات متعددة الجنسية برفع حصة الاستثمارات في الدول النامية انطلاقاً من حقيقة ان هذه الاسواق ما زالت عذراء، وبحاجة للكثير من السلع والمنتجات ومقابل هذه الصورة، سيعتقد الانسان العادي في الدول النامية، ان تلك الاستثمارات سوف تساهم في توفير المزيد من فرص العمل، وستنخفض تكاليف الانتاج والنقل وسترفع الزيادة الانتاجية وانها ستحد من البطالة والركود والتضخم وهذا الاعتقاد سرعان ما يبدد في حال الانحاء على تجارب هذه الشركات في معظم البلدان النامية، فهي قد تحدث تبدلاً كبيراً في الهيكلة الاقتصادية للدولة والمجتمعات النامية.

إن الذي أدى بهذا النوع من الشركات لتكون على هذا المستوى من الفخامة هو اندماجها شركتين أو أكثر ليتكون منها شركة واحدة، فقد شهد أواخر القرن الماضي أكبر اندماجين لأربع شركات بترولية عملاقة، الاندماج الأول: حصل بين الشركة البريطانية (برتش بتروليوم) والشركة الأمريكية (أموكو)، هذا التحالف بين عملاقين يتمتعان بقوة استراتيجية وجغرافية أدى إلى ظهور قوة صناعية بترولية كبيرة، تملك امكانيات مالية واصولاً وخبرات تساعدها على المنافسة بقوة في القرن الحادي والعشرين، ويستهدف هذا الاندماج إلى زيادة أرباح الشركات، والاندماج الثاني، بعد أقل من ثلاثة أشهر من قيام التحالف الأول المذكور، أعلنت شركة (أكون) و (موبيل) عن اندماجها في صفقة قيمتها ثمانون مليار دولار، وهي أكبر عملية اندماج بترولي في تاريخ

الولايات المتحدة الأميركية ، كما أنها تعد أكبر شركة بترولية عملاقة في العالم، ويبلغ رأسمالها (٢٤١) مليار و (٩٤) مليون دولار ان نسبة الاندماج والتملك قد ارتفعت كثيراً خلال السنوات الماضية، وان كانت هذه النسبة تختلف بين الدول، فعلى سبيل المثال هناك حوالي (٧٥ ٪) من الشركات اليابانية تم تملكها بواسطة شركات أخرى خلال الفترة من (١٩٦٤ - ١٩٨٤) في حين أن (٣٨,٣٪) من الشركات الأمريكية دخلت في اندماج مع شركات مثلية خلال أعوام (١٩٥٠ - ١٩٧٢) وحوالي (٤٢ ٪) من الشركات البريطانية في الفترة من (١٩٥٠ - ١٩٧٧).(٤)

ومن المهم الملاحظة هنا أن الاندماج لا يقتصر على تحقيق تفوق اقتصادي، بل تبدو الأهداف السياسية كافية وسبيل، وذلك من خلال تكوين شبكة من المصالح في أماكن تختار بعناية لموازنة التأثير السياسي.

وبذلك فان الشركات متعددة الجنسية بفعل امكاناتها الكبيرة أصبحت لها القدرة على التحكم بالاقتصاد الدولي وخصوصاً اقتصادات الدول غير المتقدمة من خلال العديد من الوسائل والآليات بما يجعلها في موقع تسيطر فيه على ادارة أعمالها وتضمن لها بنفس الوقت تخفيض آثار التعرض إلى قرارات او اجراءات معينة ضدها بالمقابل ومن جهة أخرى فإن الشركات الكونية تعمل على تدويل المجتمع الانساني، فهي من أقوى العوامل التي تدفع إلى ذلك، إذ تسعى إلى جعل العالم سوقاً واحداً كبيراً لمدخلاتها ومخرجاتها بإزالة ما تستطيع من حدود وقيود تحد من نشاطها.(٥)

في ضوء ما تقدم يمكن القول ان الشركات متعددة الجنسية هي وحدات أعمال كبرى تقوم بالإنتاج والتوزيع والتبادل على مستوى العالم وتهدف إلى التحكم العالمي بالموارد الاقتصادية وتدويل المجتمع الانساني لتحقيق السيطرة الاقتصادية والسياسية لدول مراكزها وتحقيق أكبر عوائد لملاكها.

× مزايا الشركات متعددة الجنسية.

تتميز الشركات متعددة الجنسية بمزايا احتكارية عديدة جعلتها تسيطر سيطرة تامة على الأسواق خارج حدودها القومية ومنها.[٦]

أ) المزايا الاحتكارية التمويلية:

تتمتع هذه الشركات بمراكز مالية قوية في بلد المنشأ ومقارنة بالشركات المحلية في بلد الاستثمار تعد الشركات متعددة الجنسية ذات مراكز مالية متفوقة ومتعاظمة، فمثلاً شركة أكسون (Exxon) الأمريكية يتكون رأسمالها من (٥) شركات تشكل وحدة اقتصادية واحدة حوالي (٣٦٦) بليون دولار، كما تستفيد هذه الشركات من التمويل الممنوح لها بأسعار فائدة منخفضة.

ب) المزايا الاحتكارية التقنية

للشركات متعددة الجنسية تقنية متطورة مقارنة بالشركات الوطنية، ويقاس التطور التقني بنفقات البحث العلمي والتطوير التي تتركز حول طرق انتاج جديدة ومنتجات محسنة وجديدة وزيادة درجة تغاير المنتجات، مما يزيد قدرة الشركة على تسويق منتجاتها والتحكم في السوق على وجه احتكاري.

جـ) المزايا الاحتكارية التسويقية

تعد مزايا التسويق أحد أهم الصفات الاحتكارية التي تتميز بها الشركات متعددة الجنسية مقارنة بالشركات الوطنية التي تكون في وضع ضعيف للغاية، فالشركات الدولية متعددة الجنسية لها قدرة على القيام بأبحاث التسويق التعرف على ظروف السوق وأذواق المستهلكين للتعرف والتنبؤ بالتغيرات المحتملة على المستوى الانتاجي والاستهلاكي والتوزيعي، كما تقوم أيضاً بأعمال الدعاية والاعلان التي تهدف إلى استدامة الطلب على منتجاتها، ولهذه الشركات شبكات توزيع واسعة مما يساعد على بسط سيطرتها في الأسواق.

هذه العوامل مجتمعة جعلت الشركات متعددة الجنسية في وضع تنافسي لا يبارى، ولا تستطيع الشركات الوطنية مجتمعة أن تحقق ما تحققه الشركات متعددة الجنسية من وضع احتكاري يمكنها من بسط نفوذها في الأسواق.

ثانياً: أهداف الاستثمارات الأجنبية في الدول النامية

ان الاستثمار الأجنبي يهدف من وراء عملياته المختلفة في الدول النامية ومنها العراق إلى تحقيق العديد من الأهداف المعلنة والتي تتمثل في الآتي:(٧)

١- ان زيادة الأرباح التي يجنيها من وراء استثماراته، من أجل ارضاء أصحاب رؤوس الأموال أو حاملي أسهم الشركات الاستثمارية في الدول الأصلية التي ينتمون اليها. وهذا الأمر يضع على هؤلاء المستثمرين ضغوطاً في سبيل المحافظة على مستوى مرتفع من الأرباح وعدم تخفيضه عن معدله السنوي.

٢- التحكم في التكنولوجيا المنقولة وأنواعها وكيفية استخدامها في الدول النامية، وحصر ذلك فقط في الأغراض التي يرغب المستثمرون الأجانب الاستثمار فيها.

٣- التقدم على منافسي المستثمر الأجنبي في مجال التكنولوجيا المنقولة والمحافظة على مبدأ التقدم، حتى تبقى له القيادة والسبق في ذلك الميدان.

٤- إبطاء عملية المفاوضة الجماعية التي تقوم بها الدول النامية لدى تعاملها مع المستثمرين الأجانب.

وكذلك فإن المستثمرين الأجانب أو الشركات الأجنبية، من خلال ممارساتهم في الدول النامية وعملياتهم التي تتسم بالسرية، سواء في التعامل، او في إدارة أعمالهم، أدّت إلى التكهن بأنّ وراءهم قوة مسيطرة تقوم بتأييدهم ومساندتهم، ثم استخدامهم في نفس الوقت، كوسيلة للتغلغل في اقتصاديات الدول الأخرى والتحكم بها. إنّ مثل هذا الهدف غير المعلن والكامن وراء أعمال ونشاطات الاستثمار الأجنبي، يقود إلى الفرضية القائلة بأن النظام الرأسمالي

يمر بمرحلة إعادة تنظيم، ليتحول إلى نظام اقتصادي عالمي جديد، تقوده الاستثمارات الأجنبية، وتكون بمثابة الوكيل الرسمي له. وتشير الدلائل إلى أنّ الاستثمارات الأجنبية أصبحت مدعومة أكثر من ذي قبل من قبل حكومات الدول المتقدمة، لتحقيق أهداف النظام الاقتصادي الجديد في التغلغل والسيطرة على مناطق مختلفة من العالم. فمثلاً قد صرح مسؤول أمريكي سابق بأنّ هدف الولايات المتحدة الأمريكية من وراء عملية نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية، تتركز في المساهمة في إيجاد نظام تنمية اقتصادي عالمي تتركز في المساهمة في إيجاد نظام تنمية اقتصادي عالمي يتمتع بالثبات، وإيجاد فرص دائمة لرجال الأعمال الأمريكيين في الخارج. ولتحقيق ذلك، فأنّ هذا الأمر يحتاج إلى مقدرة من الدول النامية على استيعاب التكنولوجيا، وتوفير محيط ضيق للاستثمارات الأمريكية، مما يؤدي إلى أسواق أكبر لمنتجاتها، وإنّ ما حدث ويحدث اليوم من توغل أمريكي في الدول النامية خير مثال على ذلك. فمثلاً قبل عدد من السنوات، تمّت الإطاحة بحكومة تشيلي. والكل يعرف مدى تورط الحكومة الأمريكية في هذا الأمر، حيث لم تكن مصالحها العسكرية أو الوطنية معرضة للخطر هناك، ولكن مصالح الشركات الأميركية متعددة الجنسية كانت في وضع مهدد نتيجة تعارضها مع سياسة الحكومة تشيلي الاقتصادية، فأصبحت في وضع لا يمكنها من التمتع بامتيازات كما كان الأمر في السابق، وكذلك الحال ينطبق على أفغانستان والعراق، فإن الأهداف الاقتصادية وغيرها هي التي دفعت امريكا إلى التدخل في العراق وأفغانستان وفي دول أخرى نامية.(٧)

ثالثاً – آثار الاستثمار الأجنبي على اقتصادات الدول النامية:

ان للاستثمار الأجنبي آثار إيجابية وأخرى سلبية على اقتصادات الدول النامية المضيفة له، ففي ما يتعلق بالآثار الإيجابية فإنها تتمثل: في توفير فرص

عمل وطاقات وفعاليات اقتصادية انتاجية وخدمية جديدة، واكتساب الكفاءات من خلال نقل التكنولوجيا عن طريق جلب الخبرات والمهارات اللازمة لتشغيلها، كما ويقدم الاستثمار الأجنبي فرصاً للشركات المحلية للولوج في أسواق كانت مغلقة أمامها، ويحدث زيادة في صادرات عن طريق منتجاتها التي تدخل ضمن المنتج النهائي للشركات الأجنبية. وبما أنّ الأخيرة تتمتع بسهولة دخول الأسواق العالمية، فإنّها تساهم في زيادة صادرات الشركات الدولة المضيفة. كذلك يعد الاستثمار الأجنبي وسيلة مكملة للاستثمارات الوطنية الحكومية والخاصة، ذلك أنّ زيادة هذه التدفقات يقلل من الضغط على المدخرات المحلية من خلال إقامتها للمشاريع الاقتصادية، وتعوض بها عن النقص الحاصل في استثماراتها المحلية التي تعاني الدول النامية من عجز فيها. كما يسهم الاستثمار الأجنبي في تحقيق بعض الاستقرار الاقتصادي للدولة النامية حماية لمصالحها الخارجية واستثمارات شركاته العاملة في تلك البلدان. ويسمح أيضاً للدولة النامية باكتساب السمعة الدولية الطيبة، ويفتح الأبواب أمام المزيد من الاستثمارات في المستقبل. كما ويساهم الاستثمار الأجنبي في تصنيع المواد الخام في تصنيع المواد الخام المحلية، خاصة في الدول النامية النفطية.(٨)

أما بالنسبة للآثار السلبية للاستثمار الأجنبي(٩)، فإنّه يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من معدلات الربح دون الأخذ بالاعتبار متطلبات التنمية واحتياجات السكان في الدول النامية المضيفة، ويعمل على جلب التقنية المناسبة التي يحتاجها في تنفيذ مشاريعه. وليس من أولوياته تطوير التقنية في الدول النامية. كما وإنّ الاستثمار الأجنبي لا يهتم بتطوير مؤسسات البحث العلمي، لأنها تعمل وفقاً لاستراتيجيته التي تخدم مصالحه، بحيث لا يشكّل خطراً على وجوده في المستقبل. كما ويقوم بمنافسة الشركات الوطنية القائمة والقضاء عليها. كذلك تؤدي الاستثمارات الأجنبية إلى آثار اقتصادية وسياسية واجتماعية أخرى. فمستوى التكنولوجيا الذي ينقله المستثمرون الأجانب يُعدّ غير ملائمٍ

للظروف السائدة في معظم الدول النامية. إذ أنّ هذه الدول تتميز بمحدودة مواردها المالية، ووفرة مواردها البشرية غير المدربة وغير المتعلمة. بينما تكون التكنولوجيا المنقولة متقدمة تلائم مجتمعاً صناعياً متقدماً، وتعتمد على الاستخدام القليل للعمال، وهذه النوعية من التكنولوجيا لا تلائم معظم مجتمعات الدول النامية التي تريد إيجاد حلول عاجلة لمشاكل البطالة التي تعاني منها والحد من آثارها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على هذه الدول. إلاّ أنّ المستثمرين الأجانب لا توجد لديهم الرغبة في إعادة تصميم التكنولوجيا التي يقومون بنقلها للدول النامية، بحيث تتناسب واحتياجات هذه الدول وظروفها السائدة.

وعلى خلاف ذلك، فإنّ هؤلاء المستثمرين يركّزون، وإلى حد بعيد، على تحقيق أقصى ما يمكن من الأرباح من وراء نقل التكنولوجيا بأسرع وأسهل وسيلة، بحيث لا تضطر إلى إجراء أي تعديل عليها أو إعادة تصميمها. وهذا الأمر يؤدي إلى نتائج ضارة للدول النامية.

كما أنّ هذا المستوى المتقدم من التكنولوجيا المنقولة لا يساهم بشكل فعال في تدريب مواطني الدول النامية على نطاق واسع، خاصة وإنّ هدف هؤلاء المستثمرين من وراء عملية النقل لا يتضمن تحويل اقتصاد الدول النامية إلى اقتصاد أكثر تقدماً عن طريق استغلال الإمكانات المتوفرة فيه، لاسيما البشرية منها، من أجل التنمية. ولكنهم يركّزون على استغلال الوضع السائد لمصالحهم عن طريق استخدام التكنولوجيا التي يمتلكونها بدون إجراء أي تعديل عليها، إلاّ إذا دعتهم الضرورة لذلك ولمصلحتهم الذاتية.

ويبرر المستثمرون الأجانب نقلهم للتكنولوجيا المتميزة بالاستخدام المكثّف لرأس المال، وإلى عدم تعديل ما يستخدمونه من تكنولوجيا في فروعهم في الدول النامية إلى التقييم العقلاني لهم ولإنتاجهم فهم يرغبون بالمحافظة على الأسعار بشكل تنافسي، فيتذكر العديد من المستثمرين بأن

نسبة كبيرة من العمال قد لا يحضرون إلى العمل في المواعيد المحددة وبشكل منتظم مما يؤدي إلى التأخير والخسارة في الانتاج، وهذا الأمر يستدعي استخدام تكنولوجيا تتطلب عدداً قليلاً من العمال المهرة تجنباً لمثل هذه الامور التي تنتج عن استخدام عدد كبير من العمال.

ويلجأ المستثمرون الأجانب في الغالب إلى اعتماد سياسة معينة في الدول النامية لتحقيق المزيد من الأرباح، دون أن يتكلفون مبالغ اضافية لتطوير التكنولوجيا التي يمتلكونها، ويتم ذلك عن طريق بيع مواد مستهلكة وآلات ومعدات ومشاريع قديمة سبق وأن استخدموها في أسواق الدول المتقدمة وأصبحت قديمة نظراً لتطوير نماذج أفضل منها، وعدم قدرتها على المنافسة هناك، ويحقق هؤلاء المستثمرون من بيع هذه الأجهزة والمعدات أرباحاً كبيرة.

المبحث الثاني

التحديات التي تواجه الاقتصاد العراقي

يمكن أن نحدد أهم التحديات التي تواجه الاقتصاد العراقي بالآتي:

أولاً: توفير فرص العمل والحد من البطالة:

تبلغ البطالة أرقاماً عالية تدعو إلى القلق في العراق، ولا سيما البطالة بين الشباب، وليس من غير المألوف أن تصل معدلات البطالة إلى (٦٥ – ٧٠ ٪) في المائة أو أكثر، وعلى الرغم من محاولات الحكومة المؤقتة (مجلس الحكم) من إيجاد فرص عمل للعاطلين لاسيما في مجال الخدمات العامة، إلاّ أن نسبة البطالة أكبر بكثير من هذه الاجراءات والحلول الجزئية، فلابد من توسيع الاستثمارات وتحقيق معدلات نمو عالية في الاقتصاد قادرة على تشغيل أكبر نسبة ممكنة من هؤلاء العاطلين عن العمل الذين أصبح بعضهم، يلجأ إلى طريق غير مشروعة ومحرمة للكسب كالسرقة والارهاب، والذي له تأثيرات سلبية ليس فقط على الاقتصاد وانما على السياسة أيضاً.

ثانياً: تخفيض المديونية الخارجية:

يخضع العراق إلى مديونية خارجية ضخمة جداً تقدر بحوالي (١٣٠) بليون دولار. منها (٨٠) بليون دولار كديون أصلية، و (٥٠) بليون دولار كخدمة دين، تراكمت في الأعوام العشرين الأخيرة وان هذه المديونية تبلغ أكثر من عشرة أضعاف ناتج القومي الاجمالي للعراق. اضافة إلى مشكلة التعويضات المنصوص عليها في قرار مجلس الأمن ١٤٨٣، الذي يفرض على العراق دفع (٥) في المائة من عائداته النفطية إلى صندوق التعويضات، الذي تأسس في أعقاب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وان هذا الصندوق أقر على العراق دفع نحو (٥٠) بليون دولار، دفع منها فعلياً (١٩) بليون دولار.[١٠]

إن عملية مواصلة السداد لهذه التعويضات، وكذلك سداد المديونية الخارجية، يشكل عبئاً كبيراً أمام اقتصاد العراق وشعبه، خاصة وان هذه التعويضات ونسبة كبيرة من المديونية الخارجية لم تستخدم لخدمة الاقتصاد العراقي، ولم يكن الشعب العراقي مسؤولاً عنها، وبالتالي فإنها غير مبررة، لذلك فان العراق والكثير من الدول الشقيقة والصديقة والمنظمات الرسمية وغير الرسمية، تسعى لتقليص هذه المديونية أو اطفاء جزء منها، وقد عقدة اجتماعات وندوات في ذلك، كاجتماع الدول المانحة للعراق، الذي عقد في أسبانيا، وقد ضم (٨٠) دولة، وكذلك فان مجلس الأمن في قراره ١٤٨٣ احالة مشكلة المديونية الخارجية إلى نادي باريس (المتخصص بالديون الخارجية وجدولتها)، من أجل اعادة تنظيم المديونية الخارجية والفوائد المترتبة عليها، بالشكل الذي يمكن الاقتصاد العراقي من سداد مديونيته، ويستطيع أيضاً أن يحقق معدلات نمو مناسبة فيه.

ثالثاً: اعادة اعمار المنشآت الحكومية:

اضافة إلى الجراح التي يعاني منها الاقتصاد العراقي، من مديونية ضخمة،

وبطالة عالية، وتضخم مرتفع، فقد تعرضت معظم المنشآت الحكومية الإنتاجية منها والخدمية، وفي كافة أنحاء العراق إلى أضرار كبيرة، ليس فقط بفعل العمليات العسكرية التي قادتها قوات الاحتلال، وانما أيضاً بفعل عمليات السرقة والنهب والتخريب التي قام بها عدد غير قليل من أصحاب النفوس المريضة، الذين لا يحملون أية ولاء ووطنية تجاه وطنهم، إضافة إلى عناصر أجنبية معادية للإسلام وللعراق، استغلت فرصة دخول قوة الاحتلال وانهيار الحكومة الظالمة، وقامت بسرقة الكثير من تراث العراق وموجوداته، وأحرقت العديد من المؤسسات الحكومية، لبثّ حالة عدم الاستقرار في البلد.

وهذا كلّه أدّى إلى تدهور البُنى التحتية للإقتصاد العراقي، وإلى تعطيل الكثير من الدوائر والمؤسسات الحكومية عن عملها، ومن ثم حدوث تراجع كبير في الخدمات المقدّمة للمجتمع، كالماء والكهرباء والاتصالات والنقل وغيرها من الخدمات الضرورية للمجتمع.

رابعاً: إدارة المياه:

هذه المشكلة ليست خاصة بالعراق وحده، فالطلب العالمي على الماء يتضاعف كل (٢١) سنة، ونقص الماء يهدد الصحة والنمو الإقتصادي في (٨٠) دولة، حيث يفتقر ملياران من السكان إلى الماء النظيف ووسائل الصرف الصحي. والطلب على الماء ناتج في جميع الدول، بما فيها معظم الدول العربية والنامية، عن الزيادة الكبيرة للسكان، والتحضّر السريع، والطلب الصناعي والزراعي.

وينبغي ملاحظة أنّ (١٥٠٠٠) متراً مكعباً من الماء يمكن أن تروي هكتاراً واحداً من الأراضي التي ينتج الرز عالي الغلّة، أو توفر الاحتياجات لـ (١٠٠) من الأسر الريفية لمدة ثلاث سنوات، أو توفر احتياجات (١٠٠) أسرة حضرية لمدة سنتين، أو توفر الإمدادات لـ(١٠٠) من الفنادق الفاخرة لمدة (٥٥) يوماً، ولا تتوافر إدارة جيدة لاستثمار الماء، على الرغم من توفر نهرين كبيرين

فيه، هما دجلة والفرات. ولكن كمية الماء فيهما قليلة وآخذة بالتناقص، بحيث أنّها غير كافية لزراعة العديد من المحاصيل، وفي مقدمتها محصول الرز.(١١)

خامساً: الإصلاح الاقتصادي غير المناسب (الخصخصة):(١٢)

إنّ محاولة تحويل الاقتصاد العراقي من اقتصاد موجّه إلى اقتصاد السوق، وقبوله بشروط المؤسسات التمويلية الدولية، والسماح بحرية للشركات متعددة الجنسية، خاصة الأمريكية، للعمل بالعراق، وتحويل ملكية الدولة إلى القطاع الخاص المحلي و/أو الأجنبي (الخصخصة)، وإلغاء القيود الإدارية والمالية-الضريبية على الواردات.

هذه الإجراءات وغيرها التي يسعى العراق إلى تطبيقها، أو قد يطلب منه تنفيذها، فإنّها تعني أنّ على الدولة أن تتخلى عن سياسة التخطيط، وأن ترفع يدها عن قضايا الاستخدام، والحد الأدنى للأجور، ودعم أسعار السلع الضرورية لأفراد المجتمع، وتركها لآلية السوق، وتقليص النفقات الحكومية، لتقليل الخدمات العامة التي تقدمها الدولة لعامة المجتمع، كالغذاء والصحة والكهرباء والماء والتعليم، وغيرها من الخدمات العامة، مع الأخذ بسياسة مالية-ضريبية تؤكد على الضرائب غير المباشرة (ضرائب الإنتاج) لتقوم الشركات الإنتاجية بتحويلها إلى أسعار أعلى يتحمل عبأها المستهلكون، وبالذات أصحاب الدخول الثابتة من الطبقة الوسطى، والفئات الأقل دخلاً. وبذلك تصبح الحكومة حارسة لحماية مصالح الاستثمار الأجنبي، بعد التخلي عن مسؤولياتها تجاه تنمية الأغلبية. وسيقود هذا الفصل بين السياسة وبين الاقتصاد إلى حقوق سياسية شكلية في غياب الحقوق الاقتصادية لتجد ترجمتها في تصاعد فجوة الدخل والثروة، وإهمال معاناة عامة الناس، وزيادة عناصر عدم الاستقرار. وتصبح الصناعة العراقية تحت ضغط ومطرقة السلع المستوردة الرخيصة، عاجزة عن الصمود طويلاً أمامها. كما أنّ قطاع الصناعة الخاص، الذي يستخدم نحو عشر القوة العاملة المحلية، أخذ يترنح أمام السلع المستوردة، وإنّ منشآت القطاع العام،

التي تستخدم أكثر من مائة ألف عامل، هي الأخرى أخذت تعاني من عدم قدرتها على المنافسة مع مثيلاتها من الشركات الأجنبية.

وبالتالي، فإنّ الدعوات إلى تطبيق بعض البرامج والسياسات، قد يكون فيه بعض التبكير والعجلة. فالدعوة إلى تحويل ملكية القطاع العام إلى القطاع الخاص، تحت مبررات مختلفة، تتراوح بين مخاطر تركز المواد بيد الدولة على مسيرة الديمقراطية، وتعزيز النزعة الدكتاتورية، وبين ضرورة بناء مناخ اقتصادي جذاب للاستثمارات الأجنبية.

إنّ الهدف الرئيس من الخصخصة (Privatization) هو خلق شروط ملائمة لسوق اقتصادي حر تعكس الاسعار بصورة حقيقية مدى ندرة الموارد المتاحة، لتقود المستثمرين والمنتجين والمستهلكين نحو اتخاذ قرارات رشيدة تتّسم بالكفاءة. وإذا كانت فعاليات المشروعات العامة لا تتّسم بالكفاءة في استخدام الموارد عندئذٍ، قد يكون مبرّراً خصخصتها، وعلى أي حال، فإنّ تحديد الكفاءة الاقتصادية والحاجة إلى الخصخصة في ظل الاقتصاد الحر يمكن فقط الحكم عليها عند توفر الشروط المنافسة الكاملة، وفي اقتصاد منتج ومتطور (وهو غير قائم في العراق حالياً) وما لم تعكس الأسعار السائدة مدى ندرة الموارد المتاحة (وهي ليست كذلك في حالة العراق)، فمن الصعوبة تحديد قيمة موجودات المشروعات العامة بغرض بيعها، من هنا يكون من الصعب جداً اتّخاذ قرار بالخصخصة على نحو منفصل عن الأسس الاقتصادية، ذلك أنّ خصخصة المشروعات العامة هي جزء من عملية تحرير السعر لتحسين كفاءة تخصيص الموارد في كافة المشروعات العامة والخاصة والمشتركة والتعاونية... يضاف إلى ذلك أنّ خصخصة المشروع العام في اقتصاد تنتفي فيه شروط المنافسة الكاملة، تتطلب استنفاذ الصيغ الإصلاحية، تتقدمها إصلاح الإدارة الاقتصادية لهذه المشروعات، كما أنّ خصخصة أي مشروع عام، من الناحية العملية، لا يمكن المبادرة بها قبل تنفيذ بقية البرامج الإصلاحية لبناء السوق الحرة.

الأكثر من ذلك أنّ تقييم مشروعات القطاع العام شرط أوّلي للخصخصة، وهذا أمر جوهري للمحافظة على الاستعداد المسبق للعديد من المشروعات العامة، حيث لا يمكن للقطاع الخاص أن يتحمل الأعباء التي تقوم بها تلك المشروعات، هذا علاوة على أنّ سيادة السوق غير الحرة لأسباب تتعلق بعدم نضوج الاقتصاد وضعف قدرته من جهة، ومسؤولية الدولة التدخل لغاية بلوغه مرحلة تحقيق متطلبات الأمن الاقتصادي الوطني، ترتبط بعناصر عميقة تجذرت في جسم المجتمع العراقي بكافة جوانبه البيئية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تتطلب مراعاتها عند رسم السياسات الاقتصادية، والتي شكلت جزءاً مهمّاً وملحّاً من واجبات الدولة العراقية تجاه مواطنيه على مدى السنوات السابقة.

المبحث الثالث

دراسة تحليلية في مسودة قانون الاستثمار الاجنبي

أولاً: معاملة المستثمرين الأجانب:

١- نصت النقطة (١) من هذا الموضوع (يحق للمستثمر الأجنبي أن يقوم باستثمارات اجنبية في العراق وفقاً لشروط لا تقل تفضيلاً عن تلك المطبقة على المستثمر العراقي).

وهذا يعني ان المستثمر الأجنبي يعامل على قدم المساواة مع المستثمر العراقي في الاستثمار في العراق، أي يتمتع بكافة الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها المستثمر العراقي في بلده.

وهذا شيء فيه ظلم للمستثمر العراقي، لأنه في ظل المنافسة المجردة فان المستثمر الاجنبي يتميز على المستثمر العراقي بامكاناته وخبراته، وبالتالي فان الفرص ستكون اكبر امام المستثمر الاجنبي للاستثمار في العراق.

اضافة الى ذلك فان اهداف المستثمر الاجنبي قد لا تقتصر على تحقيق اقصى الأرباح، وإنما قد تمتد الى ترسيخ التبعية، وجعل الاقتصاد العراقي سوقاً

لتصريف بضائع الدول المتقدمة، وعدم فاعلية المستثمر الأجنبي في تقليل نسبة الباطلة، وذلك بسبب ارتفاع معدلات التكنولوجيا التي يستخدمها وقلة الايدي العاملة التي يعتمد عليها ولاسيما المتخصصة منها.

في حين ان المستثمر العراقي هو ابن البلد، وان سعى الى تحقيق أقصى الأرباح فانه لا يقوم بتحويلها الى الخارج، وإنما يقوم بإنفاقها في داخل بلده، التي ستكون لها تأثيرات على الانتاج والاستخدام.

لذلك نرى ضرورة ان يميز المستثمر العراقي عن الأجنبي ولو بشيء بسيط كإعفائه من ضريبة معينة او رسم معين او نسبة منهما او غير ذلك من الامور، كأن تحدد مجالات معينة تقتصر فقط على المستثمر العراقي، وخاصة في تلك المشاريع الصناعية والزراعية والخدمية الت قطع المستثمر العراقي شوطاً طويلاً موفقاً فيها، وهذا يدخل في مجال حماية الانتاج الوطني من المنافسة الأجنبية.

٢- نصت النقطة (٢) من ذات الموضوع: (مقدار المشاركة الاجنبية في مشاريع تجارية موجودة او مؤسسة حديثاً في العراق، يجب ان لا تكون محدودة باستثناء ما تم النص عليه بصورة صحيحة هاهنا).

تشير هذه الفقرة الى أن نسبة مشاركة المستثمر الاجنبي في المشاريع التجارية (قد تكون غير انتاجية..) سواء أكانت مقامة ام حديثة في العراق، يجب ان لا تكون محددة، أي يجب ان لا تحدد بنسبة معينة، بل ينبغي ان تكون هذه المشاركة خاضعة لإرادة المستثمر الاجنبي، وبالتالي قد تكون كبيرة او صغيرة، بتعبير آخر ان الذي يحدد نسبة المشاركة هو المستثمر الاجنبي، وليس أي جهة اخرى.

كما ان كلمة المشاريع التجارية التي ينوي المستثمر الاجنبي المشاركة فيها، كلمة غير واضحة، هل يقصد بها مشاريع لبيع السلع الاجنبية الجاهزة والمصنعة في الخارج، فاذا كان كذلك فان هذه المشاريع لا تخدم الاقتصاد

العراقي، بل تؤدي الى زيادة الميول والرغبات امام المستهلك العراقي وبالتالي تشعره انه امام حاجات كثيرة لا يمكن اشباعها، اضافة الى ان هذه السلع المستوردة قد يكون لها تأثيرات سلبية على الصناعات الوطنية وعلى ميزان المدفوعات.

وعلى العموم، فانه حتى مع كون هذه المشاريع هي تجارية، يفضل ان تحدد السلع التي سيتم استيرادها الى العراق من قبل لجنة عراقية في وزارة التجارة.

أما اذا كانت المشاريع التجارية يقصد بها مشاريع انتاجية صناعية وزراعية، فان المشاركة يفضل أن تقتصر على المشاريع المؤسسة حديثاً، أما المشاريع القائمة فيفضل ان تكون من حصة العرقيين فقط، وأقصد بالتحديد العاملين الموجودين في تلك المشاريع من خلال آلية معينة للعمل كأن تكون نسبة مشاركة بينهم وبين الحكومة او عن طريق عقد ايجار لمدة زمنية معينة أو غير ذلك من الأساليب التي تبقي العاملين في مشاريعهم، وهنا شيء يعزز من روح المواطنة ويقوي الروابط بين المواطن ووطنه، والتي تفوق في مقاييسها الأشياء المادية.

أما اذا كان لابد من مشاركة الأجنبي إلى جانب العراقي في المشاريع المقامة والحديثة وبغض النظر عن نوعية نشاط هذه المشاريع، فنقترح أن تكون نسبة المشاركة للأجنبي في هذه المشاريع أن لا تتجاوز (٥٠٪)، وذلك لتحقيق شيئين هما:

أ- امكانية استفادة المستثمر العراقي.

ب- تحقيق الرقابة على نشاطات هذه المشاريع.

علماً انه في معظم الدول العربية أن نسبة المشاركة الأجنبية في المشاريع التجارية لا تتجاوز (٤٩٪)، فلماذا نجعل نسبة المشاركة يحددها الأجنبي والتي قد تكون (٩٩٪) وفقاً لنص القانون.

ثانياً: الموضوع: المكاتب والفروع التجارية:

يشير هذا الموضوع إلى أنه (يمكن للمستثمر الاجنبي فتح مكاتب وفروع تجارية في العراق ويجب تسجيل هذه المكاتب والفروع لدى المسجل العراقي للشركات).

نعم يجب أن تسجل كل المكاتب والفروع التجارية، وكذلك يجب ان تسجل نوع نشاطاتها، وحجم مبيعاتها والجهات التي تتعامل معها حتى نستطيع ان نعرف ممن نشتري البضائع وما هي طبيعة هذه البضائع قبل دخولها الى السوق العراقية.

ثالثاً: الموضوع: مجالات الاستثمار الاجنبي:

١- نصت النقطة (١) من هذا الموضوع: (يمكن القيام باستثمار اجنبي في القطاعات الاقتصادية في العراق كافة باستثناء التملك الاجنبي المباشر وغير المباشر لقطاع المصادر الطبيعية المتعلقة باستخراج الاولى والمعاملة الاولية يبقى ممنوعاً فضلاً عن ذلك فإن هذا الامر لا يطبق على المصارف وشركات التأمين).

ان هذه النقطة غير دقيقة وغير واضحة المعالم، ومع ذلك يفهم منها الآتي:

أ- يسمح بالاستثمار الأجنبي في كافة القطاعات الاقتصادية في العراق بما فيها قطاع النفط والموارد الطبيعية الاخرى.

ب- يسمح بالتملك الأجنبي المباشر وغير المباشر (التملك الباطن او بواسطة) بكافة القطاعات الاقتصادية في العراق باستثناء قطاع النفط والموارد الطبيعية الاخرى.

ج- أما ما يتعلق بالمصارف وشركات التأمين، فإن العبارة الموجودة في نص القانون غير واضحة تماماً، اذ لا يعرف هل يسمح للاستثمار الاجنبي في المصارف وشركات التأمين أم لا يسمح فيها، وكذلك هل يسمح التملك الاجنبي فيها ام لا يسمح في ذلك.

فيما يتعلق بالاستثمار الاجنبي في كافة القطاعات الاقتصادية في العراق، بما فيها قطاع الموارد الطبيعية فإنها حالة صحية في الاقتصاد، اذ كان هذا الاستثمار متوازناً بين القطاعات الاقتصادية، أي يجب عدم التركيز على قطاع معين كالنفط والمجالات المكملة لقطاع التصدير كالنقل والتأمين والموانئ ومشروعات توليد الطاقة، وإهمال بقية القطاعات الاقتصادية المكونة للاقتصاد الوطني، خاصة تلك التي تربط بمصالح افراد المجتمع ومجالات البحوث والتطوير.

أما ما يخص التملك الاجنبي المباشر وغير المباشر، فان هذه الفقرة لا توضح وبشكل دقيق المجالات التي يتملك فيها المستثمر الاجنبي او لا يتملك فيها. فيبدو من القراءة للنص انه بإمكان المستثمر الاجنبي ان يتملك وفي كافة القطاعات الاقتصادية باستثناء قطاع الموارد الطبيعية، ولكن اذا انتقلنا الى موضوع استخدام الملكية العقارية، فان الموجود في النقطة (١) يشير وبوضوح تام الى عدم جواز المستثمر الاجنبي او المشروع التجاري بتملك العقار (الأرض) ولكن يمكن الاستفادة من العقار بالإجازة او الايجار، اذ تنص النقطة (لا يجوز للمستثمر الاجنبي او المشروع التجاري وبأي مستوى من المشاركة بالاستثمار الاجنبي في أي ظروف كانت شراء حقوق التصرف والانتفاع من الملكية العقارية الخاصة).

نقترح ان تعاد النقطة (١) من موضوع مجالات الاستثمار الاجنبي بالشكل الآتي: (يمكن القيام باستثمار اجنبي في كافة القطاعات الاقتصادية في العراق بما فيها المصارف وشركات التأمين وبدون تملك للشخص الأجنبي الطبيعي او المعنوي (الشركة) للأرض العراقية).

٢- نصت النقطة (٣) من ذات الموضوع: (يمنع المستثمر الاجنبي من القيام بالبيع المفرد الا اذا قام هذا المستثمر بإيداع مبلغ (١٠٠) ألف دولار قبل (٣٠) يوماً من البيع بالمفرد في حساب من دون فوائد ويكون الايداع في مصرف

عراقي مرخص بشكل سليم في داخل العراق طبقاً لإجراءات يتم وضعها من قبل وزارة التجارة، وحالما يتم الايداع طبقاً لإجراءاتها تصدر وزارة التجارة المستندات للمستثمر الاجنبي التي تعكس التخويل للقيام بمبيعات المفرد المذكورة ويبقى المبلغ المودع طوال المدة الكاملة التي يقوم بها المستثمر الأجنبي بأعمال المبيعات بالمفرد).

تشير هذه النقطة الى انه يحق للمستثمر الأجنبي ان يقوم بأعمال البيع بالمفرد بعد أن يقوم بإيداع مبلغ مقداره (١٠٠) ألف دولار قبل (٣٠) يوماً من عمليات البيع هذه في حساب جاري لدى مصرف عراقي، ولا يقوم بسحب هذه الوديعة إلا بعد ان تتم جميع عمليات البيع بالمفرد وتحقق هذه الآلية فاعلية أكبر للاقتصاد العراقي فيما لو تم اضافة جملة في نهاية نص هذه النقطة، وهي (بشرط ان لا يتم سحب هذا المبلغ إلا بعد فترة زمنية لا تقل عن ستة أشهر)، وبوجود هذه العبارة ضمن نص النقطة (٣) يمكن ان نحقق شيئين هما:

أولاً: ان هذه المبلغ المودع يتحول من وديعة جارية الى وديعة ثابتة مدتها تزيد عن ستة أشهر، وهذا الشيء يساهم في زيادة السيولة النقدية لدى المصارف العراقية والذي يقود الى زيادة قدرتها الاقراضية والاستثمارية، والذي له تأثيرات ايجابية على الاستثمار والاقتصاد.

ثانياً: ان مدة ستة اشهر تعطي فرصة اكبر للاجهزة الرقابية وللسيطرة النوعية للتحقق من مدى جودة السلعة وصلاحيتها للمجتمع والتأكد من ان عمليات البيع تسير وفق الصورة المرسومة لها.

رابعاً: الموضوع: تنفيذ الاستثمار الاجنبي:

يشير الفرع (أ) من النقطة (١) من هذا الموضوع الى السماح للاجنبي بالتملك في العراق اذ تقول هذه النقطة أ- (انشاء مشروع اجنبي مملوك كلياً في العراق بما في ذلك مشاريع تابعة للاستثمار الاجنبي).

كما ان الفرع (أ) من النقطة (C) يتضمن اشارة الى الملكية من خلال

وجود كلمة يملك اذ ينص الفرع (أ- يملك استخدام او التصرف باستثماراته).

كذلك فان النقطة (٣) من ذات الموضوع تتضمن اشارة الى الملكية الاجنبية من خلال السماح للمستثمر الاجنبي ان يحول مدفوعات الملكية الى خارج العراق، وهذا يتناقض مع عدم جواز الملكية العقارية للاجنبي وبأي مستوى كان كما تذكرها النقطة (١) من موضوع (استخدام الملكية العقارية).

لذلك نقترح ان يعدل الفرع (أ) من النقطة (١) بحيث تضاف كلمة باستثناء الأرض، ويصبح نص الفرع أ- (انشاء مشروع اجنبي مملوك كلياً في العراق باستثناء الأرض بما في ذلك مشاريع تابعة للمستثمر الاجنبي).

وتستبدل كلمة يملك بكلمة يبيع ويصبح نص الفرع أ- (يبيع استخدام او التصرف باستثماراته).

أما النقطة (٣) من ذات الموضوع فانه يقترح ان تحذف منها عبارة مدفوعات الملكية وتصبح عندئذ النقطة (٣)-(الفائدة ورسوم الادارة والأجور والمدفوعات الأخرى المدفوعة طبقاً لعقد).

كذلك أكد الفرع (ث) ونقاطه (١، ٢، ٣، ٤) من موضوع تنفيذ الاستثمار الاجنبي على الآتي: (تحويل جميع الاموال المرتبطة للمستثمر الاجنبي للخارج من دون تأخير وتشمل:

١- الأسهم والأرباح والعائدات

٢- مدخولات مبيعات او التصرفات الاخرى باستثماراتها الاجنبية او جزء منه.

٣- الفائدة، مدفوعات الملكية، رسوم الادارة والأجور والمدفوعات الاخرى المدفوعة طبقاً لعقد.

٤- التحويلات الأخرى المصدق عليها من قبل وزارة التجارة.

أي ان المستثمر الأجنبي يحق له تحويل ما يشاء من جميع امواله المكتسبة في العراق الى الخارج وبدون تأخير، وهذه الأموال تشمل: الأرباح

والفوائد والأسهم والعائدات ومدخولات المبيعات والأجور وغيرها من مصادر الدخل التي يحققها المستثمر الأجنبي في العراق.

وهنا يعني ان مسودة القانون لم تلزم المستثمر الاجنبي بإعادة استثمار أي نسبة من امواله المتحققة في مشاريع انتاجية في العراق، بل تركت له الحرية في ذلك.

كذلك فان مسودة القانون لم تذكر الطريقة التي يعتمدها المستثمر الأجنبي لتمويل استثماراته في العراق، أي هل يتم تحويلها من خارج العراق (من رأسماله الخاص او عن طريق الاقتراض من المصارف الاجنبية، أم يتم تحويلها من السوق المحلية العراقية من خلال الاقتراض من المصارف العراقية.

لأنه اذا تم تمويل هذه الاستثمارات من رأسمال المستثمر او عن طريق الاقتراض من المصارف الاجنبية فانه يساهم في الاضافة الى ما هو موجود من عملات صعبة في البلد، وهذا له نتائج ايجابية على الاقتصاد الوطني.

اما اذا تم تمويل هذه الاستثمارات من داخل السوق المحلية العراقية، وهذا هو ما تتبعه معظم الشركات الاجنبية والمستثمرين الاجانب كما تشير إليه معظم الدراسات، حيث تقوم باقتراض ما تحتاجه من اموال من المصارف المحلية وبشروط قد تكون افضل مما تستطيع الحصول عليه حتى من الشركات الوطنية لأنها تكون مدعومة باعتبارها شركات عالمية، وهذا الأمر يؤدي الى تخفيض الاموال المتوفرة في السوق المحلية للشركات الوطنية، فمثلاً تشير احدى الدراسة الى قيام الشركات الامريكية بتحويل ما نسبته (٩٪) فقط من كافة الاموال التي استخدمتها هذه الشركات في امريكا اللاتينية من الخارج، أما الاموال الباقية والتي نسبتها (٩١٪) فقد حصلت عليها من المصادر الداخلية لهذه البلدان المضيفة للاستثمار.[١٣]

وهناك دراسة اخرى تؤكد نفس التوجه للشركات الاجنبية من انها تعتمد في تمويلها للاستثمار على مصادر اموال البلد المضيف، ولا تجلب معها الى البلد

المضيف إلا القليل جداً من الاموال من البلد الام او الخارج، وهي دراسة الباحثين (سترين ولال) اللذين يؤكدان ان الشركات الامريكية لم تمول الا ما نسبته (١٢٪) فقط من اجمالي الانفاق الاستثماري الذي قامت به في الدول النامية. أما نسبة (٨٨٪) من اجمالي استثماراتها فقد تم تمويلها عن طريق الاقتراض من السوق المالي للبلد المضيف والأسواق المالية الخارجية. (١٤)

ان هذه الممارسات للشركات الاجنبية وللمستثمر الاجنبي تجعل مساهماتها في عملية النمو والتنمية الاقتصادية في العراق والدول النامية محدودة جداً، بل ان عمل هذه الشركات قد يؤدي الى حدوث عجز في ميزان مدفوعات تلك الدول النامية ومنها العراق، اذا علمنا ان الشركات الاجنبية لدى قيامها بنقل تكنولوجيا معينة تحظر على الدول النامية تصدير منتجات هذه التكنولوجيا، وتقصرها على السوق المحلية فقط لتلك الدول النامية، ونتيجة لذلك تنعدم فرص التصدير لفائض المنتجات التي يمكن انتاجها بواسطة التكنولوجيا مما يؤدي الى عدم تمكن الدول النامية من الحصول على النقد الاجنبي الذي تكون بأمس الحاجة اليه لتمويل مشاريعها الاخرى، التي تحتاج الى شراء لوازم ومعدات من الخارج ودفع ثمنها بالنقد الاجنبي الذي لا يتوفر دائماً لديها، فيؤدي هذا الامر الى حدوث عجز في ميزان مدفوعاتها.

كذلك فان هذه الممارسات تمتد الى ان التكنولوجيا المنقولة تكون منتجة في غالب الاحيان لمواد استهلاكية لا تساعد الدول النامية في تنفيذ خططها الانمائية، لأن هذه التكونولوجيا لا تساهم في حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها العراق والدول النامية، فالشركات الاجنبية لا تستثمر اموالها في البحوث والتطوير الذي يمكن ان ينتج عنه تكنولوجيا مناسبة لحل المشاكل التي يعاني منها العراق وغالبية شعوب الدول النامية، مثل تأمين غذاء بتكاليف قليلة بأسعار مناسبة وتحسين وسائل المواصلات العامة وما الى ذلك من مشاكل ذات مساس مباشر بحياة المواطن، والتي تستدعي ايجاد

حلول سريعة لها.

في ضوء ما تقدم يتطلب الآتي:

١- يتم تحديد نسبة معينة ولتكن (٥٠٪) من اجمالي ارباح وفوائد ومكاسب المستثمر الاجنبي والمشاريع التجارية ليعاد استثمارها في داخل العراق، أما النسبة الباقية فيخير المستثمر الاجنبي بين تحويلها الى بلده الاصلي او الى الخارج او ابقائها في داخل البلد، على الأقل لمدة ٥ سنوات بعدها يخير المستثمر بين اعادة استثمار دخله او تحويله الى الخارج.

٢- يتم تمويل كل عمليات الاستثمار الاجنبية من رؤوس الاموال الاجنبية المتأتية من الخارج (من رأسمال الشركة او المستثمر او الاقتراض من المصارف الاجنبية) حتى لا يتم التأثير على وضع العملة الوطنية في البلد.

٣- تعطى الاولية في الاستثمار للمشاريع الانتاجية.

٤- يفضل ان توجه الاستثمارات الاجنبية نحو المجالات التي تساعد على حل المشاكل التي يعاني منها المجتمع العراقي وتحقق للاقتصاد توازنه.

٥- ان الاستثمار الاجنبي يميل الى الاستثمار في قطاع الموارد الاولية في الدول النامية، ويقدر ان ثلثي الاستثمارات الاجنبية تذهب الى الصناعات الاستخراجية (الزراعية والصناعية) والثلث المتبقي من هذه الاستثمارات تتقاسمه القطاعات الاخرى وعلى رأسها قطاع الخدمات. في حين ان نشاط البحوث والتطوير لا يتوجه اليها الاستثمار، لذلك يفضل ان يخصص جزء من استثمارات الشركات الاجنبية والمستثمرين الاجانب نحو الاستثمار في مجال البحوث والتطوير في العراق والدول النامية.

خامساً: الموضوع/ استخدام الملكية العقارية:

١- نصت النقطة (١) من هذا الموضوع: (وبعد تاريخ هذا الامر وباستثناء ما هو مسموح به طبقاً للقانون لا يجوز للمستثمر الاجنبي او المشروع التجاري وبأي مستوى من المشاركة بالاستثمار الاجنبي في أي ظروف كانت شراء حقوق

التصرف والانتفاع من الملكية العقارية الخاص).

هذه النقطة تشير وبوضوح الى انه لا يحق للمستثمر الاجنبي او المشروع التجاري وبأي مستوى من المشاركة بالاستثمار الاجنبي من شراء حقوق التصرف والانتفاع من الملكية العقارية الخاصة، أي لا يحق لأي اجنبي شراء أي قطعة ارض عراقية سواء اكان بصورة مباشرة او غير مباشرة لأن الهدف المعلن من المستثمر الاجنبي و المشروع التجاري هو الاستثمار وليس التملك في العراق.

٢- نصت النقطة (٢) من ذات الموضوع: (يتم تحديد مدة اية اجازة بمدة العمليات المتعلقة بالاستثمار الاجنبي، ان الشرط المبدئي للاجازة يجب ان لا يتجاوز (٦٠) عاماً على الاكثر وربما يمكن تجديده لفترات اضافية يمكن مراجعة الاجازات بواسطة الحكومة الممثلة المعترف بها دولياً والمؤسسة من قبل الشعب العراقي، وعند تقلدها لمسؤوليات سلطة الائتلاف المؤقتة).

ان مدة الاجازة المقرة في مسودة القانون، تمتد الى (٦٠) سنة قابلة للزيادة، وهي مدة طويلة جداً تشبه الى حد ما التملك، لذلك نقترح ان نقلص الفترة الى (٤٠ سنة) مثلاً، كما ان هذه الفترة الزمنية وهي (٤٠) سنة لا تحتاجها جميع المشاريع فبعض المشاريع الاستثمارية نعم تحتاج الى مثل هذه الفترة الزمنية الطويلة، حتى تتمكن من استرجاع رأسمالها، وتحقيق ارباحها مثل ذلك مشاريع الكهرباء والسكك الحديدية وغيرها من المشاريع التي تتطلب في بداية عملها الى رؤوس اموال ضخمة في حين ان البعض الآخر من المشاريع التجارية والإنتاجية الصناعية والزراعية الصغيرة والمتوسطة لا تحتاج الى مثل هذه الفترة الزمنية الطويلة بل يجب ان تقلص الى (٢٠) سنة مثلاً.

لأن الهدف من الاستثمار هو بالإضافة الى تحقيق فوائد للمستثمر الاجنبي ايضاً يجب ان يستفاد العراق ومواطنيه من عملية الاستثمار هذه ، لأن بقاء المشاريع لهذه الفترة الطويلة (٦٠) سنة بيد الاجنبي، وبعدها يحق له التصرف بها

بالبيع، تكون هذه المشاريع قد وصلت الى مرحلة الاستهلاك النهائي، وأصبحت مشاريع متخلفة لا تستطيع مواكبة التطوير، وكأن المستثمر الاجنبي بهذا الاستغلال الطويل لمشروعه قد استنفذ كل طاقاته ولم يترك شيئاً للعراق لكي يستفاد منه في عملية النمو والتنمية الاقتصادية.

سادساً: الموضوع/ التأمين:

ينص هذا الموضوع في مسودة القانون انه (يسمح للمستثمر الاجنبي الحصول على التغطية التأمينية لجميع مجالات عملياته وذلك من قبل أي مصدر اجنبي او عراقي يعد مناسباً للمستثمر الاجنبي).

في ظل المنافسة التامة فان المستثمر الاجنبي يميل الى تأمين كل موجوداته وبضائعه ومشاريعه في شركات التأمين الاجنبية وليست العراقية، والسبب في ذلك يعود للامكانات الكبيرة التي تتمتع بها شركات التأمين الاجنبية وخبرتها الطويلة في هذا المجال، ولعلاقاتها وارتباطاتها القائمة مع هؤلاء المستثمرين الاجانب، مقارنة مع محدودية عمل شركات التأمين الوطنية العراقية وامكاناتها المتواضعة، وبالتالي فان الكفة في التأمين تتجه نحو شركات التأمين الاجنبية دون العراقية.

وعلى ضوء ما تقدم ومن اجل تطوير شركات التأمين الوطنية العراقية والاستفادة من اموال التأمين المودعة لديها في مجالات استثمارية تخدم الاقتصاد العراقي وتحقق لهذه الشركات الوطنية ارباحاً، نقترح ان يكون التأمين قائماً على اساس المشاركة بين شركات التأمين الاجنبية وشركات التأمين العراقية، والا لا تكون هناك اية فرصة تتوفر امام هذه الشركات لتطوير امكاناتها وقدرتها على خدمة الاقتصاد الوطني.

سابعاً: الموضوع/ معاملة الضريبة:

ينص هذا الموضوع في مسودة القانون انه (يمكن ان يصدر المدير

الاداري اوامر اخرى للتعامل مع الدخل المستحصل من الاستثمار الاجنبي الذي يعاد استثماره في مشروع تجاري عراقي).

ان هذا النص يشير الى ان المدير الاداري يمكن ان يصدر امراً ادارياً او لا يصدر أي امر اداري فيما يتعلق بالدخل المستحصل من الاستثمار الاجنبي الذي يعاد استثماره في مشروع تجاري عراقي.

ومن اجل تحقيق الفائدة من عملية الاستثمار الاجنبي في العراق، نقترح ان يتبع احد الاسلوبين:

الاول: ان تفرض ضرائب تصاعدية على الاموال التي تحول الى الخارج ولا يعاد استثمارها في العراق في مشاريع انتاجية، أما الاموال التي يعاد استثمارها في العراق فلا ضريبة عليها. ومن اجل تحقيق هذا الهدف يجب ان يكون في العراق جهاز ضريبي متطور يتمتع بأداء وكفاءة عاليين.

الثاني: ان تحدد نسبة معينة ولتكن (٥٠٪) من اجمالي الدخل المتحقق للمستثمر الاجنبي يجب ان يعاد استثماره في مشاريع انتاجية في العراق، وعلى الاقل لمدة (٥ سنوات).

ومن اجل تحقيق ذلك لابد من تقدير اجمالي دخل المستثمر الاجنبي، على الرغم من وجود صعوبة في ذلك، وهذه الصيغة ناجمة عن تعدد اوجه التحويل التي يقوم بها المستثمر الاجنبي والتي تكون على صور عديدة، كتحويل الارباح والفوائد على القروض التي يقدمها المستثمر او الشركة في المركز الى الشركات او المستثمرين التابعين في البلد المضيف ورسوم الادارة وعوائد العمال وغير ذلك، وهناك العوائد التي يحصل عليها المستثمرين والتي لا ترتبط بالاستثمار كعوائد ريع تصدير التكنولوجيا.

خلاصة البحث:

بعد القراءة التحليلية لمسودة القانون الصادر عن سلطة التحالف حول الاستثمار الاجنبي في العراق يمكن ان نلخص النقاط الآتية:

١-ان مسودة القانون لم تحدد فقط دور الدولة في كل من الاستثمار وإعادة الاعمار، وتطوير البنية التحتية للاقتصاد الوطني، ومعالجة مشكلات البطالة والمديونية، بل جعلت كل ذلك من اهتمامات القطاع الخاص الوطني والأجنبي، أي انها اكدت على آلية السوق وعولمة الاقتصاد العراقي نحو الشركات الكونية.

٢-غيبت مسودة القانون الجهاز الرقابي الحكومي عن الاستثمار الأجنبي حتى اقتصر دوره على تسجيل المكاتب والفروع العائدة للمستثمر الاجنبي، ولم يذكر اية دور للسلطات الحكومية في مجال وضع البرامج الاستثمارية وتحديد الاولويات للمشاريع الاستثمارية والإشراف والمراقبة على عمليات الاستثمار من الخطوات الاولى للمشروع الى تنفيذه ثم قيامه بعرض بضاعته، ثم الى تحويل ارباحه، وعلاقته بالبيئة المحيطة به، ومدى استفادة الاقتصاد الوطني منه.

٣-أقرت مسودة القانون عمومية مفهوم المستثمر الاجنبي والاستثمار الاجنبي، وعدم تحديدهما بما يتلاءم وظروف العراق، فالمستثمر الاجنبي يفهم منه أي شخص طبيعي او معنوي له القدرة ويرغب بالاستثمار في العراق، حتى ولو كان ذلك الشخص يحمل افكاراً معادية للعراق.

كذلك فان مفهوم الاستثمار الاجنبي في مسودة القانون غير محدد بحيث يشمل الاستثمار في جميع مجالات الحياة في العراق وفي كل مكان او اقليم فيه، وهذا يعني انه لم تراعى الاعتبارات الدينية والتاريخية و التراثية والفكرية التي يتمتع بها العراق، والتي يجب أن تأخذ في نظر الاعتبار فهناك المناطق الدينية المقدسة وهناك المناطق التاريخية وهناك التراثية، فلا يصح ان نطلق الاستثمار امام كل المجالات ولجميع الاقاليم في العراق. وبدون اية قيود او

شروط تنظم عملياته في العراق.

٤-اكدت مسودة القانون على الاستثمار المادي ولم تؤكد على الاستثمار البشري الذي هو سر عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة وأساسها اذ انه مهما كانت مستويات الاستثمار المادية من التوسع والتقدم لا يكتب لها النجاح، وتصبح مجرد هياكل وأبنية وأجهزة لا فائدة منها، ما لم تقترن بتقدم الانسان نفسه، لذلك نحن بحاجة ماسة في هذه المرحلة الى القضاء على الامية الموجودة في البلد، والى اعادة تدريب وتأهيل الكوادر الفنية والإدارية والى صقل الخبرات وتطويرها بما يتلاءم مع التقدم الحاصل في الاجهزة والمعدات، وعلى الاهتمام بمؤسسات التربية والتعليم والبحث العلمي، والتأكيد على العمل الجماعي والثورة فيه، وعبى الرقابة الذاتية في العمل.

٥- ايجاد هيئة عامة للاستثمار في العراق لتنظيم عمليات الاستثمار والإشراف عليها وضرورة تثقيف المستثمرين والشركات العراقية على اهمية التعاون والاندماج فيما بينها لتطوير قدراتها وامكانياتها المادية والبشرية لكي تستطيع منافسة الشركات الاجنبي، واخذ دور اكبر في الاستثمار.

٦- يجب ان تكون قوانين الاستثمار وغيرها من القوانين العراقية قد تمت دراستها ومناقشتها من ذوي الاختصاص والخرة ثم اصدر اوامر ادارية بإقرارها من قبل السلطات العراقية نفسها، لكي تعبر عن مصالح الشعب العراقي، وغير تابعة او مسخرة لخدمة اقتصاديات معينة.

٧- كذلك في حالة اقرار مسودة القانون هذه فيجب على الاقل الأخذ بالمقترحات الواردة في متن البحث والمتعلقة بالآتي:

أ- اعادة صياغة فقرات القانون بشكل واضح ودقيق بحيث تصبح غير قابلة للتأويل.

ب- التأكيد على عدم تملك الاجنبي بصورة مباشرة او غير مباشرة لأرض عراقية ولكن يحق له الاستفادة منها بالإجازة والإيجار ولفترات غير طويلة.

ج- اعطاء الافضلية للمستثمر العراقي في حالة مساواته في العطاءات امام المستثمر الاجنبي.

د- يبقى الجهاز المصرفي العراقي تحت سيطرة الدولة وإشرافها، ويحق للمستثمر الاجنبي الاستفادة منه في حدود= الاستثمار وخدمة الاقتصاد الوطني.

٨- في ضوء ما تقدم نحن مع الاستثمار الاجنبي، ولكن ليس المطلق، وإنما المحدد بشروط معينة التي يسمح لها الدين الاسلامي وتخدم الاقتصاد العراقي، وتسعى الى حل معظم المشاكل التي يعاني منها المجتمع العراقي، كالبطالة والأمية وانخفاض مستويات التدريب والتعليم، وزيادة القدرة التنافسية للمنتجات الوطنية امام المنتجات الاجنبية، وتحسين قطاعات النقل والمواصلات والاتصالات.. الخ.

٩- ضرورة دعم القطاع الخاص وتطويره لزيادة فاعليته في الحياة الاقتصادية في الدول النامية، ولتشجيعه على المنافسة مع الشركات الاجنبية.

١٠-تحفيز الوحدات الاقتصادية والخدمية وكذلك المؤسسات المالية على الاندماج مع بعضها البعض ومساعدتها على التكامل فيما بينها لتقليل تكاليف الانتاج ولتحسين نوعية منتجاتها ومن ثم القدرة على الصمود في السوق امام البضائع المستوردة.

١١-التأكيد على دراسات الجدوى الاقتصادية والفنية والاجتماعية في البلدان النامية قبل دخول الاستثمارات الاجنبية فيها لاختيار الاكثر نفعاً لاقتصاداتها ولمجتمعاتها.

١٢-ضرورة زيادة التجارة البينية بين الدول العربية، وتوسيع قنوات التكامل مع بعضها البعض لزيادة القوة التفاوضية ولتسهيل عملية تبادل المعرفة والتكنولوجيا فيما بينها. وغير ذلك من اشكال التعاون في مجال العلم والتكنولوجيا من اجل الخروج من دائرة سيطرة الشركات متعددة الجنسية.

الهوامش والمصادر

١- طلال محمد علي ججاوي، الأبعاد الاقتصادية والسياسية للتوافق المحاسبي الدولي وانعكاساته علىالبيئة العراقية، اطروحة دكتوراه في المحاسبة، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٠، ص٦٢.

٢- دراج مروان، الشركات المتعددة الجنسية.. راس حرية منظمة التجارة، شبكة الانترنيت، ٢٠٠١، ص٢.

٣- المصدر نفسه، ص٣.

٤- فتحي سليم، الشركات متعددة الجنسيات، شبكة الانترنيت، ٢٠٠٣، ص١-٢.

٥- المصدر نفسه، ص٣.

٦- علي عبد العزيز، محمد شريف بشير، للمستهلك الاحتكار.. مزايا للشركات واضرار، شبكة الانترنيت، ٢٠٠٣، ص٢.

٧- د. فوزي عبد الله العكش، الشركات متعددة الجنسية ودورها في عملية نقل التكنولوجيا، مجلة البحوث الاقتصادية والإدارية، العدد الثاني، المجلد التاسع، جامعة بغداد، X٩٨١ ، ص٨١.

٨- المصدر نفسه، ص٨٢.

٩- د. صادق علي طعان، الاستثمار الاجنبي وآثاره وآليات نقل موارده المالية، بحث مقدم الى ندوة الاستثمار الاجنبي في كلية الادارة والاقتصاد، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣، ص٤.

١٠- محمد صادق نهار النصيرات، الشركات متعددة الجنسيات في النظرية والتطبيق، رسالة دكتوراه في الاقتصاد، جامعة بغداد، ١٩٨٧، ص١٨٦-١٩٣.

- د. فوزي عبد الله العكش، المصدر السابق، ص٨٧-٩٦.

١١- دار الحياة، الدينار العراقي يحقق مئات الملايينلدول عربية، شبه الانترنيت، ٢٠٠٣، ص١-٢.

١٢-بريس بارنفيك، الاستثمار الاجنبي والتنمية الصناعية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا: الفرص والعوائق، الندوة، المجلد الثالث، العدد الثاني، مصر، ١٩٩٦، ص٤.

١٣-د. عبد الوهاب حميد رشيد، الاقتصاد العراقي الى اين، شبكة الانترنيت، ٢٠٠٣، ص١-٥.

- مصطفى محمد العبد اله، التصحيحات الهيكلية والتحول الى اقتصاد السوق في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بحوث الندوة الفكرية التي نظمها المركز الوطني للدراسات والتحاليل الخاصة بالتخطيط، الجزائر، ص٣١-٤٦.

- د. مصطفى حسين المتوكل، الخصخصة خلق آفاق جديدة أمام القطاع الخاص، مجلة المعلومات، العدد الثاني، المركز الوطني للمعلومات، شبكة الانترنيت، ٢٠٠١، ص١-١٥.

١٤-د. فوزي عبد الله العكش، المصدر السابق، ص٨٨-٨٩.

١٥-محمد صادق نهار النصيرات، المصدر السابق، ص١٨٨.

١٦-ماري حمزة علوان، سياسة الاستثمار في القطاع الصناعي الخاص، دراسات في الاقتصاد العراقي، بيت الحكمة، ٢٠٠١، ص٧٠-٨٨.

١٧-علي محمود الفكيكي، قانون الاستثمار الصناعي الجديد في العراق، التطلعات والتحديات، دراسات في الاقتصاد العراقي، بيت الحكمة، ٢٠٠١، ص٨٩-١٠٧.

د. اكرام عبد العزيز عبد الوهاب، اختلال البنية المالية والنقدية والتوجهات الاصلاحية لإعادة هيكلة القطاع المالي والمصرفي في العراق، بحوث عن الاقتصاد العراقي، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٠، ص٤٧٣-٤٩٣.

مدينة الكوفة
في المراجع الجغرافية العربية
منذ تأسيسها وحتى القرن الثامن الهجري

الاستاذ المساعد
الدكتور علي صاحب طالب الموسوي

الدكتورة
سلمى عبدالرزاق عبد الشبلاوي

مقدمة البحث

يهدف البحث إلى إعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن مدينة الكوفة من خلال ما ورد عنها في الفكر الجغرافي العربي وبما يتعلق الأمر بنشأتها وتطورها وخلال حقبة تاريخية استمرت حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب . ترجع أسباب اختيارنا لهذا الموضوع إلى الأهمية الكبيرة والمكانة المتميزة لمدينة الكوفة كونها شغلت مكانة علمية ودينية عكست اوجه تطورها الحضاري لم تسبقها في ذلك البصرة ولا المدائن حيث اختصت الكوفة عن سائر المدن بقدسيتها فقد أثنى عليها القرآن الكريم وأبان تلك القدسية بقوله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين) ، فالربوة كما فسرها الإمام علي (ع) تعني الكوفة والقرار هو المسجد والمعين تعني الفرات ، كما جاء ذكرها أيضا في قوله جل وعلا (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) ، فالتين هو المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سينين تعني (

الكوفة) والبلد الأمين هو مكة (تاريخ الكوفة ، للمؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد احمد البراقي ، ص ٣٦).

لقد ازدادت مكانتها بعد أن أصبحت عاصمة للإمبراطورية العربية الإسلامية خلال خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ع) إذ قال عنها : (الكوفة كنز الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء) ، كما قال عنها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) مخاطبا سعد بن أبي وقاص عن الكوفيين : (هم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحرسون ثغورهم يمدون الأمصار) ، ووصفها اليعقوبي بقوله : (إن الكوفة مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم وقبة الإسلام ودار هجرة المسلمين ، فهي اول مدينة اختطها المسلمون في العراق وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأغناها وأوسعها) ، ولم يقف الأمر عند ذلك فقد كان لمكانتها اثر في نفوس الباحثين من غير العرب فقد أعطى السير لويس ماسنيون (المستشرق الفرنسي) وصفا رائعا لها، إذ يقول : (بان الكوفة تعرض لنا صورة واضحة في التمصير وتثبيت القبائل البدوية لم تكن عليها أختها البصرة ولا دمشق ولا الفسطاط ولا القيروان) وحظي من سكن ارض الكوفة بمكانة عند المسلمين فاصبح محط أنظار الناس ، فقد ورد في ذكرهم قول الخليفة عمر (رض) بأنهم (راس العرب) ويصفهم كذلك (وجوه الناس) ، وان الكوفة قبة الإسلام يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا وهو بها أو يهوى قلبه إليها .

فرضت طبيعة بحثنا وخصوصيته أن ينصب ما ورد فيه على ما كتبه الجغرافيون العرب القدماء، عن طبيعة البيئة الجغرافية التي نشأت فيها وما تميزت به من خصائص في طبيعة السطح والتربة والمناخ وموارد مائية والتي ساهمت في اختيار موضعها وتطوره، واتخاذها عاصمة للخلافة العربية الإسلامية فيما بعد ، وحاولنا وبقدر المستطاع أن يكون بحثنا هذا ذو اتجاه ومنحى متميز عن ما كتب عن الكوفة والذي تناولها تاريخيا مما تتطلب أن

تكون الدراسة ذات وجهة جغرافية متخصصة تطلبت البحث والاستقصاء الطويلين في عدد كبير من المخطوطات والتراجم والمصادر الجغرافية القديمة والنادرة التي كانت تحوي الكثير عن الكوفة بحيث أغنت بحثنا وبما يتعلق بالجوانب الجغرافية فقط .

الفصل الاول

الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ونشأتها

أولا: الموقع الجغرافي:

تشير مصادر الفكر الجغرافي بان الكوفة كانت تحتل موضعا جغرافيا ضمن أراضي انتشرت فيها ديارات ودساكر وقرى صغيرة تشكل جزء سهليا من الضفة اليمنى للفرات الأوسط ، ويقع هذا الموضع شمال شرق مدينة الحيرة ، كان يطلق عليه اسم (سورستان)(*) او خد العذراء ، كما يشكل هذا الموضع لسانا من الرمل يمتد بين الأراضي الصحراوية من جهة والفرات من جهة أخرى تخترقه شبكة من الأنهار فضلا عن تربته الخصبة .

يقع هذا الموضع عند دائرة عرض إحدى وثلاثون درجة وثلثان بينما يقطعه خط طول تسع وستون درجة ونصف شرقا ، ويتضمن هذا الموقع مساحة بلغت حوالي (ستة عشر ميلا وثلثي الميل) فيما بلغ عدد سكانها حوالي خمسين ألف دار للعرب ، اغلبهم من ربيعة ومضر وأربع وعشرين ألف دار لسائر العرب وسبعة آلاف دار لليمنيين (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مج ٢٤ ، ص ٤٩٢) .

يعد هذا الموقع الجغرافي ذو أهمية كبيرة حيث عده البعض بأنه كان ثغرة من ثغور البادية ونقطة ارتكاز لتبادل البضائع والسلع بين سكان بلاد

(*) سور ستان : كلمة فارسية مشتقة من الاسم الفارسي شورشتان والذي يعني الصحراء .

فارس من جهة وسكان شبه الجزيرة العربية وبادية الشام من جهة أخرى ، كما كان جسرا للاتصال بين التجمعات العربية المنتشرة في ارض البادية وأهل المدن والقرى من الآراميين اللذين سكنوا هذا الموضع قديما ، فضلا عن أشراف هذا الموقع على (جسر الزوارق) المنصوب على نهر الفرات والذي يؤدي إلى الطريق التجاري الكبير الذي يربط أعالي آسيا بأقصى اليمن (شكل رقم ١) .

شهد الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة تطورا بعد إنشائها وتوسعها بحيث اثر في مجمل جوانبها بعد تمصيرها حتى وصلت أوج عظمتها خلال العصور الإسلامية اللاحقة بحكم تطورها في الجوانب العلمية والدينية حتى وصفها الاصطخري (بأنها تضاهي البصرة من حيث السعة والبناء) واهتدى بها الحجاج عند بناء مدينة واسط والمنصور عند بناء بغداد فيما بعد ، كما عدت مكانتها بحكم موقعها مع البصرة قمة التطور الذي تحولت إليه كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة حتى إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة اذ كان يطلق عليهما (بالعراقين) (المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٤) . ويعكس لنا الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة بان التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة هو تاريخ الكوفة والذي ارتبط بموقعها هذا وما نتج عنه من تطور شمل نواحيها الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية فأصبحت تدير بعد ذلك شؤون الإقليم الأوسط من العراق وما اتصل به إداريا من إقليم الجزيرة في شمال غرب العراق والأقاليم المحيطة في أرمينيا وأذربجان وخراسان وبلاد فارس .

ثانيا: اشتقاق تسميتها :

اختلفت الآراء التي وردت في مصادر الفكر الجغرافي والتاريخي ومعاجم اللغة حول تفسير تسمية واصل كلمة الكوفة ، فقد أوضحنا بان الكوفة لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها إذ كان لموضعها تسميات متعددة منها سورستان او الصحراء وخد العذراء ولم تطلق تسمية الكوفة على هذا الموضع

إلا بعد أن بنى العرب مدينتهم فيه حيث أطلقوا عليه هذا الاسم ، وإذا أردنا البحث في أصل كلمة (كوفة)فينبغي علينا أن نستعرض الآراء التي وردت عند اللغويين والمؤرخين والجغرافيين العرب حول ذلك .

يؤكد السير لويس ماسنيون في كتابه (خطط الكوفة) بان كلمة (الكوفة) سرياني عرف عند طائفة السريان ، حيث يبدو ان خصب الموضع قد جذب كثيراً من السريان الى اقامة ديارات لهم وبناء منازل هناك لكثرة الجداول والمياه التي تأتي من نهر الفرات ، وقد كان في العادة ان تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء ويكثر النبات ، وكان هذا الموضع معروفاً انذاك باسم عاقولا او (باكيولا) واللتان تعنيان(حلقة وما يشبه الدائرة)(ماسنيون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ، ص ٢٥) .

ويميل الباحث العراقي يعقوب نعوم سركيس الى القول بان تسمية الكوفة آرامي حرّف من كلمة ((كوبا)) وحاول ان يفسر لنا كلمة (كوبا) فذكر انه ورد في احد المصادر للكنيسة السريانية بان الكوفة كما يقال لها (كوبا وكملا) بكاف فارسية (عرف عاقولا)ترعاه الابل ، ثم حرفت بعد الفتح الاسلامي وقالوا (كوفة) حيث عدوها من العربية (الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة من المصادر التاريخيه والاثرية ، ص ١٦) .

واوردت المصادر اللغوية بان كلمة (كوفة) بالضم هي المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق حيث سميت الكوفة لاستدارتها اخذاً من قول العرب (رأيت كُوفاناً وكَوفاناً) بضم الكاف وفتحها للرمال المستديرة (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مصدر سابق ، ص ٤٩٠) . كما اخذت الكوفة من الكوفان والذي يرد على لسان العرب ((هم في كُوفانْ)) ، وورد اشتقاق لكلمة كوفة ايضاً بانه يعني (القطعة من الارض) حيث يقال :- (أعطيت فلاناً كَيفةً) أي قطعة ، فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ص ٤٩٠) ،

كما اشارت مصادر الفكر الجغرافي بان كلمة كوفة مشتقة من البيئة الطبيعية اذ ان كل رمل خالطه حصى فهو كوفة (المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١١٦) على حين يرد البعض على ان الكوفة سميت نسبة الى جبل صغير في وسطها يقال له (ساتيدما) أي (كوفان) اختطت عليه مهرة موضعها ، وكان الجبل يحيط بها كالكفاف عليها ومرتفعاً عنها فسميت به (معن حمدان علي ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ ، ص ١٣٩).

وورد بان سعد بن ابي وقاص عندما اراد ان ينزل الموضع هذا قال للمسلمين (تكوفوا) في هذا المكان أي (اجتمعوا) فيه ، وقال لهم (كوفوا هذه الرمال) أي اجمعوها ، وتشير معاجم اللغة بما يعزز الاشتقاق الطبيعي لمدينة الكوفة ، فقد ورد في القاموس وشرحه تاج العروس ان (الكُوفة) بالضم تعني الرمال الحمراء المجتمعة ، او ان كل رملة حمراء تخالطها حصباء فهي كوفة . وفي قاموس المحيط ورد بان (الكُوفة) بالضم تعني الرملة الحمراء المستديرة ، او كل رملة حمراء تخالطها حصباء .

اما مختار الصحاح فيرد فيه بان الكوفة هي (الرملة الحمراء) وفي المصباح المنير فقد ورد فيه بان الكوفة مدينة مشهورة في العراق سميت لاستدارتها ، وأخيراً فقد ورد بان المنطقة التي اجتمع فيها الجند سميت (كوفة الجند) كما في قول الشاعر (عبده بن الطيب العبشمي) :

إنَّ التي وَضَعَتْ بيتاً مُهاجِرةً بكوفةِ الجُندِ غالَتْ ودها غولُ

(محمد حسين الاعرجي ، الشعر في الكوفة ، ص١١٠)

يظهر لنا بان معظم المصادر تتفق بان تسمية الكوفة مستمدة من البيئة الطبيعية التي نشأت فيها ، فالقاصد من الكوفة الى النجف أو العكس لا يجد في طريقه غير هذه الرمال الحمراء التي تخالطها الحصى ، وان العرب عندما ارتادوا هذا الموضع شاهدوا تلك الرمال فاسموها باسمها .

نشأة مدينة الكوفة :

تتفق معظم المصادر الجغرافية والاريخية القديمة على ان الكوفة كانت فيالاصل مجموعة من الديارات والقرى اقيمت عند الضفة اليمنى لنهر الفرات او ما يسمى بنهر العلقمي حيث ان نهر الفرات كان يمر بمدينة هيت سابقاً كان ينقسم الى فرعين رئيسيين احدهما يمر بمدينة (سورا) ويجتازها الى النيل ويسمى بنهر (سورا) والثاني يمر بمدينة الكوفة والذي يعرف بنهر العلقمي (طاهر العميد ، تخطيط المدن العربية الاسلامية ، ص ٢٢٩). وهذا الموضع على النهر أُختير بعد ذلك ليكون مدينة للكوفة .

يعتب تأسيس مدينة الكوفة احد الضرورات الحربية التي تطلبتها الفتوحات الاسلامية لبلاد فارس عبر ارض السواد وخصوصاً بعد ان تقدمت الجيوش الاسلامية واصبحت المسافة طويلة بين المدينة حاضرة الدولة العربية الاسلامية وبين ميادين لقتال مما يتطلب الامر ان يجد المسلمون لهم نقطة ارتكاز تكون بمثابة المعسكر الثابت والقريب لميادين القتال فضلاً عن الاحساس الذي تولد عند العرب بعد الفتح العربي للعراق بضرورة الاستقرار فعمدوا الى البحث عن منطقة تصلح لذلك فاستقر رأيهم اولاً عند المدائن والتي لم تلائمهم ثم الكوفة ثانياً .

يبدأ تاريخ نشأة الكوفة لفعلي بعد انهيار الحكم الساساني في العراق اذ اثبتت التحريات الاستكشافية بان الكوفة اسلامية المنشأ وأنها ثاني المدن العربية الاسلامية التي اقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية وانها مصرت سنة ١٥هـ (المسعودي ، مروج الذهب ، المصدر السابق ، ص ٢١١). بينما يرى آخرون بان سنة تمصيرها قد تم سنة ١٧ه / ٦٣٨م وفي شهر محرم لسنتين وشهرين بعد موقعة القادسية (محمد حسين الزبيدي ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ، ص ٢١) .

اظهرت لنا آراء الجغرافيين والبلدانيين العرب بان الموضع الذي تم الاتفاق عليه لم يأت اختياره اعتباطياً ، وانما كان بعد بحث دقيق ومتواصل يمكن

ادخاله تحت عاملين اساسيين هما :

أ – العوامل العسكرية :

أوضحت لنا الفتوحات العربية بأن العرب عندما توغلوا في فتوحاتهم خارج أرض الجزيرة العربية باتجاه الشمال ، و من خلال الانتصارات التي تحققت في حروبهم مع الفرس في جبهة المدائن دفعت القائد سعد بن أبي وقاص الى التفكير في اتخاذ موضع أو مخيم يستخدمه كنقطة ارتكاز يستريح فيه الجند بعد القتال و يتابع من خلاله تقدم جيشه في سوح القتال ، كما يشكل هذا الموضع حماية له ولجيشه عند التراجع فضلا عن اتخاذه مركزا لتمويت ساحات القتال للجند و المؤن ، و قد وصفه عمر (رض) بقوله :كونه دار هجرة ومنزل جهاد (مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، ص ٨٦).

اظهرت المتغيرات العسكرية بان العرب هم بامس الحاجة لمستقر لهم ولعوائلهم المرافقة لهم وان يكون هذا الموضع المنتخب على وفق الاسس التي شدد عليها المسؤولون العرب آنذاك والتي منها ان يكون هذا الموضع على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة ، وان تتفق مواصفاته مع الستراتيجية العسكرية العربيةفي مسألة الانسحاب باتجاه الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية ، وتتفق تلك المواصفات مع الارض التي نشأت فيها الكوفة اذ انها تقع على حافة الصحراء المتصلة بشبه الجزيرة العربية ولا يفصل بينها وبين العاصمة ماء او جسر والذي يعزز المكاتبات التي كانت بين عمر (رض) وسعد بن ابي وقاص والتي منها (لا تجعل بيني وبينهم بحرا ...) (البلاذري ، فتوح البلدان ، ج٢ ، ص ٣٣٩) وفي رواية اخرى (لا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف) ، فضلاً عما ورد من عبارات :- مثل (على طرف البر) او (قريب من الريف) او (على طرف الصحراء) حيث كلها تتضمن المدلول العسكري وتبرز سمات مشتركة في تأسيس مدينة الكوفة وتتوافق

مع المفهوم الستراتيجي العسكري في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأة المدن العربية .

ب – العوامل الجغرافية :

تعكس لنا كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب بأن اختيار العرب لمواقع محددة لتكون مدناً ومستقراً لهم ان تأخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية والتي عدها البعض بأنها من العوامل الضاغطة في نبذ العرب لبعض المواقع وتفضيل اخرى ، وقد تبين لنا بان انتقال الجيوش العربية الاسلامية من البيئة الصحراوية ذات الخصائص الطبيعية المحددة في بيئات جغرافية مغايرة ، له تأثيره الكبير في اوضاعهم الصحية ، فعند استقرارهم في المدائن والتي تقع ضمن ارض طينية وشطآن وحلة رطبة الجو تنتشر فيها الحشرات والامراض اثرت على المقاتلين العرب حتى ظهر ذلك في كتابات احد المقاتلين الى الخليفة عمر (رض) بقوله :- (ان العرب قد اشرفت بطونها وجفت اعضائها وتغيرت الوانها) (احمد عادل كامل ، فتوح الشرق بعد القادسية ، ص ١٦١)، كما ان استفسار الخليفة عمر (رض) عنهم بقوله : (انبئني ما الذي غير الوان العرب ولحومهم) ، فرد على ذلك سعد بن ابي وقاص قائلاً : (ان العرب خددهم وكفى الوانهم وخومة المدائن ودجلة)(*) ، اذ ان جو هذه المنطقة الرطب لم يلائم لعرب الخارجين من اعماق الصحراء الحارة الجافة فاستوخموها واستوبئوها (البلاذري ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ، ص ٢٢٧)، ونظراً لهذه الظروف المناخية والصحية فقد بدأ البحث عن منطقة اخرى تتوافر فيها الظروف المناخية والتي تجمع بين خصائص البيئة لصحراوية والموقع الجديد .

برز اثر العوامل الجغرافية في اختيار الموضع الجديد من خلال القرار

(*) خددهم تعني اضعفهم ، وكفى الوانهم تعني غير او بدل الوانهم .

الذي اتخذه سعد بن ابي وقاص بترك موضع المدائن والانتقال الى موضع جديد في منطقة الفرات الاوسط يقترب من الصحراء ويحمل بعض خصائص البادية المناخية ، وان هذه البيئة الجغرافية الجديدة تشبه البيئة التي خرجوا منها بحيث ادرك عمر (رض) بثاقب فكره اهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصلح لاستقرارهم بحيث يظلوا محتفظين بنشاطهم وحيويتهم وقوتهم ، فضلاً عن ذلك فان المنطق العسكري يعزز ذلك الاختيار اذ لا يوجد فاصل طبيعي بين هذا الموضع وبين مركز القيادة في المدينة كما اكد الخليفة عمر (رض) على ذلك بقوله : (لا تجعلوا بيني وبينكم ماء حتى اذا شئت ان آتيكم ركبت ناقتي فأتيتكم ...) (محمد احمد حسونة ، اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية ، ص ٢٨) ، كما ان هذا الموقع يوفر للقوات العربية امكانية التراجع الى الصحراء اذا ما تعرضوا لهجوم من القوا الفارسية الآتية من الشرق وان ما يعزز اثر العوامل الجغرافية في نشأة مدينة الكوفة كونها كانت موضعاً لعدد من القرى والديارات والتي استقرت فيها لخصوبة تربتها وكثرة الجداول التي تخرج من نهر الفرات ، اذ جرت العادة ان تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء والتربة الخصبة وترتفع الارض عما يجاورها ليجنبها اخطار الفيضانات وتجمع المياه وما ينتج عنه من تكون برك آسنة كما كانت عليها المدائن .

يتضح لنا مما تقدم بأن نشأة مدينة الكوفة هو نتاج تفاعل العوامل العسكرية والجغرافية اذ ان التفكير بترك موضع المدائن والانبار بموضع الكوفة هو حربي بحت أولاً كما ان موضع المدائن لا يصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات مما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ولبعدهما عن العاصمة المدينة ثانياً فضلا عن ذلك فقد كان ضغط العوامل الجغرافية اكثر وضوحاً في التحول عنهما باتجاه الكوفة والذي حدده الخليفة عمر (رض) في قوله لسعد (انزل العرب منزلاً غربياً

ومرتفعاً عن المياه) ، فكان البحث عن هذا الموقع المناسب فوقع الاختيار على ارض ارتفعت عن الفلاه معروف بنباتاته من الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق وغيرها وكان يعرف بسورستان او خد العذراء (الزبيدي ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ، مصدر سابق ، ص ٢٢) . كما يتميز هذا الموضع بصفات مناخية تتمثل بصفاء الجو وعذوبة النسيم خاصة اذا كان هبوب رياحها شمالياً غربيا .

وقدكتب سعد يعلم الخليفة بهذا الموضع والذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات بقوله : (اني نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً وبحريا) (عيسى سلمان واخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق، ص ٥٦)، فجاءت موافقة الخليفة على هذا الاختيار بجوابه لسعد (ان العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل ، فارتد لهم موضعاً عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحرا) .

ويلاحظ ايضاً بان العوامل الجغرافية اظهرت بجلاء ان اختيار موضع مدينة الكوفة والذي يتمثل بارتفاعها ووفرة مياهها وجمعها بين الخصائص المناخية للبر والبحر وما تمتلكه من خصوبة في التربة تعتبر اهم الاسس في نشأتها فضلاً عن كونها قريبة الشبه بمدينة البصرة كما جاء في وصفها (بانها قريبة ن البصرة في الكبر ، هواؤها اصح وماؤها اعذب من ماء البصرة وهي على الفرات) (الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص ٨٣) .

تخطيط مدينة الكوفة وتركيبها الداخلي:

تقدم لنا مصادر الفكر الجغرافي واعتماداً على ما ذكره الجغرافيون بأن تخطيط مدينة الكوفة جاء بعد تخطيط مدينة البصرة بسنتين أي (١٧ هـ / ٦٣٨ م) ، وان عناصر تخطيطها تشبه الى حد كبير العناصر التي اختطت عليها البصرة بعد ان توسعت مساحتها فوصلت الى ما يقرب من مائة وخمس وثلاثين كيلومتراً مربعاً ، بطول بلغ حوالي خمس عشرة كيلومتراً وعرضاً قدره تسع

كيلومترات (كامل سلمان الجبوري ، تاريخ الكوفة الحديث ، ج ١ ، ص ٢٠).

استخدم العرب عند استقرارهم في المدينة القصب والبردي في بناء وحداتهم العمرانية ، حيث استأذنوا الخليفة عمر (رض) فوافق على ذلك بقوله : (لا أخالفُكُم فابتنوا بالقصب) ، فاستخدموا هذه المادة والتي كانت تتوفر بكثرة في بطائح الكوفة .

يعد مسجد الكوفة اول وحدة عمرانية اتُّخِذَت عند تخطيط المدينة ، وقد خُط في منطقة القلب تبعه وضع تخطيط (دار الامارة) ثم خطط المناهج والدور ، وقد كان موضعا المسجد ودار الامارة لا يبعدان عن نهر الفرات الا بنحو الكيلو متر والربع تقريباً (شكل رقم ٢) .

تعتبر المادة الاولية التي واعتمدها العرب في تخطيطهم لمدينتهم والمتكونة من القصب والبردي لا تستطيع ان تقاوم الظروف الطبيعية اذ تعرضت المدينة لنشوب حريق فاحترق ثمانون عريشاً ولم تبقَ فيها قصبة (البراقي ، مصدر سابق ، ص ١١) ، فخاطب سعد الخليفة يستأذنه ان يكون بناء المدينة باللبن والطين فأجابهم بقوله : (افعلوا ولا تزدن احدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة) (د. يوسف خليف ، حياة الشعر في الكوفة ، ص ٢٥).

اصبح المسجد مكاناً متميزاً في بنائه وسعته لأقامة صلاة الجمعة ولدوره ومكانته السياسية والادارية ، وقد كانت له قدسية متميزة عند العرب والمسلمين ، فقد ورد عن قدسيته بأن في زاويته (فار التنور) وعند الاسطوانة الخامسة (صلى ابراهيم) ، وفيه عصا موسى وشجرة اليقطين ومصلى نوح (ع) ، وفي وسطه روضة من رياض الجنة لو علم الناس ما فيه من فضائل لأتوه حبوا (القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٥) .

تم توزيع القبائل والمناهج ابتداءاً من المسجد الجامع فاصبح المجمع العمراني المدني لاهل الكوفة موزعاً على سبعة اقسام سكنية عرفت (اسباعاً)

صارت الاساس الطوبغرافي للمدينة ، ووضع بين هذه الاقسام السبعة طرقاً عرفت بالمناهج وكان عددها خمسة عشر منهجاً عرضها تراوح بين اربعين ذراعاً للقريبة من المسجد وما يليها ثلاثين ذراعاً وبين ذلك عشرين ذراعاً ، بينما بلغ عرض الازقة سبعة اذرع فقط .

وُزِّعت هذه المناهج توزيعاً منتظماً ابتداءاً من المسجد ، فقد تفرع فيه خمسة عشر منهجاً من جهته الشمالية واربعة مناهج من جهة قبلة الصحن ، وثلاثة مناهج من شرق الصحن وثلاثة مناهج اخرى من جانب الصحن القريبة ، واصبحت هذه المناهج فيما بعد شوارع عامة سميت (سككاً) وضعت بينها مفارق طرق عرفت (جهارت سوج)(*) .

اتخذ لتوزيع القبلي هذه المناهج اساساً مهماً في تنظيم بنية المدينة الداخلي اذ تم الالتزام به في توزيع المحلات على جانبي هذه لمناهج آخذين بنظر الاعتبار ما يطرأ على المدينة من توسيع في المستقبل .

تعد الاسواق احد المظاهر المهمة التي أُخذت ايضاً بنظر الاعتبار عند تخطيط مدينة الكوفة ، فقد كانت الاسواق في بداية امرها غير محددة في مكان واحد الا انها جمعت فيما بعد في سوق رئيسي واحد وصفه لنا اليعقوبي بانه كان يمتد من قصر الامارة (أي دار الامارة) والمسجد الجامع حتى دور القبائل في الجنوب ، وكان هذا السوق جليل وكثير الخيرات (المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مصدر سابق ، ص ١١٦) .

(*) جهارت سوج:كلمة فارسية متكونة من مقطعين: جهارت وتعني : اربع و(سوج) وتعني اتجاه حيث تعني الجهات الاربع (ماسنيون،مصدر سابق ،ص٧٠

الفصل الثاني

البيئة الطبيعية لمدينة الكوفة

"في موارد الجغرافيين العرب"

أ: طبيعة السطح – التضاريس

تشير لنا مصادر الفكر الجغرافي بان الموقع الجغرافي الذي شغلته مدينة الكوفة وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات هو في ضمن منطقة السهل الرسوبي العراقي وان طبيعة ارضه تكونت بفعل عمليات الارساب التي كونتها مجاري الانهار حيث ترسبت الذرات الدقيقة عند ضفاف النهر بينما الاكبر حجماً تبتعد عن كتف النهر مُشَكلة لسان من الرمل يتصل بهذا السهل من جهته الغربية وينحدر باتجاه يرتفع شرق نهر الفرات حتى حدود الهضبة الغربية . تبدأ طبيعة السطح بالارتفاع من منطقة ضفاف النهر (منطقة الكتوف) تبعاً لحجم الرواسب كما انها تقل باتجاه الغرب والجنوب ، وهذا الارتفاع جنّب موضعها الفيضانات المتكررة لنهر الفرات ومدنه التي تقع شمال الموضع او جنوبه آنذاك ، لذا فكان اختيار هذا الموضع يشار له بعبارات ذات مدلول جغرافي كان يرمز الى طبيعة ارتفاعه ومنها (ادلك على ارض ارتفعت عن البحر وانحدرت عن الفلاة) (المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٢٩) ، وكذلك (ادلك على ارض ارتفعت عن المبقة (*) وادلع البر لسانه في الريف ، فما كان يلي الفرات فهو الملطاط(*) ، وما كان يلي الظهر فهو النجاف (ابن قتيبه ، عيون الاخبار ،

(*) المبقة :بقّ المكان وابقّ : كثر بقه وارض مبقة : كثيرة البق (لسان العرب ، مج١ ، ٢٣ ، مادة بق)

(*) الملطاط:طريق على ساحل البحر ، والملطاط حافة الوادي وساحل البحر المتصل به ويعني ذلك شاطئ الفرات (لسان العرب،مج٢ ،٣٩٠ بيروت١٩٥٦م

ج ١ ، ص ٢١٨) .

تتصف طبيعة السطح هذه بالارتفاع عن الاراضي المجاورة سواء ارض الفلاة (الصحراء) في غربة ام الاهوار التي تقع الىجنوبه ، مما جعل ذلك الموضع لمدينة الكوفة يرتفع فوق مستوى الفيضانات ، ويصل ارتفاعها الىحوالي ٢٢ متر فوق مستوى سطح البحر والذي يبعدها عن المناطق المجاوره المنخفضة التي تشغلها الاهوار والمستنقعات المعروفة باسم (البطائح) ، اما الضفة الغربية من نهر الفرات لموضع الكوفة فهي اعلى من الضفة الشرقية يتراوح بين بـ (٥-٦) متر ويقل هذا الارتفاع كلما تقدمنا جنوبا.

تتكون طبيعة سطحها من ارض رسوبية خصبة بصورة عامة ، اما مادون ذلك غربا فهي أرض رملية تختلط بنسب من الحصى ترتفع مع الانحدار غربا بحيث تؤلف طبيعة السطح مظهرا تضاريسيا تكون قشرته السطحية عبارة عن صخور رملية او حجارة كلسية تقل فيها المستنقعات وتدخل في ضمن حدود النجف .

وكانت تلك الاراضي تقترب من ضفاف نهر الفرات أكثر من اراضي الحيرة والمدائن وهذه تدخل بين ارض سهلية تسقى بمياه النهر من جهته الشرقية على حين تدخل في ضمن بطون الوادي الصحراوي في جهته الغربية (جعفر محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ج ١، ص ٤) ،وان هذا الانخفاض من جهة الغرب والجنوب يدخلها في ضمن بحيرة ضحلة تشكل جزء من بحر النجف (اليعقوبي ، البلدان ، ص ٧٩) .

يعتبر هذا التكوين الطبيعي للاراضي التي تشغلها الكوفة آنذا ذاك امتداد طبيعي للسهل الرسوبي العراقي المتصل من اطراف الصحراء لارض بلاد الشام (بادية الشام) غربا ، وتتخللها مياه نهر الفرات وجداوله التي كانت تنتهي

مياهها في الحيرة جنوبا ، كما تتخلل طبيعة السطح هذه عدد من الجبانات (*) والتي تتخللها المزارع الواسعة والبساتين الغنية باشجار الفاكهة فضلا عن طوب غرافية سطحها يتميز بوجود ساحات وافية واسعة كانت تدعى بالصحاري (ماسينيون ، مصدر سابق ، ص ٧١) .

ب-البيئة المناخية

يعتبر المناخ احد العوامل المؤثرة في نشوء وتطور المدن العربية قديما ومنها مدينة الكوفة اذ حرص العرب ان تكون مدينتهم التي يختطونها ذات مواقع جغرافية تمنحها خصائص مناخية تتلائم مع صحة الانسان العربي وتجنبه انتشار الحشرات والهوام ووخومة الجو وان توفر لهم مظاهر تحتاج لها النفس العربية التواقة لذلك .

تعكس هذه الخصائص لنا بدء ظهور وتطور المدن في العراق والتي تضمنت ادراك العلاقة بين المظاهر الصحية والخصائص المناخية حيث تم تحديد افضل المناخات لمواقع المدن ، فقد فضل العرب في اختيار مدنهم ان تتصف بنمط فصلي متميز مع تقلبات دائمة للطقس ودفء مقترن بامطار تشجع على ممارسة الزراعة والرعي ، لذا فان مواقع المدن العربية الاسلامية والتي تقع في ضمن العروض المعتدلة في العراق كانت اكثر من غيرها تطورا في الحركة المدنية الاسلامية لكونها تخضع لنظام الطقس المتقلب التي تفرضه طبيعة الانخفاضات الجوية في القطر ، فضلا عن ذلك فان مراكز الحضارة

(*) الجبانات :جمع جبانة ، والجبانة بالتشديد الصحراء ، وتسمى بها المقابر لانها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه ، والجبان ماستوى من الارض في ارتفاع ويكون كريم المنبت ، وقال ابن شميل الجبانة ما استوى من الارض ولا شجر فيه ولا تكون الجبانه في الرمل ولا في الجبل ، وكل صحراء جبانة . (لسان العرب ، مجـ ٨٥/١٣/مادة جبن

العربية قد انتقلت من مناطق ذات مواقع في ضمن مناخات مدارية او شبه مدارية نحو مناخات معتدلة في القسم الاوسط والشمالي ، فمن صنعاء ومأرب وعدن الى الحيرة والحضر وتدمر قبل الاسلام ، ومن مكة والمدينة والطائف الى البصرة والكوفة في العصور الاسلامية اللاحقة .

يظهر لنا موقع مدينة الكوفة بانه قائم وفق الاسس اعلاه بعكس ماكانت عليه مدينتهم السابقة المدائن والتي كانت قائمة على ارض طينية تخترقها شطآن تنتشر فيها الحشرات المسببة للامراض ، وانها ذات جو وخم ذو رطوبة عالية ، وهذا كله يخالف مادرج عليه ساكن الصحراء او يغايره فلم توافق تلك الخصائص العرب فيها فاخذوا يبحثون عن موقع جديد فكان موضع الكوفة الذي هو اكثر ارتفاع عن مستوى سطح البحر من المدائن والبصرة وذو مناخ معتدل وجو رائق يبعدهم عن وخومة جو المدائن ورطوبته فضلا عن وقوعه في مهب الرياح الشمالية والتي تسهم في خفض درجة الحرارة والرياح الجنوبية التي تحمل معها خصائص البيئة عند مرورها فوق اشجار ونبا ت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم وشقائق النعمان والذي استرعى انظار العرب الباحثين عنه ،وقد وصف هذا الموضع للكوفة (بانها سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها وحرها ، فهي مريئة مريعة اذا انتها الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور واذا هبت الجنوب ، جاءتها بريح السواد وورده وياسمينه وخيريه واترجه ، ماؤها عذب وعيشها خصب) . (ياقوت الحموي مصدر سابق ص٤٩٢) .

فضلا عن ذلك فقد كان لتردي الاوضاع الصحية للمقاتلين المسلمين في المدائن والتي كان من اهم اسبابها وخومة جوها اثرها في التفكير في البحث عن موضع جديد وقد دفع ذلك الخليفة عمر (رض) بان يدرك بان العرب لايلائمهم من البلدان والمناخ الا ما يلائم ثروتهم الحيوانية فخاطب سعد (ان العرب لايصلحهم الا ما يصلح الابل فارتد لهم موضعا عدنا) (البلاذري ،فتوح

البلدان ، مصدر سابق ص ٣٣٩) أي انه ربط بين طبيعة البادية المناخية والمكان الذي سيكون مقرا لهم ولعوائلهم .

وبرز تاثير وخومة مناخ المدائن على احوال العرب وتصرفاتهم بحيث كرهوا السكن في المدائن لانهم استوخموها واستوبأوها، وقد تنمروا من كثرة الذباب والغبار فيها ، وقد ذكر لنا البلاذري بان منطقة المدائن يكثر فيها البعوض حتى ان سعد كتب الى الخليفة قائلا له : ان الناس قد بعضوا وتاذوا من ذلك (البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨).

يتضح مما تقدم بان للمناخ دور كبير في اختيا وتطوير مدينة الكوفة لحرص العرب بان تكون مدينتهم هذه ذات مواقع صحية خالية من الحشرات وبعيدة عن المباق غير موبوءة ففضلوها على المدن التي اختطت قبلها كالبصرة لصحة هواؤها وعذوبة مياهها ومناخ كهذا لابد ان يجتذب اليه القبائل المتحضرة قبل القبائل البدوية .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة

يعتبر انتقال العرب واستقرارهم في مدينة الكوفة ذو فائدة كبيرة في مجمل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، اذ ان حياة الاستقرار وما رافقها من تحضر رغم بقاء القيم والمفاهيم القبلية تعد بداية للحياة المدنية والحضرية التي عكست تحولا في مناحي حياتهم الزراعية والحرفية والتجارية ساعدت فيما بعد في سعة مدينة الكوفة وتعدد انشطتها الاقتصادية والتي منها :

أولا : النشاط الزراعي :

تعد الزراعة اول مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة والتي زاولها السكان منذ ان وطئت اقدامهم فيها لما تمتلكه من تربة خصبة وانهار دائمة الجريان فضلا عن خصائصها المناخية والتي تختلف عما كانت

عليه مدينتهم السابقة (المدائن) ، كما وجد العرب في هذه المدينة ارض تختلف عن ارضهم السابقة سواء في الجزيرة العربية ام في المدائن فاتجهوا لممارسة الزراعة والتي صارت حرفتهم الرئيسة .

مورست الزراعة في الكوفة اعتمادا على مياه الري من نهر الفرات والجداول والقنوات المتفرعة منه لان الامطار غير كافية اولا لممارسة الزراعة وتاخر نزولها ثانيا مما دفعهم ذلك للاعتماد على مياه الري (الزراعة الاروائية)والتي من خلالها تم ابتكار وسائل جديدة ساهمت في تطوير عمليات الري ووسائلها بشكل يتفق مع حاجتهم اليها ، وقد ساهمت سياسة الولاة في الكوفة ايضا ومن خلال توجهات الخلفاء لهم في تطوير هذه الحرفة .

بدات حرفة الزراعة تتطور عندما تم توزيع الاراضي الزراعية وتمليكها للمقاتلين اولا وتشجيعهم على احياء الارض الموات ثانيا ، فقد منح من احيا ارضا مواتا حق ملكيتها حيث ورد : (فمن احيا ارضا مواتا ليست في يد مسلم ولا معاهد فهي له او من احيا ارضا مواتا فهو احق بها) (الزبيدي ، مصدر سابق ،ص١٣٦) ، هذا من جانب ومن جانب اخر فقد عمدو الى اصدار الاوامر بحفر الانهار وشق القنوات واقامة الجسور والمسنيات (وهي سدود تتكون من القش والتراب تقام في وجه المياه الجارية)، كما اهتموا بامر البطائح وتجفيفها من اجل زيادة رقعة الاراضي الزراعية والتي توسعت بحيث امتدت من الاراضي المجاورة للكوفة حتى حدود واسط (ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢٣٨) .

كان توزيع الاراضي الزراعية قد شمل ثلاثة انواع منها اراضي الصلح وهي الاراضي التي صالح اهلها المسلمين وبقيت ملكيتها بيدهم لقاء دفع ضريبة واحدة عنها ، والاراضي التي فتحت عنوة بحد السيف فلا تباع ولا تشترى وتبقى ملكا لصاحبها يستغلها في الزراعة ، اما الشكل الثالث فهي الاقطاعيات والتي شملت سواد الكوفة وهي ملكا مشاعا بين المسلمين تضم معها الاراضي التي تقع في داخل مدينة الكوفة وقطائع عامة .

واعتمد في ري الاراضي الزراعية هذه على مياه نهر الفرات فهو المصدر الرئيسي في ذلك وكذلك على الانهار الصغيرة التي شقت من نهر الفرات والتي اهمها : (نهر سورا) الذي ياخذ مياهه من نهر الفرات قاطعا القرية المعروفة بالجديدة ويكون مجراه مابين قرى الكفل وقرية القاسم ويروي المحاصيل الزراعية والقرى الزراعية اولا ، وللاستخدامات البشرية ثانيا ، وينتهي في البطائح ، ونهر (ابا) وهو نهر يقع بين الكوفة وقصر ابن هبيرة) ونهر (البويب) الذي ياخذ مياهه من الفرات حيث يكون مجراه في الكوفة ويصب بالجوف العتيق ، اما نهر (شبيلي) فانه يجري في ناحية من نواحي الكوفة والذي يعرف اليوم بنهر زياد ويكون ماخذه من الفرات عن نهر (الصنين) ونهر (عين جمل) الذي هو احد الانهار الصغيرة التي شقت عبر الجبانات وتنتهي في الاراضي المنخفضة في بحر النجف ، اما القنوات فقد شقت قناتين رئيسيتين عرفتا باسم (قناتي الجامع والمبارك) (راجع شكل رقم ١) .

استخدم اهل الكوفة وسائل ري صناعية لنقل المياه من نهر الفرات وجداول الري والتي منها (الدالية) و(الناعور) والتي تستخدم في رفع المياه من مصادرها عند انخفاض منسوبها ، وقد ساهمت في توسيع مساحة الاراضي الزراعية وزيادة الانتاج وكثافة المحاصيل الزراعية والاشجار لدرجة كان يصعب من خلالها التمييز بين المزارع فكان سواد الكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترقه شبكة الانهار المتفرعة من نهر الفرات (الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٥٩) ، وامتد سواد الكوفة من غرب نهر الفرات والحيرة والقادسية حتى حدود الصحراء .

مورست في تلك الاراضي الزراعية وسواد الكوفة عامة زراعة محاصيل متعددة كان في مقدمتها النخيل اذ كان سواد الكوفة من اكثر المناطق التي اشتهرت بزراعته وقد امتدت بساتين النخيل حتى الانبار وهيت(الاصطخري ، المصدر السابق ص٥٨) كما اشتهرت الكوفة بزراعة الحنطة والشعير وقسب

العنبر ، واشتهرت كذلك بزراعة الرز في منطقة البطائح في ضمن الاراضي المنخفضة والاهوار وعلى قنوات الفرات السفلى بين سورا والصراه والنيل (الزبيدي ، مصدر سابق، ص١٤٠) .

وتعد زراعة اشجار الفاكهة قديمة في هذه الاراضي الزراعية ، وكانت اشجار الكروم من اكثرها واشهرها بحيث كثرت انواعها وتعددت اصنافها وما كان مشهورا منها هو عنب (دير العاقول) و (عكرا) و(حلوان) و(عنب سروج) ، واشتهرت الكوفة بسعة بساتينها والتي كانت تضم الى جانب اشجار الكروم اشجار اخرى احاطت بالكوفة منذ ان سكنتها الاديرات حتى وصفها لنا (الشابشتي) بقوله (كانت في الكوفة الديرات تحوي كل اديرة على مائة بيت للرهبان وحول كل بيت بساتين كبيرة فيها الكثير من الثمار والنخيل والزيتون وتجري فيها الانهار) (الشابشتي ، الديارات ، ص١٧١) ، واصبحت هذه البساتين عند دخول العرب الى الكوفة اكثر سعة وعمرانا بعد ان عمروها وازادوا فيها وكان من اشهرها تلك البساتين والذي لايزال اسمه معروفا هو بستان (زائدة) والذي يقع في ضاحية السبخة وهي احدى ضواحي الكوفة (الجنابي ، مصدر سابق ، ص٥٢).

ثانيا : النشاط الحرفي

حضي النشاط الحرفي في العراق عامة والكوفة خاصة بدرجة كبيرة من التطور فمنذ ان قدم العرب المسلمون واستقروا في الكوفة ومارسوا ذلك النشاط وابدعوا فيه واذا مااستعرضنا ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والرحالة عن الانتاج الحرفي في الكوفة فيتضح لنا بانها كانت مركزا لصناعة المنسوجات الحريرية حيث عدت هذه الصناعة من اقدم الصناعات اليدوية والتي تطورت مع مرور الزمن حيث اصبح الكوفيون ذوي شهرة ومهارة خاصة في العديد من فروعها ومنها : (صناعة الوشي) وهو نسيج حريري مطرز وكذلك صناعة (الخز) والتي تتخصص بصناعة عمائم الخز المشهورة انذاك فضلا عن

صناعة العطور (المقدسي ، مصدر سابق ، ص١١٨) .

واشتهرت الكوفة بصناعة البسط والسجاد بانواعه والخيام ونالت تلك الصناعات شهرة واسعة حيث كان الكوفيون يتفننون في تلك الصناعات والتي تعتمد على الصوف او الشعر او الوبر ، كما وجدت صناعة الحصر والتي اعتمدت على مادتها الاولية من سعف النخيل واوراقه والبردي والحلفاء والقصب والتي تكثر في منطقة البطائح .

وانتشرت في الكوفة صناعة استخراج الدهون من بذور السمسم والقطن وصار لهذه الصناعة سوقا عرف (بسوق الزياتين) كما برع الكوفيون في صنع اواني الفخار الدقيقة الصنع والمزينة بنقوش بارزة من النوع المعروف (البارابوتين)ومنها ماهو مطلي بدهان مزجج متعدد الالوان ، وكذلك صنع قوارير الزجاج وقطع الاجر المزجج والاقداح وبعض اواني النحاس فضلا عن صناعة الاسلحة وتجارتها ، وقد تاسس لها سوق عرف (بسوق الحدادين) ، وقد كان لهذه الانشطة الحرفية مكانتها بين المدن العربية الاسلامية بحيث دفع ذلك احد رجال الكوفة والمعروف (بابي بكر الهذالي) ان يفخر بما وصلت اليه مدينته ومقارنتها بالبصرة بقوله : (نحن الكوفيون اكثر منكم ساجا وعاجا وديباجا) .

وانتقلت الى مدينة الكوفة بعد تاسيسها صناعة (الصياغة) من العرب القادمين من الحيرة والمدينة بحيث لاقت هذه الصناعة رواجا كبيرا وتاسس سوق كبير حمل اسم (سوق الصياغة).

وكذلك انتشرت حرفا ثانوية حملت اسماء اسواقها منها سوق الوراقين والنجار ين والبقالين والقصارين (محوري الثياب) وباعة الازهار والرسامين وغير ذلك كثير .

ثالثا : النشاط التجاري

تعتبر حرفة التجارة من الانشطة الاقتصادية التي تطورت في مدينة الكوفة ابتداء من تاسيس دار الرزق والكناسة التي تقعان في مناطق محددة وفق تخطيط المدينة ، وقد شهد هذا النشاط ازدهارا وتطورا كان نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل منها :

١- الموقع الجغرافي : وصف الجغرافيون بان الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ذو اهمية كبيرة عكس مجمل انشطتها التجارية ، فوقوعها على نهر الفرات جعلها تتصل في الشمال بحلب وانطاكية ثم البحر المتوسط كما تمكنت عن طريق نهر الفرات ايضا ان تتصل جنوبا في الهند عن طريق الخليج العربي .

خلق هذا الموقع لها ان تشرف على طرق المواصلات التجارية السائدة انذاك فقد اصبحت محطة تجارية للتجار الروس الخارجين من الاندلس بعد مرورهم بدمشق ومنها يتوجهون الى البصرة ثم الى بلاد فارس ، كما ان وضعها مركزا للطريق البري الذي يصل الموصل بدمشق عن طريق الحيرة .

وقدر لموقعها الجغرافي هذا ايضا ان يجعلها تتمتع بمكانة مرموقة في عالم التجارة مع شبه الجزيرة العربية لموقعها على طريق البادية اذ تلتقي عندها القوافل القادمة من مكة والذاهبة اليها كما ان موقعها على الطريق البري ربطها مع البصرة عبر بادية الكوفة وبادية البصرة . (ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص١٢٥،٩٩)

٢- والعامل الاخر والمهم يتمثل بسكان الحيرة الذين نزحوا الى هذه المدينة بعد تاسيسها فقد كان لهم دور كبير في تنشيط التجارة في المدينة لما يمتلكونه من خبرة واسعة وممارسة طويلة في هذا الميدان .

٣- وكان لتشجيع الولاة والخلفاء العرب الساكنين في الكوفة اثره في تطوير الانشطة الزراعية والحرفية وما رافقها من زيادة في الانتاج والتصدير

ووفرة الاموال والتي شجعت عمليات التبادل التجاري ونشاط النظام الصيرفي وبالتالي تكوين وبناء علاقات تجارية مع المدن والمناطق المجاورة ، ولاجل تطوير ذلك فقد تم القيام بعدد من المشاريع التي سهلت عملية التبادل التجاري في المدينة سواء اكان ذلك باقامة الجسور ام بتوفير الامن والاستقرار للقوافل القادمة والخارجة من المدينة وانارة الطرق ليلا وتقديم التسهيلات للعمليات التجارية .

ونشأ من خلال تفاعل تلك العوامل عمليات تجارية متعددة وكان مركزها (دار الرزق) ومنطقة الكناسة ، ودار الرزق هذه تقع عند مخرج الجسر المنصوب على نهر الفرات وبالقرب من شارع اليهود ، أي بين الجسر في شرق الكوفة وبين المحل المعروف (بالنبي يونس) ومقامه المعروف في الكوفة والقائم على النهر في وسط العمارات شمال غربي الجامع ، وعلى هذا فان (دار الرزق) كان موقعها في المحل المعروف اليوم (بسوق ال شمسة) او قريبا منه . (الجبوري ، مصدر سابق ص٢٦) . وكان يجمع في هذا الدار متاع المقاتلين واموال الصدقات وغنائم الحرب قبل توزيعها على المقاتلين ، ثم اصبحت دار الرزق مكان واسعا للنشاط التجاري تتوخن فيها الابل التي تحمل البضائع ، وبقربها يتم تفريغ وتحميل البضائع من السفن القادمة او الخارجة من الكوفة ، كما لعبت هذه الدار دورا مهما واساسيا في الحركلات والاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت في الكوفة خلال تاريخها الطويل بعد ان اصبحت هذه الدار مكانا للمضاربات الاقتصادية .

اما (الكناسة) فهي المركز التجاري الثاني الذي نشا في الكوفة وهي تقع الى جوار دار الرزق ، والكناسة سوق كبير يشبه سوق المربد في البصرة وعد مركزا تجاريا مهما ارتبطت به عدد من الاسواق القريبة منه كسوق الرقيق والبزازين وغيرهما .

نشطت الحياة التجارية في الكوفة من خلال عمليات التبادل التجاري بينها

وبين المناطق المجاورة حيث كانت تقوم بتزويد مدن العراق والجزيرة العربية اولا، والدول الاجنبية بصورة عامة ثانيا بما تحتاجه من منتجات ، واعتمدت تجارتها في ذلك على نهر الفرات الذي ربطها بالبصرة والخليج العربي فقد كانت تسير القوافل التجارية النهرية عبره حاملة انواع متعددة من البضائع الى البصرة والهند والصين ، ونشطت تجارتها الخارجية عبر الطرق البرية لوقوعها على حافة الصحراء والتي تربطها مع شبه الجزيرة العربية بايران عبر الجسر المنصوب على نهر الفرات والذي يبقى منصوبا على الدوام لاجل العبور الى الطريق التجاري الكبير والذي يربط اعالي اسيا باقصى اليمن عن طريقين بريطانيا معها هما طريق يربطها بنجد والاخر طريق الاحساء . (ماسينون ، مصدر سابق ، ص٢٩) .

تضمنت صادرات الكوفة المنتجات المحلية التي اشتهرت بها والتي منها مناديل الخز الكوفية والوشي وانواع الدهون والعطور والفاكهة والتمور ، اما وارداتها فكانت تعتمد فيها على المدن العربية الاسلامية المجاورة وخاصة البصرة حيث تستورد منها ماء الورد والحناء ، ومن الموصل تستورد الستور والمسوح واقمشة الموسلين فضلا عن الحنطة والشعير والعسل ، على حين تستورد من واسط البسط والستور والحصر ، اما وارداتها من المناطق المجاورة وخاصة (المدينة) حاضرة الامبراطورية الاسلامية فقد كانت تستورد منها الخيول العربية الاصيلة . فضلا عن ذلك فان وارداتها من الرمان والتين فمن حلوان والزيت زالصابون من الرقة . (المقدسي احسن التقاسيم ، مصدر سابق ، ص١٤١ ، ١٤٥)

لم يتوقف نشاطها التجاري عند ذلك فقد امتد الى الدول الاجنبية المجاورة فقد نشطت تجارتها مع شبه القارة الهندية عبر الخليج العربي ، فكانت تستورد من الهند التوابل والكافور وجوز الهند والابنوس والياقوت ، على حين نشطت تجارتها مع الصين من خلال تصديرها لها الخزف بانواعه والاواني المزججة

والتمور والفواكه ، واقتصرت وارداتها منها على الحرير والديباج والمسك واواني الفضة والذهب . (ابن خردادية ، المسالك والممالك ، مصدر سابق، ص٦٩و٧٠) .

كانت الصيرفة عملا كبيرا ورائجا في اسواق الكوفة التي اتخذت مركزا لعقد الصفقات التجارية الواسعة ، اذ اتقنت الكوفة العمل الصيرفي ونضمتة بشكل يشبه البنوك والمصارف الحديثة .

يظهر لنا اخيرا بان مدينة الكوفة ومنذ تاسيسها لعبت دورا فاعلا في التاريخ العربي الاسلامي خصوصا بعد ان اصبحت عاصمة للخلافة العربية الاسلامية خلال فترة خلافة الامام علي بن ابي طالب (ع)، مما ضاعف ذلك من مكانتها واهميته في مجمل شؤون العراق الاقتصادية والسياسية والتجارية ، وقد اوضحنا بان الجغرافيين اكدو ان اهميت موقعها بالنسبة للطرق التجارية السائدة انذاك جعلها ترتبط مع بلاد فارس شرقا وبدمشق عبر الحيرة غربا فضلا عن طرقها البرية التي تربطها بشبه الجزيرة العربية عبر بادية البصرة ، ولا ننسى طريقها النهري عبر نهر الفرات فقد كانت اهميته قد ارتبطت من خلال اتصاله بالخليج العربي ومنه الى جنوب شرق اسيا والذي نشط من تجارتها مع الهند والصين .

بدات مدينة الكوفة تفقد اهميتها التجارية تدريجيا والذي تمثل بظهور بوادر الضعف والانحلال في اوجه انشطها الاقتصادية وكان ذلك نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل كان في مقدمتها هو عدم امكانية مدينة الكوفة من الاستمرار في الحفاظ على هذا الموقع على نهر الفرات اولا وطريقها التجاري النهري الذي كان يفضله التجار لسهولته ورخصه ثانيا ،فضلا عن ظهور مدينتي واسط وبغداد ومنافستها لها ثالثا،لقد تحول الطريق التجاري اليهما والذي فضله التجار لعاملين رئيسيين هما : ان منطقة البطائح التي تحيط بمدينة واسط تخلو من التشعبات مقارنة ببطائح الكوفة والتي تكثر فيها التعرجات والتشعبات

وعدم توفر الامن ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان اتصال بغداد وواسط بالبصرة عبر شط العرب وبالتالي الخليج العربي والعالم الخارجي قصيرا وسهلا واقل عرضه للمخاطر مقارنة بطريق الكوفة عبر الفرات .

فضلا عن ذلك كله فكان لموقع مدينة بغداد وموقعها الجغرافي على نهر دجلة جعلها مركز جذب اجتماعي واقتصادي خاصة بعد ان اصبحت عاصمة للدولة العربية الاسلامية فيما بعد وساهمت عوامل اخرى في ذلك الضعف والانحلال الذي وصلت له مدينة الكوفة والتي منها : تعرضها للهجمات التي كانت تشنها قبائل فارسية من جهتها الشرقية وقبائل بدوية غير متحضرة تغزوها بين فترة واخرى من جهتها الغربية بحيث كان تاثير ذلك واضحا في تغير معالم المدينة الحضرية فاصبحت محطة للنزاعات والفتن والمضاربات الاقتصادية والتي اخذ نطاقها يتسع حتى القرن الثامن الهجري

ظهرت معالم التحلل والانهيار منذ القرن الرابع الهجري وما بعده والذي تمثل في نقل اعمالها وسوادها فاصبحت مضافة الى مدينة السلام ومرفوعة اعمالها الى دواوينها (ابن حوقل ، صورة الارض ، مصدر سابق ، ص٢١٩) ويؤكد لنا المقدسي ايضا ذلك بقوله ان مدينة الكوفة (اصبحت بلد مختل قد خرب اطرافه بعد ان كانت نضير بغداد .(المقدسي ،مصدر سابق ، ص١١٦) وقد استمرذلك الوضع حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب وهجرها اهلها وضعفت مكانتها .

الخلاصة والاستنتاجات

اظهرت لنا الدراسة بان العراق ومنذ القدم هو مهد الحضارات وتاسيس المدن العربية التي شهد لها التاريخ ، وان تاسيس تلك المدن وفي مقدمتها مدينة الكوفة كان نتائج تفاعل العوامل الجغرافية والتاريخية والتي اسهمت في تطورها ، ومن النتائج التي توصلنا لها :

١ - توصل البحث الى ان العراق كان المركز الرئيسي لظهور وتطور المدن من خلال موقعه الجغرافي في وسط العالم القديم كما ان موقعه يشكل حجر الزاوية للامة العربية الاسلامية التي اتخذت من مدنه ومنها الكوفة مقرا وعاصمة للامبراطورية العربية الاسلامية .

٢-توصل البحث في فصله الاول الى تحديد واضح لاهمية الموقع الجغرافي في نشات مدينة الكوفة وتطورها ، وان ما اطلق عليها من تسميات فقد استمد من الواقع البيئي الذي شغلته خاصة فيما يتعلق بطبيعة تربتها وان تسميتها فقد استمد من الوضع الطوبغرافي لأرضها.

وناقش الفصل نشاة مدينة الكوفة وتبين من خلاله بان اهم العوامل الكامنة وراء نشاتها فقد ارتبطت ببياتها الطبيعية والمتمثلة بموقعها الجغرافي على نهر الفرات وحافة الهضبة الغربية اولا وما يشكله من حلقة او نقطة تشرف على طرق المواصلات التي تربط مركز الدوله الاسلامية بالجيوش العربية المتقدمة في الفتوحات ، فضلا عما امتاز به هذا الموقع من خصائص مناخية فضلتها لان تكون المدينة المنتخبة بدلا من المدائن

٣- كما استنتج البحث الى ان الوضع الطوبغرافي لمدينة الكوفة قد حضي باهتمام الجغرافيين القدماء وما ورد في الفكر الجغرافي عامة اذ تمكنا من خلال ذلك من التوصل الى ان المناخ هو احد عناصر البيئة الجغرافية التي اخذت بنظر الاعتبار عند اختيار موضعها ، الا ان ارتفاع ارضها مقارنة بارض المدائن المنخفضة ، وخصوبة تربتها كانت من العوامل الاساسية في اختيار موضعها ايضاً ، حيث كان تحديد مواقع المدن المختارة ومنها موضع بحثنا (مدينة الكوفة) وفق تلك الاسس ، فقد تميزت عن المدائن وعن البصرة بارتفاعها واعتدال مناخها لوقوعها ضمن النطقة التي تتعرض لهبوب رياح شمالية تسهم في خفض درجات الحرارة المرتفعةوتقلل من وخومة الجو ورطوبته .كما امكن التوصل الى حقيقة جوهرية دهمة هي ان العرب هم

اول شعوب العالم التي توصلت الى ايجاد العلاقة بين طبيعة تلك الخصائص وصحة الانسان.

وتمكن البحث من التوصل الى ان تخطيط المدن العربية الاسلامية ومنها مدينة الكوفة كان ياخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية ، فقد اختطو معالمهم المدنية ابتداء من تاسيس مسجدها المقدس وانتهاء بدور السكن وفق الاساس الطوبغرافي لمدينتهم والذي تم على ضوءه تحديد المناطق السكنية السبعة والمناهج والاسواق وفق قياسات معينة تاخذ بنظر الاعتبار ما سيطر على المدينة من توسع في المستقبل .

٤- وتبين من خلال البحث ابان الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة اعتمدت على انشطة زراعية وحرفية وتجارية وكان لها إثرها في تطور المدينة وازدهارها ، فقد شهدت الكوفة نشاطا زراعيا اعتمد على خصوبة تربتها ووفرة مياه الري من نهر الفرات وجداوله فضلا عما ساهم به الولاة من تشجيع للمقاتلين العرب في ممارسة الزراعة فتعددت المحاصيل الزراعية وازدادت كثافتها وتوسعت بساتينها فكان سواد الكوفة الذي لم يشبهه سواد في كثافة محاصيله واشجاره ، كما شهدت تطورا في الحرف الصناعية برع الكوفيون في الكثير من اشكالها في حين كان نشاطها التجاري لم تشهد مثله المدن العربية الاخرى حيث تاسست على ارضها اقدم واكثر الاسواق التجارية تطورا في تلك الفترة الزمنية من نشاتها والذي تمثل بسوقي دار الرزق والكناسة واللذان شهدا تطورا في انظمتها المصرفية لم تضاهيها أي سوق اخرى.

تبوأت مدينة الكوفة مكانة دينية وعلمية كانت تحسد عليهما ، فقد كانت مركزا الحدث اجتماعي عظيم بتاسيس المسجد الجامع، وعاصمة للحضارة العربية الاسلامية ومركزا دينيا مقدسا اشتهر بكثرت مساجده او لا تزال على اراضيها الاثار الاسلامية من مساجد وضرائح تنوف أية مدينة اخرى.

واسهمت الكوفة في تاسيس المدارس النحوية والادبية ففيها وضعت اللبنات العتيده الأولى لمدرسة الكوفة في النحو والتي عرفت باسمها ونشات على ارضها المجموعة العتيدة والنفيسة لنهج البلاغة للامام علي بن ابي طالب (ع) والحاوية على الخطب والمواعظ التي لم تظهر قبلها او بعدها اخرى . وفي الشعر فقد ابدع الكوفيون في تحويل الذخائر الماضية – الحماسات والمعلقات – ونبغ على ارضها الاف من علماء اللغة والدين شهد لهم التاريخ في السياسة والاقتصاد .

مصادر البحث

١- ابن حوقل : ابو القاسمابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، منشورات دارالحياة بيروت - لبنان

٢- ابن خردانبة : ابو القاسم عبيد الله ابن عبد الله(ت ٣٠٠ هـ) ، المسالك والممالك ، ويليه نبذه عن كتاب الخراج وصنعه الكتابة لابي فرج قدامة بن جعفر ، مطبعة بريل – ليدن ١٨٨٩م.

٣- ابن قتيبة : ابي محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري ، عيون الاخبار ، المجلد الاول ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة (١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م)

٤- الاصطخري : ابو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بـ(الكرخي) (ت ١٤٦ هـ) المسالك والممالك ، المجلد الاول ، (١٣٨١ هـ- ١٩٦١)

٥- الاصطخري: مسالك الممالك ، كتاب معول على (صورة الاقاليم) للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي ، طبعه ليدن ، ١٩٣٧م

٦- الاعرجي : محمد حسن عبسى ، الشعر في الكوفة ، رسالة ماجستيبر مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة بغداد ، نيسان ١٩٧٣ م .

٧- البراقي : حسين بن السيد احمد ، تاريخ الكوفة ، منشورات المكتبة المرتضوية النجف الاشرف ، ١٩٦٠م

٨- البلاذري : ابو الحسن احمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، الجزء الثاني ، ١٩٥٧م

٩- الجبوري : كامل سلمان ، موسوعة تاريخ الكوفة ، تاريخ الكوفة الحديث ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، مطبعة الغري ، النجف الاشرف ،(١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)

١٠-الجنابي : كاظم ، تخطيط مدينة الكوفة ، (عن المصادر التاريخية والاثرية) بغداد (١٣٨٦هـ-١٩٦٧م)

١١- حسونة: محمد احمد ، اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية ، مكتبة النهضة ، مصر، ١٩٦٠م

١٢-الحموي : شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت عبد الله ، معجم البلدان ، المجلد الرابع ، دار صادر ، بيروت ، (بدون سنة طبع)

١٣- الزبيدي : محمد حسين ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ،جامعة بغداد ، ١٩٧٠م

١٤- سلمان: عيسى وزملائه ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، الجزء الاول وزارة الثقافة والاعلام ، السلسلة الفنية (٥١)، دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م

١٥-الشابشتي ، ابو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ) ، الديارات ، بغداد ١٩٦٦م

١٦- علي : معن حمدان ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والاثار وخطط بغداد ، مشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م

١٧- العميد : طاهر مظفر ، تخطيط المدن العربية الاسلامية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، مطبعة جامعة بغداد :١٩٨٦م

١٨- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود ، اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ،١٩٦٩م

١٩- كامل : احمد عادل ، فتوح الشرق - بعد القادسية ، دار الفكر ، بيروت، بدون سنة

٢٠- ماسنيون : المسيو لويس ماسنيون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ،

ترجمة محمد المصعبي ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، منشورات مطبعة الغري الحديثة في النجف الاشرف ، ١٩٧٩م، الطبعة الاولى

٢١- محبوبة : جعفر الشيخ باقر ، ماضي النجف وحاضرها ، مطبعة الاداب ، ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م

٢٢- المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، (ت٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، والجزء الثالث ، مطبعة السعادة مصر

٢٣- المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله بن محمد بن ابي بكر ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦م

٢٤- الموسوي : مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشاة وتطور المدن العربية الاسلامية ، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢م

٢٥- يوسف : خليف ، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م

قضايا الخليج العربي العامة
وتطوراتها في أروقة
حركة عدم الانحياز ١٩٧٠ – ١٩٧٩
(دراسة وثائقية)

د. فليح حسن علي
كلية الآداب / جامعة الكوفة

يعد الخليج العربي من المناطق المهمة في العالم بسبب موقعه الجغرافي المميّز وأهميته الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولهذا فقد شكّل موضع اهتمام للعديد من القوى والدوائر السياسية على امتداد القرون الغابرة وحتى الوقت الحاضر. وأضاف اكتشاف النفط فيه، في القرن العشرين، أهمية أخرى جعلت من تسابق الدول الكبرى للتوغل فيه أمراً ملحاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستقبلها السياسي والاقتصادي معاً.

كانت بريطانيا اكثر الدول نفوذاً وسيطرة على الخليج العربي، ذلك النفوذ الذي سعت لترسيخه منذ أواخر القرن الثامن عشر (١)، واصبح لزاماً عليها مواجهة محاولات الدول الكبرى المنافسة لها للتوغل في هذه المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية اكثر تلك الدول قدرة على مزاحمة بريطانيا في منطقة الخليج العربي خلال فترة ما بين الحربين العالميتين وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكونها الدول الوحيدة التي خرجت من تلك الحرب اكثر قوة واكثر إمكانيات (٢). وبالفعل، فما ان أعلنت

بريطانيا قرار انسحابها من المنطقة عام ١٩٦٨ لظروف واسباب معينة (٣) حتى أخذت الولايات المتحدة بالتنفيذ الفعلي لملء فراغ القوة في المنطقة منذ عام ١٩٧١.

شكل الخليج العربي منطقة حيوية للمصالح الأمريكية (٤)، ولهذا ردّد المسؤولون الأمريكان، وفي اكثر من مناسبة، ان الولايات المتحدة الأمريكية ستلجأ إلى كافة السبل بما فيها استخدام القوة العسكرية من اجل حماية هذه المنطقة(٥).

ترتبط الأهمية السياسية والجيو - استراتيجية بالمصالح الاقتصادية للغرب في الخليج العربي، إذ تنتج دول الخليج ٣٧٪ من مجمل النفط المتداول في التجارة العالمية(٦)، ويوجد في منطقة الخليج اكثر من ٥٥٪ من احتياطي النفط العالمي(٧)، فضلاً عن كون الخليج سوقاً تجارياً هاماً بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية والغرب، ولهذا كله سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تشكيل قواعد عسكرية لها في هذه المناطق لتحقيق أهدافها في السيطرة والاستغلال، مما آثار اهتمام حركة عدم الانحياز.

أدركت حركة عدم الانحياز حقيقة كون مياه الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط امتدادات لبعضها البعض وان أمن واستقرار الدول المشاطئة والخلفية لهذه الامتدادات تتأثر بامن واستقرار هذه المصطلحات. فلا عجب ان حظيت تلك الدول بهذا الاهتمام من لدن الحركة عندما اخذ الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، يزج بقواته العسكرية للسيطرة على هذه المناطق، الأمر الذي يتعارض تماماً مع مبادئ الحركة التي تقف مسألة المحافظة على الأمن والسلام الدوليين على رأسها(٨). لذلك، أخذت هذه الحركة تعبر عن موقفها الصريح تجاه كل هذه التطورات التي شهدتها المنطقة، عبر فعالياتها المعروفة من مؤتمرات واجتماعات، وتحديداً منذ العام ١٩٧٠، ففي المؤتمر الثالث لرؤساء دول أو

حكومات البلدان غير المنحازة الذي انعقد في لوساكا عاصمة زامبيا خلال المدة ما بين ٨ – ١٠ أيلول ١٩٧٠، هاجمت الحركة السياسية الإنكليزية في منطقة الخليج العربي الرامية إلى السيطرة والاستقلال(٩)، وهذا الهجوم نابع في حقيقته من اعلان المؤتمرات الأهداف الأساسية المستمرة دائماً لسياسة عدم الانحياز هي تدعيم دور دول عدم الانحياز والحفاظ على السلم العالمي ومحاربة كل أشكال العدوان على حرية واستقلال وسيادة الدول والصراع ضد الاستعمار والعنصرية وتسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية والعمل على إنهاء سباق التسلح بين الدول الكبرى ومعارضة إقامة القواعد العسكرية للدول الكبرى في أراضي بلدان العالم الثالث(١٠) وفي المؤتمر الرابع لرؤساء دول أو حكومات البلدان غير المنحازة الذي انعقد في الجزائر خلال المدة ما بين ٥ – ٩ أيلول من عام ١٩٧٣، دعت الحركة إلى ضرورة جعل المحيط الهندي منطقة سلام من خلال تصفية القواعد الأجنبية والعسكرية فيه أو في امتداداته الجغرافية والسياسية في بحر العرب والخليج العربي، وقد أيد المؤتمر ((الجهود التي تبذلها الدول العربية وشعوبها في منطقة الخليج العربي للحفاظ على الاستقرار والأمن والرخاء في المنطقة ولصيانة استقلالها ومقاومة التدخل الأجنبي في شؤونها أياً كان مصدر هذا التدخل. (١١) وجاء المؤتمر الخامس لرؤساء دول أو حكومات البلدان غير المنحازة الذي انعقد في كولومبو في سري لانكا خلال المدة ما بين ١٦ – ١٩ أب من عام ١٩٧٦ ليؤكد الإدراك العميق لحركة عدم الانحياز التي اعتبرت المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط امتدادين مائيين للخليج العربي والبحر الأحمر حيث اكسبتهما هذه الصفة أهمية مضافة تجمع ما بين أهمية الخليج العربي والبحر الأحمر وبين أهمية المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط الجغرافية والعسكرية والاقتصادية، وكذلك جددت الارتباط الاستراتيجي بين أمن الخليج العربي وامن البحر الأحمر وبين آمن المحيط الهندي وامن البحر الأبيض المتوسط وتشخصيها ان آية حالة قلق وعدم استقرار

في هذه المناطق بسبب مظاهر التنافس والصراع الدولي عليها يؤثر سلباً على آمال وتطلعات شعوبها في الحرية والاستقلال والتقدم(١٢). وفي المؤتمر الوزاري للبلدان غير المنحازة المنعقد في بلغراد خلال المدة ما بين ٢٥ - ٣٠ تموز من عام ١٩٧٨، تدارست الحركة ورقة بعنوان (الخطط العسكرية الأمريكية للتدخل في الخليج العربي تهديد للسلام والأمن الدوليين)(١٣)، فبينت ان تلك الخطط تتعلق بضمان استقرار السيطرة على منابع النفط وان الأخطار المتأصلة فيها تتخطى حدود منطقة الخليج العربي، فإذا ارتكبت الولايات المتحدة الأمريكية أو أي دولة أخرى التدخل ضد أي بلد نام أو غير منحاز فان أي بلد نامٍ أو غير منحاز لم يكون بمنأى عن التدخل أو محصناً ضده. واشارت الدراسة أيضاً إلى ان التدخل يشكل تحدياً لاهداف والتزامات البلدان غير المنحازة وانه يتعارض مع الشوط الذي قطعته شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية صوب الحرية والاستقلال. وفي اجتماع مكتب التنسيق للبلدان غير المنحازة الذي انعقد في كولومبو في سر لانكا خلال المدة ما بين ٤ - ٩ حزيران عام ١٩٧٩ أعلنت الحركة اسفها وبشدة لما يذاع من ان الولايات المتحدة الأمريكية قد قررت إقامة أسطول خامس لها وتقوية القواعد العسكرية الحالية مثل قاعدة (دييغو غارسيا)(١٤) في المحيط الهندي(١٥). ولاحظت الحركة، تعلق عميق، حركة الوحدات البحرية الأمريكية في بحر العرب التي جاءت متزامنة مع تطور الأحداث في إيران(١٦)، وعدّت الحركة هذه الأعمال وغيرها من أعمال القسر والاستفزاز والمناورات تهديداً مباشراً لاستقلال وامن واستقرار الدول المشاطئة والخلفية للخليج العربي وتصعيداً لتهديدات الولايات المتحدة الأمريكية المتكررة ضد البلدان المنتجة للنفط وخاصة في منطقة الخليج العربي(١٧).

مما تقدّم يتبين لنا ان قضايا الخليج العربي العامة وتطوراتها قد حظيت، ومنذ السبعينات من القرن العشرين، باهتمام حركة عدم الانحياز مما شكل

صفحة مهمة من صفحات تاريخ منطقة الخليج العربي التي ستكمل بعضاً من الثغرات في الدراسات والبحوث المهتمة بها.

هوامش البحث ومصادره

(١) للتفصيل ، انظر : د. صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠، بغداد / ١٩٧٩ / ص٢١/٧٥.

(٢) للتعرف على جذور طبيعة ذلك التنافس انظر مثلاً : خليل علي مراد، تطور السياسة الأمريكية في منطقة الخليج العربي ١٩٤١ - ١٩٧٤، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٧٩؛ د. طالب محمود وهيم، التنافس البريطاني - الأمريكي على نفط الخليج العربي ١٩٢٨ - ١٩٣٩ / بغداد ، ١٩٨٢.

(٣) للتعرف عليها انظر، بيترما نجولد، تدخل القوى الكبرى في الشرق (الخليج العربي والجزيرة العربية) ترجمة د. فاضل زكي محمد، الصراعات الغربية في الخليج العربي، مجموعة بحوث مترجمة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٣، ص٧٧ - ٧٩.

(٤) ففي حزيران عام ١٩٧٣ مثلاً، وصف جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكية آنذاك منطقة الخليج العربي بأن فيها للولايات المتحدة الأمريكية مصالح سياسية - اقتصادية - استراتيجية هامة جداً جداً. انظر : حسين اغا وآخرون، الوجود العسكري الغربي في الشرط الأوسط، سلسلة الدراسات الاستراتيجية (العدد٩) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢/ص٤٠.

(٥) راجع حسين اغا وآخرون، الاستراتيجية الأمريكية الجديدة، سلسلة الدراسات الاستراتيجية (العدد١١)، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص١٣ - ١٤.

(٦) د. صبري فارس الهيتي، الخليج العربي – دراسة الجغرافية السياسية، ط٢، بغداد، ١٩٨١، ص٣٠٢.

(٧) المصدر نفسه ، ص٢٩٥.

(٨) للتعرف على مبادئ حركة عدم الانحياز وتطوراتها يمكن مراجعة: ادوارد كاردل، الجذور التاريخية لعدم الانحياز، بلغراد، ١٩٧٩؛ ـــــ، عدم الانحياز من بلغراد الى بغداد، باريس، ١٩٨٢.

(٩) انظر، وثائق المؤتمر الثالث لرؤساء دول أو حكومات البلدان غير المنحازة – لوساكا ١٩٧٠، مجموعة وثائق عدم الانحياز، بغداد، ١٩٨٢، ص٥٥.

(١٠) المصدر نفسه ، ص٥٦.

(١١) انظر : وثائق المؤتمر الرابع لرؤساء دول أو حكومات البلدان غير المنحازة – الجزائر ١٩٧٣، مجموعة وثائق حركة عدم الانحياز، بغداد، ١٩٨٢، ص١١.

(١٢) انظر : وثائق المؤتمر الخامس لرؤساء دول أو حكومات البلدان غير المنحازة، كولومبو ١٩٧٦، مجموعة وثائق حركة عدم الانحياز ، بغداد، ١٩٨٢، ص٢٦٢ –٢٦٣.

(١٣) حول نص الدراسة انظر: وزارة الخارجية العراقية، الخطط العسكرية الأمريكية للتدخل في الخليج العربي تهديد للسلام والأمن الدوليين، تموز، ١٩٧٨.

(١٤) تقع هذه القاعدة في الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، وهي اكبر جزر ارخبيل تشاغوس الواقع في نقطة مركزية من المحيط الهندي جنوب الهند حوالي ١٣٠٠كم، وتضم منشآت عسكرية ومراكز استخبارات واتصالات متطورة وفيها مدرج يبلغ طوله ١٢ ألف قدم يتمكن من استيعاب أحدث الطائرات وأضخمها، وحوض ملاحي كبير يستوعب اسطولاً من ٥٠ – ٦٠ قطعة بحرية. انظر: حسين اغا وآخرون ، الوجود العسكري الغربي في

الشرق الأوسط، ص٦١ – ٦٢.

(١٥) انظر: وثائق اجتماع مكتب التنسيق للبلدان غير المنحازة – كولومبو ١٩٧٩، مجموعة وثائق حركة الانحياز بغداد، ١٩٨٢، ص٤٠٩.

(١٦) نقصد بها التطورات السياسية التي افضت إلى خلع الشاه حليف الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة.

المصدر نفسه، ص٤٠٩.

المرتكزات الجمالية والفكرية في قصص وروايات محمود أحمد السيد

الدكتور
علي إبراهيم
جامعة بابل

الرحال الخلفية الفكرية لمحمود أحمد السيد

لا يمكن الحديث عن (محمود أحمد أحمد السيد) رائد القصة العراقية دون المرور بـ (حسين الرحال) رائد الفكر التقدمي في العراق ، والعكس صحيح ، فقد جمع الرجلين أكثر من وشيجة فهما من جيل واحد حيث ولدا عام (١٩٠٣) ولكن لم يلتق السيد بالرحال إلا عندما بلغ العشرين من عمره وكان الرحال قد عاد تواً من ألمانيا ،حاملا معه العلوم التي تعلمها في ثانوية ألمانية في برلين حيث استفاد من تجربة شيوعيي(سبارتيكوس بند) الذين أقاموا متاريسهم في شوارع المدينة عام ١٩١٩.(١) ويعد الرحال أول ماركسي في العراق حيث قرأ كتاب لينين (الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) و (الدولة والثورة) وصحيفة (اللومانتيه) وجرائد أخرى منها (كابيه دي بولشفيك) وقرأ شعر(ناظم حكمت) وروّج الفكر الاشتراكي من خلال إقناع صاحب المكتبة العصرية(محمود حلمي) باستيراد النشرات الاشتراكية (٢) وقد

اعجب محمود أحمد السيد بالرحال من اللقاء الأول عندما سمعه صدفة يناقش قضية فلسفية عميقة .: " كل شعور يأتي من الدماغ إلى الحواس فهو كاذب ، وكل حس يصدر من الحواس إلى الدماغ حس صادق " (٣) وبواسطة الحواس يتعرف الإنسان على الأشياء الموجودة موضوعياً خارج دائرة دماغ الإنسان وهي إجابة على سؤال الفلسفة الأساسي الذي جعل السيد ينحو منحاً مغايراً عن الأفكار والتي استقاها من جامع (الحيدرخانه) حيث نشأ وترعرع .

لقد امتهن الرحال والسيد الكتابة الصحفية وإن تميز السيد عنه بكتابة القصة والرواية فضلاً عن كتابته للمقالات بل أن مقالاته "تحتل موقعاً مهماً في تاريخ المقالة في الأدب العراقي الحديث ،كما تكتسب أهمية خاصة من كونها تعكس الكثير من واقع الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية في العراق بين الحربين " (٤) وكلاهما (السيد والرحال) عشقا الحرية والتقدم وكانا رائدين في فهم واستيعاب الجديد . حيث إن الرحال كان مطلعاً على ما كتبه (الإفرنج) على حد تعبيره . وعلى الروايات العربية (المصرية والسورية) وله معرفة ببدايات القصة العراقية فقد قرأ (الرواية الايقاظية) لسليمان فيضي الموصلي وهو عليم بجوانب الفن القصصي وتتضح إمكانياته في هذا الجانب النقدي من خلال المقدمة التي كتبها حول رواية محمود أحمد السيد البكر(في سبيل الزواج) وإن أواصر الصداقة قد تعززت بينهما حيث أهدى روايته الثانية (مصير الضعفاء) "إلى الحر الأبي حسين بك الرحال" .

وإن هذه الصداقة وصلت إلى حد المشاركة في كتابة مقالات يتوافر فيها "التكامل الذي تقتضيه طبيعة الموضوع الذي يستدعي معرفة اللغة الفرنسية التي تتوافر لحسين والتمكن من أساليب العربية الذي يتميز به محمود "(٥) ويرى أرشد الكاظمي " إن حسين الرحال حاول التأثير على محمود أحمد السيد ليتجه في كتاباته إلى معالجة الموضوعات الاجتماعية بدلاً من القصص ولكنه لم يفلح في مسعاه هذا"(٦) وهذا الكلام ليس دقيقاً إن لم

يكن خاطئاً فقد كتب محمود أحمد السيد عدة مقالات صدرت في كتاب تحت عنوان (القلم المكسور)،حيث نرى في مقالة (آراء وأفكار) دعوة لقلب الأنظمة والقوانين لكي تستريح البشرية المعذبة . وفي نفس المقال يطرح فكرة أراها متقدمة على زمانها وهي " كل حركة تقاومها بمثلها " ويشرح ذلك بقوله" هذه قاعدة يجب أن يعلمها البشر جيداً ، فلا يحاول أن يقاوم التيار الفكري بالنار والحديد بل . إذا أراد . فليوجد تياراً فكرياً ثانياً يصنعه إزاء الأول في معترك الحياة . حينئذ يرى كيف يسقط الفاسد . ويثبت العام الصحيح " (٧) وهي دعوة مبكرة للصراع السلمي الحضاري بين التيارات الفكرية والسياسية لو جرى الأخذ بها لتجنبنا الكثير من الدماء والدموع منذ العشرينات وإلى يومنا هذا .

وبسبب عمق العلاقة بين الرجلين ،جعل السيد من شخصية جلال خالد في روايته الموسومة بهذا الاسم معادلا موضوعيا أو مزيجا من شخصيتي السيد والرحال فكلاهما زارا الهند وتأثرا بالأجواء السياسية والاجتماعية وشعرا بالفوارق الطبقية العميقة وتلمسا نضال العمال والكادحين من أجل تحقيق مطالبهم العادلة . وتأثرا بشخصية (ف . سوامي) وتعلما منه أن النضال لا يمكن أن يكون إلا في الوطن نجد ذلك في الحوار الذي دار بين جلال خالد وبينه (٨) الذي قال : " نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها " ردا على جلال خالد الذي برر الهرب من الوطن بالحرية المستلبة والسجناء الذين يكسرون الصخر على قوارع الطرق .

ومما يؤكد أن جلال خالد هو حسين الرحال يذكر السيد في مقدمة الرواية "حقيقية ، استندت في كتابتها إلى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة وإلى رسائله إلى أصحابه ، ورسائلهم إليه ... " وقد نشرهذه الرسائل في الفصل الثاني من الرواية بعد أن أذن له جلال خالد أي حسين الرحال كما هو واضح .واستند في كتابتها إلى أحاديث الكاتب الهندوي (. ف. سوامي) وهناك إشارة

في الرواية إلى زيارة الاثنين معا –السيد والرحال - إلى الهند : " قدر لي أن أزور الهند كما زارها صاحبي جلال خالد " (٩) وتشير الرواية إلى تقييم علمي لطبيعة المجتمع العراقي في ذلك الوقت حيث ترد العبارة التالية : " في العراق لا يوجد عمال بل فلاحون جائعون "

ويتعلم جلال خالد من الكاتب الهندي : " أن المثقفين الذين درسوا العلوم في أوربا والحاملين خلاصة ثقافة العصر الحديث هم طلاب الاستقلال للهند ، والحياة الحرة الهانئة لشعبهم والشعوب الشرقية المظلومة كلها " (١٠)

وكلاهما (السيد والرحال) دخلا في حلقة من المثقفين الثوريين كانت تحرص على أن تميز اشتراكيتها وتبحث عن تفسيرات ماركسية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها ، وتعمل على نشر ما تتوصل إليه من استنتاجات " (١١)

ويذكر الباحث عزيز سباهي أن هذه الحلقة تتكون من :(عبد الله جدوع ، محمد سليم فتاح ، مصطفى علي إبراهيم ، إبراهيم القزاز ، عوني بكر صدقي ، عبد الحميد رفعت ، عبد الفتاح إبراهيم وفاضل محمد البياتي ، حسين الرحال ومحمود أحمد السيد.) .

وما يميز هذه المجموعة هو عدم امتلاكها" لبرنامج محدد تسعى لتحقيقه وفي الحالات التي بحثت فيها قضايا سياسية محددة تكشف عن سطحية في المعالجة "(١٢)

ونرى أن الرحال في نشاطه داخل المجموعة ينصرف إلى معالجة القضايا الفكرية العامة إلى جانب محمد سليم فتاح بيتما يتخصص محمود أحمد السيد بالأدب .

بعد ذلك انتميا إلى الحزب الوطني العراقي الذي يتزعمه (جعفر أبو التمن).

وامتاز السيد بالتواصل مع الكتابة حتى وفاته بينما صرفت الرحال "

مشاغل الحياة ولم يعد يمارس نشاطا سياسيا وفكريا ذا أهمية سوى نشاطات صحفية" (١٣)

وإذا تأثر السيد في البدايات بالرحال ، أو حين قلنا أن الرحال هو الخلفية الفكرية للسيد بمعنى مجازي ، هنا لا يعني أن ليس للسيد فكره ومصادره الثقافية إذ أن منبع ثقافة السيد هي التراث العربي حيث نشأ في بيت ديني ثم قرأ جبران خليل جبران ومصطفى لطفي المنفلوطي ، قاسم أمين ،سلامة موسى ، طه حسين ، عباس محمود العقاد ، مجلدات المقتطف والهلال ،ومجموعة الدكتور شبلي سميل و قد . قرأ لشارل وانير و(سر تطور الأمم) لجوستاف نوبون والذي ينعته بأحد غلاة الوطنية الإفرنجية ومن كبار أقطابها وقرأ أميل زولا ، و نظريات دارون وجان جاك روسو ، ولينين ،وفولتير ، وفرانسوا كويه ،وساهمت معرفته للغة التركية في التعرف على الأدب السوفيتي والروسي وكان تعرفه على هذا الأدب يعد نقلة نوعية في حياته الفكرية حيث قرأ لانطوان تشيكوف ،توغنييف ودستوفسكي ، وتولستوي ، مكسيم غوركي ،وقرأ الأدب التركي وبخاصة رشاد نوري ورجائي زادة ، وأرخمند أكرم ،وكل هذه المصادر وغيرها تشكل بمجموعها مصادر مهمة أسست ثقافة محمود أحمد السيد في الجانبين الفني والفكري .

الملامح الفكرية السياسية لمحمود أحمد السيد

في أكثر من مكان يؤكد محمود احمد السيد على دور العمال ويعدهم "قوام الحياة" .والسيد لم يكن إصلاحيا بل كان ثوريا يدعو إلى التغيير الثوري حيث يقول : إذا كان في نيتكم يا قوم إن تنهضوا ، فاهدموا بنائكم القديم المتداعي الأركان بدلا من الترقيع والترميم أقيموا بعده صرح نهضتكم الجديدة التي ترغبون" (١٤) وهذا ما ورد في مقدمة مقالة (الحكمة العجوز) الذي يسخر فيه من تلك الأمثال التي تدعو الى الخنوع والسكينة واليأس

والقبول بالأمر الواقع.

لا يترك محمود أحمد السيد أية فرصة سانحة دون أن يتحدث عن الجانب الطبقي فنراه في قصة (بداي العايز) وهي إحدى قصص مجموعته (في ساع من الزمن) يتحدث عن فيضان الفرات ويقول : " الخطر كان أعظم ما يكون في الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل تهديدا من جيرانهم أهل الضفة اليمنى وأرضهم أوطأ من أرضهم وسدودهم أضعف من سدودهم" (١٥) ولا يكتفي هذه العمومية بل يفصل ويفرق بين الرؤساء في كلا الضفتين الذين يمتلكون الدور والأراضي وبين الفلاحين المعدمين .

وفي مقالة (أدب اليوم) يدعو الى النبوغ في العلم و الاجتماع قبل الشعر والخيال ·ومواقف محمود احمد السيد في رواياته وقصصه إزاء معالجة الموضوعات الاجتماعية واضحة فهو يدعو إلى:

١- حرية المرأة ومساواتها وبخاصة في اختيار شريك حياتها·

٢- محاربة الجهل ، الذي جعل البلاد وأهلها في أتعس الحالات .

٣- نشر العلم والإكثار من فتح المدارس .

٤- موقفه الطبقي من الأغنياء فقد جاء على لسان (حسن الفراتي) في رواية (مصير الضعفاء)" يندر بين أغنيائنا من يهتم بالمصلحة العامة ، وفائدة الوطن

٥- دعوة لمقاومة المحتلين الإنكليز بعد أن احتلوا البصرة فالقرنة فالعمارة عنوة،فتغير الحال وتنكرت الأيام للناس ، وأقيمت المشانق للهاربين من صفوف الجيش" (١٦)

٦- تناول السيد موضوعات من الريف العراقي .

٧- كان للسيد موقف واضح من الغرب من أمريكا تحديدا . وهو متحيز لنضال الشعوب ضد المستعمرين ، فهو مع السود ضد التمييز العنصري (الأبيض) ومع الشرقي ضد الغربي ...الخ وموقفه من الغرب ليس مطلقا فله

استثناءاته ، نراه يميز بين فلاسفة الإفرنج الذين يحتقرون الشرق والجنس الشرقي وبين غيرهم .

٨- السيد منحاز للاشتراكية ويراها " تثبت دعائم الحياة الصحيحة الراقية ومبادئ التضامن العام واحترام الحرية الشخصية وربط الفرد بالجماعة ارتباطا يكون به لهم ويكونون له" (١٧)

٩- نسمعه وكأنه يصرخ " انبذوا هذه التآليف الخرافية الجديدة من روايات بوليسية وقصص غرامية وحكايات خيالية أتتنا من بلاد الإفرنج . " (١٨)

هل نتبين من هذا الحديث موقف السيد من الجديد ؟ أم هو موقف من أدب الغرب الوافد إلينا عن طريق الترجمة ؟

من يقرأ أعمال السيد يجد أنه لا ينفي كل جديد بشكل مطلق بل كان واعياً بالآتي لنا من الغرب محددا إياه بما هو طارئ على الثقافة وهو ينبذ كل قديم ويدعوا إلى حرق الكتب البالية العتيقة

١٠- كان السيد يميل إلى العلم والإجتماع قبل الشعر والخيال إذ يقول " يجب أن يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية والعبر الإجماعية قبل السفسطات والخيالات . " (١٩)

١١- والسيد كان مطلعا على الفكر المادي وقد وجدنا إشارات في قصصه ورواياته ففي قصة (جماح هوى) يشير إلى إحدى شخصيات هذه القصة وهو مدرس يعتنق المذهب المادي ويذكر أن د. شبلي سميل من أول الدعاة إليه في الشرق العربي (٢٠)

١٢- كان السيد يروج للنضال ضد الاحتلال وهناك إشارات كثيرة في قصصه واعماله فيشير إلى النشاط المعارض المنظم المعلن وغير المعلن يذكر مثلا " الجمعية الاستقلالية التي تعمل في خفاء شديد " (٢١)

١٣- ويشير إلى ثورة العشرين التي أنهت عهد الاحتلال البريطاني العسكري المباشر للعراق .

١٤- موضوع الحرب من المواضيع التي تركت بصماتها على قصص السيد نجد ذلك واضحا في (أبو جاسم) ، (الدفتر الأزرق) وغيرها من قصص مجموعته القصصية (في ساع من الزمن)

المرأة في فكر ونتاج السيد :

وعلى الرغم إن المرأة في أعماله يظهر وجودها متناسبا مع وجودها في الواقع العراقي ، فمثلاً لم تظهر في(مصير الضعفاء) إلا في نهاية الرواية. والسيد مولع بترميز شخصياته بالحروف وكذلك بعض الأمكنة وبخاصة الشخوص النسوية كما في قصة (رسالة هجر) حيث نقرأ " لترافقني إلى حيث نتنزه في (ص) أو حدائق (ك. ر) وفي قصة (شرق الهوى) يرمز للفتاة النبيلة بالحرف (س) ، دون أن يكون هناك مسوغ فني حيث نرى الكاتب في مكان آخر يذكر أسم الشخصية الصريح (سليمة إحسان) ، ولا يهمنا أن يكون هذا الاسم صريحا أم مستعارا. ، ولم يقتصر استخدام الحروف على النساء والمكان بل تعداه إلى الرجال أيضا فهو يستخدم الحرف (ف) رمزا لفتى قبيح فقير في تهذيبه . وهذا كله ليس بمعزل عن طبيعة العلاقات السائدة وتأثير الرقابة الاجتماعية والسلطوية .

ويعالج في قصصه قضية محو العار وتطهير العرض من الدنس كما هو الحال في(نكتة العمامة) والتي ترتكز على حكاية شعبية معروفة ربطها بموقف الغرب من تلك العادة التي تعبر عن بدوية الفرد العراقي التي تدفعه لارتكاب جريمتين قبل أن يتحقق من صحة المعلومة ولكي لا يقال له أن في عمامتك نكتة سواء ،وهي قصة ساذجة لم تضف شيئاً جديداً للحكاية الشعبية ولم يوظفها توظيفاً فنياً وفكرياً أكثر مما هي عليه .

ويرسم لنا السيد صورة المرأة العاهرة التي لم تخلق بغياً ولم تكن سليلة عائلة فاسدة بل كانت سيدة طاهرة عفيفة مطلقة ثم تجعلها الظروف وهجر

حبيبها لها بشكل مفاجئ تنحدر باتجاه الخمرة والتدخين ويرينا من خلالها بيت الدعارة كفضاء انتقالي هذا النموذج من النساء يتجسد في شخصية عاتكة في القصة التي تحمل الاسم نفسه ، وفي قصة (الذكرى) يرينا المرأة الريفية ذات الوشم الكثير والخلاخل من الذهب والأساور والضفائر .كما يتناول شخصية الراقصة والمرأة المخدوعة والمطلقة .

وفي الجانب السياسي تبني الرحال والسيد قضية المرأة ضمن نشاط المجموعة التي كانت تجتمع في غرفة محمود أحمد السيد في الحيدر خانة ولكنهم " دخلوا معركة تحرير المرأة وكرسوا لها معظم نشاطهم الفكري والصحفي دون أن يرسموا لهم خطا واضحاً لمعركتهم أو غاية سياسية ينشدونها من ورائه ، كان كل ما يشغل بالهم هو أن ينتصفوا للمرأة ويهاجموا قيماً وأعرافاً تهضم حقوقها ودون أن يفكروا بردة الفعل وآثارها " (٢٢) .ولكن ينبغي القول أن تبنيهم لهذا الموضوع في ذلك الوقت يعد جرأة منهم ويضعهم في مصاف الرواد المدافعين عن حقوق المرأة العراقية في مجتمع سادت فيه العلاقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية وتمط عيش هجين في المدينة وما تفرضه هذه الأنماط من علاقات اجتماعية وبخاصة العلاقة بين الرجل والمرأة . ويرى السيد أن المرأة في الرواية والواقع مظلومة مستلبة الحق كهؤلاء العمال وهذا الفهم الذي يجمع بين اضطهاد المرأة الاجتماعي وبين اضطهادها الطبقي العام يدل على وعي السيد المبكر لهذه القضية المستعصية .

محمود أحمد السيد مترجماً

يرى محمود أحمد السيد أن من واجب الأدباء أن يدخلوا القصة إلى مكتبتنا عن طريق ترجمة مختارات من الآداب المختلفة وبخاصة " الآداب الشرقية من روسيا وتركيا ، متحفظا على نقل القصص الإفرنجية بسبب الاختلاف النفسي على حد تعبيره . وقد مارس الترجمة عن التركية ونشاطه في

هذا المجال اتسم بالمنهجية وضمن اختيارات تتوافق وتوجهه الفكري والسياسي .فنراه يسبب اختيار قصص رشاد نوري لترجمتها وذلك لكونه "نزاع في قصصه إلى الحرية معبودة الفريق الناهض من الشعوب الشرقية المكدودة في هذا العصر؛ نزاع إلى هدم التقاليد البالية ، نزاع إلى شن الغارة الشعواء على المحافظين الرجعيين" (٢٣) وهكذا يمكن القول أن السيد كان منسجما مع روحه الشرقية ومع عصر العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي حيث الجهل والتخلف والأمية السائدة في المجتمع ومن الصعب استثناء المثقفين عن عموم السكان بل أن المثقف كان يعيش ازدواجية جديدة متأتية من الصراع بين الثقافة الجديد ة التي تلقاها عبر علاقاته واطلاعه على حضارة الغرب وثقافته والاقتناع النظري بمنطلقاتها وبين موروثه الثقافي الاجتماعي التاريخي الكامن في بناء شخصيته .

وبما أن السيد يجيد اللغة التركية فقد اقدم على ترجمة بعض القصص التركية لرشاد نوري ولأرجمند أكرم وترجم تلخيصا لرواية (البعث) لـ (تولستوي) .وامتازت تجربة السيد في الترجمة بما يلي:

١- يلجأ لتقديم تلخيص للرواية محاولا إعطاء فكرة عما يدور من أحداث ثم يصور لنا طبيعة الشخصيات وحركتها داخل الفضاء الروائي .
٢- يختار القصص ذات الأحداث التي لها مساس بواقع المجتمع العراقي .
٣- نجد الحس الطبقي واضحا في اختيار قصصه المترجمة ويمكننا الإمساك بتحيزه للمظلومين وأبناء الطبقات المعدومة وكذلك الموقف ضد الطبقات الأرستقراطية .
٤- نجد أن محمود السيد يخرج عن النص المترجم ويطرح رأيه ثم يستطرد في توضح موقفه من أحداث الرواية ويتمادى اكثر من ذلك فيقطع حديثه ويدعوك للعودة للقصة لمعرفة الواقع بدقة : "أشير عليك بقراءة نصها لتطلع عليها بأوضح مظاهرها ...ولنعد" (٢٤) ويعود إلى الترجمة النصية للرواية

٥- نلاحظ بين طيات القصة أو الرواية المترجمة مجموعة من الآراء النقدية إذ لم يقتصر عمله على ترجمة العمل مختصرا فقط بل يحاول تحليل وتقويم الموضوع فكرياً وجمالياً فهو يقول على سبيل المثال لا الحصر في تقييمه لرواية (البعث) لـ (لتولستوي) " وأني لأسخر من هذه الخاتمة حقاً " (٢٥)

بعض الملاحظات الفنية في كتابات السيد

يتوزع نتاج محمود أحمد السيد بين القصة والرواية والمقال الصحفي . ووجدت كما وجد الباحثون من قبلي وكما يراه السيد نفسه أن النتاج القصصي للسيد قد مر بمرحلتين الأولى تمثلت بكتبه الثلاثة : (في سبيل الزواج) و(مصير الضعفاء) و(النكبات) وقد كتبت هذه الأعمال خلال عامي (١٩٢١- ١٩٢٢) ثم انتقدها السيد وعدها " روايات غرامية فاسدة وسخيفة " واتسمت بالبدائية والسذاجة " ولا قيمة فنية لها إنما تأتي أهميتها من كونها تمثل مرحلة أولى من مراحل الكاتب الفنية ، وتعكس في الوقت ذاته طابع القصة العراقية وخصائصها في الفترة الأولى من العشرينات " (٢٦). ويمكننا القول إن السيد أول كاتب ينتقد نفسه بهذه الجرأة وهذا ما يؤكد جدية كاتبنا وحرصه على تطوير فن القصة والرواية في العراق .

والمرحلة الثانية والتي جاءت بعد توقف دام خمس سنوات ثم بدأ من جديد وقد استهلها برواية (جلال خالد) والتي عكست تجربته وحسين الرحال في الفترة التي قضاها في الهند وثم كتب بعدها مجموعتين قصصيتين هما : (الطلائع) و(في ساع من الزمن) وتمتد هذه المرحلة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٩ .

ويمكن أن تعتبر كتابات السيد الصحفية المرحلة الثالثة من حياة السيد لا بترتيبها الزمني بل لأهميتها الفكرية والفنية حيث تناولت مواضيع مهمة منها دعوته لتحرير المرأة والوقوف ضد القديم البالي والترويج للتفاعل مع الجديد .

منذ أن ظهرت الرواية عالميا وهي تهتم برسم الشخصيات ، ويشكل

الزمكان عصب الرواية الأساسي أضف إلى ذلك أمور أخرى لها أهمية كبيرة أيضا ومنها السرد القصصي ، الوصف ، التزامن والتناوب ، وكل العناصر والأساليب التي لابد من توافرها في الرواية . ولكن من الصعب بل من الخطأ التعامل مع نتاجات السيد أو غيره من الرواد بأدوات نقدية حديثة على الرغم من أن هذه الأدوات عالجت وتعالج النتاج الأدبي الذي ظهر في القرن التاسع عشر أبان ظهور روائع الأدب الروسي والفرنسي والإنكليزي والأمريكي .

أننا نتعامل مع كتابات محمود السيد ليس بمقاييس الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها تلك الروائع بل بمواصفات الحالة الاجتماعية – الاقتصادية – السياسية للمجتمع العراقي في العشرينات من القرن العشرين وهي الحالة التي تنعكس على واقع الثقافة المتخلف قياساً بما وصل إليه الغرب .

ظهور السيد جاء أثناء وبعد مرحلة ظاهرة قصص الرؤية ورواية سليمان فيضي (الرواية الايقاظية) وعلى هذا الأساس وبسبب إخلاصه لفن القصة وتواصله معه كماً ونوعا يعد محمود أحمد السيد رائداً للقصة العراقية و"أن بداية القصة في العراق ظهرت في العشرينات من القرن العشرين وهي الفترة التي يمكن أن تورخ بها بداية القصة الحديثة في العراق" (٢٧)

ويذهب د.عبد الإله أحمد إلى أبعد من ذلك حيث يشير إلى أن السيد "من الروائيين الذين شاركوا في بناء القصة العربية ووضع أسسها لا القصة العراقية وحدها" (٢٨) وقد بنى الدكتور عبد الإله رأيه هنا على أساس التزامن بين بدايات السيد ومحمود تيمور وغيره من الرعيل الأول من كتاب مصر ،ولكن هل يمكن أن يعد التزامن أو المجايلة أو الريادة سبباً لأن يأخذ الكاتب مثل هذا الدور الكبير ؟

أعتقد أن ذلك لا يكفي إطلاقا ، هناك أسباب أخرى كثيرة منها نوع النتاج وسعة انتشاره في الوطن العربي وموقف النقاد من الكاتب كل هذا وغيره يجعل الكاتب يتبوء موقعا ريادياً ولكنا لم نلمس ذلك لا في الدراسات

التي تناولت هذه الموضوع ولا في تصريحات كتاب ذلك الزمان .ولا حتى في تقوم د. عبد الإله أحمد الذي يعد قصصه في مرحلته الأولى عبارة عن أحاديث اجتماعية اتخذت شكل القصة تسرد بطريقة تقريرية جامدة، وتخلص إلى نصائح ومواعظ ودروس بالأخلاق .فيها ضعف في الحبكة والأسلوب وهي قصص طويلة مختصرة وأنت " تقرؤه فترى نفسك أمام دفتر من طلاب المدارس الثانوية وترى أغلاط النحوية والإملائية كما ترى ضعف الربط بين الجملة والجملة والعبارة والعبارة" (٢٩)

ونحن إذ نسلم بهذه الحقيقة لا يعفينا الواجب والإخلاص من البحث المتواصل سواء في تلك البدايات أم في أدب محمود أحمد السيد الذي نحتفل اليوم بمرور قرن على ميلاده وكل ما قلناه وسوف نقوله لا يقلل من مكانة السيد الريادية في فن القص والفكر التقدمي

الملاحظ على السيد هو ولعه في توظيف نماذج أجنبية واتخاذهم أبطالا لقصصه ورواياته فقد كتب السيد رواية كاملة أبطالها من الهند-أصلاً وأسماء - تدور أحداثها في فضاء روائي ليس عراقيا هو (بومبي) هذه الرواية هي (في سبيل الزواج) التي لا يربطها بالعراق سوى أن كاتبها عراقي . وتجدر الإشارة إلى أن السيد نشر ملخصاً لهذه الرواية دون ذكر الأسماء..

ربما أستخدم السيد الشخصيات الأجنبية وسيلة للتخلص من الرقابة سواء أكانت اجتماعية وهي ما تفرضها العادات والتقاليد السائدة في المجتمع أم سلطوية التي تقف بالضد من حرية التعبير . وهذا الأسلوب ليس جديدا في القص العراقي فقد سبق السيد عطاء أمين الذي وظف الحلم (الرؤية) وغيره يستحضر التاريخ ويسقط عليه موضوعا من الواقع .

إن موضوع رواية (في سبيل الزواج) لا يتطلب تهرباً من أية رقابة فـ (أورانجي) أحد الشخصيات الرئيسية يسكن في قصر كبير وليس لديه سوى ابنته الوحيدة (كستور) وهذه ترتبط بجنارمان سراً وهناك رجل يدعى (فتى

الجبل) وهو لص وزعيم عصابة مشهور أحب (كستور) ولم يستطع والدها رفض طلبه بيتما رفض تزويج ابنته من حبيبها (جينارام) الذي كان سباق في طلب يدها . ويترك الكاتب القارئ حائراً لا يدري لماذا يرفض هذا الشاب الذي يمتلك كل الصفات التي تؤهله للزواج وفي نهاية الرواية يكشف الروائي سر الوالد حيث يظهر أنه كان لصا وشريكا لفتى الجبل . إذ أن موضوعها عادي ويمكن أن يدور في فضاء ما من بلادنا ، وشخصيات عراقية.

أعتقد أن ذلك ممكنا وهذا ما فعله الكاتب نفسه في روايته الثانية (مصير الضعفاء) والتي كتبها بعد سنة من الرواية الأولى أي عام ١٩٢٢ وكانت أحداثها تدور بين الموصل وبغداد.متناولة موضوعاً مشابها.

وأحيانا ينهي السيد روايته بموعظة مباشرة مثلما رأينا في ملخص قصة (في سبيل الزواج) حيث يختمها بهذه الدعوة على شكل تساؤل " متى يفيق الشرقيون من رقدتهم فيقتصون للمرأة من الذين هم لها معادون وعليها حانون ولروحها قاتلون"(٣٠) ويتكرر هذا الوعظ في قصة (ناصح القوم) من مجموعة النكبات وفي قصص أخرى غيرها .

محمود أحمد السيد وزميله حسين الرحال موضوع مهم ومتشعب وفيه مجالات واسعة تحتاج إلى الدراسة والبحث وهذه مساهمة أولية أطمح إلى توسيعها في القريب العاجل .

مصادر البحث

(١) أنظر حنا بطاطو ص٤٠

(٢) أنظر أرشدا لكاظمي ، الثقافة الجديدة العراقية العدد ٤ (٧٢) ، نيسان ١٩٧٥

(٣) الطاهر علي جواد الطاهر ، محمود أحمد السيد ، رائد القصة العراقية ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، تموز ١٩٦٩ص ٢٩

(٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، من مقدمة الكتاب التي كتبها كل من : د. علي جواد الطاهر ود. عبد الإله أحمد ، المصدر السابق ص٨

(٥) د. علي جواد الطاهر ، المصدر السابق ص ٦٧

(٦) أنظر أرشد الكاظمي المصدر السابق ص٣٣

(٧) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، إعداد وتقديم الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور عبد الإله أحمد ،منشورات وزارة الثقافة الفنون الجمهورية العراقية، ١٩٧٨ ص ٢٤٩

(٨) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص

(٩) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٧٣

(١٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٩٠

(١١) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٣

(١٢) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٥

(١٣) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٦

(١٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٥١

(١٥) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص٤٦٠

(١٦) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٤٦

(١٧) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٣٩

(١٨) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٣٦

(١٩) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٦١

(٢٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٩١

(٢١) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٨١

(٢٢) عزيز سباهي ،عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ، الجزء الأول ط١ ، سنة ٢٠٠٢ منشورات الثقافة الجديدة ص ١٠٥

(٢٣) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣٤

(٢٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣١

(٢٥) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣٣

(٢٦) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩منشورات دار الشؤون الثقافية العامة " آفاق عربية " ، ط٢ ،١٩٨٦ ص ١٩٤

(٢٧) د. علي إبراهيم ، الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان ، دار الأهالي ، دمشق ط١ ٢٠٠٢ ص٦١

(٢٨) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩، المصدر السابق ص ٢٠٩

(٢٩) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩، المصدر السابق ص ١١

(٣٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص١٥٠

غزل
بشار العذري

دراسة موضوعية

الدكتور
حافظ المنصوري

التمهيد

شاع بين دارسي الادب قدماء ومحدثين ان بشار بن برد من الشعراء الخلعاء في العصر العباسي ، وضموا اسمه الى قائمتهم فهو في مجونه كأبي نواس وواليه بن الحباب والحسين بن الضحاك وربيعة الرقي وغيرهم. وهم في هذا كله يطلقون احكامهم اطلاقاً ، ولايميزون بين غزلهم الفاحش ، وغزلهم العفيف وكأن الشاعر عندهم اما ان يكون فاحشاً خليعاً في غزله واما ان يكون عفيفاً ، بل انهم عدوا شعراء الغزل في العصر العباسي الأول جميعهم من الخلعاء الذين لا يرعون حرمة للمرأة ، ولا يتورعون عن التصريح بمفاتن الجسد ، ولذة الغريزة ، اذ اصبح ظهور شاعر عفيف في هذا العصر امراً شاذاً لايقبله العقل مثلما حسبوا ظهور العباس بن الأحنف بفنه العفيف امراً شاذاً على قيم العصر ومبادئه ، فالدكتور طه حسين يرى ((ان العباس بن الأحنف سقط بين الكرسين . كما يقول الفرنسيون . لانه لم يبلغ اتقان الغزلين من شعراء بني امية ، ولم يبلغ اجادة العابثين من شعراء بني العباس ، وانما جاء فاتراً ، قلما

يترك في النفس اثراً قوياً ، لأن الفن الذي اراد ان يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الاسباب التي اوجدته))[1].

وتبع طه حسين على النهج نفسه دارسون اخرون من امثال جورج غريب في كتابه (الغزل ، تاريخه واعلامه)[2] وحسان ابو رحاب في كتابه (الغزل عند العرب)[3]والدكتور شوقي ضيف[4] ويرى باحث معاصر في غزل بشار ان المرأة لديه ((صوت مسموع متغاير النغمة ، اما جمالها المدرك بالنظر او قبحها فهذا ما يفتقر اليه لذا تتحول المرأة عنده الى وجبة مادية تسد رمقاً حسياً))[1] ويرى هذا الباحث ان المرأة عند بشار وربيعة الرقي ((قد تحولت الى فهم عبثي صارخ لا يرى فيها غير الجسد الذي جهد بشار في طلبه قولاً وفعلاً وهو لا يرى من المرأة الا الغواية والشهوة))[2] ويرى ايضاً ان قدرة بشار منصبة على الجانب الحسي ، فلا يشغل نفسه الا بهذا الجانب من المرأة))[3] ويراه باحث اخر ((بانه اباحي الشوق شهواني الحب بهيمي اللذة))[4].

وفي ظني ان اغلب الدارسين قد تأثروا بما ساقه صاحب الأغاني من اخبار عن بشار تلك التي دل اكثرها على معنى الفحش والخلاعة ومنها ما قاله ((عهدي بالبصرة وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ الا يروي من شعر بشار ، ولا نائحة ولا

---

(١) حديث الأربعاء ، طه حسين ١/٢٩٤.

(٢) انظر ص٣٧.

(٣) انظر ص٢٠٥.

(٤) الفن ومذاهبه في الشعر ، ص٦٤.

(١) شعر المكفوفين ، د. عدنان عبيد العلي ، ص١٨٤.

(٢) نفسه ، ص١٨١.

(٣) نفسه ، ص١٨٤.

(٤) بشار بن برد بين الجد والجون ، حسين منصور ، ص٥١.

مغنية الا تتكسب به ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه))(٥)، ومع ذلك فعلى شدة هذه الموجة الشائعة عن غزل بشار نجد من الدارسين مَنْ هم اكثر انصافاً وروية في احكامهم على شعر بشار ، فمنهم من رأى ان شعره يجمع بين فحش القول وبين القول الحكيم الذي يجري على السنة الناس اعجاباً وتمثلاً واستشهاداً))(٦).

ويرى الدكتور توفيق الفيل ((ان هناك اتجاهين في غزل بشار ، حسي وغير حسي))(٧). كذلك قد اشار الدكتور حسين عطوان الى ان لبشار مقدمات تحتوي غزلاً تقليدياً فيه معاني العذريين وذلك لانه كان ينشد هذه القصائد امام كبار الخلفاء والولاة(٨) ، ويرى آخر ((ان نسيب بشار جرى مجرى الغزل العذري في العصر الاموي))(٩) ويقول مرة اخرى (٠ ان شاعراً يقف اكثر نسبية على امرأة واحدة يبثها فيه شوقه ويشكو فيه بعادها ويأتي فيه بالمعاني الغربية والعاطفة القوية لشاعرٌ صادق التعبير عما يجول في نفسه مخلص في حبه))(١٠) واقوال اخرى مشابهة وفيهذا اعتراف ان لبشار غزلاً عذرياً جديراً بالدراسة ، وربما انطبق عليه قول من يرى ((ان بين الحسيين والعذريين شعراء توسطو في الامر فأباحوا احياناً وتعففوا أحياناً اخرى وذلك كلفهم باللذة لانها لذة وبالعفة لانها عفة وكان يعنيهم ان يقال تغزلوا فاجادوا الغزل(١) ومهما يكن فان

(٥) الأغاني ، ابو فرج الأصفهاني ، ١٤٩/٣ .

(٦) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ، د. مصطفى الشكعة ، ص٤٢.

(٧) القيم الفنية المستحدثة ، ص١٦٧ .

(٨) انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي ، ص١٦٩ .

(٩) بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، د. عمر فروخ ،١١٥ .

(١٠) انظر: بشار بن برد ، د. طه الجابري ، ص٤٢.

(١) الادب الاموي صورة رائعة من البيان العربي ، د. ابراهيم علي ابو الخشب ، ص٧٠.

ديوان بشار وما يضمه من اشعار بين دفتيه هو الحكم الفصل في الموضوع.

اشكالية البحث

لقد اردت في هذا البحث ان اقترب من حقيقة بشار بعيداً عن اراء الدارسين معتمداً على ديوانه لان الديوان من اصدق المصادر واقدمها عن الشاعر ، فلدي استقرائي للديوان وجدت فيه ما يخالف الاراء الكثيرة التي قيلت فيه اذ ان غزله الذي ينحو فيه نحواً عذرياً يفوق في كمه غزله الصريح او المكشوف ، وهو فيه ينحا منحى العذريين من شعراء العصر الاموي او بعض شعراء الدولتين ، فلماذا وصف بانه شاعر خليع ولم يوصف بانه شاعر عذري؟.

هذا من جهه ومن جهه اخرى اردت ان اشير الى ان كثير من الاحكام التي صدرت على ادبنا القديم فيها كثير من عدم الموضوعية ، وان كثيراً من الباحثين يتكىءُ على احكام غيره ، ولو كانت مجانبة للصحة كما ان بعض الباحثين من يبني احكامه على ابيات مفردة يختارها من قصائد طويلة ، وهو اسلوب في الدراسة غيردقيق لان القصيدة كلٌ متكامل . ولاسيما قصائد الغزل . تنظم في وقت تعبر عن رؤية شعرية معينة ، يمثل فيها الشاعر نهجاً معيناً من الفكر والاتجاه والسلوك ، فقد يكون الشاعر عذرياً تماما في كلامه وفكره في قصيدةٍ ، وقد يكون غير ذلك في قصائد سابقة او لاحقة ، لان العذرية لا تختص بزمان معين ولا بمكان معين ولا بشخص دون غيره وقد يكون الفرد خليعاً ماجناً وقد يكون عفيفاً في وقت اخر ، وهذا لايعنينا فنحن نهتم بدراسة النص الشعري مضافاً الى غيره من النصوص المشابهة له وفي هذا البحث ندرس ما لبشار من غزل يحمل معاني العذريين اما غزله الاخر فموضوع بحث اخر.

مظاهر الغزل العذري

الغزل العذري ليس فناً جديداً او طارئاً في عصر بشار بل هو قديم قدم الانسان الذي عرف الحب منذ نشأته. ولكن هذا الفن قد شاع في عصر بني

امية حتى اصبح ((ظاهرة تحتاج الى تفسير))[1].

فكانت هناك طائفة عاشت في اواخر العصر الاموي وادركت العصر العباسي كابي حيّة النميري والحسين بن مطير وبكر بن نطاح الحنفي وغيرهم.

واذا اردنا ان نستقري مظاهر العذرية في شعر هؤلاء جميعاً ، نجدها تتركز حول مفاهيم ودلالات معينة منها:

-ذكرهم لمشاهد الرحيل والتحمل الذي ينبئ بالبعد والفراق والهجران وعدم التلاقي بين المحبين.

-كثرة الحديث عن الوشاة والعذال والحساد ، فهم فصل في قضية كل حب.

-حديثهم عن الحمائم الصادحة فهي رمز الالفة والمحبة والوداعة ، او ذكرهم الغراب فهو رمز التطير والبين والفراق.

-محاولة اخفاء حبهم حرصاً منهم على عدم فضح حبيباتهم بسبب قسوة التقاليد الاجتماعية.

-كثرة حديثهم في شعرهم عن العاشق المقتول بسهم لحاظ حبيبته او بسيف هجرها الصارم.

-ادعاؤهم ان الحب بلوى او قضاء وقدر.

-ومن ذلك ايضاً - لجوؤهم الى اساليب القسم بالله وبالمقدسات الاخر وغير ذلك.

واذا فتشنا عن ذلك كله نجده مبثوثاً في غزل بشار فضلاً عن تفرده بتجارب اخر لانجدها عند العذريين ممن سبقوه ، كحديثه عن مأساة حبه

(١) العصر الاسلامي ، د. شوقي ضيف ، ص٣٥٩.

مقرونة بالليل ، فهو عنده رمز للوحدة والسكون واسترجاع الذكريات ... وما ذلك الا بسبب عماه وعدم تمكنه من رؤية الاشياء معتمداً على سمعه الذي ينشط بعد سكون الاشياء فقد اتخذه تعويضا عن بصره المفقود.

معالم العذرية في غزل بشار

لعل اهم المعالم الكبيرة في غزل بشار العذري الذي يلتقي فيها مع غزل العذريين في العصر الاموي هي:

١- الصد والهجر والفراق

يكثر بشار في غزله من الحديث عن الصد والهجر والفراق وما يعانيه من شوق والم وحسرة ، تلهب في نفسه مشاعر الحزن والالم ، وهو في ذلك يشبه العذريين الى حد بعيد ، فكما كابد العذريون من صد حبيباتهم وهجرهنَّ وتمنعهنَّ ، يعاني بشار من ذلك ايضاً ، اذ ان الهجر يوصله حد السقم يقول[١]:

((عبدُ)) اصبحتِ حياتي   فصيلني يا حياتي
اغلقي عليّ بوصلٍ   باب سقمي واذاتي
واذا ما متُ فابكي   لطفاً في الباكيات
لا تكوني مثل اخرى   تتجنى جفواتي
فلقد اصفيتك الشعر   رغم الحاسدات

ومن ذلك قوله وهو يقرن فيه بين حديث الوشاة وبيت استجابة حبيبته للهجر يقول[٢]

ويح نفسي رب واشي   بحديث وثبت للهجر وثبا
ما كذا يصنع المحبُّ فقري   اين منا مَنْ لا يقارف ذنبا ؟

---

(١) الديوان ٥٦/٢.

(٢) الديوان ٣٨١/١.

لم يكن لي رب سوى الله يا عبدُ ... فما لي اتخذتُ وجهَك ربّا

ومن ذلك قوله(٣):

عَدَتْ عبدة في الهجر ... وفي الحب تَعَدَّيتُ

وقوله(٤):

كيف لي بالسلو عمن جفاني ... وفؤادي كالطائر المستجابِ

انا منه ومن جوى الحب امسي ... في عذاب قد ناء فوق عذابِ

قال: هجر الحبيب يسليك عنها ... لن تنال السلو قبل اجتنابِ

٢- الواشي واللائم والخَليّ

لقد اكثر الشعراءؤ العذريون في غزلهم من الحديث عن الواشي واللائم والحاسد فهؤلاء فصل في قضية كل حب وهم أي الشعراء ينكرون مواقف هؤلاء، محاولين التخلص منهم ونماذج هذه الاشعار كثيرة في غزل العذريين(١).

واذا استقرينا شعر بشار العذري نظفر بنماذج كثيرة تؤكد ذلك المعنى فلا تكاد قصيدة في غزله العذري تخلو من ذكر الواشي واللائم ولعله في ذكره لتلك الذوات يمثل جانباً من جوانب منهب العذريين في ((اجتنابهم للمواجهة بين عشقهم وتقاليد المجتمع اذ تطالعنا في اشعارهم وجوه الرقباء والواشين الموكلين بتعقب هؤلاء المحبين))(٢)

فمن ذلك قوله يتحدى فيه لائميهِ وحساده يقول(٣):

---

(٣) الديوان ٢/٢٨.

(٤) ١/٣٥٤.

(١) انظر تلك النماذج في الشعر ابي حيه النميري، مجلة المورد مج/٤ عدد ١ لسنة ١٩٧٥ ص١٣٨ وفي شعر الحسين بن مطير مجلة معهد المخطوطات مج/ ٥ ج١ لسنة ١٩٦٩.

(٢) في الشعر الاسلامي والاموي د. عبدالقادر القط ٩٤. ٩٥ بتصرف.

(٣) الديوان ٢/١١٣.

يلومك في مودتها ((سعيد)) وما في حب عبدة من جناحِ
فغفرك ان لومَك يا سعيدُ لتمنع بل احرٌّ من النزاحِ
فدع لوم المحب اذا تهادى به حب النساء لحاك لاحِ
فانك لاترد هوى بلوم ولا طرب المتيم بافتضاحِ

وقوله وهو يصرح بأسم لائمه(٤)

يقول ابو عمرو غداة تهَلَلتْ من العين ذرات وفاض سفوحهُا
أجِدكَ من ريحانة طاب ريحها ظللتَ تبكي خلة وتنوحها
فقلتُ له: لا تكثر اللوم انني أتى من هوى نفسي على جموحها
كأنكَ لم تعلمْ لعبدة حرمة واسرار حب عندنا لا تبيحيها

وقوله(٥)

تَرَقبُ فينا العاذلين على الهوى وما نال عيشاً قبلُنا مَنْ ترقبا
يلومك في الحب الخلي ولو غدا بداءِ الهوى لم يرعَ اماً ولا أبا

٣-الوعد والمماطلة

ومما يؤكد عفة العلاقة بين الشاعر وحبيبته تمنعها ومماطلتها وعدم ايفائها بوعودها حين تَعِدُ فضلاً عن صدها وهجرها لمن تحب ، والمماطلة من ديدن العذريات وبالتأكيد سيتبع تلك المماطلة لمن تحب وجدٌ وحزنٌ يبلغ حدالبكاء ، وهذه المعاني التي شاعت في غزل شعراء بني عذرة نجدها شائعة . ايضاً . في غزل بشار العذري ، يقول بشار بعد ان يصف محبوبته (عبدة) ويذكر حسد الحاسدات لها ، يقول انها سحابة صيف لم تمطر ، كناية عن تمنعها وهو تشبيه رائع يدل . فيما يدل . على حرمانه وعدم تمكنه منها ، ثم يتوج ذلك

(٤) الديوان ١٤٢/٢ وابو عمرو كنية حماد عجرد.

(٥) الديوان ٢١١/١ وينظر الديوان ١٧١/٢ ، ١٣٧/٢، ٥٤/٢ وهو يكثر من ذكر العاذل.

يتأجيلها لوعده. يقول[1]

بيضاء حسناً أشرقتْ صفرة   تهتز في غصن الصبى الأغيدِ
تحسدها الجارات من حسنها   ومثلُ عبادة فليحسدِ
يحسدن منها قصباً مائلا   للقُلْبِ والخلخال والمعضدِ
ومضحكاً منها كما أومضت   صيفية المزن ولم ترعدِ
وانها حوراء مكحولةٌ   غانية تغني عن الاثمدِ

ومن ذلك قوله[2]:

اذا قلتُ اوفي العهد قالتْ وأعرضتْ
ستدرك ما قد فاتك اليوم في غد

٤- البكاء

البكاء ظاهرة شائعة في غزل العذريين ، وهو علامة الحزن والوجد ، بعد الفراق والهجر والحرمان واشتداد الألم وتألم النفس ، فلا سبيل للمحب الا ان يروّح عن نفسه بالبكاء لأمتصاص حالة الحزن التي تخيم على مشاعره.

فقد كثر ذكر العذريين للبكاء في اشعاهم من ذلك قول ابي حية النميري[3]:

نظرتُ كأني من وراء زجاجة   الى الدار من فرط الصبابة انظرُ
فعيناي طوراً تغرقان من البكا   فأعشى وطوراً تحسران فأبصرُ
وليس الذي يهمي من العين دمعها   ولكنَّ نفسي تذوبُ فتقطرُ

وكقول بكر بن النطاح في (درة) وهو يذكر البكاء الحاصل بعد

(١) الديوان ٢/١٧٥-١٧٧.

(٢) الديوان ٢/٢٠٧.

(٣) شعر تابي حية النميري ـ مجلة المورد مج/ ٤ عدد ١ ، ١٩٧٥ ، ص١٤٧.

الهجر[1]

صدتْ فأمسى لقاؤها حرما ... واستبدل الطرفُ بالدموع دما
وسلطتْ حبها على كبدي ... فأبدلتني بصحةٍ سقما
وصرتُ فرداً أبكي لفرقتها ... واقرعُ السن بعدها ندما

وإذا قرأنا غزل بشار العذري نجده يكثر من ذكر البكاء وهو مرة يذكر البكاء مقروناً بالفراق بعد نزوح الحبيبة ومرة يذكره مقروناً بالصد والجفاء ومرة مع الذكرى التي تهيجه فتدعوه لذلك. يقول[2]

لقد هاج دمعي نازحٌ بنزوحه ... ونومي اذا ما نوّمَ الناسُ أنزَحُ[3]
وقال نساء الحي مالك صافحاً ... وما كنتَ عن أنس الأوانس تصفحُ

وقوله[4]:

قال: أذرى المرعثُ الدمعَ فأنهلَ ... نظاما وكان عهدي جليدا
ما لعينيكَ لم تذوقا من الليل ... رقاداً ولم تريدا جمودا
فقلت عين بكت من الشيب اذ حل ... وأخرى عمَّن يريني الصدودا

وقوله[5]:

أعبادةَ لو تنسا ... كِ نفسي لتناسيتُ
ولو كان التراخي عند ... كِ يلهيني تراخيتُ
تحليت بهجراني ... وبالحب تحليتُ

---

(1) بكر بن النطاح، حياته وشعره، مجلة المورد، مج / ٥ ع / ٣، سنة ١٩٧٦، جمع وتحقيق غازي النقاش.

(2) الديوان ٢/١٠٥.

(3) أنزحُ: أي أبْعَدُ

(4) الديوان: ٢/١٨٨.

(5) الديوان: ٢/٣٢.

ومازلـــت بنـــا حتـــى   بكـــتْ عينـــي وابكيـــتُ
فقـــد آثـــركِ القلـــبُ   علـــى مـــن كنـــت آخيـــتُ

ثم في آخر الأمر يروق له ان يرى حبيبته تبكي عليه بعد موته ، فهو المقتول من حبها وهي القاتلة النائحة. يقول[1]

صـــاحِ أوصـــيكَ اليـــها   ثقـــةً فـــاحفظ وصاتـــي
قـــلْ (لعبـــادة) ردي   بعـــضَ حزنـــي واذاتـــي
واذا مـــا مـــتُّ فابكـــي   لَطَفـــا فـــي الباكيـــات
فلقـــد اصْـــفَيْتُكِ الشعـــ   ـــرَ بـــرغم الحاســـدات

٥- ذكر الحمامة والغراب

والحمامة رمز الحب والاخلاص والوفاء والحنين والرقة والوداعة ، وهي كذلك رمز الحزن والصبابة والبكاء[2] تصدو في الصباح والعشي فتذكر بالحبيبة المفارقة ، فتهيج احزان المحب واشواقه فتبعثه على القول ، وقد كثر ذكرها عند العذريين كجميل ، والمجنون ، وقيس بن ذريح ، فجميل كان يذكر حبيبته كلما سمع حمامة تنوح يقول[3]:

طربت وهاج الشوق فيَّ وربما   طربتُ فأبكاني الحمامُ الهواتفُ

وقد يجمع بين الحمامة وبين الغراب رمز التطير والتشاؤم ، يقول[4]:

فأن لم تهجني ذات يوم فانه   سيكفيك ورقاءَ السراةِ صدٌّ

اما عند بشار فيأتي ذكر الحمامة مرتبطاً باللوعة ، وعدم السلو ، فهي

---

(١) الديوان: ٥٦/٢.

(٢) انظر: المرشد الى فهم اشعار العرب ، عبدالله الطيب المجذوب ، ١٢٥/٣.

(٣) ديوان جميل: ص٧١.

(٤) نفسه: ص٤٨.

كلما تصدح تدعو الى الآرق والسهاد يقول(٥):

فلستُ بسال ما تغنت حمامة   وما شاق رهبان النصارى مسيحها

وقوله(٦)

اذا شئت ابكاني الحمام بصوته   وهاج عليَّ الشوق طولُ سياتي

اما الغراب فهو دليل الشؤم والتطير وكان الشعراء العذريون يرتابون من صوته ويتوجسون ((وكان العرب يسمونه حاتِماً لأنه يَحْتِمُ عندهم بالفراق))(٧) فصوته حين

ينعب ينبيء بالفراق. يقول قيس بن ذريح(١):

لقد نادى الغراب ببين لبنى   فطار القلب من حذر الغراب

وقال: غدا تَبَاعدُ دارُ لبنى   وتنأى بعد ودٍّ واقتراب

وفي غزل بشار كذلك نجد ان الغراب باعثٌ على البكاء والحزن ومنبىء بفراق مَنْ يحب ، يقول(٢):

نعق الغرابُ فخنقتني عبرة   وبكيتُ من جزع على الأحباب

يلرب قائلة وخيب علمها   ماذا يهيجك من نعيق غراب

كاتمتُها أمري وما شعرتْ به   وكذلك قد كاتمته أصحابي

٦- **القسم**

ولكي يؤكد الشاعر العذري صدق حبه وعفته ومعاناته واخلاصه لحبيبته

---

(٥) الديوان ٢/١٤٣.

(٦) الديوان ٢/٤٤ وينظر: ١/١٧٦.

(٧) العمدة ، ابن رشيق: ٢/٢٦٠.

(١)الديوان: ١/١٤٠.

(٢) الديوان ١/٢١٥.

اولاً ، وليبعد الشك عن نفسها ثانياً ، يلجأ الى القسم بالله والمقدسات الأخرى.

وفي شعر بشار العذري يأتي القسم ليؤكد دلالات منها اخلاصه لحبيبته (عبدة) وعدم اصطفائه اخرى غيرها.

يقول[٣]:

يا عبدُ اقسم بالذي أنا عبدهُ ... وله المقام وما حوت عرفاتُ

لا أصطفي أبداً سواك خليلة ... فثقي بذلك والكرام ثقاتُ

ولو أنني في الترب ثم دعوتني ... لبيتُ صوتكِ والعظام رفاتُ

واذا ذكرتك (يا عبيد) تقطعت ... نفسي عليك وعادني حسراتُ

ويؤكد ذلك الاخلاص مرة اخرى بقوله الذي ينفي فيه حبه لغيرها واخلاصه لها فقط.

يقول[٤]:

أما النساء فأني لا أعيجُ بها ... قد صمتُ عنها بنحبٍ منكِ منحوبِ

أنتِ التي تشتفي عيني برؤيتِها ... وهنّ عندي كماءِ غير مشروبِ

وقوله من قصيدة في (عبدة) التي اتهمته بأنه قد (صبا) فيرد عليها ويذكر إخلاصه لها وعدم تعرضه للكوانس في الستور أو في الطرقات ، ويكرر دعوته لها بأن لا تخاف مكانها ويقسم بعدد ما هلَلَ الحجيجُ ولبى.

يقول[١]:

أرسلتْ خلتي من الدمع غربا ... ثم قالت: صبوتَ بل كنتَ صبا

قلت: كلا بل صفا لك حبّي ... زادك الله ياعبيدة حبا

---

(٣) الديوان ٢/٣٦ وانظر ١/١١٥ في المعنى نفسه.

(٤) الديوان: ١/١٩٦.

(١) الديوان: ١/٣٨٠.

مـا تعرضتُ للكوانس في الستر ولا العارضات سربا فسربا
أنـت كـدّرتِ شربهـن فأصبحن غضابا على يذممن شربا
وتلافيتني بـذلك عنهـن وانس يصبُ للمحب صبا
فلهـن الطـلاق مني ، ومني لـك طـولُ الصفاء والـود عذبا
فـأطنئني ملكتِ نفسي وقلبي وهمومي فما يجاوزن وصبا
لاتخافي علـى مكانك عندي عَـوْضَ مـا هلـل الحجيج ولبى

٧- العاشق المقتول

تتكرر صورة العاشق المقتول بيد حبيبته او بلحاظ سهمها او بسيف هجرها كثيراً في الغزل العذري سواء عند كبار شعرائه كجميل بن معمر وكثير عزة ومجنون ليلى ام عند الشعراء الذين ينهجون منهجهم في غزلهم كشعراء البادية من مخضرمي الدولتين (الاموية والعباسية) كابي حية النميري ، وعبد الملك بن عبدالعزيز السلولي ضمن ذلك على سبيل المثال قول ابي حيّة النميري[٢].

وما كنت اخشى ان تكون منيتي بكف اعز الناس كلهم عندي

وقوله:[٣]

كان لم أبرَّح بالعيون واقتتل بتفتير ابصار الصحاح السقائم

ومثل هذا المعنى يأتي في شعر (عبدالملك بن عبد العزيز السلولي)[٤]

وفي هذه النماذج وغيرها كثيراً ما يطلب الشعراء الثأر من حبيباتهم او الدية والقود ، وفي ذلك اشارة الى المفاهيم الاسلامية التي تحرم القتل وتطلب

(٢) شعر ابي حية النميري ١٣٨.

(٣) المصدر السابق ص١٤٣.

(٤) انظر: الاغاني ٢٣/٤ ص٢٣، ٤٤، ٤٥.

القود والدية ممن يرتكب جريمة القتل ... وكأنَّ العذريين يحاولون ان ينبهوا الاخرين الى حالة الصد والحرمان والهجر التي يعانون منها على يد محبوباتهم تلك الحالة التي توصل الى القتل والموت عند الشاعر العذري ومن ثم يريد الدية من قاتله ، وكأنَّ حالة الموت والاستشهاد هي النتيجة النهائية لكل حبٍّ عفيف ... ومهما يكن فأن جميع الشعراء بعد جميل بثينة انما ينهلون من بيت جميل المشهور(١).

خليلي فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

ولذلك يصح القول ان هذا المفهوم في القصيدة العذرية يجسد رثاء النفس لان ((القصيدة العذرية في الشعر العربي تجمع بين التودد الى الحبيبة غزلا عفيفاً قريباً من المثالية وبين رثاء النفس ، صورة حزينة متشائمة ، سوداوية نتيجة لخيبة الامل والاخفاق في تجربة الحب ... انها رثاء لنفس العاشق المحروم كما يتجلى ذلك في معجمها الذي تكثر فيه الالفاظ كالموت والهجر والحرمان ...))(٢).

واذا نفذنا الى شعر بشار العذري نجد ذلك مبثوثا في شعره وهو ينحا فيه منحى العذريين تماماً ، ففي هذه القصيدة التي يصور فيها الرحيل الذي يؤذن بدنوّ البين والفراق الذي يؤدي الى الموت يقول(٣)

افد الترحل وحثني صبحي   والنفس مشرفة على النحبِ
لما رأيت الهم مجتنحا   في القلب والعينان في سكبِ
والبين قد افدت ركائبُهُ   والقوم في طرب ومن صببِ
ناديت ان الحب اشعرني   قتلاً وما احدثت من ذنبِ

---

(١) ديوان جميل ص٩٩ دار صادر . بيروت.

(٢) المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان ص٣٣.

(٣) الديوان ١/٢٢١ والنحوب جمع نحب وهو الموت.

اهدى لعينيّ ذكركم سهدا   من غير ما سقم ولا طبِ
لو تسمعين وكنتِ شاهدةً   ما يقرا الرهبان في الكتبِ
لوجدتِ حبك قاتلي عجلا   ان لم يقرح كاشف الكربِ
فظللت لا ادري اقيم على الهجران   او اغدو مع الركبِ

وقوله الذي يذكر فيه انه مات عدة موتات بسبب هجرانه وسلوه يقول(١):

وبراني الحب حتى   كثُرتْ فيها نحوبي
انا مشغوف بسلمى   كالنصارى بالصليبِ

وقوله الاتي الذي يصرح فيه معنى الموت في الحياة يقول(٢):

دفنتني حيا ولا ذنب لي   والحي لايدفن حتى يموتْ
فاقصى بما شئت على عاشق   قلبي مقر ولساني صموتْ
بل ايها العاذل في حبها   يجري ولا يدري كذاك المقيتْ
لم تدر ما حبي وعذبتني   والشوق قد كاد بروحي يفوتْ

وقوله(٣) الذي يذكر فيه غصة في الريق من حشرجة الموت:

لما رأتني غَرقا في الهوى   اجرضُ بالموت وحولي كتيتْ
قالت: ثقيل قدَ دنا موته   فقلت: ما كل مريض يموتْ
تحت يد الله فلا تحزني   ان متُّ من داء الهوى او بريتْ

٨- الليل والاحزان

مما يحسب لبشار من تجارب جديدة في غزله العذري كثرة حديثه عن الليل وهو يقرن اسقامه وغربته به في احاديث تنم عن ذوقه المتطور المتأثر

(١) الديوان ١/٢٢١ والنحوب جمع نحب وهو الموت.

(٢) الديوان ٢/٣٣.

(٣) الديوان ٢/٢٣.

بالنمو الثقافي والحضاري الحاصل في العصر العباسي ، فصورُهُ التي يدبجها في شعره وفي غزله خاصة تفصح عن حس مرهف وقاد هو حس البعير الذي عوضه الله سبحانه ذكاء البصيرة ، وصقلته الحضارة ...

وبشار غالباً ما يصحو ويفرغ لذكر صباباته ومواجده عندما يجن الليل ويضرب سدوله ، فتهدأ الكائنات وتسكن الاصوات ، فتنبعث في نفسه الذكريات التي عاشها في الماضي والحاضر وكأنها شريط بطيء الحركة فيبدأ بشار يلتقط منها ما يشاء ، وهي تذكره باشواقه ومواجده واحزانه فيسجل في ضوئها صوراً مختلفة:

فمن قوله في (عبدة) وهو يتمنى عليها ان تمنَّ عليه بنوم ، فهو يساور الليل تحت وطأة الهم بسبب هجرها وفراقها الطويل يقول[١]:

ياطيب عبدة ويلي منك ياطيبي ... قطعت قلبي بشوق غير تعتيب
قل للتي نفسها وما شعرت ... منّي عليَّ بنوم منك موهوب
ان الرسول الذي ارسلتِ غادرني ... بغلةٍ مثل حرِّ النَّار مشبوب
اساور الليل تحت الهم مجتنحا ... من طُّول صفحك عني في اعاجيب
كأني بي منك طبا لا يفارقني ... وان غدوت صحيحا غير مطبوب

الى ان يقول[٢]:

يغشاني الموت من وجد بها ديما ... والشوق تأخذني منها اهاضيب
للقلب راع اليها لا يفارقني ... وفي الضمير من الحب الاعاجيب
لهفان قد يشتهي رَوْحا يعيش به ... بادي الصبابة والهجران تعذيب

وقوله وهو يشكو السهاد وعدم النوم والضعف والنحول ويذكر طيفها

(١) الديوان ١/ ١٩٤.

(٢) الديوان ١/ ١٩٤.

الذي الـمّ به[٣]:

لـم يطـل ليلـي ولكـن لـم انـم ونفـي عنـي الكـرى طيـفٌ ألـمْ
نَفسّـي ياعبـدٌ عنـي واعلمـي اننـي يـا عبـد مـن لحـم ودمْ
ان فـي بـرديّ جسـماً ناحـلا لـو توكـأت عليـه لانهـدمْ
واذا قلـت لهـا جـودي لنـا خرجـتْ بالصـمت عـن لا ونعـمْ

ومن ذلك قوله الذي فيه مجافاة عيبنه النوم ، وكأن جفونها قد قصرت فلم تطبق على مقلتيها يقول[٤]:

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصـارُ

ومرة اخرى يعاني من طول الليل وكأنه يجثم على صدره فيتمنى زواله ويسأل ، ما بال الدجى ليس يبرح ؟ اضل الصباح طريقه ام انّ الدهر كله ليل ؟ وما سبب هذا الا كثرة همومه التي اهاجها نزوح حبيبته ، فصار لايعرف الكرى طيل ليله وهو يذكر بشكوى امرىء القيس من ليله الطويل يقول[٥]:

خليلـي مـا بـال الدجى لـيس يبـرحُ ومـا بـال ضـوء الصبح لايتوضحُ ؟
اضـل الصـباحُ المسـتنير طريقَـه ام الـدهر ليـل كلـه لـيس يبـرح ؟
كأنَّ الدجى زادت ومـا زادت الـدجى ولكـن اطـال الليـلَ هـمٌّ مبـرح
لقـد هـاج دمعـي نـازح بنزوحـه ونـومي اذا مـا نـوم النـاس انـزح
فيا طول هذا الليل لا اعرف الكرى ولا الصـبح فيـه راحـة فـأروح

ويذكر بشار ضعفه وملازمة الصبابة له ويصف ليله بليل من لدغته افعى او عقرب يقول[١]:

---

(٣) الديوان ٤/ ٥٤.

(٤) الديوان.

(٥) الديوان ٢/ ١٠٤-١٠٦ وانظر الديوان ٢/ ٥٢ في اللمعنى نفسه.

(١) الديوان: ١/ ٢٢٠.

وكأن ليلك من تذكرها ليل السليم سرت عقاربه

فتركنه يفشى أخا حدث تبكي لفرقته قرائبه

رجل تصاحبه صبابته وأرى الجلادة لا تصاحبه

وقال ايضاً وهو يصف رقاده في ليله برقاد (الوصب الارمد).

يقول[٢]:

يا طول هذا الليل لم أرقد الا رقاد الوصب الأرمد

مثل اكتحال العين نومي به بل دون كحل العين بالمرود

أراقب الصبحَ كأني أمرؤ من راحة فيه على موعد

تعجباً مما دهاني به أقرب جيراني لذي الأبعد

واقرب جيرانه حبيبته و (ذي الأبعد) الواشي الذي سعى بينهما بالفساد.

ويضجر من الليل اذ يتمنى عدم عودته لأنه يحمل معه العناء فهو يسهر الليل ليرقب الصباح لأعتقاده ان فيه راحة من تعبه ولكن دون جدوى فالأصباح مثل الليل فيها معاناة ووصب.

يقول[١]

أبُ ليلي ليت ليلي لم يَؤُبْ انما الليل عناءٌ للوصب

أرقب الليل كأني واجدٌ راحة في الصبح من جهد التعب

ولقد أعلم اني مصبح مثلما امسيت ان لم تحتسب

وهو دائم الشكوى من ليله وصبحه فهو يعاني من سهاد الليل وعدم الراحة في الصباح ، بل هو يستعد لمفارقة الحياة وتستعد النائحات لنوحه.

يقول[٢]:

---

(٢) الديوام: ٢/ ١٧٠.

(١) الديوان: ٣٤٨/١.

مـــادواءُ الـــذي يســـهد بالليـــل ولايســـتريح فـــي الأصـــباح
فتجهـــزت لأنقضـــاء حيـــاتي واســـتعدت لميتتـــي انـــواحي

هذه اهم ملامح العذرية في غزل بشار بن برد وهي تؤكد ان لبشار غزلاً عذرياً ينحو فيه نحو العذريين من شعراء بني عذرة ، وان كان بشار قد وصف بأنه شاعر خليع فلا ريب فأن كبار الشعراء والمبدعين منهم لم تقف بوجوهم الحدود والقواعد فهم قادرون على الكتابة في أي فن من فنون الشعر المختلفة. فالعذرية صارت منهجاً يحتذى بعد ان وضع اصولها وقواعدها في الشعر شعراء بني عذرة مما هيأ لكل مبدع كبير ان يمارس نظم الشعر العذري وان كان خليعاً في سلوكه ولاسيما اذا عرفنا ان الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير كما يقول الجاحظ[٣].

قائمة المصادر والمراجع

١- الأغاني ، ابو الفرج الأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت.
٢- بشار بن برد ، د.طه الساجري ، سلسلة نوابغ الفكر ـ ٨ ـ ، ط/٤ ، دار المعارف بمصر.
٣- بشار بن برد بين الجد والمجون ، حسين منصور ، ط/١ ، ١٩٣٠م.
٤- بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، د. عمر فروخ ، دار بيروت للطباعة والنشر.
٥- بكر بن النطاح حياته وشعره ، جمع وتحقيق غازي النقاش ، مجلة المورد ، مج/٥ ، عدد/٣ ، ١٩٧٦.

(٢) الديوان: ١٤١/٢.
(٣) الحيواتن: ٢٧/١.

٦- حيث الاربعاء ، د. طه حسين ، ط٩ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨.

٧- الحسين بن مطير ، حياته وشعره ، د. حسين عطوان ، مجلة المخطوطات العربية ، مج/١٥ ، ج/١ ، ١٩٦٣.

٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٣٨.

٩- ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠م.

١٠-ديوان مجنون ليلى ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧١.

١١-رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ، د. مصطفى الشكعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١.

١٢- شعر ابي حية النميري ، جمع وتحقيق رحيم صخي التولي ، المورد ، مج/٤ عدد/١ ، ١٩٧٥.

١٣-شعر المكفوفين في العصر العباسي أ.د عدنان عبيد ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، عمان ـ الاردن ، ١٩٩٩م.

١٤-العصر الاسلامي د. شوقي ضيف ، ط.٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣.

١٥-العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي
الدين عبد الحميد ، ط٢ ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥.

١٦-الغزل تاريخه واعلامه ، جورج غريب ، دار الثقافة ببيروت ، لبنان (د.ت).

١٧-الغزل عند العرب ، حسان ابو رحاب ، ط١، ١٩٤٢.

١٨-الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، ط١٠ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨.

١٩-المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان ، بغداد ، مطبعة الزهراء

.١٩٧٤

٢٠-المرشد الى فهم اشعار العرب ، عبدالله الطيب المجذوب ، ط١ ، بيروت ، ١٩٢٠م.

٢١-مقدمة القصيدة في العصر العباسي الاول ، د. حسيتن عطوان ،دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤.

العراق وقضية استقلال ليبيا
(دراسة وثائقية ـ أولية)

المدرس الدكتور
علي عظم محمد
رئيس قسم التاريخ
كلية الآداب / جامعة الكوفة

تمهيد

كانت ليبيا ترزخ تحت وطأة الاحتلال الايطالي حينما وقعت الحرب العالمية الثانية ، ثم دخلت قوات الحلفاء الاراضي الليبية خلال عام ١٩٤٣، وبعد ذلك التاريخ تقاسمت بريطانيا وفرنسا مناطق النفوذ حيث قسمت الى مناطق تخضع لهاتين الدولتين.

وبأنتهاء الحرب العالمية الثانية تحولت القضية الليبية الى مشكلة دولية حيث دار صراع سوفيتي امريكي بريطاني فرنسي ايطالي حولها ، وبقدر خطورة ذلك الصراع على استقلال ليبيا ، كان ايجابياً عليها ، اذ اتفقت الاطراف المتنازعة على رفع القضية الليبية الى هيئة الامم المتحدة سنة ١٩٥٠ . وقد قررت هيئة الامم المتحدة في نهاية المطاف استقلال ليبيا سنة ١٩٥٢ .

وقد كان للاقطار العربية المستقلة دور فاعل في عرض القضية الليبية على هيئة المتحدة والمطالبة بأستقلال ليبيا ، والعراق له موقفاً خاص في هذا الموضوع ، اذ ساهم في صياغة المشاريع التي عرضت على الجمعية العامة للامم المتحدة ، كما انه ضغط على بريطانيا من اجل تبني فكرة استقلال ليبيا ، ثم

المساهمة في بناء المؤسسة العسكرية الليبية لتدعيم الاستقلال الليبي. وعثرنا على وثائق غير مفهرسة تخص البعثة العسكرية العراقية الاولى ١٩٥٣ والثانية ١٩٥٧ في مديرية التطوير القتالي التابعة للجيش العراقي عام ١٩٨٩. حيث مشكلة تلك الوثائق اعادة الاساسية لذلك البحث ، علاوة على وثائق دار الكتب والوثائق العراقية التابعة لوزارة الاعلام.

- ١ -

موقف العراق من استقلال ليبيا

اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية واستسلام دول المحور [ألمانيا ، ايطاليا ، اليابان]، أنيطت تصفية مستعمراتها بهيئة الأمم المتحدة ، ولما كانت ليبيا واحدة منة المستعمرات الإيطالية (١)أصبح لزاماً على الهيئة الدولية معالجة قضيتها، وفي السياق ذاته أبدى العراق اهتماماً خاصاً بالقضية الليبية، فكانت من أولى خطواته بهذا الصدد مفاتحة الحكومة العراقية الجامعة العربية وطلب من امينها العام (عزام باشا(٢) مناقشة المسألة مع بريطانيا كونها احد أعضاء مجلس الأمن الدولي، وفضلاً عن قيام السفير العراقي في القاهرة بطرح القضية على وزير روسيا المفوض لدى الأمم المتحدة أثناء زيارته للقاهرة في أيلول ١٩٤٥، موضحاً له في نهاية اللقاء بضرورة عرض القضية على حكومته(٣).

كما إن الوفد العراقي في هيئة الأمم المتحدة أيد بقوة مسألة استقلال ليبيا، وطالب الوفود العربية، وممثل الجامعة العربية مساندة طلبه، وكذلك سعى لدى الدول الصديقة على إبراز شرعية وقانونية الاستقلال الليبي(٤)

وانسجاماً مع هذا التحرك الدبلوماسي العراقي، شرعت الحكومة العراقية بالتنسيق مع الحكومة المصرية توحيد الجهود لمواجهة التحرك الإيطالي الساعي لإقناع هيئة الأمم المتحدة بوضع ليبيا تحت الوصاية الإيطالية إلى حين استكمال مقومات استقلالها(٥). فلا مراء إذا هاجم العراق بيان وزير الخارجية الإيطالية الذي نشرته الصحف العربية، ومنها جريدة الأهرام القاهرية بعددها

الصادر في ١٩٤٦/١٢/٨، والذي تمخض عن محادثاته مع وزير الخارجية البريطاني حول القضية الليبية ومسألة وضعها تحت الوصاية الإيطالية، كما طالبت وزارة الخارجية العراقية بواسطة مفوضيتها في القاهرة إعلام الجامعة العربية موقف العراق الرافض لهذه الفكرة إجمالا وتفصيلا، حاثاً الحكومات العربية على رفضها، ومقاطعة ايطاليا دبلوماسياً ورهن عودة العلاقات معها بإلغاء فكرة الوصاية وتأبيدها استقلال ليبيا(٦).

وانسجاماً مع مبدأ الوصاية طرحت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا مشروعاً نص على تقسيم ليبيا إلى ثلاثة مناطق: برقة، توضع تحت الإشراف البريطاني، وطرابلس الغرب لإشراف مشترك بين الولايات المتحدة وبريطانيا، وأخيرا منطقة فزان تحت الإشراف الفرنسي، غير إن المشروع جُبه برفض شديد من قبل الجمعية العامة التابعة للأمم

- ٢ -

المتحدة وبشكل تحريضي واضح من الاتحاد السوفيتي، إذ طالب السوفيت بسحب كافة القوات

الأجنبية من الأراضي الليبية، الأمر الذي أسفر عن قرار الأمم المتحدة في ٢١ تشرين ثاني عام ١٩٤٩ بتأييد استقلال ليبيا في مدة أقصاها الأول من كانون ثاني عام ١٩٥٢، لتصبح بعدها دولة مستقلة كاملة السيادة(٧)

ولم تكتفِ الأمم المتحدة بهذا القرار وحسب إنما تبعته بقرار أخر في ١٧ تشرين الثاني عام ١٩٥٠، أكد على وحدة ليبيا ونقل السلطة إلى حكومة مستقلة، وان تتشكل جمعية وطنية تمثل الشعب الليبي في وقت لا يتعدى أول كانون الثاني ١٩٥١، تؤسس هذه الجمعية حكومة وطنية مؤقتة، في مدة لا تتعدى الأول من نيسان ١٩٥١، لتتبعها عملية نقل السلطات والصلاحيات من قبل الدول المشرفة تدريجياً إلى الحكومة المؤقتة في مدة أقصاها الأول من كانون الثاني ١٩٥٢(٨).

كان العراق من أولى أعضاء هيئة الأمم المتحدة قد طرح فكرة استقلال ليبيا كدولة موحدة من خلال اللجنة السياسية بشأن المستعمرات الإيطالية، كما سعى لإيجاد تكتل موحد، من الأقطار العربية والآسيوية لمقاومة رغبات بريطانيا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا لتقسيم ليبيا إلى مناطق حماية، فنجح بجذب عشرين دولة إلى جانبه مؤيدة للاستقلال الليبي(٩).

ومن هذا المنطلق ناشد توفيق السويدي(١٠) رئيس الوفد العراقي إلى الأمم المتحدة بضرورة تطبيق ميثاق الأمم المتحدة الناص على حماية استقلال وسيادة الدول، كما طالب بإفساح المجال لأحدى الدول العربية المستقلة في المشاركة كعضوٍ أساسي في التسوية السياسية للقضية الليبية، لطمأنة للعرب من النوايا الدولية إزاء جزء من البلاد العربية(١١).

واتصل الوفد العراقي أيضا بالوفد البريطاني من اجل إبعاد ايطاليا نهائياً عن أية تسوية، وان مستقبل العلاقات بريطانيا بالدول العربية مرتبط بموقفها من استقلال المنطقة العربية في المغرب والمشرق العربي(١٢)، مؤكداً رفضه التام لمشروع تقسيم ليبيا إلى مناطق حماية بين ايطاليا وبريطانيا وفرنسا، مشدداً على مبدأ الاستقلال التام للدولة الليبية مع وحدة أراضيه(١٣).

لم يكتفي العراق باتصالاته تلك والتعبير عن آراءه حول القضية الليبية، بل قدم مشروعاً

إلى الأمم المتحدة نص على طروحاته آنفة الذكر، وعند عرض المشروع العراقي والمشروع

-٣-

الإيطالي - البريطاني على التصويت في اللجنة السياسية التابعة للأمم أخفق المشروع العراقي ازاء نظيره الإيطالي - البريطاني بصوتين فقط لصالح الأخير، إذ حظيّ بتأييد عشرين صوت مقابل اثنين وعشرين للمشروع الأخر(١٤).

واستمرت معارضة العراق إزاء أي قرار يفضي إلى تقسيم ليبيا ونقل اقتراحه السابق إلى الجمعية العمومية في هيئة الأمم المتحدة، وجرى بحثه في يومي ١٦، ١٧/ من أيار عام ١٩٤٩، غير إن المشروع البريطاني فاز بـ (٢٧) صوتاً مقابل (٢٣) صوتاً للمشروع العراقي في اللجنة السياسية التابعة لهيئة الأمم المتحدة(١٥).

وبالرغم من إخفاق المشروع العراقي إلا انه استطاع إبعاد ايطاليا من الوصايا على طرابلس عند التصويت على هذه المادة، وبعد فشلها وقفت أمريكا اللاتينية ضد المشروع في الجمعية العامة أثناء التصويت على المشروع البريطاني، حيث فشل المشروع كله بأغلبية ساحقة، فعادت الجمعية العامة فأقرت الفكرة السابقة بتكوين لجنة تشرف على الشؤون الليبية وتساعد على إنشاء جمعية وطنية تقوم بانتخاب حكومة مؤقتة، ومن ثم إعلان استقلال ليبيا في وقت لا يتجاوز أول كانون ثاني ١٩٥٢(١٦). وبذا تكون الدبلوماسية العراقية قد كسبت الجولة النهائية لصالح الاستقلال الليبي.

- ٤ -

البعثة العسكرية العراقية الأولى ١٩٥٣ - ١٩٥٥

لم يتوان العراق عن تقديم كافة أشكال الدعم والمساعدة الفنية والمادية لتعزيز السيادة الوطنية للدولة الليبية، وتماشياً مع هذا النهج، شاركت الحكومة العراقية بفعالية ملموسة في بناء المؤسسة العسكرية(١٦).

تعود بداية تاريخ العلاقات العسكرية العراقية - الليبية إلى ما بعد الاستقلال بسبعة اشهر تقريباً، عندما قام وزير الدفاع الليبي (علي اسعد الجزي) بزيارة العراق في ١ حزيران ١٩٥٢ للتباحث مع المسئولين العراقيين بشأن إنشاء جيش ليبي حديث(١٧).

ونتيجة لهذه الزيارة أمر رئيس أركان الجيش العراقي بتأليف لجنة بدارسة الموضوع برئاسة الزعيم الركن مدير الحركات العسكرية وعضوية

الزعيم الركن آمر الهندسة العسكرية والعقيد الركن سكرتير وزير الدفاع والعقيد الركن مدير شعبة التدريب وأمر بتعيين مقدم ركن من الشعبة الرابعة في الحركات العسكرية سكرتير للجنة المشكلة لغرض إعداد التوصيات اللازمة تشيكل جيش للمملكة الليبية المتحدة، وقد بدأت اللجنة أعمالها في الثاني عشر من الشهر نفسه(١٨).

وانصبت توصيات اللجنة على ضرورة تعيين المقرات الحربية والإدارية والحسابية وتأسيس مراكز للتدريب لتكون نواة للمدارس العسكرية، تطورات فيما بعد إلى كليات عسكرية متخصصة. ورفعت هذه التوصيات عن طريق وزارة الخارجية إلى الحكومة الليبية التي أخذت بدورها بهذه التوصيات، وتقدمت بطلب إلى الحكومة العراقية في ٢٨ حزيران ١٩٥٣ بإعارتها لبعض ضباط الجيش العراقي مؤقتاً على سبيل الانتداب لمدة سنتين(١٩).

كما طلبت الحكومة الليبية أربع ضباط عراقيين لمدة سنتين في الأول من أيلول ١٩٥٣، وضابطان برتبة نقيب ليقود كل منهم سرية في فرقة مشاة آلي وضابط برتبة ملازم أول كضابط إداري لتلك الفرقة وضابط برتبة ملازم أول مدير لقسم اللاسلكي(٢٠).

وقد أوصت وزارة الخارجية العراقية بتلبية طلب الحكومة الليبية لزيادة أواصر العلاقات بين البلدين الشقيقين، ويبدو إن موقف وزارة الخارجية العراقية الايجابي ارتبط بالصراع الخفي العراقي مصري، إذ إن الوثائق العراقية تشير إلى جهود السفارة المصرية في ليبية لاستبدال

. ٥ .

البعثة العراقية ببعثة عسكرية مصرية(٢١).

وافقت الحكومة العراقية على طلب الحكومة الليبية في جلسة مجلس الوزراء الثالثة والثلاثون بعد المائة المنعقدة بتاريخ ١٩٥٣/١١/٢٤ بإعارة عدد من

الضباط العراقيين ولمدة سنتين وفق الشروط التي طلبتها الحكومة الليبية الخاصة بدفع رواتب البعثة ما يعادل رواتبهم في بلدهم طوال مدة إقامتهم في ليبية وبدون علاوة(٢٢)، أي بدون زيادات سنوية على الراتب وبناءً على موافقة مجلس الوزراء العراقي تبنت وزارة الدفاع العراقية إرسال بعثة عسكرية عراقية إلى المملكة الليبية المتحدة تتألف من(٢٣) :

١-النقيب خضير محمد.

٢-النقيب جميل عبد السيد.

ليقوم كل منهما بقيادة سرية مشاة.

٣-الملازم الأول إبراهيم كاظم الموسوي كضابط إداري للسرية المذكور.

٤-الملازم الأول سعدي عبد الكريم ضابط مخابرة لاسلكي.

كما أعارت وزارة الدفاع العراقية المقدم الركن داود سليمان الجنابي لمدة سنتين قابلة للتجديد ليشرف على الجيش الليبي، ومما تجدر الإشارة إليه إن الحكومة العراقية لم تجبر ضابط البعثة إلى السفر بل تركت لهم الحرية في ذلك(٢٤).

سافرت البعثة العسكرية العراقية إلى ليبيا ووصل الضباط الأربعة إلى بنغازي بتاريخ ١٩٥٤/١/١٧، فيما وصل العقيد الركن داود سليمان الجنابي ١٩٥٤/٢/١٠(٢٥). ومتسلما قيادة الجيش الليبي اعتبارا من ١٤ شباط ١٩٥٤ استناداً إلى المرسوم الملكي الصادر في ذلك التاريخ فيما نقل قائد الجيش الليبي بموجب المرسوم آنف الذكر الأمير الاي عمران الجاذرة إلى وظيفة ملحق عسكري بوزارة الدفاع اعتبارا من ذالك التاريخ(٢٦).

إن المساعدة العراقية لم تقتصر على إرسال البعثة العسكرية فقط بل إن وزارة الدفاع العراقية أمرت الملحق العسكري العراقية في لندن بمساعدة المفوضية الليبية هناك في شراء الأسلحة وإرشادها إلى الشركات والجهات الحكومية لتأمين احتياجات الجيش الليبي المختلفة استنادا إلى طلب قائد

الجيش الليبي العقيد الركن داود سليمان الجنابي(٢٧).

- ٦ -

ولم تقتصر جهود البعثة العسكرية العراقية على تدريب الجيش الليبي فقط بل طلبت هذه البعثة إسنادا طبياً وإمداد الجيش الليبي بالأطباء العسكريين غير إن هذا الطلب قد عارضه رئيس أركان الجيش العراقي لحاجة الجيش العراقي إلى الأطباء واقترح إحالة الطلب الليبي إلى وزارة الصحة العراقية لان كثير من الأطباء سبق لهم وان خدموا في الجيش ويمتلكون الخبرة في الطب العسكري وإرسال من يرغب من الأطباء للخدمة في ليبيا أما وزير الدفاع العراقي، فقد شدد على معاونت الجيش الليبي بأقصى جهد ممكن للتقارب والتعاون مع هذه المملكة الفتية وإرسال الأطباء الراغبين بالخدمة في الجيش الليبي سواء كانوا من العسكريين أم من غيرهم(٢٨).

ويبدوا إن وزارة الدفاع العراقية وافقت على تزويد الجيش الليبي بالأطباء بالرغم من عدم توفر أسماء الأطباء لدينا غير انه توجد أسماء الأطباء اللذين عملوا في الجيش الليبي بعد انتهاء فترة انتداب البعثة العسكرية العراقية وتجديدا الانتداب لمدة سنتين اخرتين وسنذكر ذلك مستقبلا.

نالت البعثة العسكرية العراقية إعجاب الضباط البريطانيين والأمريكيين الموجودين في ليبيا لما يتميز به ضباط البعثة من مستوى فني وثقافي ممتاز حتى إنهم تصوروا إن أعداد الضباط العراقيين قدموا خصيصا لهذا الغرض في حين إنهم ضباط من الدرجة الثانية(٢٩).

أما الليبيون فقد اعتبروا ضباط البعثة العراقية مجاهدين متطوعين في سبيل العروبة والإسلام هذه هي صفات البعثة العسكرية العراقية على الرغم من المستوى الاقتصادي المنخفض من جهة وجهود المفوضية المصرية في بنغازي لتبديل البعثة العراقية بأخرى مصرية في سبيل السيطرة على المؤسسة العسكرية الليبية والتدخل في الشؤون الداخلية لهذه المملكة(٣٠) من جهه

اخرى، وربما القيام بانقلاب عسكري ووصول الموالين لمصر خاصة إذا ما عرفنا إن العلاقات العراقية المصرية على غير ما يرام بسبب حلف بغداد، والعلاقات المصرية البيرطانية من جهة أخرى متوترة والتي كانت جزءا من تداعيات حلف بغداد.

ان الدعم السياسي والعسكري المقدم من الحكومة العراقية لمملكة الليبية الفتية، أمرا جعل الليبيين يكنون كل احترام وثقل وتمسك بهذا الدعم العراقي، لنا ابدوا رغبتهم في تجديد ٠٧.

عقود أعضاء البعثة الذين يرغبون في التجديد وإرسال ضباط بدلاء عن الذين يرغبون العودة إلى بلادهم، وأضافت الحكومة الليبية في طلبها الجديد إرسال ضباط مدفعية كون هذا الصنف ادخل حديثاً إلى الجيش الليبي(٣١).

طلبت المفوضية العراقية في ليبيا تجديد عمل أعضاء البعثة السابقين وإرسال ضابط بدلا من العقيد الركن داود سليمان الجنابي نتيجة لتدهور وضعه الصحي أو حمله على العودة إلى ليبيا بعد شفائه من مرضه لأهمية منصبه باعتباره قائدا للجيش الليبي وحتى لا تفتح الطريق أمام المصرين أو أية جهة أخرى تضعف مركز العراق بين الدول العربية(٣١).

أمر مجلس الوزراء العراقي بعد تسلم الحكومة العراقية رسالة المفوضية السابقة في جلسته العشرين بعد المائه المنعقدة بتاريخ ١٠/١٠/١٩٥٥ بإرسال العقيد الركن عبد القادرالناظمي في رئاسة البعثة العسكرية العراقية لمدة سنتين بدلاً عن العقيد الركن داود سليمان الجنابي، واستخدامه لرئاسة أركان الجيش الليبي للمدة المذكورة وبنفس الشروط(٣٢).

كما وافق مجلس الوزراء العراقي في جلسته الثالثة والعشرين بعد المائة بتاريخ ٢٤/١٠/١٩٥٥ بانتداب النقيب عبدالستار رشيد من صنف المدفعية للعمل في وزارة الدفاع الليبية، لمدة سنتين ليقوم بتدريب صنف المدفعية وتهيئة بعض الضباط الليبيين(٣٣). فكانت هذه المرحلة مرحلة ريادة وتأسيس لضباط

الجيش العراقي في بناء المؤسسة العسكرية الليبية لتعقبها مرحلة أخرى هي مرحلة التطوير والصقل.

البعثة العسكرية العراقية الثانية ١٩٥٥ - ١٩٥٧

تسلم العقيد الركن عبدالقادر الناظمي رئاسة البعثة العسكرية العراقية إلى ليبيا بدلاً من العقيد الركن داود الجنابي لمرض الأخير وإعفاءه من منصبه بتاريخ ١٨/ تشرين الأول /١٩٥٥(٣٤) وقام الناظمي بتيسير متطلبات الجيش الليبي ولقيّ دعماً من الهيئات التركية والبريطانية والأمريكية(٣٥) العسكرية العاملة في ليبيا لمقاومة أي تسرب مصري إلى الجيش الليبي، خاصه ان مصر سعت لتقدم أطباء عسكريين لسد حاجة الجيش الليبي، غير إن الحكومة الليبية رفضت ذلك وكان الملك إدريس(٣٦) لن يسمح للمصريين بالتسرب إلى

- ٨ -

جيشه(٣٧) ، لخوفه من الفكر الثوري المتأجج في عهد الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وأكدت الحكومة الليبية على تحديد انتداب البعثة العراقية وزيادة عدد أعضائها، حيث طلبت إلحاق وزارة الدفاع الليبية ضابط عراقي كمستشار عدلي وأخر حربي يعمل في الأمور الإدارية(٣٨).

كانت البعثة العسكرية العراقية الجديدة أكثر عدداً وشمولاً لمختلف صنوف الجيش، إذ احتوت على ضباط قياديين وضباط صنف المشاة والمخابرة والدروع الإدارية والمدفعية إضافة إلى الطبيبين النقيب الطبيب سليم بهنام مانع والنقيب الطبيب كامل صالح إبراهيم(٣٩). وتم تسفير الضباط الجدد للالتحاق بالبعثة العسكرية العراقية يوم ١٢/ شباط / ١٩٥٦ ليحل محل البعثة السابقة التي أبدى أعضاءها الرغبة بالعودة إلى العراق(٤٠).

وبعد إكمال البعثة الأولى مهامها بنجاح وكفاءة عالية في [٢٥/ كانون الأول / ١٩٥٣ - ٢٥/ كانون الأول / ١٩٥٥] حتى أصبح الجيش الليبي على درجة عالية من حيث التنظيم والتدريب واعتمد الجيش الليبي في دراسته على المؤلفات

والمصادر العسكرية العراقية من كراسات ونشريات الجيش العراقي، إذ أقامت وزارة الدفاع الليبية بشراء (٥٠) نسخه من جميع الكتب والكراسات ونشريات لتوزيعها على ضباط صف الجيش الليبي(٤١).

وقررت الحكومة الليبية عدم إرسال طلاب ليبين في المستقبل إلى ايه كلية عسكرية عدا الكلية العسكرية العراقية نتيجة التجربة، كما صرح وزير الدفاع الليبي إلى رئيس البعثة العسكرية العراقية لليبيا العقيد الركن عبدالقادر الناظمي(٤٢).

بذلك لم يبقى الناظمي رئيساً للبعثة العراقية هناك بسبب إصابته من جراء حادث سيارة خلال شهر أيلول ١٩٥٦، وفاتحت وزارة الخارجية الليبية المفوضية العراقية في طرابلس مفاتحة الجهات المختصة بشأن تعيين ضابط عراقي لرئاسة أركان الجيش الليبي، وأعلمت وزارة الخارجية العراقية نظيرتها الليبية بأن وزارة الدفاع العراقية وافقت على تعيين العقيد الركن شاكر محمود شكري مستشار لوزير الدفاع الليبي ويكون مرتبط به شخصياً إلا أن يتم ترقيته إلى رتبة زعيم ركن (عميد ركن) في مايس عام ١٩٥٧ يتسنى تعيينه رئيساً لأركان

- ٩ -

الجيش الليبي بدل ناظمي(٤٣).

مع حلول نهاية عام ١٩٥٦ اعلم رئيس الوزارء الليبي [بن حليم] رئيس وزراء العراق ووزير الدفاع بالوكالة [نوري السعيد] (وبأن الحكومة الليبية تزمع الاستغناء عن خدمات البعثة العسكرية البريطانية وتوسيع عمل البعثة العراقية وتحل محلها) وطلب بهذه المناسبة ترشيح ضابط عراقي برتبة أمير لواء لرئاسة أركان الجيش الليبي(٤٤)، فنسبت الحكومة العراقية أمير اللواء الركن عادل احمد راغب ليكون رئيساً لأركان الجيش الليبي خلال شهر شباط ١٩٥٧(٤٥).

بيد إن هذه الاستجابة العراقية التامة لمطالبة الحكومة الليبية في تطوير مؤسستها العسكرية جوبهت ببروز تيار داخل الجيش الليبي يدعو إلى الحد من نفوذ المؤسسة العسكرية العراقية على تنظيمات الجيش الليبي بل والمطالبة بإقصاء الضباط العراقيين، لا لشيء إلا رغبة في الاستحواذ على المناصب القيادية المرموقة والتي كانت يظفر بها الضباط العراقيين، وقد تزعم هذا التيار الضباط الإدريسي لطيوش وهو مستشار الملك إدريس الأول، الأمر الذي لا يستبعد فيه إن هذا لتحرك إزاء البعثة العراقية لم يكن بعيداً عن تطورات الصراعات السياسية في الساحة العربية، لذا لم تجد بداً البعثة العسكرية العراقية إلا الانسحاب وإنهاء خدماتها في المملكة الليبية والعودة إلى البلاد نهاية ١٩٥٧(٤٦).

ومن خلال ما تقدم يبدوا واضحا الجهود البناءة التي قدمتها الحكومة العراقية وعلى المستوين الدبلوماسي والفني في تدعيم الاستقلال الليبي في فترة اقل ما يقال عنها المحتدمة في صراعاتها الإقليمية والدولية، أثمرت هذه الجهود عن نتائج طيبة بصدد الاستقلال وبناء المؤسسة العسكرية الليبية

الهوامش

١ - احتلت ايطاليا ليبيا عام ١٩١١، بعد ان هزمت القوات العثمانية في العام نفسه، واجبرت على توقيع اتفاقية الانسحاب. انظر: جلال يحيى السيد ، العالم العربي الحديث ، المدخل ، القاهرة ، ١٩٦٦، ص ٤٧١-٤٨٩.

٢- عزام باشا: ولد عام ١٨٩٣ في مصر، درس في لندن سنة ١٩١٣، تطوع في الجيش العثماني اثناء حرب البلقان سنة ١٩١٣، ثم استقر في مصر منذ سنة ١٩٢٣، اصبح عضواً في اول مجلس نيابي مصري سنة ١٩٢٤، عمل مساعداً لوزير الخارجية المصري سنة ١٩٢٤، ثم اصبح اول اميناً عاماً للجامعة العربية ١٩٤٥-١٩٥٢، ثم عمل مستشاراً للسعودية في هيئة الامم المتحدة. انظر

عبدالوهاب الكميالي ، وكامل الزهيري ، الموسوعة السياسية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص٣٧٣.

٣- دار الكتب والوثائق ، الوحدة الوثائقية ، وسنرمز له مستقبلاً د. ك. و.، تقرير المفوضية الملكية العراقية في القاهرة، بتاريخ ١٩٤٥/٩/٢٢، الوثيقة ٨٧، ص٣١٨.

٤- د.ك.و.، تقرير المفوضية الملكية العراقية في القاهرة، بتاريخ ١٩٤٥/٩/٢٣، الملفة ٧٢٤، الوثيقة ٨٧، ص٣١٨.

٥- د.ك.و.، تقرير المفوضية الملكية العراقية في القاهرة، الرقم متفرقة/ ١٤٢٣٩، بتاريخ ٣ ايار ١٩٤٩، الملفة ٦٦٢، الوثيقة ١٨، ص٢.

٦- د.ك.و.، تقرير المفوضية الملكية العراقية في القاهرة، ٧/٩/١٧١٣ بتاريخ ١٩٥١/٨/١٢، الملفة ٧٢٤.

٧- د.ك.و.، تقرير المفوضية الملكية العراقية في القاهرة، الرقم ٨/٩/٢٣٣ بتاريخ ١٩٥١/٨/١٢ الملفة ٦٦٩.

٨- المصدر نفسه.

٩- د.ك.و.، تقرير المفوضية الممثلية العراقية الدائمة في مجلس الامن ، ١٩٤٨ الى رئاسة الديوان الملكي ، الملفة ٦٤١، ص٦.

١٠- توفيق السويدي: سياسي عراقي ، اصبح ثلاث مرات رئيساً للوزراء ، الاولى في ٢٨ نيسان ١٩٢٩ واستقال في ٢٥آب ١٩٢٩، الثانية ٢٣شباط ١٩٤٦، ٣٠مايس ١٩٤٦، والثالثة ٥شباط ١٩٥٠ ١٢أيلول ١٩٥٠. انظر عبدالرزاق الحقي ، تاريخ الوزارات العراقية ، ج١، بيروت ١٩٨٢، ص١٨٠.

١١- د.ك.و.، تقرير المفوضية الممثلية العراقية الدائمة في مجلس الامن، ١٩٤٨ الى رئاسة الديوان الملكي ، الملفة ٦٤١، ص٦.

١٢- المصدر نفسه.

١٣- د.ك.و.، تقرير القنصلية الملكية العراقية في نيويورك الى رئاسة الديوان

الملكي بتاريخ ٥مايس ١٩٤٩، الملفة ٦٤١.

١٤- د.ك.و.، تقرير القنصلية الملكية العراقية في نيويورك الى رئاسة الديوان الملكي المرقم ٢/١١٢٢/٣٩٤٢في ٥مايس ١٩٤٩، الملفة ٤٦٦.

١٥- المصدر نفسه.

١٦- المصدر نفسه

١٧- كتاب الحركات العسكرية الى وزارة الدفاع، المرقم س٤/ق٣/٩٨ في ٢٢مايس ١٩٥٢.

١٨- المصدر نفسه.

١٩- المصدر نفسه.

٢٠-انظر الملحق رقم (١).

٢١- المصدر نفسه.

٢٢- كتاب وزارة الخارجية العراقية، الدائرة العربية الى مجلس الوزراء المرقم غ/٢٦٩٦/٢٢/١٤ في ٣/آب/١٩٥٣.

٢٣- انظر الملحق رقم (١).

٢٤- برقية ديوان وزارة الدفاع المرقمة د/١/١٨ الى مديرية الحركات العسكرية، في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٣.

٢٥- برقية وزارة الدفاع المرقمة ١٣٣٠الى مدير الحركات العسكرية، في ١٩٥٣/١٢/٣.

٢٦- وزارة الدفاع، كتاب رئيس البعثة العسكرية العراقية في ليبيا، المرقم ٣/١١/٤ الى مدير الحركات العسكرية في ١٩٥٤/٢/١٥.

٢٧- انظر الملحق رقم (٢).

٢٨- كتاب قائد الجيش الليبي المرقم ٤٢ الى وزارة الدفاع العراقية، في ١٩٥٤/٤/١٤.

٢٩- كتاب ديوان وزارة الدفاع العراقية، العدد ١٠٠٣، الى رئيس اركان

الجيش العراقي في ١٩٥٤/٥/٨.

٣٠- كتاب رئيس البعثة العسكرية العراقية المرقم بلا / طرابلس الى مدير الحركات العسكرية في وزارة الدفاع بغداد في ١٩٥٥/١/١٢.

٣١- كتاب المفوضية الملكية العراقية في طرابلس الغرب ، الرقم ت٢١٠/٩ الى وزارة الخارجية العراقية في ١٩٥٥/٩/١٨.

٣٢- رسالة المفوضية الملكية العراقية في طرابلس الغرب الرقم ت٢١٠/٩ الى وزارة الخارجية العراقية في ١٩٥٥/٩/١١

٣٣- المصدر نفسه.

٣٤- كتاب ديوان مجلس الوزراء العراقي ، المرقم ٤٤٦٠ الى وزارة الدفاع ، في ١٩٥٥/١٠/١٥.

٣٥- كتاب ديوان مجلس الوزراء العراقي المرقم ٤٦٥٨ الى وزارة الدفاع في ١٩٥٥/١٠/٣١.

٣٦- انظر الرسوم الملكي الليبي الصادر في ٢٢ كانون اول ١٩٥٥.

٣٧- جاءت البعثة العسكرية البريطانية بموجب اتفاقية عام ١٩٥٣ بين ليبيا وبريطانية مقابل حصول البريطانيين على قاعدة عسكرية وحق استخدام الاراضي والمياه والاجواء الليبية مقابل تقديم الخدمات العسشكرية من تدريب وتسليح وتجهيز الجيش الليبي. اما البعثة الامريكية فقد وصلت الى ليبيا بموجب الاتفاقية الليبية ـ الامريكية المعقودة عام ١٩٥٤ ، حيث حصلت الولايات المتحدة على حق استخدام قاعدة هويلس ، مقابل تقديم المعونة العسكرية للجيش الليبي ، ومعونة مالية قدره ٧ ملايين دولار. انظر هنري انيس ميخائيل ، العلاقات الانكليزية الليبية ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص٣٢١ - ٣٢٥.

٣٨- الملك ادريس ، ينسب الى اسرة علوية كانت قد اسست الدولة الادريسية في العهد العباسي بعد عام ١٦٩هـ ، قاد حركة النضال الوطني ضد الاحتلال

الايطالي في ليبيا اعتباراً من عام ١٩١١، هاجر الى مصر اواخر سنة ١٩٢٢، ووصل القاهرة في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٣، ثم عاد الى مقره في برقة في تموز سنة ١٩٤٤ . اصبح اول ملك ليبيا بعد الاستقلال في ٢٤ كانون اول ١٩٥١، واستمر في الحكم حتى ثورة الفاتح في ايلول سنة ١٩٦٩ بقيادة العقيد معمر القذافي. انظر نقولا زيادة ، محاضرات في تاريخ ليبيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٦-١٧١، زاهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٤٤٤-٤٤٥.

٣٩- كتاب المفوضية الملكية العراقية في طرابلس الغرب، المرقم ١/١ والمرفق معه كتاب رئاسة البعثة العسكرية العراقية الى مديرية الحركات العسكرية في ١٩٥٥/١٠/٢٠.

٤٠- المصدر نفسه.

٤١- انظر الملحق رقم (٣) . وكذلك كتاب مديرية الحركات العسكرية المرقم د//٧٧١//٢٢ الى وزارة الخارجية العراقية في ١٩٥٦/٢/١١.

٤٢- كتاب وزارة الدفاع العراقية ، الرقم د/٤ الى وزارة الخارجية العراقية في ١٩٥٦/٢/١١.

٤٣-كتاب رئيس البعثة العسكرية العراقية في ليبيا الرقم ح.ل/ ١٣٤ الى مديرية التدريب العسكرية ، في ١٩٥٦/١/٤.

٤٤- المصدر نفسه.

٤٥- كتاب المفوضية الملكية العراقية ، ليبيا ، المرقم س/١٢/٤٥٦ ، الى وزارة الخارجية العراقية ، في ١٩٥٦/١٢/٢.

٤٦- كتاب وزارة الخارجية العراقية ، الدائرة العربية ، المرقم ٧٦/٧٠١١ الى وزارة الدفاع العراقية ، في ١٩٥٦/١٢/١٩.

٤٧- كتاب المفوضية الملكية العراقية / طرابلس الغرب ، المرقم س/٢٩، الى وزارة الخارجية العراقية ، في ١٩٥٧/٢/٦.

٤٨- كتاب البعثة العراقية في ليبيا المرقم ب ع / ١٨ الى رئيس اركان الجيش العراقي ، في ١٩٥٧/٦/١٣.

العزلة والمصير الإنساني في رواية ((خاتم الرمل)) لفؤاد التكرلي

د. علي كاطع خلف
كلية الآداب/ جامعة الكوفة
قسم اللغة العربية

مدخل

لعله قد اصبح من المسلمات في البحث الأدبي ، ان الرواية هي الجنس الأدبي الذي أخذ بالسيادة في العصر الحديث على غيره من الأجناس الأدبية ، وذلك لأسباب عديدة ربما امكننا الإشارة الى سببين اساسيين وراء ذلك ، احدهما فني وآخر موضوعي ، اما الفني فانه يعود الى طبيعة الرواية بوصفها جنساً قادراً على استيعاب بقية الأجناس الأدبية والتعبير من خلالها ، يقول باختين في هذا الصدد : ((ان الرواية تسمح بان ندخل كيانها جميع انواع الأجناس التعبيرية ، سواء كانت أدبية

(قصص ، اشعار ، قصائد ، مقاطع كوميدية) او خارج- ادبية (دراسات عن السلوك ، نصوص بلاغية وعلمية ، ودينية ، الخ) . نظرياً ،فان أي جنس

تعبيري يمكنه ان يدخل الى بنية الرواية ، وليس من السهل العثور على جنس تعبيري واحد لم يسبق له ، في يوم ما ، ان الحقه كاتب أو آخر بالرواية. وتحتفظ تلك الأجناس ، عادةً ، بمرونتها ، وأستقلالها ، واصالتها اللسانية والأسلوبية))(١) ، بل اننا نجد من ينهب الى القول بان الرواية قد اصبحت ((ممثلة تقريباً للأدب بصورة عامة.))(٢) ، ليس

هنا فحسب ، بل ((ان ظهور الرواية هو في الحقيقة لا ظهور ((النثر)) وحسب ، بل وظهور الأدب بكل ما في هذه الكلمة من معنى.))(٣)

اما السبب الموضوعي فيمكن ايجازه ببساطة من خلال تعبير جورج لوكاتش عن الرواية بقوله : ((الرواية هي النوع الأدبي النموذجي للمجتمع البرجوازي.))(٤) ، أو بالأحرى هي ((ذاك النوع الملحمي الكبير ، ذلك التصوير الحكائي للكلية الأجتماعية))(٥) وهي بهذا المفهوم الجنس الأدبي الأشمل والأدق تعبيراً عن المجتمع وفي الوقت نفسه عن الفنان المبدع لهذا الجنس الأدبي ، يقول أحد الأدباء الألمان في هذا الصدد ((ليس هناك أي شكل آخر يستطيع ان يعبر عن روح المؤلف نفسه بمثل هذه الدرجة من الكمال.))(٦)

ومع الألتفات الى ايماننا العميق بما يذهب اليه لوسيان جولدمان من انه ((كلما كان العمل تعبيراً صادراً من مفكر او عبقري كلما امكن فهمه في ذاته بدون ان يلجأ المؤرخ الى سيرة الكاتب او الى نواياه .))(٧) ، ونحن اذ نقوم بقراءة رواية ((خاتم الرمل))(٨) لفؤاد التكرلي والبحث في مشكلة العزلة فيها ، ربما نكون غير بعيدين عن الصواب اذا ما قلنا ان الفرد والمجتمع والحضارة والسياسة والجنس تلتحم فيها الى درجة قد يتعذر معها عزل كل عنصر عن العناصر الأخرى الا من وجهة النظر البحثية .

في طبيعة الرواية وبنائها الفني

ان هذا الغنى في المضمون ينعكس على طبيعة البناء الفني لهذه الرواية فهي تجمع بين اشكال وانواع متعددة من الرواية ، فهي من ناحية ، يمكن ان تعد ((رواية شخصية)) ، وهذا النوع من الروايات يعده أدوين موير اهم اقسام القصص النثري ، وتمتاز بانها ليس ((فيها بطل ولا فيها ذلك الشخص الذي يندفع في تهور الى الحدث ، ولا اية حبكة بارزة اكثر مما ينبغي ، وليس فيها حدث حاسم تشارك كل عناصرها في صنعه ، ولا النهاية التي يتحرك نحوها كل شيء فيها .))(٩) فالمواقف مبينة هنا في سبيل امداد القاريء بمزيد من المعرفة عن الشخصيات او لتقديم شخصيات جديدة ثم يمضي الى القول في حديثه عن الشخصيات في هذا النوع من الروايات وعلاقتها بالحدث وما يطلبه القاريء ((كل ما نطلبه منه ان يكشف عن صفاتها المختلفة التي كانت لها منذ البداية ، فان تلك الشخصيات تكاد تكون ثابتة على حالة واحدة . انها كمنظر طبيعي مألوف ، يدهشنا من وقت لآخر اذا ما طرأ عليه مؤشر من ظل او ضوء يغيره ، او عندما نراه من زاوية جديدة .))(١٠) ، فمنذ بداية الرواية نجد ((هاشماً)) يصرح ((ان طبيعة الأمور في هذا العالم لا تلائمني ، وحقيقة ذاتي لا تمتزج تماماً بما هو حولي .))(١١)، وتستمر هذه الطبيعة النفسية للشخصية كما هي حتى نهاية الرواية من دون أي تغيير ، والحقيقة ان بناء الرواية على هذا الشكل لا يأتي من مجرد توجه شكلي او رغبة اعتباطية لدى المؤلف ، بل هو ضرورة املتها طبيعة الموضوع المتناول وعناصره المختلفة ، ولعل اهمها الأحساس بالعزلة والأنفراد التي تشعر به الشخصية على امتداد صفحات الرواية ، وكما سنرى بعد قليل .

ومن جهة اخرى هي رواية ((رجولية)) كما يطلق على هذا النوع من الروايات ر.م.البيريس في كتابه ((تاريخ الرواية الحديثة)) وهو يعني بكلمة رجولي ((عالما تكون فية تفاصيل الحياة البشرية في تعقيدها المؤثر اقل قيمة

من معناها الأساسي ، والأصلي .))(١٢) ، فهي رواية ((تستبعد الأنفعالية)) و ((صورة عن الحياة مبسطة جداً و فعالة واساسية .))(١٣) ، ويصفها في مكان آخر بأنها رواية الوضع البشري ، يقول عنها : ((لقد حررت رواية الوضع البشري في منتصف القرن العشرين لبرهة ما ، الأسطورة الروائية ، من فرط الحساسية وحب التفاصيل والملاحظة لكي تفرض على نحو موجز جداً – فالملاحظة لا تفقد حقها قط – المطلب الزائد والمبسط للأنسان امام مصيره.))(١٤) ثم يبين لنا كيفية تعامل هذه الرواية التي يدعوها هنا برواية ((الطاقة)) مع القاريء ((فالقاريء ، دون ان يتيه ، كما هي الحال في رواية الفن ، في زوايا غير عادية في الرؤية ، ينتزع من مقعده القابع فيه كمتفرج يتلهى ، او كملاحظ يقظ ، ويدعى للأتحاد بقلق الشخصية الأساسية وبحركتها الحيوية ، بل بحركتها السينمائية تلك ، الشخصية والتي يطرح فيها معنى الحياة على بساط البحث.))(١٥)، ومما لاشك فيه ، ان هذه الرواية التي تطرح العديد من هذه الأسئلة التي تثير قلق الشخصية والتي يطرح فيها معنى الحياة على بساط البحث مثل ما معنى ان يكون الانسان انساناً. يقول ((ليس الأنسان انساناً دون شرط او امتحان ، لأن الحالة الأنسانية المعترف بها ، ليست حالة آلية ، تلتصق بهؤلاء الذين نسميهم بشراً منذ ان يخلقوا ولا تفارقهم حتى وهم تراب . هذا الوضع مرفوض ولا يطاق .

فما دمنا بمفردنا هنا ، وكل شيء ... الكل ، معجون ، في الواقع ، بافعالنا ، وجب ان تكون الحالة الأنسانية بشروط ولا تنال مجاناً مثل منحة من لا أحد أو لقية في الطريق العام .))(١٦)، او في مناقشة مشكلة الموت في الوجود الأنساني : ((فخطر لي ، دون سبب ، ان البشر لا يفكرون ابدا بالطريقة التي يموتون بها ، ولا في أي مكان سيقع فيه هذا الحادث الفذ الذي ليس وراءه من احداث .))(١٧) ، هذه الأسئلة وغيرها التي تطرحها الشخصية الروائية هنا ، تدعو القاريء ، كما يرى البير يس ، لا يتلهى بقراءة هذه الرواية ، وانما ليلاحظ

بيقظة ، ويتحد مع قلق الشخصية من اجل التوصل الى حلول لما تطرحه من مشاكل على بساط البحث تثير قلقها على الدوام ، بل انه يصبح بعد هذا ((من حق الروح ان تقلق على الدوام وان تجزع .))(١٨) ، فهذه الرواية ، إذن ، تخرج عن خطوط الرواية التقليدية من حيث كونها تتوجه بالدرجة الأولى الى عقل القاريء اكثر من عاطفته ، وليس أي قاريء ، وانما هو القاريء الفطن والمتابع بدقة. وربما أمكننا القول فيها ، انها شكل من أشكال ((رواية الأفكار)) التي هي ((شكل قصصي خاص بعصر ((قلق)) أي عصر لم تثبت فيه المعايير تثبيتاً لا محيد عنه ولا تغيير له.))(١٩) ، وهو ما يعبر عنه هاشم بقوله ((فمجتمع السبعينات هذا ، الداخل في عملية اجهاض كبرى ، لم يكن مستعداً لمهادنة انسان مستوحش معزول مثلي .))(٢٠) .

العزلة والمصير

اذا كان النقاد يؤكدون اهمية الأستهلال في العمل الأدبي وتحديداً النصوص الروائية وان ((ما من شيء يحدث في النص الأدبي الا وله نواة في الأستهلال.))(٢١) ، افليس لنا الحق بعد هذا ان نتساءل ، عن معنى الأستهلال في ((خاتم الرمل)) ، الذي يأتي على الشكل : ((... وانا بمفردي ، وراء المقود اسوق ، لا تشغلني الوجهة التي اقصدها .))(٢٢) ،خاصة وان اهم عنصر في هذا الأستهلال يرد في النهاية. وهو في حالة الأنفراد والعزلة ، فتنتهي الرواية بالكلمة نفسها التي ابتدأت بها ((ولسبب مبهم هززت له رأسي بالأيجاب لم تأخذ منه عملية اشهار المسدس وتصويبه بثبات الى جبهتي ، الا جزءاً من الثانية . رأيت عينيه الميتتين ، متوجهتين نحوي ، ولمحت ارتجافة خفيفة اسفل احداهما . لم يبق من كلام آخر . كنت بمفردي))(٢٣).

ومن اجل ان تعرف معاني ودلالات هذا الأستهلال وهذه الخاتمة المأساوية ، يتوجب علينا المرور بكل الشخصيات المهمة في هذه الرواية والعلاقات التي

حاولت الشخصية الرئيسة ((هاشم)) ان تقيمها معها وطبيعة هذه العلاقات .

ولنبدأ بأقوى العلاقات وأكثرها تأثيراً في حياته ، والمتمثلة بصلته بأمه ((سناء)) ، وربما كان المقطع الآتي الذي يتحدث فيه هاشم عن طفولته وعن صلته بأمه يفتح امامنا افاقاً واسعة في محاولة معرفة طبيعة تلك الصلة المعقدة : ((وكانت امي سناء تبذل جهدها كي ، نبقى ، أنا وهي ، في زاوية او ركن لا يشاركنا فيه احد . كنت اميل الى الدخول في حلبة الآخرين لكنها كانت تستحوذ علي وتغرقني بحنان وحب لا فكاك منهما.))(٢٤) ، فهاشم هنا كأي طفل في مثل سنه يميل الى المشاركة واللعب مع اقرانه ، كما يشير هو الى ذلك ، الا ان والدته كانت تبذل جهدها كي يبقيا وحدهما دون مشاركة احد ، ومع ملاحظة ما يؤكده علماء الأجتماع من ان الذات ((تعاني حاجة عميقة الى ان تنعكس انعكاساً حقيقياً في ذات اخرى وان تتأكد وتتحقق بواسطة ذات اخرى ((...)) والواقع ان الذات تسعى الى الأتصال الروحي ((بأنا)) أخرى ، صديقاً يريد ان يتوحد معها وبذلك يؤكدها ويعجب بها ويصغي اليها ، وبأختصار ان يعكسها . وهنا تكمن الدلالة العميقة للحب .))(٢٥) .

ومع الأخذ بعين الأعتبار هذه الحاجة العميقة فأننا نجد هاشماً لا يشعر بأي احساس بالعزلة في طفولته على الرغم من انه لم يكن له سوى صديق واحد هو ذلك الصبي الاعرج الذي اصطحبه معه يوم ميلاده(٢٦)، والسبب في ذلك يعود الى ان هذه الذات قد وجدت ذاتاً تتوحد معها وتنعكس فيها ، متمثلة بأمه سناء ، الأمر الذي ادى الى ان يبدأ لديه ، مع فقدانه لوالدته الشعور بوطأة الأحساس بالعزلة ولم يكن والده ليملأ هذه الفجوة التي حصلت بغيابها ، ذلك اننا نلحظ عداء واضحاً يكنه لوالده منذ طفولته سببه الرغبة في الأستحواذ على حب امه لوحده من غير ان يشاركه فيه احد . تقول له : ((لا عليك . لا عليك انت يا حبيبي . لن ينال مني . ابداً ابداً . انت ملاكي يا بني وأنا مثلك . انت لي ، انت لي ولن اكون لأحد بعدك.))(٢٧)، لذا بعد غيابها لم يكن والده يصلح لأن

يحل محلها اساساً ، ولأنه كان يراه نداً له ، بل اننا نجده يصرح بان والده لا يحبه ، كما يقول في حديثه مع خاله (والدي لا يحبني يا خالي)(٢٨)، ولا يتردد هو الآخر باعلان كرهه له يقول : ((لم ينطـــق ابي باقوال ذات اهمية ما ، وها هو مرة اخرى امامي يتضارب مع الريح والمطر وينفث كلماته الهوجاء التي اجد الآن اني اكرهها مثلما اكرهه.))(٢٩)، ولم تكن عمته قادرية قادرة على ان تحل محل والدته التي كانت له وحده فقط ،لأن تلك العمة كما يرى هو نفسه ((كانت على الدوام موزعة العواطف بين أخيها وبيني .))(٣٠)، لذا لم يبق امامه سوى خاله الذي لم يكن يفهم منه الكثير(٣١)، ولا يلبث ان يتخلى عنه بعد ان تحدث عن والدته بما يكره ، فيظل يئن تحت وطأة الأحساس الرهيب بأنه ذلك الكائن ((الحزين المتألم والمعزول المستوحش.))(٣٢)، الا انه لايلبث ان تظهر في حياته امرأة اخرى ، هي دكتورة سلمى التي تتدخل محاولة حل المشكلة القائمة بينه وبين زوجته واهلها ، بصفتها ابنة عم زوجته آمال ، وتحاول مخلصة ان تجنبه عواقب هذه المشكلة ، وما قد يلحق به من أذى بسببها ، الا انه يقابلها بلا مبالاة ، وعدم اهتمام تثير استغرابها ، ومن الطريف هنا اننا نجده ينظر الى دكترة سلمى بأشتهاء واضح : ((كانت مستديرة نحوي ، تضم ساقيها بقوة ، وتشير بذراعيها لتأكيد معاني كلامها ، وكان جبينها ابيض ناصعاً وكذلك رقبتها وجيدها المكشوف . لم استطع منع نفسي من خطف نظرة الى ملتقى نهديها العاليين .))(٣٣)، بل اننا نجده يغار عليها ((كان جسماً متناسقاً بوضوح ، مليئاً ذا منحنيات ضايقني ان افكر انها قد ترتاح لأعجاب الرجال بها))(٣٤).

ومما له دلالة كبرى هنا ، ان هذه المرأة المشتهاة من قبل هاشم تشترك مع والدته في صفة شديدة التأثير فيه تكمن في استعمالها للعطر المسمى لحن الزمان ، هذا العطر الذي يثير فيه عواطف و غرائز مكبوتة متضاربة ((آنذاك بهدوء ولطف تامين تسللت الى نفسي نفحة رقيقة من العطر الذي تضعه . كانت منعشة ، سحرية ، أرجفت قلبي ، نيناريجي لحن الزمان . تسارعت انفاسي ببعض

الشيء وشعرت بنفسي مستسلماً الى لذة غريبة اشتعلت فجأة في كياني .))(٣٥)، ولنلاحظ انه يصرح باحساسه ((بلذة)) اشتعلت في كيانه ، بل انه ليذهب الى ابعد من هذا حين يوحد بين امه سناء ودكتورة سلمى من خلال هذا العطر حين تزوره في المستشفى وتمسك بيده وتضغط عليها ((كنت سعيداً مشوشاً فاقد القدرة على الحركة او على فتح عيني لرؤية من كان بجانبي ، ثم استنشقت رائحتها العطرة التي أعرفها منذ صغري .. منذ الأزل كانت تضع الدورق المميز امامها حين تجلس تتزين وتمر لحظات وينتشر في الجو عبق تلك الرائحة .. ((لحن الزمان)) .. نيناريجي .))(٣٦).

فإذا اخذنا بالحسبان هذه النظرة الشهوية الى د. سلمى وطبيعة علاقته ((المميزة)) بوالدته وتماهيها في كثير من الأحيان في نظره مع دكتورة سلمى تلك(٣٧)، والألتفات الى ان الرواية نص دال وان كل عنصر من عناصر الرواية ، بل كل كلمة وعبارة فيها ، له دلالته المقصودة وغير الأعتباطية في عملية البناء الفني ، فلا يبقى لنا الا ان نشير الى طبيعة العقدة التي يعاني منها هاشم والمتمثلة ((بعقدة اوديب)) فما هي هذه العقدة ؟

يقول فرويد في وصفه عقدة أوديب : ((يمكن وصف حالة الطفل في ابسط صورها كما يأتي : يبدأ الولد الصغير في سن مبكرة يشعر بالحب نحو ((امه)) ، وهو حب كان في الأصل متعلقاً بثديي الأم ، أما فيما يتعلق ((بالأب)) فان الولد يقوم بتقمص شخصيته . تبقى هاتان العلاقتان جنباً الى جنب لفترة من الوقت ، ثم تأخذ الرغبات الجنسية المتجهة نحو الأم تزداد في الشدة ، ويأخذ الأب يبدو وكأنه يعوق تحقيق هذه الرغبات . وعن ذلك تنشأ عقدة أوديب . ثم يأخذ تقمص شخصية الأب بعد ذلك يتخذ صفة عدائية ويتحول الى رغبة في التخلص من الاب لكي يأخذ مكانه من الأم . وتصبح علاقته مع الأب منذ هذه اللحظة متناقضة .))(٣٨) ، ولقد توافرت كل الشروط الرئيسة لظهور عقدة اوديب لدى هاشم وترك اثرها الواضح في حياته ، ابتداءً من العلاقة الحميمة (

غير المألوفة) بين الأم والأبن مروراً بالكره الشديد الذي يكنه هذان الأثنان للأب ، الأمر الذي يعزز الأستعداد لظهور العقدة واستفحالها لدى هاشم ، اذ ان من الشائع في هذه العقدة ان يكره الطفل أباه(٣٩)، ولا يعد كره الم للأب شرطاً ليتحقق وجودها . اما في هذه الرواية فان علاقة الأم بالأب تتسم بالكره والنفور الواضح منه ، وانتهاء بحالة العزلة التي يعانيها هاشم والتي فرضتها عليه امه في طفولته ، واستمرت معه بعد وفاتها فلم نجد له صديقا واحداً على امتداد صفحات الرواية سوى ذلك الصبي الأعرج الذي دعاه في أحد الأيام لعيد ميلاده والذي لايأتي على ذكره بعد ذلك .

اما فيما يخص دكتورة سلمى فعلى الرغم من الأهمية التي تحظى بها في علاقتها بهاشم فأنها لم تستطع ان تحل محل والدته سناء وان تسهم في اخراجه من عزلته التي يحسها كما كانت له والدته من قبل ، واذا حاولنا معرفة السبب الذي يكمن وراء ذلك ، فأنه يعود الى طبيعة الصلة الروحية التي كانت فيما سبق بينه وبين والدته والتي تمكنها من معرفة ما يدور بذهنه وكل رغباته واحتياجاته وتلبيها له قبل ان يتكلم بها ، ((كانت في الواقع مرهفة الأحاسيس بدرجة عالية . هي تقرأ الأرواح وترى ذلك في النظرات . يكفي ان تنظر الي لتعلم بم افكر وماذا اريد .))(٤٠) ، اما تلك الطبيبة فقد خيبت ظنه ولم تستطع اخراجه من عزلته والتغلب عليها ، ((ثم اني مع تلك الطبيبة ، لمحت لها بالخطوط العامة لصدمة تكويني ، فلم تستجب لكلامي ، شعرت من نظراتها ، انها قادرة على ادراك ما اقول ، لكنها حزنت في اللحظات الأخيرة ورفستني بطلباتها المادية الرخيصة .))(٤١) ، فقد كان يريد منها ان تكون له كما كانت له والدته ، وان تلتصق به روحياً ، ونجده يصرح بهذا المعنى بقوله : ((فالفهم ليس تبادلاً لغوياً حسب ، الفهم بالمعنى الصحيح ، الأنساني ، هو الأتصال عبر وجودين .)) (٤٢) ، وهذا الأتصال الروحي عبر الوجودين الأنسانيين ، هو الوحيد الذي يمكن من التغلب على العزلة ، كما يؤكد ذلك نيقولاي برديائف

((والحب والصداقة هما امل الأنسان الوحيد في الأنتصار على العزلة والحب حقاً هو افضل الوسائل لبلوغ هذه النهاية لأنه يجعل ((الأنا)) في اتصال مع ((الذات الأخرى)) مع ((أنا)) أخرى يمكن ان تنعكس فيها انعكاساً صادقاً ، وهذا هو الأتصال الروحي بين شخصية وأخرى ((...)) والحب وحده هو الذي يستطيع ان يحقق الأندماج الكامل مع كائن آخر ، هذا الاندماج الذي يعلو على العزلة))(٤٣).

ثم يأتي على قمة هذه العلاقات اثارة التساؤلات ، علاقة هاشم ((بزوجته)) آمال ، والحقيقة انه من الصعب ، ان لم يكن مستحيلاً ، ان يقطع المرء بشيء بشأن هذه العلاقة المعقدة ، ذلك اننا بمجرد محاولتنا التفكير فيها ، تعن لنا العديد من الأسئلة التي لا تجد لها حلاً نهائياً وحاسماً لها ، مثل : لماذا لم يحاول هاشم ان يصلح علاقته بآمال وان يجعلها علاقة طبيعية ، وفي أسوأ الأحوال ان يطلقها ؟ أو لماذا لم نسمع صوتاً لها (آمال) على مدى صفحات الرواية أو نرى وصفاً جسدياً أو معنوياً لها ، كما هو الشأن مع الشخصيات الأخرى ؟

ثم لماذا هذا التمسك بها ورفض طلاقها مع كل الضغوطات التي تعرض لها ، الى حد التهديد بأنهاء حياته ؟ تقول له دكتورة سلمى في احدى محاولاتها لأقناعه بحل مشكلته مع آمال وتنبيهه الى الخطر الذي يهدد حياته بسبب موقفه من هذه المشكلة : ((أنا .. أنا مصدومة فعلاً ولأسباب كثيرة . ان ما تقوله فظيع بدرجة لا تحتمل ، ولا يمكن السكوت عنه .. انت اذن في خطر شديد ، منذ ذلك اليوم حتى الآن في خطر شديد .. أتفهم ؟))(٤٤) ، يبدو اننا لا نجد امامنا طريقاً للأجابة عن هذه الأسئلة ، او لنقل عن بعضها ، سوى عبر المنظور الرمزي الذي يبدو ، وهناك اشارات كثيرة تلمح الى هذا ، ان المؤلف قد تعمده .

فماذا تكون آمال ؟

هل هي كما يشير الى ذلك اسمها ((مجموعة)) آمال ، يحاول هاشم التمسك بها وعدم فقدانها ، بعد ان فقد الكثير ؟

مما لاشك فيه ، ان آمال تمثل لهاشم الشيء الكثير والا فما يدعوه الى التمسك بها وعدم التخلي عنها مع كل الضغوطات التي يتعرض لها سواء في مجال عمله في الشركة أو في حياته الخاصة . ففي مجال عمله نجده يلحظ على رئيسه في العمل تغيراً واضحاً ، فبعد ان كان يعامله بكل احترام وتقدير ويرى فيه ركناً هاماً من اركان الشركة ويقوم بتكليفه بالكثير من المشاريع المهمة التي يعتمد عليها مستقبل الشركة ، اصبح الآن يعامله بكل فظاظة ، كما لو كان موظفاً ، لا زال في بداية مسيرته ينتظر ان يتلقى التعليمات والأوامر من رؤسائه في العمل ، ((طلبني مدير الشركة بطريقة غير مؤدبة ، أرسل من يستدعيني . لم يكن لديه شيء هام يقوله لي ، وكان يتحاشى النظر في وجهي ويقطع جمله واحياناً حتى كلماته . أمر غريب ، كان منزعجاً من خرائط وتصاميم كنت قدمتها له منذ شهرين تقريباً للإطلاع عليها . بدا عليه انه يكرهها ويريد ان يحرقها على رأسي ، أعادها الي قائلاً انها غير صالحة كلها كل شيء فيها حتى الورق والقلم .))(٤٥).

أما في مجال حياته الخاصة ، فهو يتعرض للضغط من قبل ابيه وخاله اضافة الى الدكتورة سلمى ، يقول له والده : ((انا احذرك . لا أريدك في بيتي اذا استمرت الحال على ما هي عليه ، جد لك مكاناً آخر تعيش فيه . هذا آخر كلام لي معك تتذكره الآن تذكره جيداً .))(٤٦).

أما خاله فيقول له : ((اسمع ، انت تخطيء في اختيار الطريقة .. طريقتك هذه صفها بما تشاء ، وتخطيء في اختيار الأشخاص ايضاً . انت تخطيء مرتين ، وليس هنا قليلاً ، بل لعله اكثر مما يجب .))(٤٧)

ومن الجدير بالذكر ان الوسائل التي تسعى بها الشخصية لتتخطى شعورها بالعزلة ، لا تقتصر على محاولتها اقامة صلات روحية وتتواصل انسانياً ، بل نجدها تسعى الى ذلك بوسائل عديدة ، منها الابداع والأعمال الفنية ذلك ان ((الأنا)) تحاول ((ان تتغلب على عزلتها بوسائل عدة : كالمعرفة ، والحياة

الجنسية ، والحب ، والصداقة ، والحياة الأجتماعية ، والأعمال الأخلاقية ، والفن ، وغير ذلك من الوسائل المتعددة .))(٤٨) ، والملاحظ اننا منذ بداية الرواية نجد ان أول مكان تصل اليه الشخصية ، هو معرض تشكيلي(٤٩) ، اضافة الى عرضه لأرائه في الفن وقضاياه الفلسفية واستماعه الدائم الى معزوفات الموسيقار البولندي الشهير فردريك شوبان(٥٠) ، اضافة الى ما يبرز بوضوح في سلوك الشخصية في حركتها الدائمة ، وفي كثير من الأحيان من دون هدف محدد ، الأمر الذي يشير من دون لبس الى طبيعة هذه الحركة النفسية الهادفة للقضاء أو التغلب على الشعور بالعزلة ، اذ ((ان الزمان والمكان هما اللذان يحددان حياة عالمنا الموضوعي ، هما المصدر الحقيقي للعزلة ، كما انهما مصدر الوهم الخاص بالعلو عليها فالمكان والزمان يقسمان ويوحدان الناس لا على مستوى الوجود الحقيقي والاتصال الروحي الصادق ، ولكن على مستوى الحياة الموضوعية والاجتماعية وحدها والحركة التي تكتسبها ((الأنا)) في وجودها الزماني والمكاني لها أعظم الأهمية بالنسبة لها ، واستبعاد فكرة الزمان والمكان وسيلة للهروب من تثبيت العزلة))(٥١) ، وتعبر الشخصية عن إحساسها هذا بالقول : ((قيل لي أمس ، ولكني اشعر كأن القول كان اليوم ، بأن سيارتي قد اصلحت واعيدت الى البيت ((...)) سرني ان يكون بأمكاني معاودة الجولان في شوارع بغداد تحت المطر ، مثلما كان الأمر تلك الأيام .))(٥٢) ، وبالأضافة الى استبعاد فكرة المكان برغبته الدائمة بالأنتقال وعدم الأستقرار في مكان واحد ، فأننا نلحظ هنا استبعاده لفكرة الزمان ايضاً من خلال قوله ((قيل لي أمس ، ولكني اشعر كأن القول كان اليوم .)) .

ومما تجدر الإشارة اليه هنا ، تناغم طبيعة البناء الفني لهذه الرواية مع مضمونها ، فبصدد حركة الشخصية هذه ، يرى ادوين موير أن ((مهمة كاتب رواية الشخصية تكاد تشبه مهمة معلم الرقص اكثر مما تشبه عمل الكاتب المسرحي ، فعليه ان يدفع شخصياته الى الحركة الدائمة اكثر من دفعها الى

صنع الأحداث .))(٥٣).

ومع كل هذه المحاولات من لدن الشخصية لتتجاوز عزلتها ، الا انها لا تحصد غير الخيبة والخذلان ، فلم يتبق امامها بعد هذا الا ان تأتي النهاية / النتيجة الطبيعية لكل هذه الأخفاقات في تجاوز العزلة والأنتصار عليها ، وهي الموت او الأنتحار ، ذلك ان انعزال الذات الأنسانية ورفضها الأتصال بأي شيء خارجها أو ((بالأنت)) أو عجزها عنه ((عبارة عن انتحار .))(٥٤) .

الهوامش

(١) الخطاب الروائي ، ميخائيل باختين ، ترجمة محمد برادة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة – باريس ، ط/١-١٩٨٧ ، ص ٨٨ .

(٢) الرواية ملحمة العصر الحديث ، ف.ف.كوزينوف ، ترجمة. د. جميل نصيف التكريتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط/٢-١٩٨٦ ، ص ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٨٥ .

(٤) الرواية كملحمة برجوازية ، جورج لوكاتش ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط/١ – ١٩٧٩ ،ص ٦ .

(٥) نفسه ، ص ٩ .

(٦) الرواية ملحمة العصر الحديث ، ص٩٦ .

(٧) منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ، د. صلاح فضل ، دار المعارف ، القاهرة ط/٢-١٩٨٠ ،ص ٢٢٣.

(٨) خاتم الرمل ، فؤاد التكرلي ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٥ .

(٩) بناء الرواية ، ادوين موير ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، مراجعة د. عبد القادر القط ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٥ ، ص ١٨ .

(١٠) نفسه ، ص ١٩ .

(١١) الرواية ، ص ٣٤ .

(١٢) تاريخ الرواية الحديثة ، ر.م. البيريس ، ترجمة جورج سالم ، منشورات عويدات ، لبنان ، ط/١-١٩٦٧،ص ٢٧٤.

(١٣) نفسه ، ص ٢٧٥ .

(١٤) نفسه ، ص ٢٧٦ .

(١٥) نفسه .

(١٦) الرواية ، ص ١٥٠ .

(١٧) الرواية ، ص ١٥١ .

(١٨) الرواية ، ص ١٥٢ .

(١٩) أشكال الرواية الحديثة ، تحرير واختيار ، وليام فان اوكونور ، ترجمة نجيب المانع ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥٨ .

(٢٠) الرواية ، ص ٣٩ .

(٢١) الاستهلال الروائي ، ديناميكية البدايات في النص الروائي ، ياسين النصير ، مجلة الأقلام ، ع/١١-١٢ /١٩٨٦،ص٣٩.

(٢٢) الرواية ، ص ٥ .

(٢٣) الرواية ، ص ١٥٤ .

(٢٤) الرواية ، ص ٥٩ .

(٢٥) العزلة والمجتمع ،نيقولاي برديائف ، ترجمة فؤاد كامل ، مراجعة علي ادهم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط/٢-١٩٨٦،ص٩٦.

(٢٦) ينظر : الرواية ، ص ٨٠ .

(٢٧) الرواية ، ص ١٢٦ .

(٢٨) الرواية ، ص ٤٨

(٢٩) الرواية ، ص ٣٤ .

(٣٠) الرواية ، ص .

(٣١) ينظر : الرواية ، ص ٨٦ .

(٣٢) الرواية ، ص ٩ .

(٣٣) الرواية ، ص ١٢٥ .

(٣٤) الرواية ، ص ١٢٠ .

(٣٥) الرواية ، ص ١١٥ .

(٣٦) الرواية ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣٧) ينظر : الرواية ، ص ١٠٤ .

(٣٨) الذات والغرائز ، سيجمند فرويد ترجمة د . محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٢ ص٦٥

(٣٩) مما تحسن الإشارة اليه ان فرويد يرى ان هناك اربع مراحل تمر بها حياة الطفل الجنسية :

١- المرحلة الفمية وتتميز بحصول الطفل على اللذة من منطقة الفم. ٢-المرحلة الاستية تبدا في حدود العام الاول ويحصل الطفل فيها على اللذة عن طريق التبرز وتظهر فيها ميول الطفل العدوانية .٣

-المرحلة القضيبية ، تبدا في السنة الثانية او الثالثة وتبلغ الحياة الجنسية عند الطفل فيها ذروتها اذ يظهر الطفل اهتماما واضحا بعضو الذكر التناسلي ، وفي هذه المرحلة تقع عقدة اوديب . ٤- مرحلة الكمون تبدا حوالي السنة الخامسة او السادسة وتستمر حتى المراهقة . وفيها يهدا النشاط الجنسي وتاخذ طاقة الطفل الجنسية تتصرف نحو كثير من انواع النشاط غير الجنسي . ينظر:- ثلاث رسائل في نظرية الجنس ، سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، دار القلم ،القاهرة ،١٩٦٠، ص ٨٩ —١٤١. وكذلك : معالم التحليل النفسي ، سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨، ص٦٠-٧١.

(٤٠) الرواية ، ص ٩٢ .

(٤١) الرواية ، ص ١١٣ .

(٤٢) الرواية ، ص ١٢ .

(٤٣) العزلة والمجتمع ، ص ١٣٤ .

(٤٤) الرواية ، وينظر ، ص ٩٩ .

(٤٥) الرواية ، ص ٤٢ .

(٤٦) الرواية ، ص ٢٨ ، وينظر ص ١٤٣ .

(٤٧) الرواية ، ص ٤٤ .

(٤٨) العزلة والمجتمع ، ص ٩٥ .

(٤٩) ينظر : الرواية ، ص ٧ .

(٥٠) ينظر : الرواية ، ص ٣٣ .

(٥١) العزلة والمجتمع ، ص ٩٤ .

(٥٢) الرواية ، ص ١٠٨ .

(٥٣) بناء الرواية ، ص ٢٠ .

(٥٤) العزلة والمجتمع ، ص ٩١ .

المصادر والمراجع

- اشكال الرواية الحديثة ، تحرير واختيار وليام فان اوكونور ، ترجمة نجيب المانع ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- بناء الرواية ، أدوين موير ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، مراجعة د. عبد القادر القط ، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٥ .

- تاريخ الرواية الحديثة ، ر.م. البير يس ، ترجمة جورج سالم ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط/١ – ١٩٦٧ .

- ثلاث رسائل في نظرية الجنس ، سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان بخاتي

، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

- خاتم الرمل ، فؤاد التكرلي ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٥ .

- الخطاب الروائي ، ميخائيل باختين ، ترجمة محمد برادة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة – باريس ، ط / ١ – ١٩٨٧ .

- الذات والغرائز ، سيجمند فرويد ، ترجمة ، د. محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط/٣ – ١٩٦١ .

- الرواية كملحمة برجوازية ، جورج لوكاتش ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط /١ – ١٩٧٩ .

- الرواية ملحمة العصر الحديث ، ف.ف.كوزينوف ، ترجمة د.جميل نصيف التكريتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط/٢-١٩٨٦ .

- العزلة والمجتمع ، نيقولاي برديائف ، ترجمة فؤاد كامل ، مراجعة علي أدهم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط/٢ – ١٩٨٦ .

- معالم التحليل النفساني ، سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

- منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ، د. صلاح فضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/٢-١٩٨٠.

الدوريات :

- الاستهلال الروائي ، ديناميكية البدايات في النص الروائي ، ياسين النصير ، مجلة الأقلام ، ع/١١-١٢،١٩٨٦ .

قياس ثقافة الجودة باستخدام مقياس روكيه

الدكتور
يوسف حجيم سلطان الطائي
دكتوراه جودة شاملة

المقدمة

أصبحت ادارة الجودة الشاملة الاداة السحرية الي علقت عليها آمال الكثير من الباحثين والمختصين في هذا المجال وأصبحت المنظمات تتسابق لأجل تطبيق اكثر عدد ممكن من المبادئ الاساسية لها وظهر هذا جلياً في الاطروحات والبحوث التي قدمت. ولكن اغلب هذه الكتابات لم تتطرق بالشكل الوافي لأهم مرتكز اساسي الا وهو كيفية قياس ثقافة الجودة ومدى تأثير هذه الثقافة على تبني ادارة الجودة الشاملة وعلى الرغم من الحداثة النسبية التي يتمتع بها هذا الموضع الا انه يعتبر من المواضيع القديمة والتي لها جذرها في الكتابات الاولى للحضارات القديمة مثل البابلية والفرعونية والرومانية وغيرها.

ولكن في نفس الوقت هو علم متجدد وهذا التجدد اضافة اليه طابع الحداثة والتميز وأصبح لكل عصر لغة خاصة تترجم الجودة الى واقع عمل ملموس مما جعل المنظمات تتسابق لتطبيق هذا المفهوم لتحقيق المزايا التي تؤهلها لبلوغ الحالات المثلى في الانتاج والتسويق.. الخ لأجل خدمة المستهلك الخارجي والداخلي والبحث المستمر والدائم عن كيفية اشباع هذه الحاجات

وهذه الحاجات الخارجية لابد وان يكون هنالك مترجم بارع في ايصالها للمستهلك الخارجي الا وهو المستهلك الداخلي (الافراد العاملين) لذا هنالك اهمية كبيرة جداً للبناء التحتي او ما يطلق عليه الاسمنت الاجتماعي للمنظمة ان صح التعبير الا وهو الثقافة التنظيمية. وهنا ما سيتم التطرق اليه في مباحث هذه الدراسة.

المبحث الاول
منهجية الدراسة

١-الاهمية

٢-المشكلة

٣-الهدف

٤-فرضية الدراسة

٥-عينة الدراسة

١- الاهمية:

باتت ادارة الجودة الشغل الشاغل لأغلب المنظمات الانتاجية والخدمية على حد سواء واصبح لكل منظمة خطة عمل خاصة بها في كيفية تطبيق هذا المفهوم وقد تواجه معارضة ورفض او تشجيع وقبول من قبل الافراد العاملين. ولكن قبل التطرق لتطبيق هذا الموضوع الحيوي والمهم، لابد من اجراء بعض التغييرات والتعديلات في البيئة الداخلية لكي تتلاءم وتتوافق مع المتغيرات الخارجية وأساليب تطبيق مفهوم الجودة الشاملة حيث لكل منظمة ثقافتها الخاصة بها، ولهذه المفردة اهمية كبيرة في تطبيق ادارة الجودة الشاملة وذلك من منطلق (الجودة مسؤولية الجميع)، حيث في الوقت الحالي اصبحت المنظمات تناشد العولمة وتوحيد الثقافة الدولية لأن المنظمات العملاقة تتعامل مع مزيج

غير متجانس من الافراد العاملين، فلابد ان توائم بين هؤلاء الافراد باعتبارهم حلقة متكاملة. من خلال ما تقدم تتبع اهمية لحثنا من الآتي:

بحثنا الاتي:

١- ابراز الدور الثقافي الذي يلعبه في المنظمات لأجل تبني وتغير الثقافة المنظمية مع ما يلائمه من سلوكيات معينة للافراد.

٢- التركيز على المستهلك الداخلي باعتباره القوة الداخلية التي سيتم اجراء التغيرات عليها.

٣- التركيز على اهم التغيرات الهيكلية والنفسية التي ستولدها عمليات التغير الثقافي.

٤- ابراز اهم المقاييس التي من الممكن استخدامها في هذا المجال.

لذا على المنظمات ان تنمي وتقرب بين العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية التي من شأنها ان تقوي الصلات فيما بين الافراد وتوحيد وتغير سلوكياتهم الى سلوك جديد وهذا بدوره يسمى ((بالتغير الثقافي)، لذا لابد من قياس ثقافة الجودة لهؤلاء الافراد العاملين ومن هذا المنطلق برزت الاهمية للثقافة وكيفية قياسها باستخدام مقياس ((روكيه)) والذي استخدم منذ ثلاثة عقود في الدراسات التسويقية الخاصة بسلوك المستهلك.

٢- مشكلة الدراسة:

ويمكن توضيح ابعاد المشكلة من خلال الاجابة على التساؤلات الآتية:

- هل هنالك تفهم واضح لثقافة الجودة من قبل العاملين؟
- هل هنالك تفهم واضح في كيفية قياس الجودة؟
- هل هنالك دور مؤثر للثقافة في الجودة؟

٣- هدف الدراسة:

من خلال ما تقدم من اهمية وهدف الدراسة تنبثق مجموعة من الاهداف

التي لابد من تحقيقها وهي:

١-تهدف هذه الدراسة الى بيان كيفية قياس ثقافة الجودة وذلك عن طريق استخدام مقياس روكيه.

٢-تفهم التغير الثقافي من قبل الافراد العاملين وكيفية خلق التعاون المشترك لأجل انجاح التغير الثقافي الخاص بالجودة.

٣-توضيح ابعاد ومفاهيم ومضامين الثقافة وأثرها في تبني ادارة الجودة الشاملة.

٤-معرفة الاهداف النهائية للافراد العاملين وما هي الوسائل والأساليب التي سيتم استخدامها لتحقيق تلك الاهداف.

٥-تصميم نموذج مقترح لتطبيق ثقافة الجودة.

٤- فرضية الدراسة:

من خلال اهداف الدراسة تنبثق الفرضية الرئيسية والقائلة ((هنالك علاقة ارتباط بين الاساليب والوسائل العملية لقياس ثقافة الجودة والاهداف النهائية للافراد العاملين)).

٥- عينة الدراسة:

تم اختيار الشركة العامة لصناعة الاسمنت (معمل اسمنت الكوفة)) وذلك للاسباب الآتية:

١-يعد هذا المعمل من اهم معامل الشركة العامة للاسمنت وذلك بسبب حجم الانتاج الهائل الذي ينتجه سنوياً.

٢-هنالك خطة لتطبيق انظمة الجودة في هذا المعمل مما سهل عمل الباحث فيه.

٣-ضخامة عدد الافراد العاملين في هذا المعمل وبالتالي تعقد وتغير تقاليدهم وعاداتهم.

٤-تعدد خطوطه الانتاجية الخاصة بالاسمنت العادي والمقاوم والاسمنت الفل.

٥-يعد الارض الخصبة لهكذا دراسات.

حيث تم اختيار عينة من الأفراد العاملين والبالغ عددهم ((١١٣)) عاملاً في المعمل في مختلف الاختصاصات والأقسام داخل المعمل ووزعت عليهم استمارة الاستبيان وهي كما موضحة في الجدول الآتي:

جدول (رقم (١): عدد الاستثمارات الموزعة

عدد الاستمارات الموزعة	عدد الاستمارات المسترجعة	المهملة	النهائية
١١٣	١٠٨	٨	١٠٠

وكما هو واضح من خلال الجدول في اعلاه، حيث تم توزيع (١١٣) استمارة استبيان المسترجع منها (١٠٨) وأهملت (٨ استمارة) لعدم الاجابة لبعض محاور الاستمارة وبالتالي كانت الحصيلة النهائية للاستمارات هي (١٠٠) استمارة التي سيتم تحليلها لاحقاً.

٦- اسلوب جمع المعلومات والبيانات:

تم الاعتماد على المصادر العربية والأجنبية وكذلك على المقابلات الشخصية التي تم اجراؤها والسجلات والوثائق داخل المعمل قيد الدرس.

المبحث الثاني
الجانب النظري

أولاً: مفهوم ثقافة الجودة:

قبل التطرق الى مفهوم ثقافة الجودة لابد من الاشارة الى الثقافة وبصورة عامة حيث تتكون الثقافة حسب مفهوم علماء الانسنة من كافة الانماط السلوكية الظاهرة والضمنية المكتسبة والمنقولة الى افراد المجتمع بواسطة الرموز التي تمثل منجزات الجماعات الانسانية بضمنها الانجازات الصناعية لأفراد المجتمع ((داعز وصالح، ٤٨٤، ٢٠٠٠)) لذا تتكون الثقافة المنظمية من:

أ- الثقافة المادية: وهي تمثل جميع ما انتجه الانسان صناعياً.

ب- الثقافة المعنوية: ويشير هذا الجزء الى كافة المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد والرموز السائدة بين اعضاء المنظمة والتي لا يمكن تجسيدها مادياً (داغر وصالح، ٤٨٧، ٢٠٠٠).

وبناءً على ما تقدم تمحورت تصنيفات الباحثين للثقافة في:

١- تصنيف (Handy): حيث صنف الثقافة الى اربع مجاميع وكل واحدة تختلف عن الاخرى بخصائص معينة، وهي كما موضحة بالشكل الاتي:

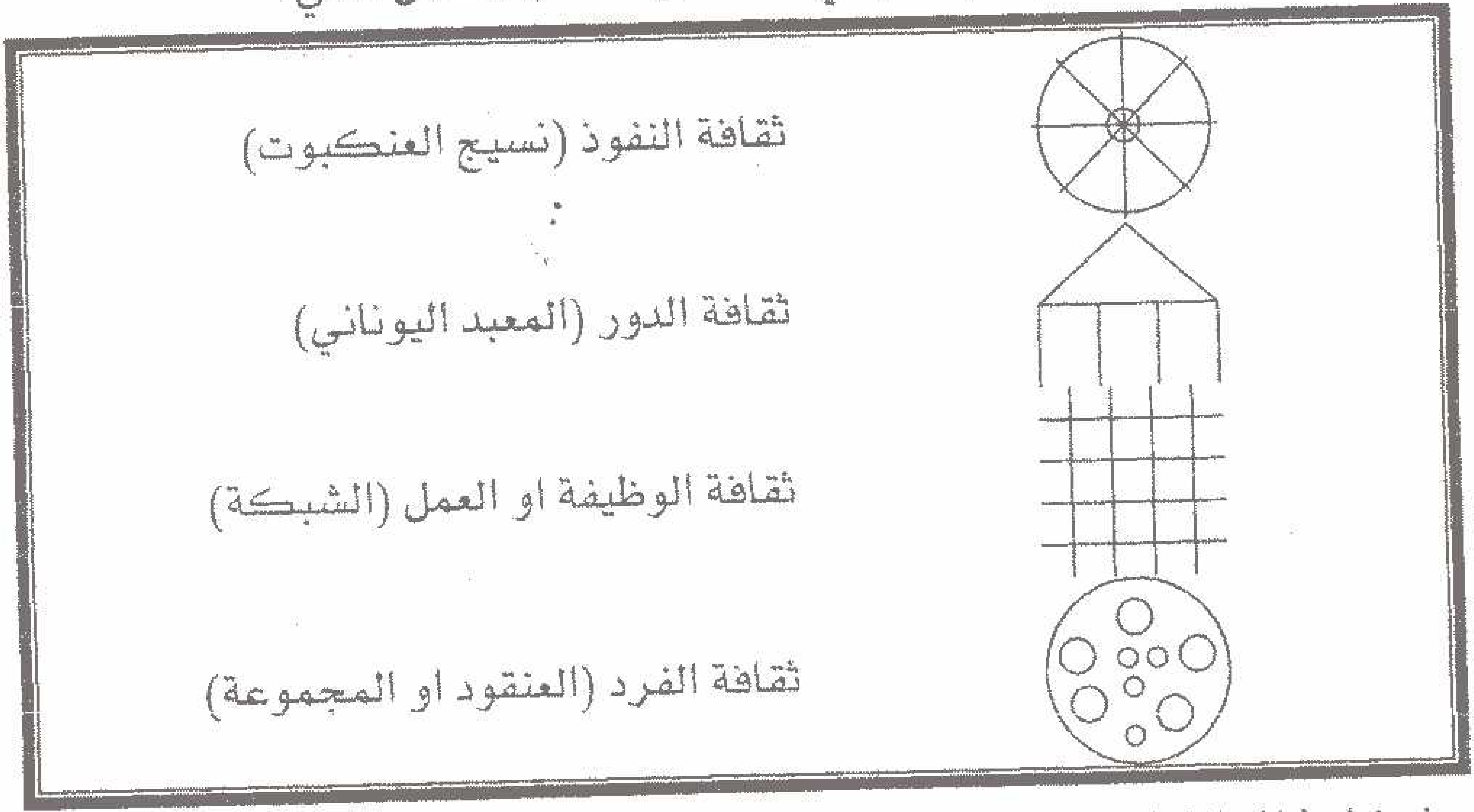

شكل (١): الثقافات التنظيمية الاربع التي اقترحها Handy

وهنالك مجموعة تصانيف اخرى لباحثين كثر ولكن سيتمُ تركيزنا وبشكل مختصر على الثقافات الاربع هذه.

١- ثقافة النفوذ او القوة (The power culture):

وقد وصفها Handy بأن هذه الثقافة هي اشبه بنسيج العنكبوت حيث تكون المسؤولية محصورة في اعضاء محدودين وتركز القوة والنفوذ في عدد محدد من الافراد وان قدرة ثقافة النفوذ على التكيف مع التغيرات البيئية يتحدد الى حد بعيد بادراك وقوة من يشغل اماكن النفوذ داخل المنظمة.

وفيما اذا تم تطبيق هذه الثقافة في المنظمة المبحوثة حيث ان التغير الخاص بالجودة واستمالة الافراد لتقبل موضوع الجودة وملاءمة عاداتهم وقيمهم مع هذا التوجه ستنحصر مسؤولية التغير هذه على عاتق اناس محدودين وقد يكونوا ضمن الهرم التنظيمي كمدير المنظمة ومراكز القوى او جماعات العمل غير الرسمية وبالتالي لابد من اقناع هؤلاء الافراد عند تطبيق الجودة وهم بدورهم سيقومون بعمليات الاقناع للافراد الباقين.

٢- ثقافة الدور (The role culture):

وغالباً ما تشبه هذه الثقافة الدور البيروقراطي في شكلها الحقيقي وتكون اشبه بالمعبد اليوناني مكان اتخاذ القرار وتكون اعمدة المعبد مكان اتخاذ القرار.

في هذه الحالة ستكون عملية تطبيق ثقافة الجودة محصورة بمدى ادراك ووعي الادارة العليا حيث هذه الادارة تمثل القوة والبيروقراطية في قراراتها وبالتالي اذا اقتنعت بالجودة سيتم تعميمها على باقي الافراد العاملين لأنها تستخدم الحزم في تنفيذ القرارات الخاصة بثقافة الجودة.

٣- ثقافة الوظيفة او العمل (The task culture):

تعتبر هذه الثقافة مهمة للمنظمات التي تتسم بالأنشطة البحثية والتطوير وهذه المنظمات تكون اكثر ديناميكية وتكون معرضة باستمرار للتغير وتضطر الى ايجاد فرق وظيفية مؤقتة لمواجهة التحديات المستقبلية.

من الممكن ان تكون هذه الثقافة اقرب الى تطبيق ثقافة الجودة لأنها تتقبل جميع التغييرات الطارئة في البيئة الخارجية والداخلية وبالتالي سيكون الافراد العاملين دائماً مهيئين لاستقبال التغيرات لأنها تعود على نمط ثابت من التغيرات وبالتالي أي تغير سيحدث لا يشكل بالنسبة اليهم مفاجأة او عدم تقبل.

٤- ثقافة الفرد (The person culture):

تعتبر ثقافة الجودة بمثابة خاصية مميزة لنموذج الادارة الواعي حيث نجد ان الافراد داخل الهيكل التنظيمي يحددون بشكل جماعي الطريق الذي ستسير فيه المنظمة (تكنسون، ١٣٧، ١٩٩٦).

نعم قد تعطي هذه الثقافة الحرية للافراد في اخيار الافضل والانسب لتطبيق أي تغير وبالتالي ينفذون ما يرونه ملائماً وهذا من الممكن ان يضع المنظمة في مشكلة مستقبلية عند توحد الافراد العاملين وعدم تطبيق تغير جديد.

لذا من الممكن ان تكون هنالك ثقافة مبتكرة وجديدة يسعى الباحث لاستخدامها عند تطبيق ثقافة الجودة وهي:

٥- الثقافة المتنوعة (ثقافة المزيج) (mex culture):

اي من الممكن استخدام اكثر من تصنيف لثقافة في آن واحد وحصر مجموعات الافراد وفق ثقافات معينة وايجاد خيط ربط بين هذه الثقافة التي ستقود في النهاية الى تحقيق الهدف المطلوب من خلال استخدام ايجابيات جميع انواع الثقافة وترك السلبيات والخروج بنموذج جديد ديناميكي متحرك لتطبيق ثقافة الجودة ويلائم المرحلة الانية ويتغير في المرحلة المستقبلية بسبب التغيرات الحاصلة في البنية الداخلية والخارجية وتغير مواقف الافراد سلبياً او ايجابياً ويمكن توضيح ذلك في الشكل الآتي الذي يعد مقترحاً يمكن تطبيقه في جميع المنظمات الانتاجية والخدمية ويمكن ان نسميه بأنموذج تطبيق ثقافة الجودة الذي يعد خطوة اساسية ومبتكرة لتطبيق ثقافة الجودة.

انموذج تطبيق ثقافة الجودة

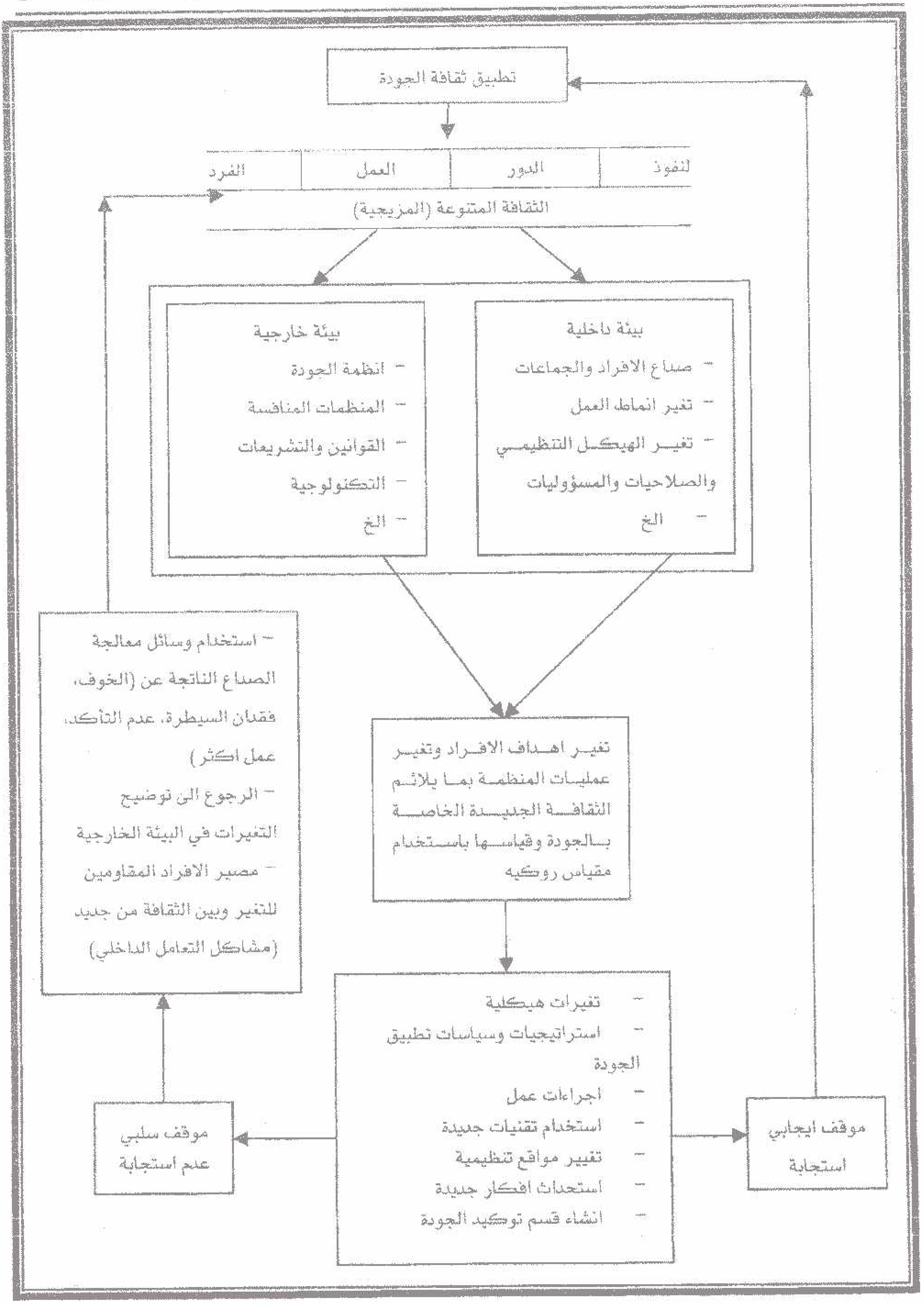

الشكل من اعداد الباحث

ومن خلال الشكل السابق الذي يوضح لنا عملية تطبيق ثقافة الجودة في المنظمات حيث لابد من الاعتماد على الخطوات الآتية:

١-معرفة انواع الثقافات النظرية وأي ثقافة ستلائم المنظمة المبحوثة التي يمكن تطبيقها او الاخذ بمجموعة ثقافات والوقوف على الايجابيات الخاصة بها والابتعاد عن السلبيات عند التطبيق.

٢-تحليل للبيئة الداخلية والتي تشتمل على:

أ- تقريب وجهات النظر عند الافراد بخصوص العمل الذي سيتم الاتيان به او تغيره.

ب- تقليل حدة الصراع بين الافراد والجماعات واستخدام الوسائل المتعارف عليها عند حل الصراع.

ج-تغير انماط العمل التي ستلائم التغير الجديد وبما يلائم الثقافة الجديدة.

د- تغير الهيكل التنظيمي وإعادة ترتيب الصلاحيات والمسؤوليات من جديد،

ه- اعادة هندسة العمليات الانتاجية وترتيب الافراد حسب مواقعهم الجديدة بحيث لا تتعارض مع حقوقهم والامتيازات الممنوحة اليهم سابقاً.

٣-تحليل البيئة الخارجية والتي تشمل على:

أ- تهيئة المنظمة لاستقبال انظمة الجودة الجديدة.

ب- مواكبة المنظمات المنافسة في هذا المجال ومحاولة التميز عليها من خلال متغير الثقافة الخاصة بالجودة.

ج-التغير يجب ان لا يتعارض مع القوانين والتشريعات وخاصة البيئية منها.

د- استخدام الطرق التكنولوجية الحديثة ان امكن في عمليات التغير.

ه- استخدام أي متغير بيئي خارجي آخر من الممكن ان يؤثر على عملية التغير الثقافي الخاص بالجودة.

٤-المزج بين المتغيرات البيئية الداخلية والخارجية وذلك لأجل الوصول الى النقطة الخامسة.

٥- تغير اهداف الافراد وميولهم واتجاهاتهم وتغير عمليات المنظمة بما يلائم الثقافة الجديدة باستخدام شتى الوسائل والأساليب التي تراها مناسبة ويستنتج من هذه النقطة الاجراء الاتي.

٦- ونتيجة للنقطة في اعلاه سيتم اتخاذ ما يلي:

أ- تغيرات هيكلية ملائمة.

ب- استراتيجيات وسياسات جديدة لتطبيق الجودة.

ج- اجراءات عمل.

د- استخدام تقنيات جديدة.

ه- تغير مواقع تنظيمية.

و- استحداث افكار جديدة.

ز- انشاء قسم متخصص بذلك.

وينتج عن هذه نقطتان اساسيتان هما:

٧- موقف ايجابي وقبول التغير والذي سيقود بالنهاية الى تطبيق النموذج.

٨- موقف سلبي ويعني عدم استجابة وبالتالي سيتم استخدام الآتي:

أ- استخدام وسائل معينة لحل الصراع الناتج عن (الخوف، فقدان السيطرة، عدم التأكد، عمل اكثر)، ومحاولة الشرح والإيضاح لفوائد التطبيق الجديد.

ب- الرجوع الى توضيح المتغيرات البيئية الخارجية.

ج- حصر الافراد المقاومين ومحاولة اقناعهم على التغير الجديد.

د- بث الوعي الثقافي من خلال الندوات والمزايا التي سيحققها التغير الجديد اذا تم تطبيقه.

٩- الرجوع الى امكانية تطبيق انواع جديدة من الثقافة والبدء من جديد.

ثقافة الجودة:

مما سبق يتضح ان لكل منظمة ثقافة خاصة بها التي تتكون من مجموعة

القيم والتقاليد، وتم اقتراح انموذج تطبيق ثقافة الجودة ولابد من اعتماد الثقافة المتنوعة او المزيجية لذا لابد من اعطاء تعريف لإدارة الجودة والذي ينص على انها ((نظام فاعل ومتكامل لتطوير الجودة باستخدام عمليات التحسين المستمر لها وكمجموعات مختلفة في أي منظمة وذلك لأجل تقديم السلع والخدمات التي تحقق الرضا الكامل للزبون (Heizer & Render, ١٩٩٩, ٧٦١).

ومن التعريف السابق يتضح لنا بأن ادارة الجودة هي عملية متكاملة داخلياً وخارجياً. داخلياً هي التوافق بين الافراد والادارة أي تطابق وموائمة الثقافة داخلياً وخارجياً أي هي عملية الاهتمام بالزبون وجعل الثقافة الداخلية هدفها الاساسي هي كيفية تحقيق رضا المستهلك الخارجي عن طريق تقديم المنتجات بالجودة العالية وتخضع هذه العملية لقانون التحسين المستمر الذي يأخذ بنظر الاعتبار جميع التغيرات البيئية وإدخالها الى القاعة الانتاجية وبالتالي لابد من تفهم واضح لثقافة الجودة وبث افكارها. ان التطبيق لثقافة الجودة عادة ما يتطلب جهداً كبيراً فيما يتعلق بتغير ثقافة المنظمة وخلق الثقافة المناسبة لتطبيق ادارة الجودة الشاملة، هذا التغير يتضمن الطريقة التي يدير بها الافراد علاقاتهم فيما بين بعضهم البعض الآخر والإجراءات التي ينفذون بها اعمالهم (هيجان، ٤٣٢، ١٩٩٤)، لذا اهم شيء يجب لفت الانتباه اليه هو معرفة مدى مساندة ثقافة المنظمة بما تحويه من علاقات بين المستويات المختلفة وسياسات العمل وإجراءات توظيف الافراد بتطبيق ادارة الجودة الشاملة ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي:

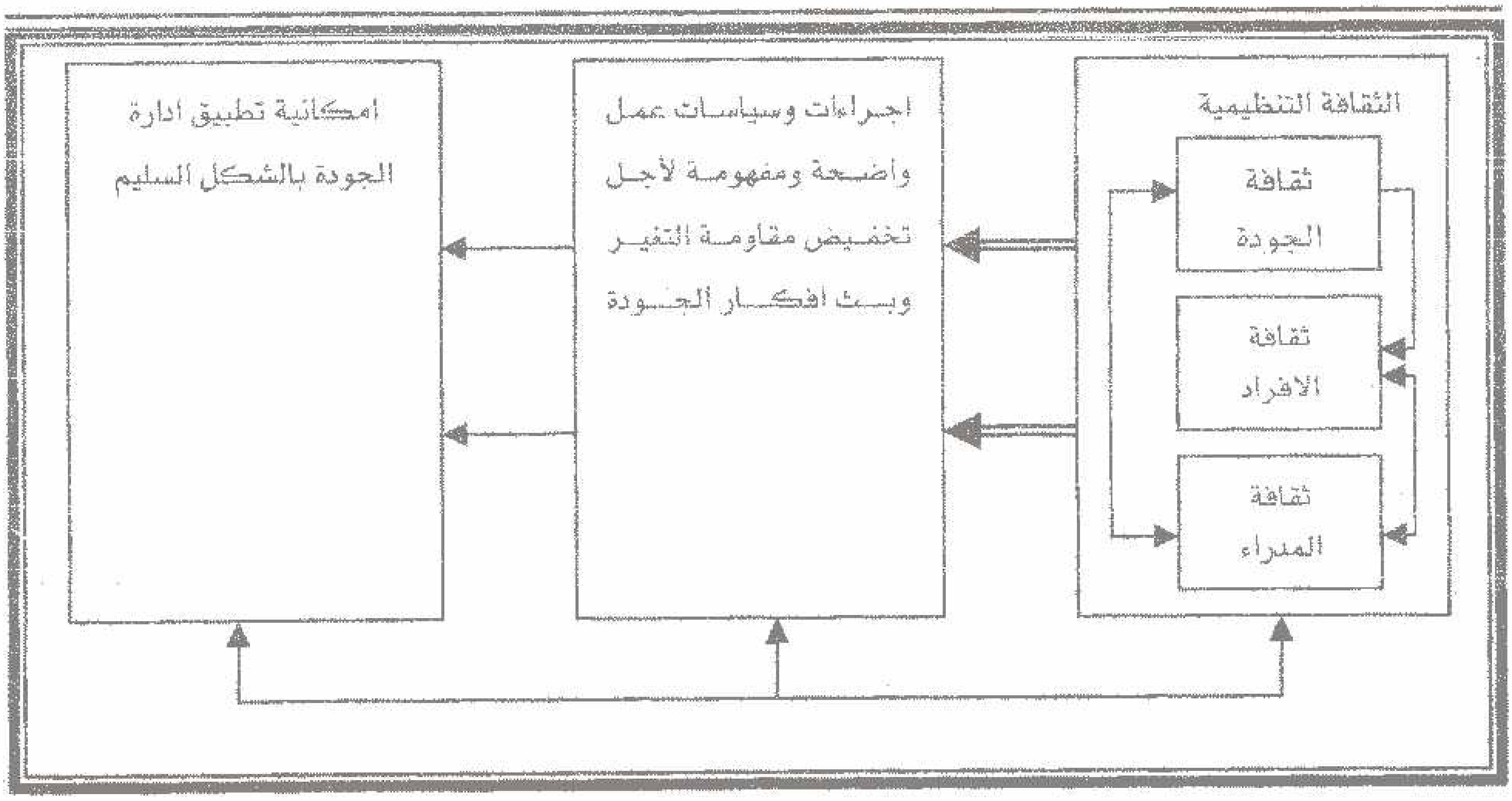

شكل (٣): دور الثقافة في تطبيق ادارة الجودة
(الشكل من اعداد الباحث)

ومن خلال الشكل اعلاه نلاحظ وجود ثلاث ثقافات اساسية وهي ثقافة الجودة وثقافة الافراد وثقافة الادارة، اذ لابد من توحيد هذه الثقافات وترجمتها لصيغ عمل وسياسات واضحة ومفهومة لأجل تقليل المقاومة وبث ثقافة الجودة وبالتالي ستسهل تطبيق ادارة الجودة الشاملة الهدف النهائي.

في حين يرى (Karjwski) من التحديات الاساسية لإدارة الجودة هو كيفية غرس الوعي بأهمية الجودة لدى جميع الموظفين وهذا سينعكس حتى على تحسين جودة المنتج من قبل العاملين وهذا يتطلب تغير ثقافة العمال في المنظمة ولابد ان يرتبط التغير بالمستويات الادارية العليا (Karjwski, ١٩٩٦, ١٤٤) وهذا الشعور اصبح واضحاً على يد (Taylor)، حيث ركز على دور الادارة العليا في قيادة الجهود الشاملة باتجاه ضمان الجودة المطلوبة وان كل العاملين مسؤولين عن التحسين المستمر للجودة حيث الجودة تعد نقطة التركيز الاساسية لكافة الوظائف والوحدات في المؤسسة (Russel & Taylor, ١٩٩٥, ١٩٣).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا بأن الثقافة هي مسؤولية الادارة العليا في كيفية بثها ونشرها في المنظمة ويجب ان تسبق عملية الجودة بحيث في المرحلة الاولى تبث جميع الافكار والعادات والتقاليد والتغيرات الخاصة بإدارة الجودة وذلك لأجل تقبلها من الافراد العاملين وهذا الدور يكون مخططاً وبصورة شمولية وتوجيههم لتحمل مسؤوليات جديدة نتيجة التغير في الجودة وتخفيض حدة مقاومة التغيرات الحاصلة في مجال الجودة اذن يمكن القول بأن الثقافة هي القاعدة الخرسانية التي تبنى عليها قواعد ادارة الجودة الشاملة وكلما كانت هذه القاعدة قوية ومتينة حتماً قاد المنظمة للنجاح في تطبيق هذا المفهوم ومن هذا المنطلق وضع (Karjwski) بصماته الأساسية في هذا المجال حيث تطرق الى (الجودة هي مسؤولية الجميع ويجب أن تكون هنالك مشاركة من قبل جميع الأطراف في المنظمة وخاصة الأيدي العاملة الذي يصنعون المنتج وإجراء التحسينات اللازمة على المنتج وان أهم التحديات الرئيسة في انشاء الثقافة المناسبة للجودة هو تعريف الزبون الداخلي والخارجي (Karjwski, ١٩٩٦. ١٤٤) من خلال ما تقدم يتطلب تطبيق ادارة الجودة الشاملة تغير الثقافة التنظيمية القديمة بثقافة جديدة واعية وقادرة على احداث التكامل الداخلي (interned integrate) للأنماط السلوكية بين الجماعات والأفراد أي لدى جميع الأفراد في المنظمة هذا التكامل يوحد الأنماط ويوجهها نحو تحقق رسالتها فغياب ثقافة الجودة يجعل كل متخذ قرار وكل فرد عامل يتصرف حسب قيمه وعاداته وقناعاته الخاصة أو القديمة وبوجه عام يمكن تلخيص قواعد الثقافة التي تخدم الجودة الشاملة بالآتي:

أ) جعل ثقافة الجودة لغة الحديث والعمل والسلوك داخل المنظمة.

ب)ربط الجماعات والأفراد داخل المنظمة بعضها مع البعض لتحقيق رسالة المنظمة.

ج) تنمية روابط الجودة بين العاملين وذلك من خلال اعتناق الجميع لقيم

ومعتقدات تنظيمية موحدة فيما يخص ثقافة الجودة.

د) تحقيق رسالة المنظمة الجديدة بفاعليه كبيرة.

ه) تسهيل عملية الاتصال داخل المنظمة.

و) جعل عملية اتخاذ القرار الخاص بالجودة أكثر كفاءة.

وكما سبق ذكره كلما كانت الثقافة قوية ومتماسكة كلما تحققت أهداف المنظمة وهذا ما نراه بالشكل الآتي:

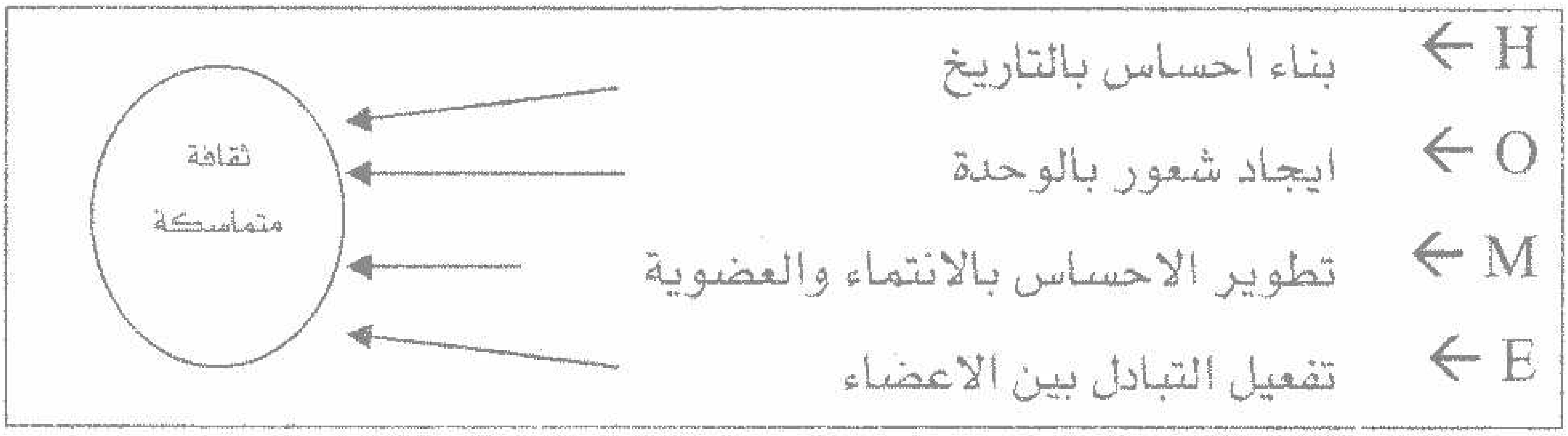

شكل (٤): الثقافة المتماسكة

المصدر: حسن حريم، ١٩٧٠، ٤٥٣.

وهذا ما أكد عليه الكاتب حريم ((واعتبر المنظمة القوية اشبه بالعائلة المتماسكة التي تعمل بجد لتحقيق اهدافها ومن ضمنها الجودة لذا لو نجمع الحروف السابقة لتكونت الكلمة الآتية (Home) وتعني العائلة او الوطن.

ثالثاً: استراتيجيات تطبيق ادارة الجودة الشاملة:

ولأجل تأسيس ثقافة الجودة لابد من تطبيق مجموعة من الاستراتيجيات التي تستند عليها المنظمات للتحول الى ثقافة الجودة وهي:

١- التعرف على التغير المطلوب:

ان ثقافة المنظمة تكشف تصرفات الافراد داخلها وكيفية استجابتهم للمشاكل وتعاملهم مع بعضهم البعض، ولأجل تكوين ثقافة الجودة لابد من

توافر الخصائص التالية:

أ- نظام اتصالات مفتوح.

ب- مشاركة متبادلة بين الافراد.

ج-الاعتماد على فريق العمل في التعامل مع المشاكل والعمليات.

د- تشجيع التحسين المستمر.

ه- اشراك الموظفين وتفويضهم الصلاحيات.

و- الاهتمام بكيفية الحصول على تقوية مرتجعة من الزبائن.

٢- كتابة التغيرات المطلوبة:

للتعرف على التحسينات التي يجب عملها لابد من تقييم شامل للثقافة الموجودة في المؤسسة ولابد من عمل قائمة بهذه التغيرات.

٣- تطوير خطة لتنفيذ المتغيرات المطلوبة بحيث تكشف هذه الخطة عن الامور الآتية:

أ- من الذي سيتأثر بعملية التغير؟ ومن الذي يجب ان يشترك في عملية التغير من اجل انجاحها ومن المحتمل ان يتحدى هذا التغير؟

ب- ما هي المهام التي يجب انجازها؟ وما هي العوائق المحتملة وما هي العمليات والاجراءات التي من المحتمل ان تتأثر بالتغير.

ج- متى يجب تنفيذ التغير ومتى يجب قياس التقدم الذي تم انجازه؟ومتى يجب انجاز المهام التي تتعلق بالتغير المطلوب؟ واين هي العمليات التي تتأثر بهذا التغير؟

د- اين سيتم احداث التغير المطلوب؟ واين هي العمليات التي ستتأثر بهذا التغير.

هـ- كيف سيتم عمل التغير المطلوب وكيف سيتأثر به الناس والعمليات وكيف سيعمل التغير على تحسين الجودة والانتاجية والميزة التنافسية.

٤- أهمية عملية التحويل من ناحية معنوية:

لابد لمؤيدي عملية التغير من ان يلعبوا دوراً اساسياً في تطبيقه وان النجاح في عملية التطبيق تعتمد الى حد كبير على نجاح هؤلاء المؤيدين في لعب ادوارهم ومن الضروري فهم المراحل المعنوية التي سيمر بها الافراد في المنظمة عندما يتقبلون التعامل مع التغير الجديد وهذه المراحل هي ((الصدمة، عدم التصديق، الادراك، الحقيقة، التقبل، اعادة البناء، التفهم والاسترداد)).

٥- التعرف على الافراد الذين لهم دور اساسي في المنظمة وبامكان هؤلاء الافراد تسهيل عملية التغير او اعاقتها، ومن ثم جمعهم وإطلاعهم على خطة التغير ومعرفة ادائهم واهتماماتهم في عملية التغير ومن ثم التعامل الشخصي في استعمال الاسلوب المناسب في الترغيب والترهيب لتحويل معارضي التغير الى مؤدين له (ناجي، ١٩٩٨، ٣٩) (Goetech & devis, ١٩٩٧, ١٤٨-١٤٩) (ابو نبعة وسعد، ١٩٩٨، ٨٣).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا بأن هنالك مجموعة من الاستراتيجيات المهمة في تغير ثقافة الجودة والتي ستبدأ بوضع خطة للتغير وتنتهي بكيفية تحسين مستوى الافراد الذي تأثروا بعملية التغير واغلب الافراد العاملين يقاومون التغير لذلك يرى (Philipe) أن الناس يقاومون التغير للاسباب التالية:

أ- الخوف: يجلب التغير معه شيئاً غير معروف والناس يخافون من التغير لأنه غير معروف لديهم.

ب- فقدان السيطرة: قد يؤدي التغير الى عدم السيطرة على اعمالهم او حياتهم او تقليل او تكبير مساحات مسؤوليتهم.

ج- عدم التأكد: ان التغير يجلب للناس عدم معرفة المجهول وبالتالي عدم التأكد قد يكون التغير يقودهم نحو الاسوأ.

د- عمل اكثر: التغير في بعض الاحيان يعني عمل اكثر وكبير.

اما Joseph. M لقد وضع استراتيجيات معينة لمعاملة الافراد الذين يقاومون التغير هي:

أ- اشراك المقاومين: هنا يتم اشراك الافراد المقاومين لعملية التغير الخاص بالجودة واعطائه حق الملكية في التعبير.

ب- تجنب المفاجآت.

ج-تحرك بسيط عند البداية.

د- ابدأ صغيراً وكن مرناً.

(Geotech & divis, ١٩٩٧, ١٥٠)

رابعاً: دور الثقافة في تحقيق اهداف الجودة:

ولتفعيل دور الثقافة في تحقيق اهداف الجودة فلابد من توضيحها وشرحها لجميع الافراد العاملين في المنظمة ليكونوا ملمين بها بعمق ومفهومة ومساعدتهم على تطبيقها والالتزام بها عند ادائهم اعمالهم. وهذه مسؤولية القيادات الادارية في المنظمة ويمكن توضيحها من خلال النقاط الآتية:

١- رسالة المنظمة هي غاية ويسعى الجميع لتحقيقها، فالمنظمة هي مستقبل كل من يعمل فيها، فنجاحها يعني نجاح الجميع.

٢- تقديم كل النفع والاحترام للعملاء.

٣- الكمال في الانجاز والمسؤولية.

٤- التميز هدف استراتيجي.

٥- الولاء والانتماء والإخلاص والأمانة في العمل السبيل الوحيد لتحقيق هدف المنظمة.

٦- توفير المعاملة الانسانية واحترام الآخرين والصدق في التعامل معهم.

٧- تنمية الرقابة لذاتية والإحساس بالمسؤولية.

٨- النظر لكل من يعمل في المنظمة عل ان لديه القابلية للابتكار والإبداع.

٩- اتخاذ القرارات الجماعية.

١٠-تنمية اعلاقات غير الرسمية بين الجميع. ((عقيلي، ٢٠٠١، ١٨٦))

خامساً: المشاكل المؤثرة في الثقافة:

هنالك مجموعة من المشاكل التي تؤثر على الثقافة حيث قسمها (داغر وصالح) الى مجموعتين اساسيتين، وهي المشاكل الداخلية والمشاكل الخارجية:

١- المشاكل الخارجية او مشاكل التكييف الخارجي والبقاء وتتضمن:

أ. الرسالة.

ب. الاستراتيجية.

ج. الاهداف.

د. الوسائل.

ه. القياس.

و. التصحيح.

٢- مشاكل التكامل الداخلي والمتعلقة بالآتي:

أ. اللغة والمفاهيم المشتركة.

ب. تعيين حدود الجماعة.

ج. القوة والمكانة.

د. الالفة والصداقة.

ه. المكافآت والعقوبات (داغر وصالح، ٢٠٠٠، ٤٨٩)

من خلال ما سبق توضيحه بخصوص مؤثرات الثقافة الداخلية والخارجية لذا عند التحويل الى ثقافة الجودة لابد من مراعاة جميع المؤثرات وكيفية العمل على تطويعها لصالح المنظمة وهذا ما اكد عليه (Karjwski) اذ قال لابد من اخذ جميع المؤثرات والتحديات الداخلية ولخارجية حيث الاولى خاصة بالتعامل

مع الأفراد العاملين بعضهم مع البعض من حيث المودة والألفة والمحبة والمفاهيم المشتركة فيما بينهم. أما الثانية فهي توجيه رسالة واستراتيجية المنظمة لخدمة الزبون الخارجي.

ويمكن توضيح ذلك من خلال الشكل الآتي والذي يركّز على أحداث تغيرات في ثقافة الجودة وأخلاقيّات العمل والهيكل التنظيمي والتي لدورها يستحق التكامل الداخلي وهذا التكامل يعبّر عن انصهار الأفراد في بودقة واحدة والذي سينتج عنه حتماً زيادة في الرضا وزيادة في الإنتاجية وبالتالي تقليص الأخطاء والتلف وإنتاج منتجات تتسم بالجودة العالية التي ستحافظ على بقاء واستمرار هذه المنظمة او تلك.

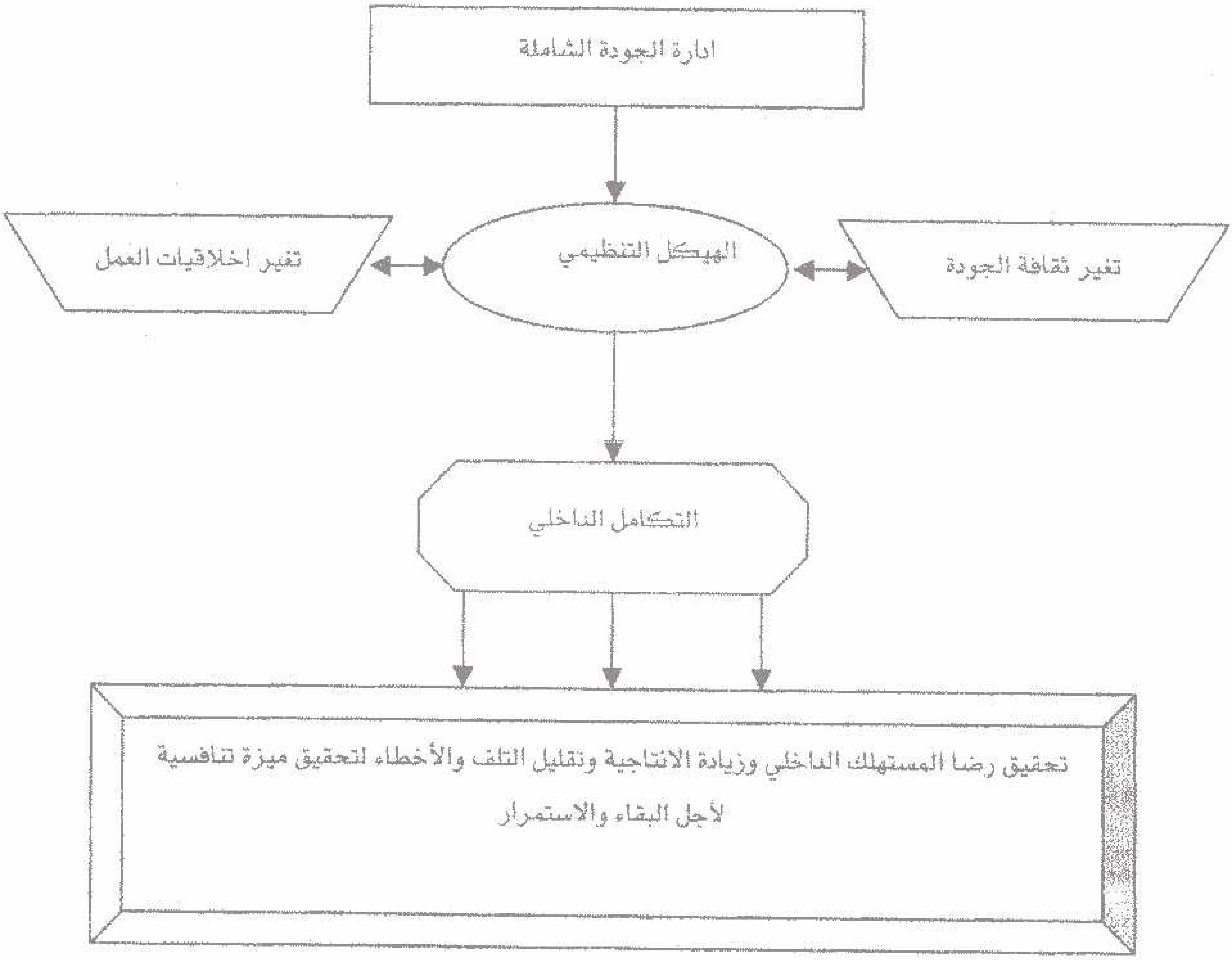

الشكل (٥) تحقيق التكامل الداخلي عن طريق الجودة

(الشكل من اعداد الباحث)

سادساً: مقاييس الثقافة

هناك مجموعة متعددة من الأساليب التي يمكن استخدامها لقياس الثقافة مثل الأساليب الإسقاطية Technique projective والمستخدمة من قبل علماء النفس لدراسة الدوافع الشرطية ومقياس الاتجاهات هذه من الأساليب الممكن استخدامها أيضاً لقياس الثقافة إضافة إلى ذلك فإنَّ هنالك بعض الأساليب الأخرى المستخدمة في دراسة العوامل الثقافية ومنها.

١- الملاحظة الميدانية.

٢- تحليل المحتوى

٣- وسائل قياس القيم.

وسيتم التركيز في دراستنا هذه على وسائل قياس القيم حيث اعتاد الباحثون على مراقبة سلوك الأفراد في مجتمع ما واستخلاص بعض النتائج وخاصة فيما يتعلّق بالعوامل الثقافية كالعادات والقيم والأعراف وبالرغم من إنَّ البحث العلمي في مجال العلاقة بين قيم الأفراد وسلوكهم ما يزال في مراحله الأولى إلا أنه يلاقي اهتماماً كبيراً في الوقت الحالي. ومن أشهر وسائل قياس القيمة المستخدمة في قياس ثقافة الأفراد وتحديد سلوكهم هو مقياس روكيه.

مقياس روكيه **Rokeah Vaele**

تمّ الاعتماد في دراستنا هذه على هذا المقياس على الرغم من أنَّ هذه الدراسة تعد الأولى في هذا المجال حيث تمَّ تكييف هذا المقياس للعمل على قياس ثقافة الجودة وباعتبار الأفراد العاملين هم مستهلكين داخليين وتمَّ التعامل معهم على هذا الأساس حيث يتكوّن مقياس روكيه من استمارة تعتمد على التقرير الذاتي للأفراد العاملين (المستهلكين) وتتألف من جزأين رئيسيين يقيس كل جزء منها بعض القيم الشخصية المختلفة والمكمّل للجزء الآخر

(أنظر ملحق رقم (١) حيث يتألف الجزء الأول من (١٨) عنصراً خاص لقياس الأهداف القيّمة النهائية للفرد بينما يتألف الجزء الثاني من (١٨) عنصراً لقياس الوسائل أو الأساليب التي يمكن إتباعها لتحقيق هذه الأهداف وهكذا فإنّ الجزء الأول من الاستبيان يتعلّق بالوسائل حيث أنّ تحقيق الأهداف النهائية للمستهلك الداخلي ولأجل الحصول على جودة عالية في المنتجات فلابد من إتباع مجموعة من الأساليب العملية وكلّما توفّرت هذه الأساليب كلّما أدّى ذلك إلى تحقيق الهدف النهائي الذي ينشده الأفراد ألا وهو تحسين الجودة وبث ثقافة الجودة. ومن أوائل الدراسات التي استخدمت هذا المقياس هي دراسة سكوت وآخرون عام ١٩٧٣ لقياس العلاقة بين سلوك المستهلك وقيم المستهلك فيما يتعلّق بخصائص السيارات مثل الموديل والمتانة وجودتها. (عبيدات، ١٩٩٨، ٣٨٥)، (الغدير والساعد، ١٩٩٦، ٢٨٦).

المبحث الثالث

الجانب العملي

لقد تم اختيار معمل الاسمنت الواقع في النجف والمسمى بمعمل سمنت الكوفة، وتم اختياره للاسباب التي تم ذكرها في المبحث الاول لعينة الدراسة لما يتمتع به هذا المعمل من ضخامة حجم عدد الافراد وتنامي الطلب على صناعة الاسمنت وبدأ هذا المعمل يخطو خطوات جيدة لتطبيق مفاهيم الجودة وخاصة نظم الجودة، حيث تم تصميم استمارة استبيان خاصة لهذا الغرض (انظر ملحق رقم (١))، وانقسمت هذه الاستمارة الى ثلاثة محاور رئيسية، حيث تناول المحور الاول معلومات عامة، أما المحور الثاني تناول العوامل النهائية، أما المحور الاخير تطرق الى الأساليب العلمية كان المحوران الثاني والثالث يتكونان من مجموعة اسئلة والتي شملت (١٨) سؤالاً، وكان عدد الاستمارات المسترجعة (١٠٠) استمارة واستخدم البرنامج الاحصائي الجاهز (SPSS V١٠) لتحليل علاقة

الارتباط بين العوامل النهائية والأساليب العملية التي يتم تناولها بشيء من التفصيل لاحقاً.

المحور الاول: معلومات عامة:

حيث كان الغرض الاساسي للمحور الاول هو التعرف على طبيعة المستجيب من خلال الوظيفة التي يشغلها حيث كانت العينة المختارة مزيجاً متكاملاً يبدأ من رئيس قسم وحتى العامل العادي، وأيضا كانت المناصب مختلفة وانحصرت الشهادة بين الاعدادية والابتدائية والبكالوريوس والماجستير وأيضاً كان هنالك تفاوت في الراتب الشهري لكل موظف حسب طبيعة العمل المناط به واختلفت سنوات الخدمة للمستجيبين حيث كانت الخدمة تتراوح من ١-٢٥ سنة، واغلب المستجدين كانوا من الذكور.

حيث كانت نسبة الذكور (٨٥٪) و(١٥٪) اناث. وكانت العينة المختارة لجميع اقسام المعمل وذلك لأجل الوصول الى نتائج اكثر دقة وكان الهدف الاساس من المعلومات العامة هو الوقوف على الخلفيات العلمية للمجيب والخبرة في مجال عملهم لأجل التعرف على هذا المزيج المتنوع والتقرب اليهم ومعرفة ثقافاتهم على اختلافها لأجل التمهيد للمحور الثاني والثالث: وفيما يلي جدول (١) يوضح الانحراف المعياري والوسط الحسابي للاهداف النهائية والأساليب العملية.

جدول (٢): الانحراف المعياري والوسط الحسابي للاهداف النهائية والأساليب

	N	Minimum	Maximum	Mean	Std. Deviation
VAR٠٠٠٠١	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٣٠٠٠	١,٤٩٤١٠
VAR٠٠٠٠٢	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٧٥٠٠	١,٣٠٥٥٨
VAR٠٠٠٠٣	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٧٦٠٠	١,١٧٣١٠
VAR٠٠٠٠٤	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٦٤٠٠	١,٣٩٦٣٩
VAR٠٠٠٠٥	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٤١٠٠	١,٢٩٥٦٤
VAR٠٠٠٠٦	١٠٠	٢,٠٠	٥,٠٠	٤,٣٦٠٠	٠٨١٠٥٤

VAR٠٠٠٠٧	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٩٩٠٠	١,١٤١٤٦
VAR٠٠٠٠٨	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٣٠٠	٠,٩٤٣٤٠
VAR٠٠٠٠٩	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٤,٦٥٠٠	١,٢١٥٣١
VAR٠٠٠١٠	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٤٠٠	١,٠٦٠٩٧
VAR٠٠٠١١	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٦٦٠٠	١,٤٨٥٤٢
VAR٠٠٠١٢	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٥٩٠٠	١,٠٩٢٦٣
VAR٠٠٠١٣	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٤٢٠٠	١,٣٤٢٢٤
VAR٠٠٠١٤	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٢,٨٠٠٠	١,١٥٤٧٠
VAR٠٠٠١٥	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٤٦٠٠	١,١٩٢٧٤
VAR٠٠٠١٦	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٣١٠٠	١,٥٢٨٨١
VAR٠٠٠١٧	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٤,٠٠٠٠	٠,٩٤٢٨١
VAR٠٠٠١٨	١٠٠	٢,٠٠	٥,٠٠	٣,٩٥٠٠	١,١٢٢٥٤
VAR٠٠٠١٩	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٦٦٠٠	١,٣٧٩٦٥
VAR٠٠٠٢٠	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٧٠٠	١,٠٣١٣٨
VAR٠٠٠٢١	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٢٤٠٠	١,٣١٩٠١
VAR٠٠٠٢٢	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٧٢٠٠	١,١١٩٨٨
VAR٠٠٠٢٣	١٠٠	١,٠٠	٢,٠٠	٣,١٢٠٠	١,٤٤٦٥٢
VAR٠٠٠٢٤	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٣٧٠٠	١,٢٩٢٢١
VAR٠٠٠٢٥	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٤,٠٤٠٠	٠,٩٢٠٢٥
VAR٠٠٠٢٦	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٧٢٠٠	١,٣٣٣٩٤
VAR٠٠٠٢٧	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٩٠٠	١,٢٦٢٤٧
VAR٠٠٠٢٨	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٢٠٠	١,٣٣٦٢١
VAR٠٠٠٢٩	١٠٠	٣,٠٠	٥,٠٠	٤,٢٥٠٠	٠,٨٣٣٣٣
VAR٠٠٠٣٠	١٠٠	٣,٠٠	٥,٠٠	٤,٣٥٠٠	٠,٧٧٠٣٥
VAR٠٠٠٣١	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٦٦٠٠	١,٣٥٧٥١
VAR٠٠٠٣٢	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٨٥٠٠	١,٣٢٠٩٧
VAR٠٠٠٣٣	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٧٧٠٠	١,٢٣٧٩١
VAR٠٠٠٣٤	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٢٦٠٠	١,٤٣٢٨٠
VAR٠٠٠٣٥	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٠٣٠٠	١,٥٤٠٤٠

VAR٠٠٠٣٦	١٠٠	١,٠٠	٥,٠٠	٣,٠٧٠٠	١,٤٨٥٦٦
Valid N (list wise)	١٠٠				

كما هو واضح في الجدول اعلاه حيث يوضح لنا اعلى تكرار وأقل تكرار حصلت عليه الاسئلة الخاصة بالأهداف النهائية والأساليب العملية كما يوضح لنا الوسط الحسابي والانحراف المعياري لكل سؤال.

المحور الثاني:

تم صياغة (١٨) سؤالاً وحسب مقياس روكيه والمتعلق بالعوامل النهائية او الاهداف النهائية التي يمكن تحقيقها من خلال الأساليب العملية التي يمكن اتباعها لتحقيق الأهداف وبعد تفريغ التكرارات الخاصة باستمارات الاستبيان في البرنامج الجاهز SPSS V١٠ تم الحصول على البيانات الآتية والتي تمثل العلاقات البينية أي علاقة الارتباط البيني بين الاسئلة الخاصة بالأهداف النهائية وذلك لأجل الوقوف على اقوى علاقة ارتباط بين هذه الأهداف وهي موضحة كما في الجدول الآتي:

جدول (٣): علاقات الارتباط البيني للاهداف النهائية

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18
1	1																	
2	945	1																
3	941	950	1															
4	948	942	939	1														
5	959	933	929	959	.1													
6	811	821	835	856	849	1												
7	877	939	903	929	909	899	1											
8	882	839	912	866	892	794	819	1										
9	279	284	283	284	0.204	271	286	281	1									
10	935	948	959	922	930	819	899	901	289	1								
11	948	961	927	944	918	791	903	823	264	933	1							
12	868	855	876	882	933	910	909	872	315	875	816	1						
13	964	937	937	955	986	839	899	895	295	941	929	911	1					
14	937	898	941	901	926	758	834	905	265	922	885	863	935	1				
15	925	931	924	943	949	840	901	869	310	913	899	914	944	918	1			
16	976	930	926	952	960	781	870	877	271	921	941	851	970	928	924	1		
17	904	919	932	890	893	806	882	920	273	929	902	843	899	863	862	897	1	
18	937	908	942	955	924	842	875	860	273	918	935	856	933	904	908	421	859	1

ومن خلال الجدول السابق يتضح لنا بأن هنالك علاقات ارتباط قوية جداً مثلاً بين السؤال رقم (١) والسؤال رقم (١٣) والمتعلق بين التبني للجودة يحقق الرفاهية لي والتعامل مع المنتجات الجيدة يحقق الامن الاسري حيث حصلت على علاقة ارتباط ٠,٩٦٤ ، أما العلاقة القوية الاخرى بين السؤال الخامس والرابع والمتعلق بين المنتجات التي انتجها هي متكافئة من حيث الجودة وهنالك متسع من الحرية في اختيار طريقة انتاج المنتج الذي يحقق اعلى رضا لي حيث حصلت على علاقة ارتباط ٠,٩٥٩ . أما اقل علاقة ارتباط كانت من نصيب السؤال الخامس والتاسع والذي يتعلق هنالك متسع من الحرية في اختيار طريقة انتاج المنتج وتبني الجودة يبعث السرور والحياة الطبيعية. حيث حصل على علاقة ارتباط وكانت ٠,٢٠٤ وهكذا لباقي الأسئلة وحسب ما هو موضح في الجدول السابق حيث كانت جميع علاقات الارتباط ه جيدة وهذا يدل على ان العلاقة البينية بين الاسئلة الخاصة بالأهداف هي علاقات قوية جداً وكلها تدعو الى تبني الجودة في ظل المتغيرات الثقافية، حيث تؤكد لنا وجود ثقافة تنظيمية قوية ومترابطة داخل المعمل.

المحور الثالث

الاساليب العملية

وهي الاجراءات والوسائل التي اذا تم استخدامها سيتحقق انجاز الاهداف السابقة الذكر في المحور الثاني؟ وفيما يلي جدول يوضح علاقات الارتباط البيني بين الاسئلة الخاصة بالأساليب العملية وهي كما يوضحها الجدول (٤).

جدول (٤): علاقات الارتباط بين الأساليب العملية

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18
1	1																	
2	941	1																
3	933	929	1															
4	886	913	887	1														
5	312	479	507	488	1													
6	916	931	955	931	507	1												
7	902	921	891	864	541	888	1											
8	958	910	928	921	512	922	881	1										
9	953	920	920	907	475	923	873	959	1									
10	953	906	913	911	492	928	868	969	976	1								
11	901	861	901	823	535	917	856	909	910	930	1							
12	921	859	881	841	497	883	821	942	923	945	932	1						
13	991	906	932	907	532	936	884	973	950	963	933	946	1					
14	953	905	908	900	489	926	869	962	977	992	934	945	957	1				
15	965	926	925	908	513	925	913	976	953	970	928	922	957	967	1			
16	939	912	945	902	513	957	858	937	932	939	926	933	939	939	940	1		
17	894	880	946	877	559	953	861	914	885	901	915	893	947	896	915	953	1	
18	884	889	924	874	551	928	862	897	860	861	859	961	913	855	899	926	957	1

ومن خلال الجدول في اعلاه اتضح بأن هنالك علاقات ارتباط مختلفة حيث تم الحصول على اقوى علاقة ارتباط بين السؤال (٨) والسؤال (١٣) والمتعلق بأن اغلب الافراد يتصفون بالأمانة والإخلاص، وعند تعرض الافراد لمشكلة فإنهم منطقيين وعقلانيين في حلها حيث كانت علاقة الارتباط ٠,٩٧٣ . أما العلاقة القوية الاخرى فكانت من نصيب السؤال رقم (١) والسؤال رقم (١٠) والمتضمن العمل الجاد والطموح يوفر فرص اكبر لتبني الجودة واغلب الافراد مطيعين ومحترمين ويؤدون عملهم بتفاني حيث حصل على علاقة ارتباط ٠,٩٦٥ . أما اقل علاقة ارتباط كانت من نصيب السؤال (٢) والسؤال رقم (٥) والمتضمن توفير سعة الافق والتفكير المنفتح لثقافة الجودة ويتطلب عملنا النظافة والأناقة والترتيب، حيث كانت علاقة الارتباط ٠,٤٧٩ . وهكذا لباقي الاسئلة، أما علاقة الارتباط النهائية كانت جيدة بين الاسئلة المتعلقة بالأساليب العملية.

المحور الرابع

العلاقة بين الاهداف والأساليب العملية

- في هذا المحور سيتم بيان علاقات الارتباط بين العوامل النهائية والأساليب العملية حيث الفقرات الاولى (١٨) تتعامل مع النتائج، أما الجزء الثاني فيهتم بالطرق وبعد تفريغ هذه الأسئلة في البرنامج الاحصائي، وذلك لأجل معرفة مدى توافق الاهداف مع الوسائل وعلاقات الارتباط بينها لإعطاء متخذ القرار فكرة عن ثقافة الافراد تجاه الجودة وهل الجودة اذا طبقت في هذا المعمل هنالك تفهم واضح لها ولا يوجد تعارض بين قيم وعادات الجودة الجديدة وقيم وعادات وسلوكيات الافراد داخل المنظمة بحيث عند تطبيق الجودة لا يوجد هنالك معارض للتغيرات الجديدة التي تحاول ان ترسمها المنظمة للمستقبل، وهذا ما سنراه في تحليل علاقة ارتباط بين الثقافة والجودة وهل الثقافة الداخلية مهيأة لاستقبال هكذا تغيرات جديدة من شأنها ان تتبنى ادارة الجودة وهذا ما سنراه واضحاً من خلال الجدول الآتي الذي يوضح علاقة الارتباط بين الأهداف والأساليب العملية، حيث الأهداف تمثل الجودة والأساليب العملية تمثل ثقافة الافراد العاملين.

جدول (٤): علاقات الارتباط بين الأهداف والأساليب العملية

العلاقة	الاهداف النهائية رقم السؤال	الأساليب العملية رقم السؤال
٠,٩٤٧	١	١
٠,٩٥٨	٢	٢
٠,٩٢٥	٣	٣
٠,٩٠٤	٤	٤
٠,٤٩٤	٥	٥
٠٫٨٥٥	٦	٦
٠,٩٠٤	٧	٧
٠٫٨٦٩	٨	٨
٠,٢٨١	٩	٩
٠,٩٢٠	١٠	١٠
٠,٩١٨	١١	١١
٠٫٨٤٤	١٢	١٢
٠,٩٥٠	١٣	١٣
٠٫٨٩٤	١٤	١٤
٩٢٨	١٥	١٥
٩٥٤	١٦	١٦
٨٦٩	١٧	١٧
٨٩٢	١٨	١٨

ومن خلال الجدول في اعلاه يتضح لنا بأن علاقات الارتباط جيدة وهي كما يأتي:

١- علاقة السؤال الاول الخاص بالأهداف والقائل بأن تبني الجودة يحقق الرفاهية لي مع السؤال الاول للأساليب العملية والقائل ان العمل الجاد والطموح يوفر فرص أكبر لتبني الجودة حيث كانت علاقة الارتباط قوية وكانت قيمتها ٠,٩٤٧ وهذا يدل على وجود الارض الخصبة لتبني الجودة والاستعداد الثقافي لها من قبل المستهلك الداخلي الا وهو الافراد العاملين.

٢- أما علاقة السؤال الثاني الخاص بالأهداف والذي ينص على ((عند قيامي بإنتاج منتج خالٍ من العيوب احس بالمتعة)) مع السؤال الثاني للأساليب والمتضمن ((يتوفر سعة الافق والتفكير المنفتح لثقافة الجودة)) حيث حصل علاقة ارتباط ٠,٩٥٨ وهي علاقة قوية جداً وهذا يؤكد على ترسيخ ثقافة الجودة لدى المستهلك الداخلي وخاصة عند انتاج منتجات تتسم بخلوها من العيوب وهذا ما تنشده الجودة.

٣- أما علاقة السؤال الثالث والمتضمن ((الاطمئنان والراحة تتحقق بوجود الجودة في المنتجات)) مع السؤال الثالث للأساليب والمتضمن ((منظمتنا تتسم بالكفاءة والفاعلية)) حيث حصل هذا المتغير على علاقة ارتباط أقل من السؤال الاول والثاني وكانت ٠,٩٢٥ وأيضاً هي علاقة قوية، أي كلما زاد الاطمئنان لدى الافراد وبوجود الجودة كلما انعكس على كفاءة وفاعلية المعمل.

٤- ان علاقة السؤال الرابع للاهداف والسؤال الرابع للأساليب واللذان ينصان على ان المنتجات التي انتجها هي متكافئة من حيث الجودة، أما سؤال الأساليب ينص على ان اغلب الافراد العاملين يتميزون بالسعادة ونظافة القلب وحصلت على علاقة ارتباط ايضاً كانت اقل من العلاقات السابقة، حيث كانت ٠,٩٠٤ وهذا يدل على ان المساواة في الجودة ستولد شعوراً للمستهلك الداخلي بالسعادة بكونه انتج منتجات متساوية وبالتالي جهده كان موحداً في كل الاحوال والظروف.

٥- علاقة السؤال الخامس للمحورين حيث كانت العلاقة بينهما ٠,٤٩٤، حيث

نص السؤال الخامس بالأهداف بوجود متسع من الحرية في اختيار طريقة انتاج المنتج الذي يحقق الرضا لي مع السؤال الخاص بالأساليب والمتضمن يتطلب عملنا النظافة والأناقة حيث كانت علاقة الارتباط ضعيفة بين السؤالين وهي اقل علاقة الارتباط للمحورين.

٦- نص السؤال السادس للعوامل النهائية بأن المنتجات ذات الجودة العالية تبعث السعادة في النفس، أما في ما يخص الأساليب فكان السؤال اغلب الافراد العاملين يتمتعون بالشجاعة والتمسك بالمعتقدات وكانت علاقة الارتباط ٨٥٥ . وهي علاقة قوية ولكنها اقل من علاقة الاسئلة الاولى ما عدا السؤال الخامس وهذا يدل على ان المنتجات الجيدة تبعث السعادة في النفس بما يلائم الافراد العاملين من حيث الشجاعة والتمسك بالمعتقدات.

٧- أما العلاقة بين السؤال السابع للأهداف والأساليب حيث كانت العلاقة ايجابية وعلاقة قوية وكانت قيمتها ٠,٩٠٤، حيث نص السؤال للمحور الاول ان المنتجات ذات الجودة العالية تقيني من الاخطاء ويقابله بالنسبة للأساليب بأن عند حصول خطأ معين هنالك التسامح والرغبة بمسامحة الآخرين وهذا يدل على أن هنالك ثقافة مشتركة في التسامح وإعادة تصحيح الخطأ ان حصل في المنتج.

٨- فكانت العلاقة ايجابية حيث بلغت ٨٦٩ . ونص سؤال الاهداف على ان الحياة الآمنة تحققها المنتجات الجيدة، بينما سؤال الأساليب فكان أغلب الافراد يتصفون بالأمانة والإخلاص وهذا ينعكس على امانتهم في انتاج سلع ذات جودة عالية مما ينعكس على الحياة والأخطار التي ستسببها المنتجات الرديئة، لذا هنالك توافق بين ثقافة الافراد من جهة والجودة من جهة اخرى.

٩- أما العلاقة بين السؤال التاسع والذي ينص على ان تبني الجودة يبعث السرور والحياة الطيبة، أما نص سؤال الأساليب فكان نحن نعمل كفريق وبعضنا يساعد الاخر، حيث كانت العلاقة بينهما ٠,٢٨١، وهي علاقة ضعيفة جداً، لذا

لابد من البحث عن اسباب ضعف هذه العلاقة.

١٠- حصل السؤال العاشر لكل من الاهداف والأساليب على علاقة ارتباط قوية حيث كانت ٠,٩٢٠ وكانت الأسئلة تتضمن عملية التكامل مع الاشخاص الذين لهم مكانة اجتماعية وهذا التكامل سيخلق نوعاً من الابتكار بمعنى آخر الابتكار سيخلق نوعاً من التكامل بين الاشخاص.

١١- أما العلاقة بين السؤال الحادي عشر للأهداف للأساليب حيث حصلاً على علاقة ارتباط قوية وكانت ٠,٩١٨ وهي حرية التعرف في المعمل سينتج عنه تقديم منتجات ذات جودة عالية.

١٢- كانت العلاقة بين السؤال الثاني عشر لكل من الأهداف والأساليب حيث حصلا على علاقة ارتباط قوية وكانت ٠٨٤٤، حيث كلما كان الافراد يتمتعون بالذكاء كلما كان انتاجهم جيد وخالٍ من العيوب.

١٣- أما العلاقة بين السؤال الثالث عشر للأهداف وينص على ان الافراد عند تعرضهم لمشكلة معينة فهم منطقيين لحلها وهذه المشكلة ستجعلهم يتعاملون مع المنتجات الجيدة التي تحقق الامن الغذائي وكانت علاقة الارتباط ٠,٩٥٠.

١٤- العلاقة بين السؤال الرابع عشر والذي ينص على أن جمالية المنتجات لابد من الاحساس بها وهذه نتيجة لحب العمل المناط للفرد العامل وكانت علاقة الارتباط لهذا المتغير ٠٨٩٤ وهي علاقة قوية.

١٥- العمل بتفانٍ سينتج عنه اختيار منتجات جيدة ناتجة عن الاحساس بالإنجاز، حيث كانت علاقة السؤال الخامس عشر لكل من الاهداف والأساليب ٠,٩٢٨.

١٦- ان التصرفات المهذبة للافراد العاملين سينتج عنها رضا داخلي للعمل والتالي سينعكس حتماً على الجودة، هذا ما نص عليه السؤال السادس عشر لكل من الاهداف والأساليب حيث كانت العلاقة ايجابية ٠,٩٥٤.

١٧- أما العلاقة بين تحمل المسؤولية والولاء التنظيمي للافراد فكانت العلاقة جيدة حث كانت ٠٨٥٩ لأن تحمل المسؤولية سيخلق نوعاً من الولاء وهذا بدوره

سينعكس ايجاباً للجودة.

١٨-أما العلاقة بين السؤال الثامن عشر لكل من الأساليب والأهداف حيث كانت العلاقة ٠٫٨٩٢ ايجابية وجيدة بين الرقابة الذاتية والاحترام بين المنظمات القائمة بتبني الجودة الشاملة.

من خلال ما تقدم للمحاور السابقة اتضح بأن هنالك علاقة ارتباط بين الثقافة والجودة وكانت علاقة قوية وموجبة وهذا ما يثبت صحة فرضيتنا التي تمت الاشارة اليها ضمن منهجية الدراسة والقائلة ((هنالك علاقة بين الأساليب العملية والأهداف النهائية لقياس ثقافة الجودة)).

الاستنتاجات والتوصيات

الاستنتاجات:

لقد تمخضت عن الدراسة السابقة مجموعة من الاستنتاجات وهي:

١-لابد من اجراء دراسات الغرض منها قياس ثقافة الجودة لدى المستهلك الداخلي وخير تطبيق لهذا المفهوم هو استخدام مقاييس الجودة وخاصة مقياس روكيه الذي تم التطرق اليه في متن هذه الدراسة.

٢-تعد دراسة ثقافة الجودة من الدراسات الحديثة وعلى اعتبار الثقافة هي القاعدة الأساسية التي تنطلق منها عمليات تطبيق الجودة، لهذا يجب ان تأخذ خيراً في التخطيط الاستراتيجي للمنظمة قيد الدرس.

٣-اتضح من خلال التحليل الاحصائي لعلاقة الارتباط البيني للاسئلة الخاصة بالاهداف هي علاقة ايجابية وقوية وهذا يدل على قوة العلاقة بين الاسئلة الخاصة بالجودة.

٤-نتيجة للتحليل الاحصائي، اتضح بأن العلاقة بين الاسئلة الخاصة للاساليب او الوسائل هي ايضاً علاقة ايجابية وقوية وهذا يدل على قوة العلاقة بين الاسئلة الخاصة بثقافة الجودة.

٥-اوضحت جميع علاقات الارتباط بين الثقافة والجودة علاقة ايجابية قوية وهذا يدل على ان الارض خصبة لهكذا دراسات ووجود تشابه ثقافي فيما بين الافراد العاملين في المنظمة المبحوثة ومن الممكن تطبيق ادارة الجودة.

٦-من الممكن اجراء التحسينات والتعديلات، والتغير الثقافي في هذا المعمل وهذا ما اثبته التحليل الاحصائي وان القاعدة الجماهيرية ((العمال)) هم مهيئون لاستقبال التغيرات الخاصة بالجودة.

التوصيات:

١-لابد من الاعتماد على مقياس ثقافة الجودة وخاصة مقياس روكيه في قياس ثقافة الجودة او العلاقة بين الاهداف والأساليب التي تستخدم لتبني ادارة الجودة الشاملة.

٢-لابد وأن يضع متخذ القرار امام عينيه الأهمية الفائقة التي تلعبها الثقافة في رفض او قبول الجودة وبالتالي تهيئة القاعدة التي تبنى عليها مبادئ ادارة الجودة.

٣-لابد من الاعتماد على النموذج المقترح في متن الدراسة والمتعلق بكيفية تطبيق ثقافة الجودة وأهم الطرق والوسائل المستخدمة للتطبيق.

٤-دراسة بعض العلاقات التي كانت علاقة الارتباط فيها ضعيفة جداً ولكنها ايجابية مقارنة بباقي الاسئلة ومعرفة سبب ضعف العلاقة.

٥-تهيئة الكادر المدرب على بث ثقافة الجودة واستخدام الطرق والأساليب التي من شأنها ان تقلل حدة الصراع ان وجد.

٦-اعتبار ثقافة الجودة هدفاً استراتيجياً لابد من تحقيقه قبل التطبيق لمبادئ ادارة الجودة الشاملة.

قائمة المصادر

أولاً: المصادر العربية:

١- حريم، حسين، ((السلوك التنظيمي سلوك الافراد في المنظمات))، دار زهران، ١٩٩٧.

٢-ابو نبعة، عبد العزيز وسعد، فوزية ((ادارة الجودة الشاملة المفاهيم والتطبيقات الادارية))، العدد ٧٤، ١٩٩٨، شركة المطابع العالمية، سلطنة عمان.

٣-تكسنون، فليب، ((التغير الثقافي الأساس الصحيح لإدارة الجودة الشاملة، ترجمة عبد الفتاح السيد، ١٩٩٦.

٤-داعر، منقذ وحرحوش، عادل ((نظرية المنظمة والسلوك التنظيمي، بغداد، ٢٠٠٠.

٥-عبيدات، محمد ابراهيم ((سلوك المستهلك مدخل استراتيجي))، دار وائل، ١٩٩٨.

٦-عقيلي، عمر وصفي ((مدخل الى المنهجية المتكاملة لإدارة الجودة الشاملة وجهة نظر)، دار وائل، ٢٠٠١.

٧-هيجان، عبد الرحمن ((منهج عملي لتطبيق مفاهيم ادارة الجودة الكلية))، مجلة الادارة العامة، العدد الثالث، مجلد ٣٤، السعودية، ١٩٩٤.

٨-الغدير، محمد والساعد، رشاد ((سلوك المستهلك مدخل متكامل))، دار زهران، ١٩٩٦.

٩-ناجي، فوزية محمد ((ادارة الجودة الشاملة والامكانات التطبيقية في مؤسسات التعليم العالي))، بحث غير منشور، عمان، ١٩٩٨.

١٠- Daivid, Goetch & Davis Stanly ((Introduction to total quality management, for production processing and service)), P-Hall ١٩٩٧.

١١- Heizer, Jay and Render, Barry ((Principles of operation

management)), P-Hall ١٩٩٩.

١٢- Karjwski, Lee & Ritzman ((Larry ((Operation management strategy and analysis)), Adisonw D Co., Inc. ١٩٩٦.

١٣- Russell, Roberta & Taylor, Bernard ((Production and operation management)), P-Hall, ١٩٩٥.

ملحق رقم (١)

استمارة استبيان

عزيز المجيب الكريم..

تحية طيبة..

أضع بين يديك هذا الاستبيان لغرض انجاز دراستي والموسومة ((قياس ثقافة الجودة باستخدام مقياس روكيه)).

دراسة تطبيقية في معمل (سمنت الكوفة الجديد) وذلك لأجل اجراء بحث ميداني في ادارة الاعمال وللسمعة الطيبة والتأكيد المستمر من قبلكم في تبني ادارة الجودة كان الحافز لاختياركم راجياً الاجابة على التساؤلات التي يتضمنها الاستبيان بدقة متناهية لأجل الوصول الى نتائج أكثر علمية. علماً بأن المعلومات سيتم استخدامها لأغراض البحث العلمي فقط.

شاكرين تعاونكم معنا..

أولاً: معلومات عامة:

الوظيفة الحالية:

المنصب الحالي:

الشهادة:

الراتب الشهري:

عدد سنوات الخدمة:

القسم:

الجنس:

ثانياً: العوامل النهائية:

العوامل النهائية	اتفق تماماً	اتفق	اتفق إلى حد ما	لا اتفق	لا اتفق تماماً
١- تبني الجودة يحقق الرفاهية لي.					
٢- عند قيامي بانتاج منتج خالي من العيوب احس بالمتعة.					
٣- الاطمئنان والراحة يتحقق بوجود الجودة في المنتجات.					
٤- المنتجات التي انتجها هي متكافئة من حيث الجودة (المساواة).					
٥- هنالك متسع من الحرية في اختيار طريقة انتاج المنتج الذي يحقق اعلى رضا لي.					
٦- المنتجات ذات الجودة العالية تبعث السعادة في النفس.					
٧- المنتجات ذات الجودة العالية تقيني من الأخطاء.					
٨- الحياة الآمنة تحققها المنتجات الجيدة.					
٩- تبني الجودة يبعث السرور والحياة الطيبة.					
١٠- اتكامل مع الأشخاص الذين لهم مكانة اجتماعية وتقدير.					
١١- المنظمة التي تقدم لي منتجا جيدا احس بالصداقة الحقيقية اتجاهها.					
١٢- الحكمة في انتاج منتجات خالية من العيوب.					
١٣- التعامل مع المنتجات الجيدة يحقق الأمن الأسري.					
١٤- احس بجمالية المنتجات عندما تكون ذات جودة عالية.					
١٥- اختيار المنتجات الجيدة ناتج عن الاحساس بالانجاز.					
١٦- هنالك رضا داخلي عند عملي لمنتج ذا جودة عالية.					
١٧- ولائي عالي لمنظمتي لأنها تقدم منتجات بجودة عالية.					
١٨- هنالك احترام متبادل بيني وبين المنظمات القائمة بتبني الجودة الشاملة.					

ثالثاً: الأساليب العملية:

الأساليب العملية	اتفق تماماً	اتفق	اتفق إلى حد ما	لا اتفق	لا اتفق تماماً
١- العمل الجاد والطموح يوفر فرص أكبر لتبني الجودة.					
٢- يتوفر سعة الأفق والتفكير المنفتح لثقافة الجودة.					
٣- منظمتنا تتسم بالكفاءة والفاعلية.					
٤- أغلب الأفراد العاملين يتميزون بالسعادة ونظافة القلب.					
٥- يتطلب عملنا النظافة والاناقة والترتيب.					
٦- أغلب الأفراد العاملين يتمتعون بالشجاعة والتمسك بالمعتقدات.					
٧- عند حصول خطأ معين هنالك التسامح والرغبة بمسامحة الآخرين.					
٨- أغلب الأفراد يتصفون بالأمانة والاخلاص.					
٩- نحن نعمل كفريق وبعضنا يساعد الآخر.					
١٠- هنالك فرص كبيرة للابداع.					
١١- كل شخص محب لعمله وحرية التصرف لتحقيق الهدف.					
١٢- الأفراد يتمتعون بالذكاء والتأمل.					
١٣- عند تعرض الأفراد لمشكلة فانهم منطقيين وعقلانيين في حلها.					
١٤- أحب العمل المناط لي.					
١٥- أغلب الأفراد مطيعين ومحترمين ويؤدون عملهم بتفاني.					
١٦- أغلب تصرفات الأفراد هي تصرفات مؤدبة وسلوك مهذب.					
١٧- الأفراد العاملين قادرين على تحمل المسؤولية ويمكن الاعتماد عليهم.					
١٨- يتصف الأفراد بالرقابة الذاتية.					

ابن الجنيد وآراؤه الفقهية
دراسة في فقه الحجر

الدكتور
هادي حسين الكرعاوي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هو بالعز مذكور وبالفخر مشهور وعلى السراء والضراء مشكور وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين.

يعتبر الفقه الإسلامي الثروة التشريعية المهمة والركيزة الأساس في الفكر الإسلامي وهو مفخرة كل أبنائه بما تركه أوائل أتباعه من الكم الكبير من التراكم المعرفي الذي استوعب كل أفعال المكلفين فلذلك أصبح لزاما على كل مسلم غيور أن يحفظ هذا التراث ويضعه في حدقات عيونه ويجعله ظابطا لكل تصرفاته وعليه أن يطلع على تفاصيله لكي يستطيع امتثال أوامره إما اجتهادا أو تقليدا .

فلذلك حاولت أن أتفحص مدارك الفقهاء الشرعية في استنباطهم للأحكام وكيفية استدلالهم عليها بمختلف الأدلة وكيفية استيعابهم للأقوال المتعددة للخروج بحكم يطمأن إليه مما يدل على عمق البحث عندهم وهذا ما ظهر من خلال عرض الآراء الفقهية لعلماء القرن الرابع للهجرة وبالتحديد إلى آراء ابن الجنيد وما تركه من آثار تعكس إمكانيته المتميزة ضمن أقرانه وقد تلفت جميعا بسبب الهجمة الشرسة التي تعرضت لها الحضارة الإسلامية

فضاع من جراء ذلك عدد كبير من المؤلفات والتي من ضمنها آثار ابن الجنيد الفقهيه ، فاعتمدت على كتب فقه الخلاف لاستخلاص آراءه وأحيائها من الاندثار مع مقارنتها بالآراء الفقهية المختلفة والمعروفه في الفقه الامامي.

وقسم البحث إلى مبحثين أساسيين تناولت في الأول سيرته الذاتية وفي الثاني آراءه الفقهية وفي باب الحجر ثم خلص البحث إلى مجموعة من النتائج مع قائمة بالمصادر التي اعتمدها البحث .

المبحث الأول : سيرته

المبحث الأول: اسمه ونسبه

هو محمد بن أحمد بن الجنيد الكاتب الإسكافي الملقب بأبي علي وهذا ما أجمع علية كل من عرض ترجمته أو ترجمة علماء القرن الرابع للهجرة من فقهاء أو كتاب سيرة[1] وقد سمي بالكاتب من جهة إتقانه ومهارته وكثرة ممارسته في فن الإنشاء حتى أصبح من المتخصصين به ' أما بالإسكافي فنسبة إلى محل ولادته وهي منطقة الإسكاف الواقعة في (النهروان) وهي بين بغداد و واسط الان ، و أما اللقب فقد اختص به حتى أصبح هو المتبادر لا غيره عند إطلاقه في الكتب الفقهية أو عند التعرض إلى آرائه في كتب فقه الخلاف.

١- [1] انظر : الطوسي / الفهرست / ١٣٤ المطبعة الحيدرية ، النجف، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٦، الخونساري /روضات الجنات/ ١: ٥٦٠الطبعة الأولى ،القمي / الكنى والألقاب/ ٢: ٢٢، الزركلي / الأعلام /٦ : ٢٠٣ ، الطهراني / الذريعة إلى تصانيف الشيعة / ٤: ٥١٠، الطبعة الاولى /طهران سنة ١٣٦٠ .

المبحث الثاني :ولادته ووفاته

بحدود تتبعي للمصادر التاريخية والرجالية التي عرضت لعلماء القرن الرابع الهجري أنها أغفلت تاريخ ولادة الفقيه ابن الجنيد ولم اقطع بالسبب وفيما أظن أن اتهامه بالعمل بالقياس هو الداعي الى إهماله وعدم الاعتناء به حتى اثر ذلك على ضياع آثاره المعرفية التي صنف بها في مختلف اختصاصات علوم الشريعة بحيث تلفت جميعاً، وكل ما ينسب إليه إنما يكون اعتماداً على كتب فقه الخلاف التي عرضت لآرائه خصوصا كتاب مختلف الشيعة للعلامة الحلي الذي يعد من أسبق الكتب الفقهية في هذا المجال .

أما وفاته فالمجمع عليه عند علماء عصره أو من ترجم له بالخصوص أنها حدثت في نهاية القرن الرابع للهجرة وبحدود عام ثلاثمائة وواحد وثمانين وفي منطقة الري من بلاد ما وراء النهر[1].

المبحث الثالث: جهوده الفكرية

أولاً: ثقافته

الظاهر من خلال عرض ما نقل عن حجم التراكم المعرفي الذي تركه هذا الفقيه من كتب علمية حوت اغلب علوم الشريعة الإسلامية ، أنه لم يتخصص بواحد من تلك العلوم بل كان موسوعياً شمل العلوم الإسلامية وكتب بعلوم أخرى كالأدب والتاريخ والفلسفة[2] وغيرها ، والاستدلال على ذلك ظاهر من خلال ما نقل عن حجم وتنوع مؤلفاته منها على سبيل المثال لا الحصر قول

٢-[1] انظر: الخونساري /روضات الجنان / ١ : ٥٦٢، الاردبيلي/ جامع الرواة / ٢ : ٥٩، مطبعة زنكين / ايران ١٣٣٤ الطبعة الاولى ، القمي / الكنى والالقاب /٢ :٢٢ ، الطهراني/ الذريعة ٤: ٥١١ ، الزركلي / الاعلام /٦: ٢٠٣ .

٢

[1]- انظر : النجاشي /الرجال / ٢٩٩ ، الخوئي/معجم رجال الحديث / ١٤ : ٣٣٧

السيد بحر العلوم فيه (أنه من أعيان الطائفة وأعاظم الفرقة وأفاضل قدماء الامامية وأكثرهم علماً وفقهاً و أدبا وتصنيفاً و أحسنهم تحريراً و أدقهم نظراً متكلم فقيه ، محدث أديب ، واسع العلم ، صنف في الفقه والكلام والأصول والأدب وغيرها)(١).

ثانياً: أقوال العلماء فيه

تضاربت أقوال الفقهاء وعلماء السيرة في تقييم آراء ابن الجنيد وفقهه بين مادح له ومبين لدوره الريادي في تعميق البحث الفقهي المقارن بما تركه من مصنفات استدلالية وبين قادح له وراد لآرائه بسبب خروجه عن إجماع الفرقة في بطلان العمل بالقياس كمصدر للاستنباط الفقهي حيث انه كان يعول على هذا الدليل في الاستبدال كما نقل بعض إجلاء لفقهاء خصوصاً الشيخ المفيد المتوفى سنة٤١٣ هـ وتلامذته وهذا ما صرح به عموم العلماء ممن تعرضوا إلى تقييم آرائه ومن تلك الأقوال هي :

١-قال النجاشي:(وجه في أصحابنا ثقة جليل القدر صنف فأكثر)٢

٢-قال العلامة الحلي:(كان شيخ الامامية جيد التصنيف حسنه وجه في أصحابنا ثقة جليل القدر صنف فأكثر)٣.

٣-قال الشيخ القمي (من أكابر علماء الشيعة الإمامية جيد التصنيف)

والذي يقطع به من خلال الأقوال المتقدم لأكابر فقهاء الإمامية خصوصاً النجاشي منهم المتخصص بعلم الرجال وصاحب أحد أصوله المعتبرة عند علماء

٢- بحر العلوم / الفوائد الرجالية / ٣: ٢٠٥ ، الطوسي / الفهرست / ١٣٤

٣-رجال النجاشي / ٢٩٩

٤-رجال العلامة الحلي / ١٤٥

٣

الحديث من الإمامية وهو ممن عاصر تلامذة الفقيه ابن الجنيد .

إن المترجم له كان يحتل منزلة رفيعة بين أقرانه وله دور واضح في تأصيل البحث الفقهي والأصولي بما تركه من آراء ضمها بمؤلفات في علوم الشريعة يعتمد عليها في بيان الموقف الشرعي الإمامي إلا أن اتهامه بالعمل بالقياس وخصوصاً من الشيخ المفيد وتلامذته كانت مدعاة لترك آرائه والأعراض عن كتبة أول من اتهمه بذلك الشيخ المفيد حيث قال في ترجمته(و أما كتب أبي علي ابن الجنيد فقد حشاها بأحكام عول فيها على الظن واستخدم فيها مذهب المخالفين في القياس)[1] وهذا ما سلم به تلامذة الشيخ المفيد واكده ، فكان ذلك سبباً في الأعراض عن فقه ابن الجنيد فقد قال السيد المرتضى بعد ذكر مسألة فقهيه اختلف فيها بالاستنباط مع ابن الجنيد (إنما عول أي - ابن الجنيد- على ضرب من الرأي والاجتهاد وخطأه ظاهر)[2] وهذا مسلك شيخ الطائفة الطوسي حيث قال فيه(انه كان يرى القول بالقياس فتركت لذلك كتبه ولم يعول عليها)[3] مما سبب ذلك في ضياع جهوده الفكرية خصوصاً أن اتهامه بالعمل بالقياس ردده اغلب تلامذة الشيخ الطوسي وحتى زمن العلامة الحلي وهذا ما لا نستطيع القطع فيه أو إثباته لتلف كتبه التي هي الحجة الدامغة والقول الفصل في هذه المسائل خصوصاً الاستدلالية منها أو الأصولية التي يبين فيها مسلكه في الاستنباط ومدى عمله بدليل القياس حيث لم يسلم من مؤلفاته الا كتاب المختصر ألا حمدي في الفقه المحمدي[4] الذي

١-أجوبة المسائل السروية /٥٥ ،المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف

٢- الانتصار /١٣٥ ، تحقيق محمد رضا الخرسان ، المطبعة الحيدرية، النجف ، الطبعة الاولى

٣- الفهرست / ١٣٤

٤-الطهراني /الذريعة إلى تصانيف الشيعة / ٥١:٤ - ٥٤١

. اعتمد عليه العلامة الحلي في نقل آراء ابن الجنيد الفقهية بحيث أصبح كتاب مختلف الشيعة للعلامة الحلي وهو المرجع الوحيد في بيان فقه ابن الجنيد لان كتاب المختصر قد ضاع هو الآخر بعد عصر العلامة الحلي.

والذي يترجح عند الباحث فيما نسب إلى ابن الجنيد بقوله بحجية دليل القياس أنها نسبة من دون دليل قاطع بل أن المرجحات الواقعية والعقلية توهن بل تنفي تلك النسبة منها .

١- إن سيرة المتشرعة بتوثيق ابن الجنيد خصوصا أصحاب الأصول الرجالية المعروفة عند الامامية معضدة بمؤلفاته المنقولة بدفاعه عن أصول المذهب الامامي إنما تؤكد عدم خروجه عن ضرورات المذهب والتي منها نفي القياس دليلا من الادلة المعتبرة .

٢- إن ابن الجنيد قد عاصر زمن الدولة البويهية المعروفة بدعمها للشيعة الامامية فهو من المقربين إلى معز الدولة البويهي (ت ٣٥٦)[1] وهذا الوزير كان يظهر تشيعه حتى انه ألزم أهل بغداد بالنوح والبكاء و إقامة المآتم الحسينية في يوم عاشوراء عظةً وعبرةً و إحياءً لفاجعة كربلاء ولابن الجنيد مكاتبات وأجوبة مسائل فقهية وعقائدية مع هذا الوزير حيث كان يسأله عما أشكل عليه من مسائل شرعية بالفروع أو الأصول مما يندر مع هذه الثقة والقرب أن ينفي ما ثبت بالدليل القاطع من أن القياس ليس بحجة شرعية ولا يعول علية في الاستنباط الفقهي.

٣- وعلى فرض صحت تلك النسبة فيمكن حملها على انه عمل بالقياس

٤

١ الخونساري/ روضات الجنات/١: ٥٦٢

٥

المحمود عند الامامية كقياس منصوص العلة والأولوية حيث أنهما حجة شرعية بالاتفاق أو أن يخرج ذلك بان ابن الجنيد كان من مدرسة المتشددين في قبول أحاديث المعصومين فهو يلتزم بنظرية النقد الداخلي للحديث ولا يعمل بالأحاديث المروية إلا بموافقتها للدليل القطعي من القران الكريم والسنة المتواترة وهذا ما يعبر عنه في كثير من النصوص بالقياس نحو "قسه على كتاب الله" في قبال مدرسة الحديث التي تعتقد بقطعية أكثر الأحاديث الموجود في الكتب الأربعة دون مقارنتها مع الأصول القطعية ومما يؤيد ما ذكرناه نسبة العمل بالقياس إلى ثقاة حملة أحاديث أهل البيت (ع) فقد نقل الشيخ الصدوق وفي مواضع متفرقة من كتبه تلك النسبة إلى زرارة بن أعين وجميل دراج وعبد الله بن بكير وهذا ما لا يتصور قطعاً من هؤلاء الأجلاء لقربهم من الأئمة مع تصريحهم (ع) بأنهم ثقاة أصحابه فلابد أن يحمل ذلك على توجه المدرسة الفكرية التي ينتمون إليها وهذا

٤- ما صرح به الشيخ المفيد الذي قال (خبر الواحد القاطع للعذر هو الذي يقرن بدليل يفضي بالنظر فيه إلى العلم ، وربما يكون ذلك إجماعا أو شاهدا من عقل أو حاكما من قياس)[1].

ثالثا: مؤلفاته

لابن الجنيد مصنفات فقهيه تجاوزت الخمسين مؤلفاً كما ينقل بعض من ترجم له تلفت جميعاً بسبب ما تعرضت له الحضارة الإسلامية من هجمات مضادة قصدت طمس معالمها الفكرية ، والشواهد التاريخية وبمختلف مراحلها توثق ذلك ، واشهر تلك المصنفات:

١. كتاب تهذيب الشيعة للأحكام الشرعية وهو كتاب فقهي ضخم استوعب

١- أجوبة المسائل السروية /٥٥، السيستاني/ الرافد في أصول الفقه / ١٠

فيه اغلب الأبواب الفقهية من الطهارة إلى الديات.

٢. كتاب المختصر الأحمدي في الفقه المحمدي وهو كتاب فقهي أيضاً ربما اختصر فيه كتابه الأول واعتمد على مسائل الابتلاء عند المكلفين.

٣. نور اليقين وبصيرة العارفين وهو كتاب أخلاقي وعرفاني يهدف فيه تهذيب النفس وتهيئتها لتلقي الألطاف الرحمانية فتربو عن المادة وتترقى إلى مصاف الكمال

٤. إيضاح خطأ من شنع على الشيعة في أمر القران ومحتواه ظاهر من اسمه اثبت فيه وبالدليل القاطع بان القران الكريم هو محصور بين الدفتين من دون زيادة ولا نقصان وانه هو الذي نزل على رسول الله (ص) وان الشيعة ليس لهم غير هذا القران المعروف بيننا.

٥. الانتصاف من ذوي الانحراف[1] وهو كتاب عقيدة اثبت فيه زيغ الفرق الشاذة والأفكار المنحرفة وان أحكام الإسلام تتطابق مع الفطرة السليمة والذوق الرفيع ولا تتناقض وهي تصلح لكل زمان ومكان لأنها من عند الله سبحانه وتعالى.

٢-الطوسي /الفهرست / ١٣٤ ، العلامه /ايضاح الاشتباه في اسماء الرواة /٨٨ ،الخونساري /روضات الجنات /١: ٥٦ الطهراني ، الذريعة / ٤: ٥١ .

٦

المبحث الثاني :فقه الحجر عند ابن الجنيد

يتفق علماء اللغة أن مادة - حجر - معناها هو المنع والتضييق [1] سواءا استعملت للدلالة على فعل الحرام أم العقل وهذا ما علية الاستعمال القرآني في تحديد مصطلح الحجر فمن الاول قوله تعالى " ويقولون حجراً محجوراً " [1] أي حراما محرماً لان الحرام يمنع المكلف من ارتكابه ، ومن الثاني قوله تعالى " إن في ذلك قسم لذي حجر " [2] والخطاب موجه إلى أهل العقول لان العقل يمنع الإنسان من ارتكاب القبائح.

و أما تعريفه عند الفقهاء فهو مشتق من معناه اللغوي ولو اجمالا فلذلك اشتهر عندهم أن مقصودهم من الحجر هو (المنع من التصرف في المال) [3] أي في مال المحجور عليه لسبب من الأسباب الشرعية التي ذكرها الفقهاء في مصنفاتهم وهي كثيرة اشهرها ستة هي الصغر ، الجنون ، الرق، المرض، الفلس ، السفه، وهو ينقسم عندهم إلى قسمين أساسيين هما من يحجر عليه لحق نفسه كالصبي والسفيه مثلا أو لحق غيره كالمفلس [4]

ومن المعلوم إن الآراء الفقهية لابن الجنيد لم تصل إلينا بسبب تلف مصنفاته الفقهية فلذلك حاولت جمع آرائه في فقه الحجر من خلال كتب فقه الخلاف عند مذهب الأمامية وخصوصا كتاب مختلف الشيعة للعلامة الحلي أي

١-الفرقان / ٢٢

٢-الفجر / ٥

٣- المحقق الحلي / الشرائع / ١ :٢٠٤، النجفي /جواهر الكلام / ٢٦ :٣٠، ابن قدامه / المغني ٤ : ٥٠٨

العاملي / مفتاح الكرامة / ٥ : ٢٣٣

٤- السبزواري / المهذب /٢١: ١٣١ ، ابن قدامه / المغني والشرح الكبير /٤: ٥٠٨

٧

ومفتاح الكرامة لمحمد جواد العاملي فاستخلصت آراءه من خلال تلك الكتب والمسائل الفقهية التي عثرت عليها والتي هي محل بحث وخلاف في الفقه الامامي.

المطلب الأول: حد البلوغ

من المتفق عليه عند فقهاء المسلمين أن الحجر على الصغير يرتفع بشروط منها البلوغ وهو متحقق بعلامات متعددة أهمها السن وهذا أمر متفق عليه عند جميع الفقهاء[1] إلا ما نقل عن الإمام مالك وداود الظاهري[2] من إنهم لم يعتبروا ذلك من علامات البلوغ واشتباههم ظاهر لأنه يخالف ما عليه النصوص المستفيضة والمشهورة شهرة عظيمة عند الفقهاء إلا إنهم يختلفون في مقدار السن الذي به يرتفع الحجر عن الصبي فالذي عليه ابن الجنيد أن حد البلوغ للذكر حتى يصح رفع الحجر عنه ودفع أمواله إليه واكتمال أهليته هو بلوغه أربع عشرة سنة[3] مستدلا على ذلك بروايات قد وردت صحيحة عنده وبحسب مبناه في علم الرجال ومن هذه الروايات عن الأئمة ع عن رسول الله (ص) هي:

١- بالاسناد عن أبي حمزة الثمالي عن الأمام الباقر (ع) قال: قلت جعلت فداك في كم تجري الأحكام على الصبيان ؟ قال في ثلاث عشرة سنة وأربع عشرة سنة ، قلت فان لم يحتلم فيها ؟ قال وان لم يحتلم فان الأحكام تجري

١- العلامة /المختلف / ٥ : ٤٣١ ، العاملي /مفتاح الكرامة /٥: ٢٣٨ ، المحقق/ الشرائع / ١ : ٢٠٤

ابن قدامة المغني / ٥: ٥١٢ البحراني /الحدائق / ٢٠ : ٣٤٨

٢- ابن قدامة / المغني / ٥: ٥١٢ ، القرطبي / الجامع لأحكام القرآن /٥: ٢٥

٣- العلامة/ المختلف /٥: ٤٣١ ، العاملي/مفتاح الكرامة / ٥: ٢٣٩ ، السبزواري/ المهذب / ٢١: ١٣٧

عليه[1]

٢- عن عبد الله بن سنان عن الأمام الصادق (ع) إذا بلغ الغلام أشده ثلاث عشرة ودخل في الأربع عشرة وجب عليه ما يجب على المحتلمين احتلم أولم يحتلم وكتب علية السيئات وكتبت له الحسنات وجاز له كل شيء إلا أن يكون سفيها أو ضعيفاً[2] .

ودلالة هذه الروايات بعد فرض صحتها على رأي ابن الجنيد صريحة جداً في تحقيق البلوغ بالسن الذي حددته فتوى ابن الجنيد وقد ضعف ما استدل به ابن الجنيد بضعف أدلته لان رواياته متروكة لجهالة بعض

رجال سندها[3] فيما اعرض عنها مشهور الفقهاء ولكن هذا الاعتراض مباني لأنه يخالف مبنى ابن الجنيد في توثيق الرجال لأنه يعتبر الأصل في مجهول الحال العدالة والأصل في أقواله و أفعاله الصحة[4] مما يصح الاعتماد على الروايات المتقدمة وفق هذا المبنى ولا يصح في ضوئه ما اعترض به عليه هو بذلك يخالف ما عليه مشهور فقهاء الأمامية من أن البلوغ يتحقق في خمس عشرة سنه ويتفق معهم من أن بلوغ الأنثى يتحقق في سن التاسعة مستدلين عليه بالإجماع والنصوص المستفيضة منها صحيحة ابن محبوب عن عبد العزيز بن حمران قال سألت أبا جعفر (ع) متى يجب على الغلام أن يؤاخذ بالحدود التامة ويقام علية ويؤخذ بها ؟ فقال (ع) إذا خرج عن اليتم وأدرك قلت فداك فلذلك حد

١- الطوسي/ تهذيب الأحكام /٦: ٣١ ، العاملي / وسائل الشيعة / ١٣: ٤٣٣

٥- العاملي /الوسائل/ ١٣ :٤٣١، العلامة / المختلف /٥: ٤٣٠ ، المحقق / الشرائع / ١: ٢٠٤ النجفي / الجواهر: ٢٦، ١٦

٨

٣ العلامة /المختلف /٥: ٤٣١

٤ العاملي /مفتاح الكرامة / ٥: ٢٤٦

يعرف ؟ فقال إذا احتلم أو بلغ خمس عشرة سنة[1] وهذه الرواية من محكمات أخبار الأمامية من حيث السند والمتن فلذلك انعقد عليها الإجماع[2] وندرت الفتوى في مخالفة محتواها وهذا ما يحتم الإعراض عما يخالفها بالإضافة إلى كثرة الروايات عن رسول الله (ص) وبطرق معتبرة عند الجمهور على مضمونها[3].

وأما ما استدل به ابن الجنيد فضعفه ظاهر لان رواياته ضعيفة سنداً[4] ومع مخالفتها لما انعقد عليه الإجماع مما حتم الإعراض عنها مع إمكانية حملها على صورة تحقق الانبات أو الاحتلام قبل الخامسة عشر سنة فلذلك يصح تكليفه قبله مما يترجح عند الباحث الرأي المشهور لقوة أدلته مع ضعف الأدلة المقابلة التي لا تصلح للمعارضة ولا يمكن أن يثبت بها حكماً شرعياً.

المطلب الثاني : الرشد

أجمع فقهاء الأمة الإسلامية على أن رفع الحجر عن الصبي وصحة تصرفاته المالية متوقفة على شروط منها الرشد وهو ما صرح به القران الكريم وعلية استند الإجماع الفقهي قال تعالى: وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم[5].

وعرفه كثير من الفقهاء بأنه - أي الرشد (كيفية نفسانية تمنع من إفساد المال وصرفه في غير الوجوه اللائقة بأفعال العقلاء)[6] وفي بيان شروطه

١ العاملي / وسائل الشيعة /١٣: ٤٣٤

٢ السبزواري / المهذب / ٢١ : ١٢٧

٣ البيهقي /السنن الكبرى / ٦ :٥٥

٤ العلامة /المختلف /٥: ٤٣١

٩

٥- النساء /٦

٦- البحراني /الحدائق /٢٠: ٣٥١ ،النجفي / الجواهر /٢٦: ٤٩ ، العاملي/مفتاح الكرامة/ ٥:

قال ابن الجنيد (هو العقل وإصلاح المال)[1] و بدلالة الروايات التي استفاضت عن الأئمة(ع) واعتمادها مشاهير فقهاء الامامية في الفتوى. و أما رأي ابن الجنيد فقد استدل عليه برواية صحيحة عنده عن الإمام الصادق (ع) انه قال" إن اليتيم إذا بلغ ولم يكن له عقل لم يدفع إليه بشيء أبداً"[2] ومحل الاستدلال بالرواية مستفاد من مفهوم الخطاب لتعلق الحكم بالوصف وحجيته عند الأصوليين محل خلاف[3]، لعدم اتفاقهم على أن تعلق الحكم على الوصف يقتضي عدمه عند عدم ذلك الوصف ولكن الراجح عند جمهور الأصوليين ان مفهوم الوصف حجة[4] فلذلك اعتمده مشهور الفقهاء كدليل في الاستنباط الفقهي وأما الرأي الأصولي لابن الجنيد في مفهوم الوصف فالظاهر ومن خلال التطبيقات الفقهية انه حجة لأنه طبقه

على الأدلة المعتبرة فاستفاد منها أحكام شرعية وفي مختلف المسائل الفقهية المنقولة عنه[5] فلذلك أشكل عليه عدم عمله بهذا الدليل.

والذي يتبين من كلام ابن الجنيد في تحديد شروط الرشد أنه لم يعتبر العدالة كشرط في تحققه وهذا ما عليه مشهور الأمامية[6] وهو رأي أكثر فقهاء

٢٤٣

١- العلامة /المختلف/٥: ٤٣١

٢ -العاملي/ وسائل الشيعة /٣: ٤٢١

٣- الغزالي/المستصفى /٢: ١٩١ ، الامدي /الأحكام /٢: ٦٨ ، الجويتي/البرهان /١: ٤٤

٤- الرازي /المحصول /٢٢٨

١٠

١-انظر المسائل الفقهية التي نقلها العلامة في كتاب (المختلف)وفي العبادات مثلا

٦ -العاملي/ مفتاح الكرامة /٥: ٢٤٤، السبزواري /المهذب /٢١: ١٤١ ، البحراني /الحدائق /٢٠: ٣٥١

الجمهور[1] بينما اعتبره بعض فقهاء الامامية[2] وقليل من فقهاء الجمهور[3] شرطا في تحقق الرشد واكتمال الأهلية .

والذي يترجح عند الباحث رأي ابن الجنيد لان الأصل عدم اشترط العدالة في تحقق الرشد وهذا ما يحتاج إلى دليل معتبر وهو منتف في المقام مما يقتضي الرجوع إلى الأصل بالإضافة إلى أن المرتكز العرفي واللغوي يتبادر منهما إطلاق الرشد على غير العادل إن احسن التصرف في ماله بما يراه العقلاء معضدا ذلك بان إضافة العدالة تستلزم الضيق والحرج فلذلك قال الشهيد الثاني(اعلم انه لو اعتبرت العدالة في الثبوت لم تقم للمسلمين سوق ولم ينتظم للعالم حال لان الناس إلا النادر منهم إما فاسق أو مجهول الحال والجهل بالشرط يقتضي الجهل بالمشروط ويؤيده ورود الأوامر بالمعاملة والمناكحة مطلقاً من غير تقييد بالعدالة)[4] .

المطلب الثالث :الحجر على الصغيرة

قال ابن الجنيد :(الصبية اذا تزوجت ولها تسع سنين أيضا لم يحجر عليها وكان زوجها قيماً بما لها ومن اؤتمن على فرجها اؤتمن على مالها[5]).

هذا النص الفقهي المنسوب إلى ابن الجنيد فيه بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بكيفية اكتمال أهلية الأداء ورفع الحجر عن الصبية ببلوغها لسبع سنوات وبشروط و الأحكام هي:

١- ابن قدامة المغني /٤: /٥١ ، الكاساني ،بدائع الصانع/٧: ٧

٢- الطوسي/ المبسوط/٢: ٢٨٤ ، الخلاف /١: ٦٢٧،المحقق /الشرائع/١: ٢٠٤

٣- ابن قدامة المغني /٤: /٥١

٤- المسالك/ طبع حجر

١١

٥- العلامة /المختلف/ ٥: ٤٣٢

١-بحكم منطوق النص يعلق ابن الجنيد رفع الحجر عن الصبية ببلوغها تسع سنين ولكن بشرط الزواج وهذا ما عليه الإمام مالك وبعض فقهاء الجمهور[1] وبه يخالف إجماع فقهاء الامامية[2] حتى عد قوله شاذ لا مستند له[3] وهو يخالف النصوص المستفيضة التي لم عد الزواج شرطا في رفع الحجر بعد البلوغ والرشد والتي منها قوله تعالى "فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم"[4] نصت الآية على أن دفع الأموال وصحة التصرفات المالية متوقفة على الرشد الذي به يرتفع الحجر من دون فرق بين الذكر والأنثى لان الآية مطلقة والتقييد يحتاج إلى دليل وهو منعدم تماماً في المقام فلا يصح الاعتماد على الاستحسانات الظنية المخالفة لإطلاق الآيات القرآنية وأيضا أن الثابت عن الأئمة (ع) عن الرسول (ص) على خلاف ذلك فقد صحت الأخبار عن الإمام الصادق (ع) عن آبائه أنه قال ((اذا بلغت الجارية تسع سنين دفع إليها ما لها وجاز أمرها وأقيمت عليها الحدود التامة لها وعليها))[5] والنص صريح في عدم اشتراط التزويج في صحة التصرفات للصبية فلذلك هو أجنبي تماماً عن المقام. بل اكتفت الرواية في اشتراط البلوغ لرفع أو إثبات الحجر واكتمال الأهلية و أما الرشد فمستفاد من النص القرآني المتقدم و أما غيره فلا دليل عليه مما يقتضي القول أن الأصل عدم الاشتراط إلا اذا ثبت بدليل معتبر .

يرى ابن الجنيد وبحسب مسلكه الفقهي في الاستنباط بعد ثبوت الدليل

---

[1]- القرطبي /الجامع لأحكام القرآن /٥: ٢٧ ،ابن قدامه /المغني /٤: ٥١٧

[2]- الطوسي ،الخلاف /١: ٦٢٧/النجفي /الجواهر /٢٦: ٣٨

[3]- العاملي/ مفتاح الكرامة /٥: ٢٤١

[4]- النساء /٥

[5]- العاملي /الوسائل /١٣: ٤٣٢

١٢

المعتبر عنده أن الزوج قيم على مال الزوجة ولا يصح تصرفاتها المالية من دون إذنه وهذا مما انفرد به ابن الجنيد في نطاق المذهب فهو يخالف ما انعقد عليه إجماعهم برفع الحجر عن المرأة بعد البلوغ والرشد ومن بعد تحقق الوصف فيها فهي تملك كل تصرفاتها المالية وهي ولية نفسها وان انعدم وصف الرشد عنها تكون الولاية المالية للأب أو الجد لأب وإن علا دون أن تصل النوبة إلى الزوج كما صرح به ابن الجنيد و أما ما استدل به ابن الجنيد فهو لا يرقى إلى مستوى الدليل ا لشرعي وانه ليس إلا تأويلات ظنية[1] واستحسانات ضعيفة لا يصح اعتمادها في الاستنباط الفقهي واما وحدة المناط بين الائتمان على المال و الائتمان على الفرج فلا يصح لان الثاني متحقق بعقد شرعي و أما الأول لا مسوغ له أصلا مما يقتضي بقاءه على اصل مالكه وسلطنته عليه وانحصاره بالزوجة دون قيمومة للزوج وأخذ إذنه من باب الاستئناس لا الإلزام وتوقف الصحة عليه ولذلك تصح كل تصرفاتها ولا يصح تصرف الغير في مالها إلا بإذنها ورضاها حتى لو كان زوجها .

المطلب الرابع: إقرار المحجور عليه بسبب الجنون

من المتفق علية عند فقهاء المسلمين أن إقرار المكلف على نفسه بحق للغير يعتبره حجة شرعية وبه تثبت الحقوق والالتزامات بحيث يجب على من أقر سداد متعلق ذلك الحق ان أراد فراغ ذمته سواء تثبت به جناية أو حق مالي ومن دون فرق بين محجور عليه لمصلحيه المالية أو عدمها لان مناط الإقرار هو العقل وهو متوافر حتى في المحجور علية لان الحجر لم يسلبه أهلية العقل بل يمنع صحة تصرفاته في ماله وهذا ما عليه المسلك الفقهي في الاستنباط عند

١- العاملي / مفتاح الكرامة / ٥ : ٢٥٧ ، المحقق / الشرائع / ١ : ٢٠٥

١٣

فقهاء الامامية وبه قال ابن الجنيد " اذا اقر المحجور علية بجناية توجب القصاص عليه في نفسه والحدود في جسمه اخذ بها ، وان شاء ولي الجناية في العمد اخذ الدية أخذها من مال المحجور علية "[1] فهو يصحح إقرار المحجور عليه وبه تثبت الحقوق إلا انه جعل الخيار لولي الدم في الجناية العمدية بين القصاص البدني أو الدية من مال المحجور عليه بعد رفع يده عنه وهذا ما جعل الفتوى الفقهية على خلافه فلذلك اعرض عنه أكثرهم وأوجب على ولي الدم أن يطالب بالقصاص لانعدام الأهلية المالية التي يجوز بها الانتقال الى الديه وايضاً ان اطلاق النصوص تخالفه باعتبار ان موجب العمد هو القصاص ولا تثبت الدية الا صلحاً وليس للولي في هذا المورد الخيار لانعدامه حكماً بل ولا للجاني لرفع سلطنته عن ماله بسبب الحجر لتعلق حق الغرماء في مال المحجور عليه مما يسبب بطلان ماتصالح علية حكماً وانعدام موجبه والذي هو توافر الاهلية المالية.

ومن مسائل هذا الباب قول ابن الجنيد وفي خصوص اقرار المحجور انه (اذا اقر المحجور عليه بمال لرجل فلما فك حجره طالبه المقر له به فان اعترف به بعد الفك اخذه والا استحلف لان المدعي لايستحق علية ذلك الذي ادعاه)[2] فالظاهر من خلال هذا النص الفقهي .ان ابن الجنيد يرى ان ثبوت الحق باقرار المحجور عليه متزلزل يحتاج الى اعترافه بعد رفع الحجر

عنه وعند فقده فعليه رده باليمين وهذا الرأي مرجوع عند فقهاء الامامية لان الحق يثبت بالإقرار وان مناطه العقل وهو متوفر بالجملة في المحجور عليه لان الحجر لم يسلبه أهلية العقل وإنما منع من صحة تصرفاته في ماله لمصلحته أو لتعلق حق الغرماء فيه اللهم الا اذا كان الحجر لنقص في عقل المحجور عليه

---

[1] - العلامة /المختلف /٥: ٤٣٣

[2] - المصدر نفسه

١٤

وعندئذ يكون قول ابن الجنيد له وجه صحيح.

الخاتمة

من خلال النظر في مطالب البحث سواء ما تعلق منها بسيرته الذاتية أو الحياة الفكرية التي عاش فيها ابن الجنيد وما رافقها من تقتيم الفقهاء له وكيفية محاورته الفقهيه لهم وبمختلف الجوانب الشرعية ظهرت في البحث مجموعة نتائج أهمها :

١- أن ابن الجنيد عاش في القرن الرابع الهجري واستطاع أن يواكب الحركة العلمية ويؤثر فيها بمؤلفات فقهية آثرت مرحلته وأثرت في المرحلة التي بعدها.

٢- إن مااتهم به ابن الجنيد من عمله بالقياس أمر غير مقطوع به بل الأدلة الظاهرة على خلافه.

٣- إن اتهامه بالقياس قد اثر على طمس آثاره المعرفية وبمختلف جوانبها فلذلك أهملت مصنفاته واعرض العلماء عنها مما سبب في ضياعها .

٤- من خلال النظر في مدارك إحكامه الفقهية ظهر للباحث أن ابن الجنيد ممن يقول بحجة الخبر الواحد وضرورة اعتماده في استنباطه الفقه والا سوف ينتج عنه انسداد باب العلم والعمل بالظن .

٥- عند اجراء الاستقراء في المسائل الفقهية التي نقلت عنه وفي كتب فقه الخلاف يظهر انه ماكان ليخالف في المسائل الفقهية إلا بدليل معتبر يحتم عليه إظهار مسلكه الفقهي وان خالف فقهاء المذهب .

٦- من خلال النظر في المسائل الفقهية وخصوصاً في الحجر ومداركه المتعلقة برواية الأحاديث المروية عن الائمة (ع) يظهران أصله الرجالي في مجهول الحال هو الصحة فلذلك صحح كثير من الروايات بناءا على هذا الأصل .

المصادر والمراجع

الاردبيلي :- محمد بن علي الغروي الحائري (ت١١٠١)

١- جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد ، مطبعه ونكين ، إيران ١٣٣٤هـ.

الامدي:- سيف الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد (ت٦٦٣).

٢- الأحكام في أصول الأحكام ، مؤسسة الحلبي وشركائه القاهرة (١٣٨٧هـ).

البحراني: يوسف بن احمد بن إبراهيم آل عصفور

٣- الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة ،تحقيق محمد تقي الاروانـي، الطبعة الثانية بيروت.

البيهقي:- احمد بن الحسن بن علي (٤٥٨هـ)

٤-السنن الكبرى ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية ،حيدر إياد، الطبعة الأولى (١٩٢٥م)

الحرالعاملي:- محمد بن الحسن بن علي (ت١١٠٤هـ)

٥- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩١.

الحكيم:- محسن الطباطبائي ت ١٣٩٠.

٦ - مستمسك العروة الوثقى مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ،الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ -١٩٦٨.

الخوانساري:- الميرزا محمد باقر موسى الاصفهاني (ت١٣١٣)

٧- روضات الجناة في أحوال العلماء والسادات، طبع حجر، إيران ١٣٦٧م.

الخوئي :- أبو القاسم الموسوي (١٤١٣)

معجم رجال الحديث، مطبعة الآداب، النجف، الطبعة الأولى ١٣٩٠-١٩٧٠.

السبزواري :- عبد الأعلى الموسوي.

٩-مهذب الأحكام في مسائل الحلال والحرام، مطبعة الآداب، النجف ١٤٠٦

السيستاني :- علي الحسيني .

١٠- الرافد في علم الأصول، بقلم منير عدنان ،الحلقة الأولى

الطهراني :- اغابزرك محمد محسن (ت١٣٨٩)

١١ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة، مطبعة الغري، النجف، الطبعة الأولى.

الطوسي :- أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠)

١٢- كتاب الخلاف ، مطبعة زنكين دار المعارف الإسلامية طهران

١٣- المبسوط المطبعة الحيدرية النجف الاشرف (١٣٨٧)

١٤- الفهرست المطبعة الحيدرية النجف الاشرف (١٣٥٦)

ألعاملي :- محمد جواد محمد (١٣٢٦)

١٥ - مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة، إيران (١٤١٠).

العلامة الحلي :- الحسن بن المطهر ت٧٢٦.

١٦- مختلف الشيعة في أحكام الشريعة، إيران ١٤٠٨

ابن قدامة :- أبو محمد عبد الله بن احمد (ت٦٣٠).

١٧-المغني مع الشرح الكبير، بيروت، الطبعة الأولى

القرطبي :- أبو عبد الله محمد بن احمد (ت٦٧١)

١٨- الجامع لإحكام القران، مطبعة الكتب اللبنانية، الطبعة الثالثة.

المحقق الحلي :- جعفر بن محمد الحسن (ت ٦٧٦)

١٩- شرائع الإسلام في الحلال والحرام، تحقيق محمد جواد مغنية، مطبعة بيروت.

ألنجفي : محمد حسن (ت١٢٦٦)

٢٠- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، تحقيق عباس القوجاني، مطبعة النجف الطبعة السادسة.

مصطلح (القصة) في النقد القصصي العربي

نقد قصة نجيب محفوظ انموذجاً

داود سلمان العنبكي
كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة
قسم اللغة العربية

الخلاصة:

نبّه البحث إلى ارتباط المصطلح على وجه خاص بالكتابات المبكرة في تاريخ النقد الروائي العربي عامة ونقد رواية نجيب محفوظ خاصة، إذ غالباً ما يفضّل الناقد استخدام مصطلح (قصة) واطلاقه على الرواية المنقودة وعدم استخدام مصطلح (رواية).

وعرض البحث صوراً مختلفة لاستخدام نقاد نجيب محفوظ لهذا المصطلح، ومنها:-

١- الدلالة العامة التي تشير إلى فن القصة وأصنافها المختلفة أو إلى أعمال نجيب محفوظ القصصية عامةً.

٢- الدلالة العامة مرة والدلالة على أعمال نجيب الروائية مرة أخرى.

٣- الدلالة العامة مرة والدلالة على قصص نجيب القصيرة مرة أخرى.

٤- الدلالة على قصص نجيب القصيرة.

٥- التنقل بحرية بين مصطلح (قصة) ومصطلح (اقصوصة) عند الاشارة إلى قصص نجيب القصيرة.

وركز البحث على حقيقة أن مصطلح (القصة) من أكثر المصطلحات استخداماً بين نقاد القصة بسبب ما يمتلكه من عمومية تجعله صالحاً للاطلاق على جميع الأصناف القصصية.

ووقف البحث على الاستخدامات الخاصة للمصطلح وأشار إلى الاضطراب الاصطلاحي الذي اسهم به بعض النقاد.

ارتبط هذا المصطلح بشكل خاص بالكتابات النقدية المبكرة في تاريخ النقد الروائي العربي لشيوعه وعدم انتشار المصطلحات القصصية الأخرى. وكان نقاد الرواية يفضلون -على العموم- استخدام مصطلح (قصة) واطلاقه على الرواية المدروسة وعدم استخدام مصطلح (رواية) فضلاً عن أن مصطلح (رواية) كان مقترناً بأعمال قصصية هي غالباً ما تكون متدنية فنياً كالروايات البوليسية وروايات التسلية والترفيه. ومصطلح (رواية) كما هو معروف كان يستخدم أيضاً للدلالة على فن (المسرحية)[١].

ولهذا فقد اقتصر كثير من الكتابات النقدية المبكرة وعدد غير قليل من الكتابات النقدية اللاحقة على استخدام مصطلح (القصة). ولعل مما يجدر التنبيه اليه أن أول مقالة عن أدب نجيب محفوظ الروائي لم تطلق على رواية (عبث الأقدار) التي عنيت بها المقالة غير مصطلح (القصة)[٢].

ومن المقالات المبكرة التي اقتصرت على استخدام هذا المصطلح:

١- كفاح طيبة لنجيب محفوظ، سيد قطب، الرسالة، ع ٥٨٧، ١٢ اكتوبر، س١٢، ١٩٤٤، ص٨٨٩ و ٨٩٠ و٨٩١ و٨٩٢. و: د. أحمد ابراهيم الهواري، مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩، ص١٨٠ و١٨٢ و ١٨٤. و: الطريق والصدى، ص ١٥٢ و ١٥٤ و١٥٦ و ١٥٧.

٢. خان الخليلي، أحمد عبد الغفار، مجلة الراديو المصري، ٢٩ سبتمبر، ١٩٤٥. و: الطريق والصدى، ص١٥٩.

٣. القاهرة الجديدة قصة للاستاذ نجيب محفوظ ، محمد سعيد العريان، الكاتب المصري، مجلد ٣، ع ١٢، سبتمبر، ١٩٤٦، ص ٧٥٦-٧٥٧. و: الطريق والصدى، ص ١٦٥(٣).

٤. زقاق المدق، محمد فهمي، المقتطف، ديسمبر، ١٩٤٧. و: مصادر نقد الرواية، ص١٩٨ و١٩٩. و: الطريق والصدى، ص ١٧٨.

٥. بداية ونهاية لنجيب محفوظ، زكي المحاسني، الأديب، الجزء ١٠، س١٠، المجلد ٢٠، أكتوبر، ١٩٥١، ص٥٠-٥١. و: الطريق والصدى: ص٢٠٠ - ٢٠٢(٤).

ووجدنا هذا الاستخدام في كتابات لاحقة، منها:

١. أزمة الوعي السياسي في قصة السمان والخريف، د. محمد غنيمي هلال، الكاتب، ع٢٢، س٢، يناير، ١٩٦٣، ص ٢٤ وما بعدها.

٢. التفسير النفسي للأدب، د.عز الدين اسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، مايو، ١٩٦٣، ص ٢٥٠ و٢٥٢ على سبيل المثال.

٣. (ضو البيت أو بندر شاه) انتفاضة جديدة في الأدب السوداني، نبيل أصفهاني، الاسبوع العربي، ع٦٣٣، س١٣، ٢٦ تموز، ١٩٧١ ص٥١.

٤. أولاد حارتنا بين الرؤيا والتعبير، ريتا عوض، الآداب، ع٦، س٢٢، حزيران، ١٩٧٤، ص٥٠ و٥٣. و: أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، نيسان، ١٩٧٩، ص٢٠٦ و٢١٧.

ومصطلح (القصة) هو المصطلح الغالب على المصطلحات الأخرى التي ترد في كثير من المقالات، فسيد قطب يستخدم هذا المصطلح مرات عديدة في مقالته عن (خان الخليلي) لكنه لا يورد مصطلح (قصة طويلة) غير مرة واحدة في نهاية المقالة(٥).

وهو الغالب على مقالة أنور المعداوي عن (بداية ونهاية)[٦] ومقالة أحمد عباس صالح عن (السراب)[٧].

ويتنقل بعض النقاد بحرية بين مصطلحي (قصة) و (رواية) عند اشارتهم إلى روايات نجيب محفوظ، ومن هؤلاء د. عبد القادر القط الذي تنقل بين هذين المصطلحين استناداً إلى المعنى العام لمصطلح (القصة) حيث يجعله بمثابة الكل الذي يتضمن الأجزاء أو الأصناف القصصية، فهو يقول ((ومثال آخر من قصصنا المصري الحديث نجده في رواية نجيب محفوظ (بداية ونهاية)))[٨].

ويفعل ذلك مع الروايات التي يتعرض لها بالدارسة في كتابه إذ يسميها (روايات) مرة و(قصصا) مرة أخرى[٩]، فهو يقول قبل دراسة هذه الروايات ((وسأقدم في هذا البحث ثلاث قصص لثلاثة مؤلفين مصريين))[١٠]، وبعد أن ينتهي من دراستها يقول ((رأينا من دراسة تلك الروايات الثلاث))[١١].

والدكتور لويس عوض يطلق على (بين القصرين) مصطلح (قصة) مرة ومصطلح (رواية) مرة أخرى[١٢]. ويتنقل د.غالي شكري بحرية بين هذين المصطلحين في دراسته (معنى الجنس عند نجيب محفوظ)[١٣] التي عنيت بدراسة هذا الموضوع في عدد من روايات نجيب.

وهناك صور كثيرة من استخدامات مصطلح (القصة) في كتابات نقاد نجيب محفوظ، منها[١٤]:

١. استخدام المصطلح بدلالته العامة التي تشير إلى فن القصة وأصنافها عامة أو إلى أعمال نجيب القصصية عامة.
٢. استخدامه بدلالته العامة مرة وبدلالته على أعمال نجيب الروائية مرة أخرى.
٣. استخدامه بدلالته العامة مرة وبدلالته على قصص نجيب القصيرة مرة أخرى.
٤. استخدامه عند الاشارة إلى قصص نجيب القصيرة.
٥. التنقل بحرية بين مصطلحي (قصة) و (اقصوصة) عند الاشارة إلى قصص

نجيب القصيرة.

ويظل مصطلح (القصة) من أكثر المصطلحات التجنيسية استخداماً بين نقاد القصة بسبب دلالته العامة على جميع الأصناف القصصية وما يمنحه من حرية واسعة تنقذ الناقد من تهمة القصور والخطأ حينما يقف حائراً أمام تصنيف عمل قصصي ما وتمكنه من اطلاقه على جميع الأعمال القصصية.

وارتأينا من أجل توضيح السلطة الكبيرة التي يفرضها مصطلح (قصة) على النقاد أن نقف وقفة خاصة على كتاب د. محمود حامد شوكت (الفن القصصي في الأدب العربي الحديث) الصادر عام ١٩٦٣، فقد استخدم الناقد مصطلح (القصة) عند دراسته روايات نجيب التاريخية (عبث الأقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبة)[١٥]، وروايات أخرى لغيره، واستخدم مصطلح (الاقصوصة) عنواناً للفصل الذي درس فيه عدداً من القصص القصيرة، وهو المصطلح الذي جعله مرادفاً لمصطلحي (القصة القصيرة) و(القصة)[١٦]. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا يصرّ الناقد على الاقتصار على استخدام مصطلح (القصة) عند دراسته (الرواية) ولكنه يبتعد عن عموميته عند دراسته (القصة القصيرة) فيستخدم مصطلحي (الاقصوصة) و (القصة القصيرة)؟ فلو اقتصر الناقد على استخدام مصطلح (القصة) في الكتاب كله لأمكننا القول بسهولة: إن الناقد يفيد من عمومية مصطلح (القصة) وخاصة انه اختار لعنوان الكتاب هذا المصطلح لصلاحية اطلاقه على جميع الأعمال القصصية التي يدرسها في كتابه سواء أكانت روايات أم قصصاً قصيرة فهو يريد بلا شك التخلص من مسؤولية التحديد الدقيق للصنف القصصي بالاستناد إلى مصطلح (القصة) ذي الدلالة العامة وهو المصطلح الذي ينقذه من مشكلة الشروط الفنية لفن الرواية إذا ما استخدم مصطلح (الرواية) لأنه يعلم أن من بين الأعمال القصصية الطويلة التي يدرسها ما لا يقرن بالرواية إلا على سبيل التجوز. ولو لم يستخدم الناقد مصطلح (القصة) في الفصل الخاص بالقصة القصيرة لأمكننا القول: إن

مصطلح (القصة) لدى الناقد يشير إلى مصطلح (الرواية) كما يشير مصطلح (الاقصوصة) إلى (القصة القصيرة).

ان الباحث ليلمس حذراً واضحاً وامتناعاً مقصوداً من استخدام مصطلح (الرواية) إذ لا يبدو أن المصطلح بمعناه الفني قد اتيح له من الشيوع والاستقرار ما يشجع على الاطمئنان اليه والأخذ به من غير تردد. وكتاب د. محمود حامد شوكت وان كان قد طبع عام ١٩٦٣ إلا اننا نذهب إلى الظن بانه كتب في نهاية الخمسينات[١٧].

أما استخدامه مصطلح (الرواية) في الفصل الخاص بـ (حركة الترجمة) عند حديثه عن سلسلة روايات الجيب وروايات الصباح والرواية البوليسية[١٨]، فلا ينهض إلا دليلاً يضاف إلى ما قلناه عن حذره وامتناعه ذلك أن الناقد منقاد هنا إلى تسميات شائعة دالة على هذه الأعمال، وليس في هذا الاستخدام ما يعبر عن علاقه راسخة وواضحة بقضية المصطلح الروائي. فورود هذا المصطلح مقترناً بتلك الألوان القصصية ذات المستوى المتدني فنياً يكشف بوضوح عن نظرة الناقد المتواضعة عنها وهو الأمر الذي رسخ لديه فكرة أن مصطلح (الرواية) يقترن بالأعمال القصصية التي تفتقد إلى عناصر البناء الفني المكتملة على الرغم من أن الكتاب يثبت أن الناقد يمتلك وعياً نقدياً ناضجاً يميز بين درجات الاجادة الفنية في الأعمال القصصية.

ومما يثبت تلك النظرة المبكرة لدى الناقد عن مصطلح (الرواية) هو ورود ما يؤكد ميله إلى دلالة مصطلح (الرواية) على المسرحيات والتمثيليات وهو ما كان شائعاً في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ النقد الروائي العربي.

ويرد أيضاً مصطلح (الرواية) لدى د.محمود حامد شوكت عند ذكر رواية أجنبية مشهورة[١٩]. أو عند الحديث عن روايات جرجي زيدان التاريخية[٢٠].

أما عند حديثه عن أعمال طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ الروائية فانه لا يستخدم هذا المصطلح وهو ما يدل على حذر

واضح لم نلمسه عند ذكره رواية أجنبية معروفة لاقتران اسم الرواية بالمصطلح وهو الشيء نفسه الذي دفعه إلى اطلاق مصطلح (رواية) على أعمال جرجي زيدان لأن المصطلح قد صار شبيهاً باللازمة الشائعة التي ارتبطت بأعماله ، فتعبير (روايات جرجي زيدان التاريخية) أقرب إلى التسمية الدالة منه إلى المعنى الاصطلاحي لمصطلح (الرواية) لأننا نستبعد أن يكون الناقد قد فكر أصلاً بمصطلح (الرواية) الذي استخدمه.

وهذا الحذر نجده أيضاً في استخدامه مصطلح (القصة) نفسه فلا يرد غالباً المصطلح واسم الرواية مقترنين ببعضهما فهو يكتفي بذكر اسم الرواية ولا يصرح بالمصطلح قبله أو انه يستخدم المصطلح خلال حديثه عن الرواية وفي المواضع التي لا يرد فيها اسمها.

ويظل مصطلح (القصة) المصطلح الأثير لدى د.محمود حامد شوكت فهو يستخدم (القصص الطويلة)[٢١] و(القصة التاريخية المطولة)[٢٢] و(القصة الطويلة)[٢٣]، وهو في كل المواضع التي ترد فيها **صفة (الطويلة) لا يعني** غير سمة طول العمل القصصي أو حجمه وليس فيها ما يشير إلى وعي معين بقضية تجنيس الأعمال القصصية.

ويستخدم مصطلح (القصص العصرية الطويلة) ليشير به إلى روايات نجيب الاجتماعية المعروفة التي أعقبت رواياته التاريخية من دون أن يذكر أسماءها أو يتحدث عنها[٢٤] إلا أنه يصرح بأسمائها في كتابه الآخر (مقومات القصة العربية الحديثة في مصر)[٢٥].ويبدو أن مصطلح (القصة) قد ترسخ كثيراً في نفس الناقد وإلى الحد الذي يسمي فيه (القاهرة الجديدة) و(خان الخليلي) و(زقاق المدق) مجموعات[٢٦]، وهي تسمية لا تطلق إلا على القصص القصيرة المجموعة في كتب.

وإذا ما وجدنا كتابات يقتصر فيها أصحابها على استخدام مصطلح (قصة) عند الاشارة إلى روايات محفوظ وأخرى يغلب فيها استخدام هذا

المصطلح على المصطلحات الأخرى فاننا وجدنا أيضاً كتابات يقتصر فيها أصحابها على استخدام مصطلح (رواية) وأخرى يغلب فيها استخدام مصطلح (رواية) على المصطلحات الأخرى.

وإذا ما كانت هناك كتابات يتنقل أصحابها فيها بحرية بين مصطلحي (قصة) و(اقصوصة) عند الاشارة إلى قصص نجيب القصيرة فان هناك كتابات أخرى يتنقل فيها أصحابها بين مصطلحي (القصة القصيرة) و(الاقصوصة) لكن نقاداً آخرين يصرون على استخدام مصطلح (اقصوصة)[٢٧].

ويحاول بعض النقاد أن ينبه إلى استخدامه الخاص لمصطلح (قصة). فعنوان كتاب د.يوسف نوفل (القصة والرواية بين جيل طه حسين وجيل نجيب محفوظ)[٢٨] يوحي ابتداء إلى ان مصطلح (القصة) لدى الناقد مُعدٌّ لأداء دلالة خاصة أو للاشارة إلى صنف (القصة القصيرة) على وجه التحديد إلا أن سعي الناقد إلى شرح مصطلحه في مقدمة كتابه بالقول ((ونقصد من أشكال الفن القصصي الرواية وهي أطول تلك الأشكال، والقصة وهي ما تتوسط بين الرواية والقصة القصيرة))[٢٩] يسحب إلى الظن أنه يريد بهذا المصطلح الصنف القصصي (الرواية القصيرة) الذي يجعله كثيرون -ود.نوفل منهم كما نظن- مرادفاً لمصطلح (القصة القصيرة الطويلة) وبديلاً له وليس بصفته مصطلحاً ثانياً له سماته الخاصة التي تختلف عن سمات المصطلح الآخر (القصة القصيرة الطويلة) والذي نميل إلى اختصاره بمصطلح (القصة الطويلة)[٣٠].

ولكن د.نوفل قد اكتفى باشارته تلك في مقدمة الكتاب ولم يحاول تطبيقها عند تعرضه للروايات التي نتوقع استخدام مصطلح (قصة) للدلالة عليها انسجاماً مع تحديده الاصطلاحي له، فهو يطلق مصطلح (رواية) على روايات نجيب محفوظ القصيرة (اللص والكلاب) و(الطريق) و(الشحاذ) -التي كان واعياً بسماتها الاسلوبية الجديدة- وقصته الطويلة (قلب الليل)[٣١]. وهو المصطلح الذي يطلقه على روايات نجيب الأخرى من مثل : (عبث الأقدار) و(رادوبيس)

و(كفاح طيبة) و(القاهرة الجديدة) و(زقاق المدق) و(السراب)[٣٢].

ويبدو أن د.يوسف نوفل لم يكن جاداً تماماً عند تمييزه بين مصطلحي (الرواية) و(القصة) ولكنه أراد فقط أن يتخلص من مشكلة اصطلاحية بكلمات قليلة يقولها في المقدمة لتعفيه –كما تصور- بعد ذلك من متابعة استخدام المصطلح في متن الكتاب، إذ اننا لا نشك في انه كان مطلعاً على آراء نجيب محفوظ التي يؤكد فيها دائما أن أعماله بعد الثلاثية لا تنتمي إلى قالب (الرواية) بل هي تندرج في مصطلح (القصة) أو كما يسميه بالتعبير الإنكليزي (نوفيليت Novelette)[٣٣]، الذي يعني (الرواية القصيرة) والذي يعده كثيرون المصطلح البديل لمصطلح (القصة القصيرة الطويلة)، ولقد أراد د.نوفل مجاراة نجيب محفوظ وهو صاحب هذه الروايات القصيرة في هذا التوضيح خشية من الوقوع في الوهم الاصطلاحي[٣٤].

أما د.فاطمة الزهراء محمد سعيد فانها لم تقم بأي شرح اصطلاحي في مقدمة كتابها (الرمزية في أدب نجيب محفوظ) كالذي قام به د.يوسف نوفل في مقدمة كتابه ولكنها أفادت بصمت من مصطلح (قصة) بدلالته المحددة تلك- أي الاشارة إلى روايات نجيب القصيرة- وهذا ما نستنتجه من خلال عرضها طريقتها في دراسة روايات نجيب محفوظ، إذ تقول في مقدمة كتابها ((وسنحاول من خلال فصول الدراسة القادمة أن نعرض لقصص وروايات نجيب محفوظ))[٣٥]، وتقول في خاتمته ((من خلال دراستنا للقصة والرواية عند نجيب محفوظ))[٣٦].

ولما كان الكتاب مخصصاً لدراسة رواية محفوظ فقط فان هذا الاستخدام يعني انها تميز بين المصطلحين. ويؤكد هذا ماورد من عبارات تعزز هذه القصدية في الاستخدام، فهي تقول –على سبيل المثال- ((من خلال خمس قصص وروايات.. تبدأ.. بـ (اللص والكلاب)..(السمان والخريف) و(الشحاذ) و(ثرثرة فوق النيل) وتنتهي (بميرامار)))[٣٧].

وعلى الرغم من انها تورد في موضع آخر تعبير (قصص وروايات) وتطلقة على الروايات ليس بينها روايات محفوظ القصيرة حين تقول ((يكتب محفوظ ست قصص وروايات هي (القاهرة الجديدة)...ثم تليها قصة (خان الخليلي) ... وتليها رواية (زقاق المدق) ... وتليها قصة (بداية ونهاية)...وتليها قصة (السراب)...ثم رواية (بين القصرين)))[٣٨]، وبما لا يشير إلى أي تمييز بين المصطلحين إلا أن الواضح جداً انها لم تطلق على روايات نجيب القصيرة غير مصطلح (قصة) بينما كان مصطلح (رواية) هو المصطلح الرئيس عند تعرضها للروايات الأخرى التي سبقت (اللص والكلاب)، فهي لم تطلق غير مصطلح (رواية) على (بداية ونهاية)[٣٩] و(ثرثرة فوق النيل)[٤٠].

ولا يغير من حقيقة اطلاقها مصطلح (القصة) على روايات نجيب القصيرة التي تبتدئ بـ (اللص والكلاب) انها اطلقت مصطلح (رواية) على الرواية القصيرة (الشحاذ) في موضعين[٤١]، إذ لا يبدو الاستخدام معبراً عن موقفها وخاصة انها أطلقت المصطلح في غير الفصل المخصص لدراسة هذه الرواية. أما المصطلح (الرواية) الوارد في الفصل الخاص بـ (الطريق)[٤٢]، فقد جاء في نص نقدي مقتبس عن أحد نقاد نجيب محفوظ الذين عنوا بدراسة هذه الرواية القصيرة، ونستطيع أن نضيف إلى ما قلناه من أدلة استخدامها مصطلح (قصة) بتلك الدلالة الخاصة أن الناقدة تستخدم تعبير (المرحلة الروائية الجديدة)[٤٣]، وتعني به روايات نجيب محفوظ المتمثلة برواية (أولاد حارتنا) والروايات القصيرة التي تلتها مباشرة والتي كانت (اللص والكلاب) أولها. وقد مر بنا انها تطلق على هذه الروايات القصيرة مصطلح (قصة)، أما (أولاد حارتنا) فانها قد ميزتها من تلك الروايات ولم تطلق عليها غير مصطلح (رواية)[٤٤]، مع انها تدرجها مع تلك الروايات القصيرة في مرحلة واحدة تسميها (المرحلة الروائية الجديدة).

ويصر الناقد وليد نجار اصراراً غريباً على استخدام مصطلح (قصة) للدلالة على أعمال نجيب محفوظ الروائية التي عني بها في دراسته (قضايا السرد

عند نجيب محفوظ) وعدم اطلاق مصطلح (رواية) لأداء هذه الدلالة، وهو يقول بوضوح ((اعتمدت مصطلح (قصة) للدلالة على مؤلف من مؤلفات محفوظ ومصطلح (رواية) للدلالة على معناها العلمي كما فرضته عدة البحث في هذه الدراسة))[٤٥].

لقد أورد اسم الرواية مسبوقاً بهذا المصطلح (قصة) غالباً[٤٦]. واستخدم أيضاً تعبير (قصص نجيب)[٤٧]، إلا أن هناك أعمالاً أخرى لم ترد إلا مجردة من ذكر المصطلح[٤٨].

وسنتخطى ما في كلمتي (مؤلَّف) و (مؤلَّفات) من أصرار على عدم استخدام مصطلح (رواية) حين وجد أن من غير الملائم أن يعيد المصطلح نفسه (قصة) مرات عديدة في العبارة نفسها ونقول أن هناك مواضع عديدة قد دلت على وضوح القصد في ملاحظته المنهجية تلك ومنها قوله عن رواية (بداية ونهاية) ((لا تختلف هذه القصة عن (القاهرة الجديدة).. أما وفرة الوحدات الزمنية غير المحددة في هذه القصة))[٤٩]، أو قوله في موضع آخر عن روايتي (القاهرة الجديدة) و(خان الخليلي) ((لا تختلف دائرة التحول في قصة خان الخليلي عن القصة السابقة))[٥٠]، لأن القارئ يعرف أن المقصود بمصطلح (القصة) في هذين النصين هو العمل الروائي نفسه.

ولكن الناقد قد أسهم في اضطراب المصطلح والاخلال بملاحظته المنهجية في مواضع أخرى، فهو يقول ((وفي السراب تبدأ القصة بالتركيز على بطلها (كامل رؤبة لاظ) بعد أن فقد أمه وزوجته .. من هذه النقطة تبدأ الرواية برجوع متفاوت إلى الوراء))[٥١]. وهذا يعني انه استخدم المصطلحين (قصة) و (رواية) بدلالة واحدة هي (الدلالة العلمية) وهو ما لا تشير اليه ملاحظته المنهجية التي تضع لهذين المصطلحين دلالتين مختلفتين، وربما كان من الأوفق أن يقول ((وتبدأ قصة السراب بالتركيز على ...)) وهي العبارة التي استخدم ما يشبهها حين قال ((وهذا ما تبيناه في قصة السراب))[٥٢]، أو حين قال

((ففي قصة (السراب) مثلاً يظهر الكاتب..))[٥٣].

ويستخدم الناقد مصطلح (رواية) على غير الصورة التي أكدها في تلك الملاحظة المنهجية، فحين نقرأ قوله ((ونصل إلى رصد (التوقعات) في (الثلاثية) لنجد أنها داخلية متصلة بأحداث الرواية الأساسية))[٥٤]، فاننا لا نفهم من المصطلح المستخدم في عبارته تلك غير دلالته على العمل الروائي (الثلاثية) وهي ما كان ينبغي أن يؤديها مصطلح (القصة) على وفق ملاحظته.

ولكن أشد صور هذا الاضطراب تظهر في قوله ((عند نهاية كل قصة من (أولاد حارتنا) ابتداء من قصة (جبل) حتى قصة (عرفة)..))[٥٥]، إذ انه يجعل من كل فصل من فصول (أولاد حارتنا) رواية وتتحول الرواية إلى مجموعة من الروايات إذا ما أخذنا بدلالة مصطلح (قصة) لديه على العمل الروائي.

ويبدو أن الناقد قد نسي تحديداته الاصطلاحية تلك حين عرض لآراء تنظرية من مثل قوله في مقدمة محور التوقعات ((والتوقعات الخارجية كالرجعات الخارجية تتعلق عرضيا بالخبر الأساسي في القصة.. ونبدأ (بالتوقعات الداخلية) المؤلفة من اشارات مستقبلية تساهم بدورها في وظيفة الخبر الأساسي في القصة))[٥٦]، أو حين ينقل آراء عن الآخرين من مثل ((ثمة طريقتان بارزتان في كتابة القصة، يظهر الكاتب في الأولى كشخصية (كذا) مباشرة في حركة الأحداث بينما يغيب في الثانية ولا يظهر أي أثر لشخصه في مجرى الأحداث))[٥٧]، فالقارئ يفهم بوضوح تام دلالة هذا المصطلح الشائعة على فن القصة عامة لولا اسهام الناقد في اضطراب هذه الدلالة بعد تحديدها بمعنى خاص في مقدمة كتابه، وكان عليه في هذين الموضعين أو ما يشبههما ان يقدم –في الأقل– استدراكاً ينقذه من هذا الخلط.

وليس هناك بعد ذلك ما يدعو الى الامتناع عن استخدام مصطلح (رواية) للدلالة على العمل الروائي بل أنه ليس هناك ما يسوغ ملاحظته المنهجية أصلاً والتي لم تسهم ألا في خلق الاضطراب الاصطلاحي في الكتاب.

إن قارئ الكتاب يستطيع التمييز بين دلالة مصطلح (الرواية) في عبارة ((إن رواية (بداية ونهاية)..)) ودلالته في عبارة ((تبتدئ رواية احداث (بداية ونهاية)...)) ويبدو ان الناقد نفسه لم يكن مقتنعاً تماماً بالتحديد الذي ارتآه لمصطلح (القصة) فلم يستخدمه في عنوان كتابه لأنه رأى بلا شك أن العنوان على هذه الصورة (قضايا السرد في قصص نجيب محفوظ) غير مقبول تماماً لأن كتابه معني بدراسة الرواية وان مصطلح (قصص) أقرب إلى الدلالة على (القصة القصيرة) منه الى الدلالة العامة في مصطلح (القصة) الذي يقترن بالفن القصصي عامة، فاضطر الى حذف المصطلح وكان بأمكانه أن يستخدم مصطلح (الرواية) في متن الكتاب للدلالة على العمل الروائي وحينذاك سيجد أن من الأوفق ان يكون عنوان الكتاب (قضايا السرد في روايات نجيب محفوظ).

الخاتمة

ارتبط مصطلح (القصة)على وجه خاص بالكتابات المبكرة في تاريخ النقد الروائي العربي والمتمثلة بكتابات سيد قطب ود.طه حسين و..اذ غالبا ما يفضل الناقد استخدام مصطلح (قصة) واطلاقه على الرواية المدروسة وعدم استخدام مصطلح (رواية). فمصطلح (قصة) هو المصطلح الشائع في ذالك الوقت فضلاً عن اقتران مصطلح (رواية) بأعمال هي غالباً ما تكون متدنية فنياً كالروايات البوليسية مثلاً.. ومصطلح (رواية) كما هو معروف كان يستخدم أيضاً للدلالة على (المسرحية) وهو استخدام ما زلنا نجد آثارة حتى الان وخاصة في مصر.

وعرضنا الصور المختلفة لاستخدامات النقاد لهذا المصطلح وركزنا على الوقوف أمام الاستخدامات الخاصة له. فالدكتورة فاطمة الزهراء محمد سعيد لاتستخدم مصطلح (قصة) إلا لأداء دلالة خاصة وهي قرنة بروايات نجيب القصيرة من مثل (اللص والكلاب) و(السمان والخريف) و(الطريق). أما

مصطلح (رواية) فأنها استعملته مع أعمالة الروائية التي سبقت (اللص والكلاب) من مثل (القاهرة الجديدة) و(خان الخليلي) و(زقاق المدق).

ويصر د.وليد نجار اصراراً غريباً على الاعلان بأنه قد استخدم مصطلح (قصة) للدلالة على أعمال نجيب محفوظ الروائية ولم يستخدم مصطلح (رواية) إلا بدلالته العلمية، وهو قيد اصطلاحي ليس له ما يسوغه فضلاً عن أن الناقد نفسه قد أسهم كثيراً في اضطراب المصطلح وتشويش ذهن القارىء لأنه قد أخلّ بالاشتراطات الاصطلاحية المنهجية التي أعلنها.

وهناك نقاد آخرون كالدكتور عز الدين اسماعيل و د.محمد غنيمي هلال

-على سبيل المثال- لم يستخدموا غير مصطلح (قصة) عند الاشارة إلى روايات محفوظ لكنهم لم يصطنعوا شرطاً منهجياً ولم يختلقوا قيداً غير ضروري، ولهذا فان القارئ يدرك بسهولة أنهم يستندون إلى دلالة المصطلح العامة التي تتسع لاحتواء جميع الأصناف القصصية.

وللسبب نفسه فان هناك نقاداً يتنقلون بحرية بين مصطلحي (قصة) و(رواية) عند الاشارة إلى رواية ما. ومن هؤلاء د.عبد القادر القط ود. غالي شكري ورجاء النقاش...

الهوامش والتعليقات والمصادر ❖

(١) لعل من الطريف أن نشير إلى أن دلالة مصطلح (رواية) على فن المسرحية ترد في بعض أعمال نجيب محفوظ نفسه فقد ورد في قصة قصيرة عنوانها (روض الفرج) تضمها مجموعته القصصية (همس الجنون) ان الاسطى شبلي يقول للشاب عبد المعز ((تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة رواية (اشمعنى) وهي كوميديا في غاية الاضحاك والبهجة، مارأيك؟)) – الناشر مكتبة مصر، الفجالة، دار مصر للطباعة، ط٥، ١٩٦٦، ص١١٤. وتنظر ص ١١٥، وليس عام ١٩٣٨ هو تاريخ الطبعة الأولى لهذه المجموعة وكما تذكر قوائم أعماله الملحقة بطبعاتها بل هو عام ١٩٤٧ على الظن الغالب. ينظر في تفصيلات هذا الموضوع:

د. عبد المحسن طه بدر، نجيب محفوظ الرؤية والأداة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مطبعة دار نشر الثقافة، الفجالة، ١٩٧٨، ص٩١ وما بعدها – وفي روايته القصيرة (عصر الحب) تتحاور الشخصيتان على النحو الآتي: ((فقال الاستاذ يوسف راضي: لا تنسى (كنا) انهم يغيرون العرض كل اسبوع والمكان لا يحتمل عرض رواية واحدة أكثر من اسبوعين أو ثلاثة ولو كانت جديدة. فقال حمدون: أنا عندي أيضاً رواية جديدة!)). ويقول يوسف راضي في موضع آخر ((من المناسب أن تفتتح الموسم بروايتي)) –مكتبة مصر، الفجالة، دار مصر للطباعة، القاهرة، ب. ت، ص ٩٤و ١١٣ على التوالي. والطبعة صدرت بعد فوز نجيب بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨. وقد صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عام ١٩٨٠-. والمقصود بمصطلح (رواية) في جميع هذه المواضع هو النص المسرحي الذي يمثل على المسرح. وورد في رواية نجيب القصيرة (أفراح القبة) مصطلح (رواية) ليؤدي هذه الدلالة مرة واحدة حين يعلق طارق رمضان احدى شخصيات الرواية قائلاً ((شيء مضحك، رواية هزلية، المحروس سيتزوج من بهية)) –مكتبة مصر، الفجالة، دار مصر للطباعة، ط٣، ١٩٨٧، الفصل المسمى باسم هذه الشخصية، ص٢٠. وقد صدرت

× عمدت إلى ذكر المواضع المختلفة التي نشرت فيها الدراسة والمقالة النقديتان لأجل معرفة التاريخ الدقيق للنشر الأول ولتسهيل رجوع القارئ اليهما، ولم أخصص لمصادر البحث فقرة خاصة بسبب كثرة هذه المصادر فضلاً عن انها مذكورة في هوامش البحث.

الطبعة الأولى من هذه الرواية عام ١٩٨١ -. ومن الجدير بالذكر أن مصطلح (مسرحية) قد استخدم كثيراً في هذه الرواية بسبب انها تنتمي إلى ما يسمى بـ (رواية النص) وان ثيمتها الرئيسة تقوم على قضية النص المسرحي والتمثيل والمتلقي. وواضح أن مصطلح (رواية) في الشاهد الذي ذكرناه لا يشير إلى فن المسرحية حقيقة لأن صاحبه يريد القول أن زواج هاتين الشخصيتين يشبه ما يحدث في المسرحية الهزلية.

ومن المفيد أن نذكر أن هذه الدلالة ما زالت شائعة في ما نشاهده من أعمال سينمائية وتلفازية مصرية.

وتجدر الاشارة إلى أن د.علي شلش يذهب في تعليقه على مقالة سيد قطب المنشورة في مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ عن رواية (القاهرة الجديدة) إلى أن مصطلح (القصة) كان في وقتها شائعاً في مصر في الوقت الذي كان فيه ((أبناء الشام يميلون إلى استخدام مصطلح (الرواية))) – الطريق والصدى، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠، ص١٢٢- .

ولا أرى أن استخدام هذين المصطلحين كان خاضعاً لقانون جغرافي، لأن الحقيقة الراسخة التي تصدق على بلدان عربية عديدة ومنها مصر والعراق وغيرهما ما أشرنا اليه من أن مصطلح (القصة) هو المصطلح الشائع في تلك المراحل المبكرة وأن مصطلح (رواية) يقترن بالأعمال القصصية المتدنية فنياً كالروايات البوليسية وروايات التسلية والترفيه فضلاً عن اقترانه بفن المسرحية.

(٢) محمد جمال الدين درويش، عبث الأقدار، تأليف الاستاذ نجيب محفوظ، الرسالة، ع٣٢٦، س٧، ٢ اكتوبر، ١٩٣٩، ص١٩٢١-١٩٢٢.

و: الطريق والصدى، ص١٥١.

(٣) وتوثيق المقالة الصحيح هو ما ذكرناه وليس كما ذكر د.شلش من أن المقالة نشرت في يوليو.

(٤) وينظر أيضاً ما كتبه د.طه حسين حيث انه يستخدم تعبير (قصص الاستاذ نجيب محفوظ) ومصطلح (قصة) على امتداد مقالته (أصداء) وبالدلالة الأقرب إلى مصطلح (الرواية) – الجمهورية، ٢ /٩/ ١٩٥٤. و : خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ك٢، ١٩٧٨، ص١٣٨. وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في بيروت عام ١٩٥٥- وفي مقالته (من أدبنا الحديث) التي عنيت برواية (زقاق المدق) لم يستخدم غير مصطلح

(القصة)- نقد واصلاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط١١، ك٢، ١٩٨٧، ص١١٥ و١١٦ و١٢٢ على سبيل المثال. واستخدم ايضاً كلمة (كتاب) - ينظر ص ١١٥ - ١١٦ على سبيل المثال-. ولم أتمكن من معرفة تاريخ نشر المقالة الدقيق ولم يذكرها د. حمدي السكوت ود. مارسدن جونز في (اعلام الأدب المعاصر في مصر سلسلة بيوجرافية نقدية بيليوجرافية -١- طه حسين)، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، يوليو، ١٩٧٥. وقد صدرت الطبعة الأولى من كتاب (نقد واصلاح) في بيروت عام ١٩٥٦-. ولم يستخدم أيضاً غير مصطلح (القصة) في مقالته (بين القصرين قصة رائعة للاستاذ نجيب محفوظ)- الجمهورية، ٦ فبراير، ١٩٥٧. و: من أدبنا المعاصر، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة مصر، ط٢، مارس، ١٩٥٩، ص٨٠ و٨٢ على سبيل المثال. وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٨-. وينظر ما كتبه توفيق حنا في مقالته (زقاق المدق)- الرسالة الجديدة، ع٢٩، اغسطس، ١٩٥٦. و:الرجل والقمة، بحوث ودراسات الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٩، ص ٤٣٦-.

(٥) خان الخليلي، الرسالة، ع٦٥٠، ١٧ ديسمبر، ١٩٤٥، ص ١٣٦٤و١٣٦٥ و١٣٦٦. و: غالي شكري: نجيب محفوظ ابداع نصف قرن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٥و ٣٦ و٣٨ و٣٩. و:الطريق والصدى، ص١٦٠ و١٦١ و١٦٣ و١٦٤.

(٦) بداية ونهاية لنجيب محفوظ، الرسالة، ع ٩٣٩، س١٩، ٢ يوليه، ١٩٥١، ص٧٥٧-٧٥٩. و: نماذج فنية من الأدب والنقد، لجنة النشر للجامعيين، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، الفجالة، ١٩٥١، ص١٨٧- ١٨٨ و١٩٠. و: الطريق والصدى، ص١٩٣- ١٩٤ و١٩٦. واستخدم مصطلح (رواية)- الرسالة، ص٧٥٩. و:نماذج فنية، ص١٩٠. و:الطريق والصدى، ص١٩٦-. ولا أدري لماذا تحول تعبير (الرواية الممتازة) إلى مصطلح (الرواية القصصية) عند د.شلش؟. والتاريخ الصحيح لنشر المقالة هو ما ذكرناه وليس ٢يونيو كما ذكر د.شلش.

(٧) السراب، الأديب المصري، يناير، ١٩٥٠. و:الطريق والصدى، ص١٨٩ و١٩٠ و١٩١. وقد ورد تعبير (روايات طويلة) -الطريق والصدى، ص١٨٩- ومصطلح (قصة طويلة) -الطريق والصدى، ص١٨٩ و١٩٢-.

وينظر أيضاً ما كتبه: ثروت أباظة، زقاق المدق قصة الأستاذ نجيب محفوظ، الرسالة، ع٧٦٠، س١٦، ٢٦ يناير، ١٩٤٨، ص١٢٥. و: الرجل والقمة، ص٧١- ٧٣، وعبد الرحمن علي، بين

بحثاً عن المنطلقات الفكرية في النص القصصي "موت سرير رقم ١٢" مصداقا

عبد الهادي احمد الفرطوسي
كلية الآداب - جامعة القادسية

مدخل

ابتداء تفتح لفظة "موت" من العنوان نافذة على التجلي الدلالي الأول للنص ، ونلمس علاماته من خلال حضور الراوي شخصية مشاركة في الأحداث مقابل حضور المروي له شخصية واضحة المعالم ، يبرز الأول بوصفه مريضا راقدا في المستشفى وتلك حالة وسطى بين الحياة والموت أو طريق من الحياة إلى الموت ، اما الثاني فهو شخص معافى لكن الموت يظهر في أدائه اللغوي بوصفه الذروة العليا للحياة. ثم يأخذ الراوي الواحد موقعين متقابلين: الأول موقع الراوي العليم الذي يرصد البطل من الداخل والخارج ، والثاني موقع الراوي الخارجي ، وبازدواج الموقعين تولد وجهة النظر المزدوجة إلى الموت .

وتحيل عبارة "رقم ١٢" من العنوان على مقولة آلان روب غرييه ومفادها ان الحقبة الحالية هي حقبة الشخص المرقم[١] ، الذي أنتجه المجتمع الرأسمالي المتطور ، فتنشأ بذلك الموضوعة الأهم في النص التي تحقق حضورها عبر عدة

---

[١] نحو رواية جديدة: آلان روب غرييه : مصطفى ابراهيم مصطفى :دار المعارف - مصر :٣٦ .

مفارقات :

أولها أن في الوقت الذي يبشر غربيه في هذه المقولة بموت قصة الشخصية "باعتبارها أصبحت ملك الماضي"[1] ، فإن النص الذي أمامنا هو قصة شخصية لا قصة حدث.

والثانية أن سبب موت الشخصية عند غربيه هو وصول المجتمع إلى عصر الرأسمالية ، أما قصة غسان كنفاني فتدور أحداثها في مجتمع متخلف ، كما يتضح من سياق النص ووصف الأمكنة وتصوير العلاقات الاجتماعية.

والثالثة ، وهي مرتبطة بالثانية اختيار النصف الثاني من القرن العشرين ، وهو عصر الإمبريالة بوصفها أعلى مراحل الرأسمالية، زمانا لأحداث القصة واختيار منطقة الخليج بما يحمله من تخلف حضاري في خمسينيات القرن العشرين مكانا للأحداث .

وتجر هذه المفارقة إلى مفارقة رابعة ، هي أن المكان ينقسم على موضعين ، فتبدأ الأحداث في مدينة أبخا العمانية الأشد تخلفا ، وتنتهي في الكويت البلد النفطي الذي يتجه مسرعا نحو الرأسمالية.

تشكل النقاط الأربع الآنفة الذكر علامات أولى على التجلي الدلالي الثاني الذي تشي به عبارة "رقم ١٢" من العنوان .

ويتحقق التجلي الدلالي الثالث بعبارة "سرير" التي تتوسط مساحة الفضاء النصي للعنوان واقعة بين لفظة "موت" وعبارة "رقم ١٢" ، والتي تدل على النوم ، ولعل النوم حالة وسطى بين الموت والحياة ، ولما كانت اللفظة المذكورة متضمنة الدلالة على الظرفية المكانية ، وبإحالتها على النوم فهي تومئ إلى الفضاء الوسطي الذي يقترب كثيرا من فضاء العتبة الذي أشار إليه باختين في

---

١ نفسه : ٣٦ .

دراسته عن دستوفسكي.

هكذا تتشابك التجليات الدلالية الثلاثة التي أوحى بها العنوان ، وبتشابكها في النص تقودنا إلى المعنى العميق للعمل.

الراوي والمروي له

يأخذ العمل شكل رسالتين يبعثهما الراوي إلى صديقه المروي له ، وبهذه التقنية يحقق المؤلف جملة أهداف أهمها أنه يضع الراوي وجها لوجه مقابل المروي له ، وبالحوار بينهما يكشف لنا عن علاقة كل منهما بموضوعة الموت : فالراوي يقول : " إنني أقضي شهري الثاني في هذه المستشفى ، إنني أشكو من قرحة في أمعائي "[1] ، وهو بهذا المكان يرى بعينه قبح الموت وبشاعته ، والفرق بين من يرى الموت بعينه وبين من يسمع عنه " فرق شاسع لا يستطيع أن يدركه إلا من يشاهد إنسانا ينكمش على سريره ... "[2] .

أما المروي له فلا يرى قبح الموت ولا يشعر ببشاعته ؛ لذلك يجده الطرفَ الآخرَ لكل شيء ، او هو ذروة كل شيء ، هكذا يقدمه الراوي : " كنت تستعمل كلمة الموت ، للتدليل على التطرف ، لطالما سمعت منك أمثال هذه الجمل : كاد يموت من الضحك ، وإني تعب حتى الموت ، وإن الموت لا يستطيع أن يسكت حبي ... "[3] ، وفي الرسالة الثانية يرفض المروي له الرؤيا التراجيدية للموت بالطريقة التي قدمها الراوي : " الناس يموتون ببساطة أشد ، ذلك الذي وقع عند الرصيف فانطلق مسدسه المحشو ومزقت الرصاصة عنقه ، كان ذاهبا مع

---

١ الآثار الكاملة : ٢ : غسان كنفاني: دار الطليعة : ١٩٧٣ : ١٢٧ .

٢ نفسه : ١٢٨ .

٣ نفسه : ١٢٧ .

فتاة رائعة الجمال ، والذي قتلته نوبة قلبية في الطريق ...[1] .

يتكرر هذا التقابل بين الراوي والمروي له في أكثر من موضع مسلطا الضوء على كلا الشخصيتين : لقد كان فقيرا ، فقيرا جدا أكثر مما تتصوّر أنت بخيالك الباذخ المتسكع في المقهى[2] ، تقابله صورة الراوي : حينما استطعت أن أسير على قدمي لأول مرة بعد عملية الترقيع[3]

بين وجهة نظر الراوي ووجهة نظر المروي له ينشطر البطل إلى شخصيتين : واقعية ومتخيلة ، وقبل ذلك ينشطر الراوي إلى راويين بموقعين مختلفين أحدهما راو خارجي يتابع الأحداث من خلال الوثائق ، والآخر راو عليم يعرف كل شيء عن البطل القابع في زاوية من مخيلته، وبانشطاره ينشطر المتن الحكائي إلى متنين : متن واقعي وآخر متخيل .

يقدم الراوي البطل الواقعي من خلا ل بطاقة معلقة على سريره فيقرأ : الإسم : محمد علي اكبر . العمر : ٢٥ عاما ، الجنسية عماني (...) سرطان في الدم[4] ، ثم تتضح شخصيته في الصفحات الأخيرة من العمل ، من خلال التقرير الذي كتبه الطبيب عنه : كان أبا لخمسة أطفال وكان بحارا ... : وصل قبل أربع سنوات إلى الكويت باحثا عن عمل ، وقبل شهرين فتح شبه دكان على الرصيف[5] ، ثم مرض ورقد في المستشفى شاغلا السرير رقم ١٢ ، وكان أن عميت عيناه قبل خمس ساعات من موته .

ذلك هو المتن الحكائي الأول ، أما المتن الثاني فهو فرع يتشعب عن

---

١ نفسه : ١٤٩ .

٢ نفسه : ١٣٠ .

٣ المكان نفسه.

٤ نفسه : ١٢٩ .

٥ نفسه : ١٥٠ .

المتن الأساسي الأول مقدما الشخصية المتخيلة بوصفه سقاء في مدينة أبخا ، يقع في حب فتاة سمراء فيكلف أخته ان تخطبها له ، لكن أهلها يرفضون تزويجها إياه ؛ بسبب تشابه في الاسم بينه وبين لص يحمل اسم محمد علي ؛ لذلك تضيق أبخا بعين البطل ، وتبزغ في ذهنه فكرة تعوض عن إحساسه بالخيبة هي فكرة جمع الثروة الكبيرة ، هكذا يقرر الرحيل إلى الكويت ، ويعمل فراشا في إحدى الدوائر .

في هذين المتنين يعرض المؤلف رؤيتين متباينتين للموت :

الموت بوصفه مأساة انطولوجية كما يصورها المتن الحكائي المتخيل ، والموت بوصفه حدثا يوميا مألوفا يشكل نهاية منطقية لحياة كل فرد ، كما يعرضه المتن الحكائي الواقعي .

بؤرة الحكي

تتشكل الدلالة الكلية للنص من خلال تشابك المتنين المذكورين في مبنى حكائي واحد ، يستفيد من تقنيات تيار الوعي ، فيبدأ عرض المتن الحكائي من نهاية الأحداث، بتصوير لحظة الموت : "ينكمّش بغطاء سريره بكل ما في أصابعه الراجفة من قوة كي يقاوم انزلاقا رهيبا إلى الفناء ..."[١] ، وبعد خمسة أسطر : " عدت أحدق إلى الوجه النحيل الأسمر والعيون الراعفة (...) لقد دارت العيون حتى استقرت على وجهي وخيّل الي أنه يستغيث بي ، لماذا ؟ ... لقد بقي يحدق الي تم ببساطة مات"[٢] .

بهذه السطور القليلة يعرض وجهة النظر الأولى تجاه الموت بوصفه مأساة أنطولوجية ، لكنه سرعان ما ينتقل إلى تقديم وجهة النظر الثانية باستكماله

---

١ نفسه : ١٢٨ .

٢ نفسه : ١٢٣ .

لتصوير الموت ذاته : " سمعت صوت الممرض يقول ببساطة في الممر المجاور للباب :

- مات سرير رقم ١٢ "[١] .

لن نجانب الصواب إذا اعتبرنا هذه السطور نموذجا لما أسماه سعيد يقطين بـ " بؤرة الحكي" والتي وصفها بالوظيفة الأم والنواة المركزية ، وهي فعل واحد تظل كل الأفعال متصلة به[٢] ، فإن السطور الآنفة الذكر تتسم بالظواهر الآتية:

١ في الوقت الذي تعرض وجهتي النظر المتضادتين ، يبدأ منها تشعب المتن الحكائي المتخيل : " لقد دارت العيون حتى استقرت على وجهي وخيل إلي أنه يستغيث بي ، لماذا؟ ألأنني كنت أطرح السلام عليه كل صباح ؟ أم لأنه شاهد في وجهي فهما للرعب الذي يعانيه ؟ لقد بقي يحدق إلي ... "[٣] .

لا نكتشف ارتباط هذا الكلام بالمتن المتخيل حتى نصل إلى نهاية النص : " لقد قرأت في التقرير الذي وضعه الطبيب ان المريض قد عميت عيناه قبل موته بست ساعات"[٤] .

٢ من هذه البؤرة ينهض التجلي الدلالي الآخر " الإنسان المرقم " معانقا التجلي الأول ، ففي الوقت الذي نقرأ اسم محمد علي أكبر كاملا غير قابل للتجزئة مقترنا بجنسه وعمره في البطاقة المعلقة على سريره ، نسمع صوت الممرض يعلن موت سرير رقم ١٢ .

في بؤرة الحكي الممتدة على ستة عشر سطرا ، من قوله : " وحين كان

---

١ نفسه : ١٢٩ .

٢ قال الراوي : سعيد يقطين : ٣٥ .

٣الآثار الكاملة :٢ : ١٢٩ .

٤ نفسه : ١٥٠ .

بنهض ... إلى قوله : - مات سرير رقم ١٢ "[1] تتجلى التقابلات الآتية :

١ التقابل الرئيس بين النظرة المأساوية إلى الموت والنظرة الهامشية، فتعرض الأولى على امتداد الأسطر الأحد عشر الأولى ، وتعرض الثانية في سياق السطور الخمسة الأخيرة .

٢ الزمان : تتجسد الرؤية الأولى في اللحظات الأخيرة من عمر البطل وتختتم بموته ، بينما تأتي الثانية بعد تحقق الموت فعلا .

٣ المكان : ترد الأحداث المعبرة عن الرؤية الأولى ، أمام أنظار الراوي في غرفة البطل ، وهو يشارك الأطباء والممرضين الوقوف حول سريره ، أما الرؤية الثانية فتأتي في مكان بعيد عن المكان الذي يجري عليه الموت ، يسمعها الراوي بصورة خبر عابر من مكان آخر .

٤قق الرؤيا المأساوية للموت مقترنة بالاتصال بين الراوي والبطل ، فالراوي كان يرى موت البطل بأمّ عينيه وكانت عينا البطل تستقر عليه و تتشبث به مستنجدة ، أما الرؤية الثانية فتتحقق والراوي منفصل عن البطل في غرفة أخرى : "اكتشفني الطبيب جرني غاضبا إلى غرفتي ..."[2]. ٥ يولد التجلي الدلالي الآخر بصورة التقابل بين الاسم الكامل للبطل ورقم سريره ، مقترنا بالتقابل بين طرفي التجلي الدلالي الأول ، وعلى وفق الثنائيات الآتية :

أ - الاسم كاملا في الجزء الأول من النص الذي يمثل بؤرة الحكي ، أما الشخص المرقم فلم يرد إلا في السطر الأخير من النص.

ب - ورد الاسم موثقا على بطاقة مكتوبة ومعلقة على سرير البطل ، أما الرقم فقد ورد مسموعا بصورة عابرة.

---

١ نفسه : ١٢٩ .

٢ نفسه : ١٢٩ .

ج - جرى تدوين الاسم والمعلومات المرافقة له من قبل الطبيب المختص ، أما الرقم فقد ذكر من قبل الممرض.

د - صورة الاسم الكامل للبطل توجد في الردهة التي تمثل مسرح الأحداث ، أما رقمه فيذكر في ممر جانبي.

تشكل التقابلات المذكورة في بؤرة الحكي علامات سيميائية على ثلاثة أمور :

الأول التواشج الوثيق بين التجليين الدلاليين المذكورين.

الثاني : ارتباط الطرف الأول من التجلي الثاني (الفرد المسمى) بالطرف الأول من التجلي الأول (الموت المأساوي) وارتباط الطرف الثاني من التجلي الثاني (الفرد المرقم) بالطرف الثاني من التجلي الأول (مجانية الموت).

الثالث :هيمنة الرؤيا الأولى التي يجسدها الطرف الأول على المستوى الدلالي العام للنص مقابل هامشية الرؤيا الثانية.

من الشخصيات التي أنتجها النص نقف أمام شخصيتين متقابلتين : شخصية الأخت ، و شخصية الممرضة :

الأولى تبرز من المتن المتخيل ، بوصفها أخت البطل الذي أفقده الموت أمه، و أقعد العجز أباه ، فصارت تلك الأخت أبا وأما للبطل ، وكانت المعين له في الوصول إلى هدفه الأسمى الزواج ، لقد أدى فشلها في تحقيق الهدف إلى انفصال البطل عنها برحيله بعيدا ، كان سبب الفشل هو تجزئة الاسم : " - حدث خطأ قلت لهم في أول مرة أن اسمك محمدعلي، لم أقل محمد علي أكبر لأني لم أشعر بحاجة لكي أقول.. "[١٠] .

يتأكد ذلك على لسان الراوي :

انفسه : ١٣٧ .

"كلمة واحدة وقفت في حلق القضية فماتت"[1] .

هكذا يتشابك التجليان الدلاليان ببعضهما ، ففشل الزواج (العلامة الأقوى على الحياة) يأتي نتيجة تجزئة الأسم .

على هذا الحدث الذي تكون شخصية الأخت بطلة له تنعقد حبكة المتن الحكائي المتخيل، فهو يمثل - بحسب بروب - وظيفة الإساءة[2] ، التي لا تنتهي الحبكة إلا بإصلاحها ، يمنح ذلك شخصية الأخت وظيفة سيميائية مهمة في النص ، فإذا تذكرنا أن المشكلة من وجهة نظر الراوي هي " مشكلة انعدام أو خلود"[3] فإن وظيفة الأخت ستكون مزدوجة بين الأمرين ، فهي بسعيها في سبيل زواج البطل تسهم في تحقيق الخلود ، وبخطئها الذي أدى إلى منع الزواج تسهم في إيصال البطل إلى الفناء ، وتبقى شخصيتها المزدوجة تهيمن على أحداث المتن المتخيل ، فالبطل في مواجهته للعالم الجديد لا يستطيع أن يراه أنيسا الا حين ينظر إليه بعيني اخته سبيكة وأهل قريته : " بدأت ملامح الشوارع ومعاني الجدران تدخل إلى رأسه...أحسّ بشيء من الألفة ولكنها ألفة ملصوقة على خلفية مَن شعور قاتم بأنه إنما يلاحق بعيون أخته سبيكة"[4]، هكذا تجمع سبيكة بين الألفة والشعور القاتم . وتبقى محفوظة في ذاكرته علامة من الماضي الجميل في أبخا مشيرة إلى مستقبل اجمل :

" كان ثمة في الصندوق حلق خزفي لأخته سبيكة تزين به أذنيها إذ يعود لأبخا"[5]، وهنا لا بد من الانتباه إلى أن الأخت التي تحمل الاسم "سبيكة"، الذي

١نفسه :١٣٨ .

٢ ينظر :مورفولوجيا الخرافة : فلادمير بروب :

٣ الآثار الكاملة : ٢ :١٤٩ .

٤ : نفسه :١٤١ .

٥ : نفسه : ١٤٢ .

يحيل على الذهب والفضة ، لا تتزين الا بالخزف، لأن البطل جاء حاملا في ذاكرته أسم سبيكة من مدينة ابخا الفقيرة البدائية إلى مجتمع الذهب والفضة . أما القرط الخزفي فهو يحمله من العالم الثري المتطوّر إلى مجتمع أبخا البدائي الفقير ، هكذا يؤدي التقابل بين لفظة سبيكة والحلق الخزفي وظيفة كنائية تكشف عن توق المجتمع البدائي متمثلا بالبطل إلى التطور السريع وصولا إلى المجتمع الرأسمالي الذي تحكمه سبائك الذهب ، ثم يكشف عن توق الفقراء في المجتمع الرأسمالي إلى الوصول إلى المجتمع اللاطبقي الذي يكون كل الناس فيه سواء : "كلنا في أبخا سواء"[1] .

وأخيرا فإن الأخت سبيكة لا يقتصر حضورها على المتن الحكائي المتخيل، وإنما نجدها في خاتمة النص تقفز إلى المتن الحكائي الواقعي متمثلة بالحلق الخزفي الذي يكتشفه الراوي في صندوق البطل بعد موته، وتتأكد واقعية ذلك الحلق باعتماد الراوي حاسة اللمس إلى جانب حاسة البصر :

" قبل أن أخرج من الغرفة شاهدت ما صعقني ، لقد أزاحت الممرضة فواتير محمد علي أكبر جانبا، فبرق في قاع الصندوق حلق خزفي طويل.. شعرت بالدوار وتقدمت إلى الصندوق ورفعت الحلق بإصبعي"[2] ، ولعل انتقال سبيكة وحلقها الخزفي من المتن المتخيل إلى المتن الواقعي تعبير عن واقعية حلم الفقراء في الانتقال إلى المجتمع اللا طبقي ، ولعل وجود الحلق تحت الفواتير في ذلك الصندوق تعبير كنائي عن القانون الجدلي في أن الظاهرة تحمل نقيضها في داخلها.

أما الثانية فتبرز من المتن الحكائي الواقعي، عجوزا قبيحة يتكئ الراوي

---

١ نفسه : ١٣٦ .

٢ نفسه : ١٥١ .

على ذراعها أثناء سيره في المستشفى ، تضحك عن أسنان ناقصة مسودة"[1] ، ولعل في صورة هذه العجوز القبيحة ذات الأسنان المتآكلة دلالة رمزية على الموت

وإذا كانت الأخت قد جزّأت اسم البطل مرة واحدة عن غير قصد، فحصلت الإساءة - كما مر- فإن الممرضة كانت تمارس ذلك دائما بقصد مسبق:

"كانت الممرضة تسأله في كل صباح : - كيف حالك يا محمد علي ؟ وكان محمد علي لا يجيب ، إذ أنه كان يعتبر أن اسمه هو محمد علي أكبر"[2] ، وهنا تتأكد الدلالة السلبية للممرضة، ويترسخ الارتباط بين الموت و ترقيم البطل ، وفي ذلك تأكيد لوجهة النظر التي يصرح بها الراوي بعد موت البطل وإعلان الممرض عن ذلك : "لقد فقد محمد علي أكبر اسمه ، إنه سرير رقم ١٢!"[3]

وإذا كانت الأخت تقدم رؤيا مشرقة لمجتمع الفقراء اللاطبقي - كما مر قبل قليل- فإن الممرضة تقدم نظرة طبقية متحاملة على الفقراء ، مشككة بما يعلنونه ، فحين يسألها الراوي عن محتويات البطل تجيبه :

"قالت الممرضة وهي تضحك :

- لا أحد يدري، إنه يرفض أن يتخلى عن هذا الصندوق لحظة واحدة. ثم مالت عليه وهمست :

- هؤلاء الفقراء المظهر يخفون عادة ثروة ما ، قد تكون هي ثروته!"[4]

---

١ نفسه : ١٢٨ .

٢ نفسه : ١٣٠ .

٣ نفسه :١٢٩ .

٤ نفسه :١٣٢ - ١٣٣ .

بينما التقابل يتحقق الارتباط بين الحياة والطبقات الفقيرة، وبين الموت والطبقات الغنية المستغلة التي تعبر الممرضة عن وجهة نظرهم .

وأخيرا يختم النص بالتقابل بين شخصية الأخت وشخصية الممرضة : "لا أدري لماذا نظرت إلى الممرضة وقلت فجأة :

- هذا الحلق كان اشتراه لأخته سبيكة ..أنا أعرف هذا جيدا ..

لقد حدقت إلي مستغربة بعض الشيء ، ثمّ ضحكت بعنف ، وضحك الطبيب للنكتة"[1] ، واستكمالا للتحليل السابق فإن سخرية الممرضة تشكل تعبيرا كنائيا عن رفض الطبقات االمستغِلّة ، للفكر التقدمي الذي ينشد الوصول إلى المجتمع اللاطبقي .

الفضاء

يرى باختين أن الفضاء الروائي يكتسي من خلال تداخل مكوناته طابعا رمزيا[2] ، إن قراءة متفحصة للفضاء في هذه القصة تؤيد بشدة ما قاله باختين وتكشف عن الأبعاد الرمزية لصور الأمكنة ، وتسلط الضوء على عملية التحويل - باصطلاح سيزا قاسم - التي ينتقل وصف المكان بموجبها من معناه الحرفي إلى معنى خيالي[3] .

عطفا على ما جاء في مدخل هذه الدراسة ، وانطلاقا من النافذة التي تفتحها لفظة "سرير" من العنوان على فضاء النص ، نجد المكان الذي يختاره الراوي موقعا له في رصد الأحداث يؤيد الدلالة التي تضمنتها لفظة "سرير"، فهو يتوسط المسافة بين مكانين متضادين :"إن غرفتي تطل من ناحية بابها على

---

١ نفسه : ١٥٢ .

٢ الفضاء الروائي في الغربة : منيب محمد البوريمي : ٢٢ .

٣ بناء الرواية : د .سيزا قاسم : الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٨٤ .

الممر الرئيس لجناح الأمراض الداخلية ، وتطل نافذتها على حديقة المستشفى الصغيرة . وهكذا فإنني أستطيع أن ألاحظ وأنا متكئ على وسادتي : المرضى الذين يمرون بلا انقطاع أمام الباب والعصافير التي تطير بلا انقطاع أمام النافذة"[1] ، هكذا اختار الراوي موقعا وسطا بين مكانين :الأول يحيل على الموت والآخر يحيل على الحياة، وبهذا التقابل بين عالمين متضادين وبالوصف الدقيق للعصافير التي تطير أمام النافذة ،و المرضى الذين يمرون أمام الباب آتين على أقدامهم (...) مغادرين على عربة الموت ملفوفين بغطاء أبيض"[2] ... بهذا الاستقصاء الدقيق والتضاد العنيف تترسخ نظرة الراوي إلى الموت بوصفه مأساة انطولوجية، و تتهمش نظرة المروي له المضادة التي ترى إلى الموت بوصفه حدثا يوميا مألوفا يشكل نهاية منطقية لحياة كل فرد.ويتأكد ارتباط عالم ما وراء النافذة على الحياة في الرسالة الثانية من النص، فالبطل يقيس درجة شفائه بطول مسافة الأرض المعشبة التي يبلغها عقب السيجارة حين يرميه البطل[3].

يأتي هذا التقابل بين عالمي العصافير والمرضى صورة مكثفة ترادف التقابل الأوسع بين عالم أبخا المنبثق عن المتن المتخيل وعالم الكويت في المتن الواقعي:

تنبثق من خيال الراوي صورة لمدينة أبخا العُمانية التي لم يرها ولم يعرف الكثير عن جغرافيتها وأوضاعها العامة : فيراها مدينة فقيرة يشح فيها الماء ، ولم تصلها الحضارة بعد ، يجلس أهلها على الحصران المصنوعة من القشّ ويسيرون في طرقات متربة. وعلى الرغم من ان الراوي لم يعتمد الاستقصاء في

١الآثار الكاملة : ٢ : ١٢٨ .

٢ المكان نفسه .

٣ ينظر نفسه : ١٤٦ .

وصف المدينة لكن ملامح الألفة كانت تطفح على الأحداث والشخصيات التي تتحرك في فضائها (الأخت ، والحبيبة ، وقربتا الماء ...) ، فهي بحق المكان الأليف الذي وصفه باشلار ،إنها بيت الطفولة الذي لم يبذل الراوي جهدا في وصف ملامحه الدقيقة ليترك للقارئ حرية تخيله كما يشتهي، وليفسح في المجال لسيلان أحلام يقظته[1].

أما الكويت فأول ما يظهر من صورتها: " زبد البحر الكبير" ومنه : " أطلت صواري المراكب مستلقية في ميناء الكويت الهادئ"[2] : لكنها لن تظل هادئة فسرعان ما : " بدت له الشوارع الغاصة والأبنية ذات الجدران الصلبة ، والسماء الرمادية، والقيظ ، والهواء الشمالي الساخن ، والطرق المزدحمة بالسيارات، والوجوه الجادة .. "[3]، ذلك هو المكان المعادي، ملامح الكويت تصير "سدودا تقف بينه وبين حلمه"[4]، كل شيء فيها "بلا بدء بلا نهاية بلا ملامح"[5]، إنها صور مرادفة للإنسان المرقم.

بهذا التقابل بين أبخا والكويت يتحقق التقابل بين المكان الأليف والمكان المعادي، ومن رحم المكان المعادي تنفتح عين الذاكرة ، فيرى البطل بيت طفولته: " كانت أبخا هناك ملفوفة بالهدوء..موجودة على أي حال.. كل حي فيها له بدء وله نهاية .. وكل جدار يحمل ملامحه الخاصة"[6] ، يقول باشلار: " ان حلم اليقظة يتعمق إلى حد أن منطقة من التاريخ البعيد جدا تنفتح أمام الحالم

١جماليات المكان : ٤٢ .

٢ ،فسه : ١٣٩ .

٣ نفسه : ١٤٠ .

٤ الآثار الكاملة :٢ : ١٤٠ .

٥ المكان نفسه .

٦ نفسه : ١٤٠ .

بالبيت ، منطقة تتجاوز أقدام ذكريات الانسانية "[1] ، فأبخا إذاً هي صورة الإنسانية في طفولتها الباكرة ، بينما تقف الكويت على الطرف الآخر من الزمن ، انها تمثل آخر ما وصلت اليه الحضارة ، الحضارة المبنية على استغلال الإنسان للإنسان ، البحر الكبير ذو الزبد ، الذي رآه البطل وهو يقترب من الكويت، كان عنوانا لجوهرها ، وحين توغل إلى أعماقها ، لم يجد غير "الضياع العميق الذي يشبه الدوار"[2] ، والذي انتهى به إلى الموت ، ومن ثم "الانزلاق إلى الفناء" والانعدام بفقدانه اسمه وتحوله إلى رقم ١٢ .

× × ×

من العلامات السيميائية الأساسية في هذا النص الصندوق ، فهو كأي شيء آخر له حقيقة واقعة في العالم الخارجي ، ويحمل دلالة خاصة في النص، وقد يتحول إلى رمز[3] ، وتكمن أهمية الصندوق هنا في حضوره المتواصل على مستوى المتنين الحكائيين معا ، مما يجعل منه دالا مهيمنا ، وفي الوصف المستقصي الدقيق له، وفي الغموض والإبهام الذين يحيطانه ، فيبدأ ظهوره عند أول لقاء بين الراوي والبطل : "يضع إلى جانب وسادته صندوقا خشبيا عتيقا منقوشا عليه اسمه بحروف نصف فارسية مربوطا ربطا محكما بخيط من القنب"[4] ، ولعل في الحروف نصف الفارسية علامة على الغموض والإبهام والعجمة، ويزداد ذلك الغموض بالحوار الذي يدور بين الراوي والممرضة حول محتوياته والتكهن بماهيتها ، فيكون ذلك من المسوّغات المنطقية لولادة المتن الحكائي المتخيل، فما المعنى الذي يحمله هذا الصندوق ؟

---

١ جماليات المكان :٤٣ .

٢ الآثار الكاملة :٢ : ١٤٠ .

٣ ينظر : بناء الرواية : ١٠٠ - ١٠١ .

٤ الآثار الكاملة :٢ : ١٣٠ .

الصناديق - بحسب باشلار- أدوات لحياتنا النفسية الخفية[1]، وهي ملأى بضجيج الذكريات الأخرس[2]، وهي مساحة أليفة لأنها مساحة غير متاحة للجميع[3]، لكن المساحة الأليفة هنا تولد في المكان المعادي بعيدة عن المكان الأليف، ففي الكويت، وبعد أن بدأت الثروة ترد، نبعت فكرة محمد علي أكبر في أن يصنع صندوقا خشبيا متماسكا يحفظ فيه ثروته[4] فما مفردات تلك الثروة؟ ... إنها - كما هو الأمر في كل الصناديق - تحوي أحلام يقظة صاحبها(عباءة مذهبة .. حلق خزفي .. زجاجة عطر .. وصرة نقود، لكنها معقودة على أمل أن تزداد، ذلك الأمل هو حلم يقظة آخر)[5]، يقول باشلار: هنا يتكشف الماضي والحاضر والمستقبل، فالعلبة هي ذكرى ما لا تعيه الذاكرة من الزمن[6]، هكذا تكون العباءة المذهبة خارطة للزمن بكل تعرجاته وانحناءاته، فنرى فيها هناك في ركن من العباءة كان الماضي منزويا...[7]، ونرى حاضر البطل وهو في منفاه يمرر أصابعه فوق العباءة وينشرها أمام عينيه فيمنح المكان المعادي ألفة، كما نرى فيها مستقبل أبخا بكل شوارعها ونوافذها الواطئة ... تطل من خلفها عيون الصبايا على محمد علي أكبر وهو يرفل بالعباءة المذهبة، هكذا "يكون بيت المستقبل أحسن بناء وأكثر ضوءا وأكبر من كل بيوت الماضي، فتصبح صورة بيت الحلم مواجهة ومعارضة

١جماليات المكان:١١١.

٢ نفسه:١١٢ .

٣ نفسه : ١١.

٤الآثار الكاملة :٢ : ١٤٢ .

٥ المكان نفسه .

٦جماليات المكان:١١٧.

٧ ٧ الآثار الكاملة :٢ :١٤٢ .

لبيت الطفولة[1]، تتعزز هذه الأحلام بحضور الحلق الخزفي مشيرا إلى سبيكة، وزجاجة العطر التي تومئ إلى الفتاة السمراء ..

تلك هي محتويات الصندوق العائد إلى البطل المتخيل، وهو شخصية مركبة تتماهى فيها شخصية الراوي بشخصية البطل الواقعي، أما الصندوق الذي رافق البطل الواقعي فحين تم فتحه، لم ينته جدل الخارج والداخل لأن جوّاً من الألفة فاض من الداخل إلى الخارج - كما توقع باشلار[2] - وإنما فاض المكان المعادي إلى الداخل ، فحين تكشفت الفواتير التي تملأ الصندوق،غامت على المكان روائح البنوك والأرباح ورأس المال وفائض القيمة ، وفي النهاية حين بزغ الحلق الخزفي أمام عيني الراوي فاضت عليه نفحة من الألفة ، لكن سرعان ما ذبحتها الضحكة الجشاء للممرضة العجوز.

ترتبط بالصندوق شخصية شبحية ، تبرز في المتن المتخيل في اللحظات التي تسبق موت البطل، ثم تختفي:

سمع صوتا إلى جانبه :

- ماذا في هذا الصندوق العتيق ؟

نظر إلى مصدر الصوت وشاهد كمن يحلم ، وجها لشاب حليق بشعر أشقر يشير إلى الصندوق وينظر إلى شيء ما[3] .

يغيب الأشقر الحليق بضع سطور ثم يعود ليكون الصورة الأخيرة التي يراها البطل قبل موته ، فيشعر بالخوف منه على صندوقه ، وفي داخل الصندوق وبعد فتحه من قبل الطبيب نكتشف بين أكوام الفواتير صورة قديمة لوجه ملتح، وحين يتقابل الداخل والخارج تتضح العلامات السيميائية ، وتتكشف

١جماليات المكان : ٩٤.

٢ نفسه: ١١٨ .

٣الآثار الكاملة :٢ :١٤٥ .

دلالاتها ، فلم يعد الصندوق مخزنا لذكريات البطل وأحلام يقظته وحده ، وإنما يصير مخزنا لموروث أمة بأكملها : عقائدها وتاريخها وقيمها الضاربة في العمق، متمثلة بالصورة القديمة للرجل الملتحي ، بينما تومئ صورة الأشقر الحليق إلى ذلك القادم من وراء البحار ليمحق الأمة بكل خصائصها الحضارية عن الوجود.

وللبحر حضوره المهيمن بوصفه علامة سيميائية أيضا ، فأوّل ما يبرز في النص متشابكا بالموت ضمن صورة بيانية يكون التشبيه أداتها " الشفاه التي ترتجف كبحر من مياه بنفسجية "[1]، تأتي هذه الجملة في سياق تصوير لحظات موت البطل، ويستمر هذا التشابك قائما بين البحر والموت على امتداد النص، حتى يصل مداه الأقصى في نهاية الرسالة الأولى، إذ يصير البحر صورة للموت، فحين أحس البطل بأعراض المرض "تصور نفسه للحظة واقفا على شاطئ البحر ووهج الشمس ...يكاد يعميه"[2] ، وحين وقع في غيبوبة " كان يحس أن مد البحر يعلو قدميه شيئا فشيئا"[3] ، وحين حانت ساعة الموت " أحس فجأة بأن الماء قد علا حتى وسطه وأن الماء برد إلى درجة لا تحتمل (...) فيما استمر الماء يعلو ويعلو حتى حجب عن عينيه ذلك الوجه الأشقر الحليق ..

- لقد مات سرير رقم ١٢

هتف الممرض"[4]

ولما كان النص - كما يراه السيميائيون - " لا يمكن أن يقرأ أو يفهم

---

١ نفسه :١٢٩ .

٢ نفسه :١٤٣ .

٣ نفسه : ١٤٤ .

٤نفسه : ١٤٥ .

الا من خلال إدخاله في شبكة أعم من النصوص "[1] ، فإن هذا التشابك يفتح النص على أكثر من متفاعل نصي ميثولوجي :

أوّلها أسطورة لإيكير سيد الماء في الميثولوجيا السكندنافية الذي يبتلع الكنوز إذ تتجمع في قعره عند تحطم السفن[2] ، نتذكر ذلك ونحن نقرأ السطور الآتية : " صار البحر يمتزج بنوافذ مشبكة الخشب واطئه على طرف الطريق ، وبحلق من الخزف وبعباءة مبلولة بماء مالح ، وبمركب معلق فوق الموج لا يتحرك وبصندوق خشبي عتيق "[3] ، هكذا يبتلع لايكير الحضارةِ الرأسماليةِ كنزَ ذكريات البطل وأحلامه وموروثه التاريخي ، وتتحدد هوية البحر أكثر بتماهيه بشخصية الأشقر الحليق الذي جرت الإشارة إليه.

والمتفاعل النصي الآخر هو ملحمة بعل وعناة الفينيقية ، إذ يتناصّ البحر بالإله الشرير يم إله مياه البحر المتمردة الذي يرمز له بالتنين الخرافي ، وهو سيد العالم السفلي عالم الأموات[4] ، ويترسخ هذا التناص بالتقابل القائم في النص الجديد بين البحر والماء العذب ، والذي يتحقق حضوره على عدة مستويات، أهمها:

١ - أن المكان الأليف يقترن بالماء العذب محمولا بقربتين على كتف البطل يجوب بهما أزقة أبخا[5] ، أما المكان المعادي فأول ما يظهر منه زبد البحر

---

١ التفاعل النصي : نهلة فيصل الأحمد :مؤ سسة اليمامة الصحفية : كتاب الرياض ١٠٤ - ١٣١٩ هـ .

٢ معجم الساطير : ٢ : ١٠٦ .

٣ الآتار الكاملة :٢ :١٤٥ .

٤ ملاحم وأساطير من أوغاريت : أنيس فريح : بيروت : دار النهار : ٥٠ -٥١ .

٥ : الآتار الكاملة :٢ ١٣٤ .

الكبير وصواري المراكب مستلقية في ميناء الكويت[1]

٢ - أن البطل في المتن المتخيل يأتي سقاء ، أما في المتن الواقعي فهو بحار.

أما في النص الفينيقي فإن التقابل يقوم بين يم إله البحر وبعل إله المطر، إذ يقع بين الإثنين صراع عنيف ينتهي بموت يم وانتصار بعل وتتويجه ملكا[2].

يأتي التناص هنا مقلوبا ، وبهذا القلب يتحقق التحريف الأسطوري الذي يفرضه العقل المتحضر ، فينتصر البحر (وسيده الأشقر الحليق) ويغرق الصندوق (صندوق أحلام يقظة البطل السقّاء) ، وتتلوث محتوياته بماء البحر ، ومن بينها صورة الرجل الملتحي ، هكذا تأتي وجهة نظر المؤلف متخفية وراء طيّات رموزها ، تشي بموت الأفكار الرومانسية التي كان ينادي بها رواد الفكر القومي في بعث المجد العربي من جديد ، والتي ورثها عنهم غسان كنفاني وحركة القوميين العرب.

أن النهاية المأساوية التي تختم بها القصة - حيث تصير أفكار الراوي مثارا للسخرية - تعبّر عن نهاية لمرحلة مهمة في تاريخ الفكر العربي الحديث ، وبذلك فأن التناص المقلوب مع أسطورة بعل وعناة قد حقق هدما لأيديولوجية قائمة ، تمهيدا لبناء أيديولوجية جديدة تظهر ملامحها في قصة " لو كنت حصاناً من مجموعة أرض البرتقال الحزين ، والتي كتبها بعد عام واحد من كتابة " موت سرير رقم ١٢" ، وقد جرى تحليلها في بحثنا الموسوم بـ " سيميائية السرد في قصص غسان كنفاني "[3].

---

١ نفسه : ١٣٩ .

٢ ينظر : ملاحم وأساطير من أوغاريت : ٤٦ - ٤٩ و ٧١ - ٧٣ .

٣ ينظر كتاب خلاصات البحوث للمؤتمر العلمي السنوي لكلية الآداب -جامعة المستنصرية ٢٠٠٣ .

مصادر البحث:

- ❖ الآثار الكاملة : ٢ : غسان كنفاني: دار الطليعة : ١٩٧٣ .
- ❖ بناء الرواية : د سيزا قاسم : الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٨٤ .
- ❖ التفاعل النصي : نهلة فيصل الأحمد :مؤ سسة اليمامة الصحفية : كتاب الرياض ١٠٤ - ١٣١٩ هـ .
- ❖ جماليات المكان : جاستون باشلار : ت غالب هلسا :بغداد :١٩٨٠ .
- ❖ الفضاء الروائي في الغربة : منيب محمد البوريمي :بغداد :
- ❖ قال الراوي : سعيد يقطين : المركز الثقافي العربي : ط١ : ١٩٩٧ .
- ❖ معجم الأساطير :٢ :
- ❖ ملاحم وأساطير من أوغاريت : أنيس فريح : بيروت : دار النهار :
- ❖ مورفولوجيا الخرافة : فلادمير بروب :ت ابراهيم الخطيب : الدار البيضاء : ١٩٨٦ .
- ❖ نحو رواية جديدة : آلان روب غرييه : مصطفى ابراهيم مصطفى :دار المعارف - مصر .
- ❖ خلاصات البحوث للمؤتمر العلمي السنوي لكلية الآداب - جامعة المستنصرية ٢٠٠٣.

عناصر الحداثة في شعر السياب

المدرس المساعد
نوال كمال النقيب
كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة

تعد بداية القرن العشرين علامة على مرحلة جديدة و تطورية في تاريخ الشعر العربي ، فقد تزايد تأثير الأدب العربي ، ومن خلال هذا التأثير المتزايد وجدنا بعض أشكال الشعرية التي بدأت العلامات الأولى على ظهورها في القرن العشرين ، وقد لقيت إعترافاً رسمياً ويتمثل ذلك في الشعر المقطعي (١) .

كما إن الشعراء في هذه الفترة مارسوا الشعر المرسل الذي حاول تطبيقه لأول مرة رزق الله حسون ١٨٦٩ ، وأحياه جميل صدقي الزهاوي في عام ١٩٠٥ دون وعي منه بالتجربة السابقة تحت اسم الشعر المرسل .

في نفس العام زاول أمين الريحاني تجربته في الشعر المنثور تقليداً للشعر الحر في الغرب بتشجيع من جرجي زيدان ، وذلك تطلعاً من العرب لتحرير أنفسهم من كل ماعيت إلى الشعر التقليدي من الاعتبارات .

كما إن المهجرين ومن تبعهم في العالم العربي قد مارسوا الشعر المنثور الذي يقوم على الإيقاع النثري باستخدام موسيقى الفكر التي تعتمد على التوازي

١- حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث ، س – موريا ، ترجمة سعد مصلوح ، ص ٦٩

و الترادف و التباين و التنظيم التصاعدي للأفكار إلى جانب ترديد السطور و الكلمات و الأفكار في مجموعات متنوعة ، وهم في ذلك يقلدون الشعر الذي نظمه الغربيون .

كما أن الشعراء المحدثين استخدموا الشعر المقطعي ، أو شكلا يتكون من عدد غير منتضم من الأبيات مع تغير القافية .

ولقد بذل الشعراء جهوداً كبيرة لاختراع وسائل جديدة تمنحهم حركة أكثر من تلك التي تمنحهم اياها النظم التقليدي و تنقذهم من الانحدار إلى مستوى النثر الذي تؤول إليه فنيات الشعر المنثور ، بهدف الحصول على قاعدة اكثر مرونة في استخدام الوزن .

وقد حاول مطران أن يحل المشكلة باستخدام أشكال و بحور مختلفة كما فعل عام ١٩٠٥ في قصيدته " نفحة الزهر" إذ قسمها إلى خمسة أجزاء واستخدام نوعين من المقطوعات ، كما استخدام الوزن و القافية الموحدتين متنوعاً بين الرمل ومجزو الكامل ومع ذلك فأن أول محاولة جادة لكتابة الشعر الحر الذي يقوم على ايقاع شعري لا نثري في الأدب العربي الحديث قد قام بها د- احمد زكي شادي (١٨٩٢-١٩٥٥)[١]متأثراً بالآداب الإنكليزي تأثيراً عميقاً و متتبعاً لتطور الشعر الإنكليزي والأمريكي المعاصر . وكانت محاولته الأكثر جرأة في تجربة الأشكال الشعرية في الموشح والأشكال المقطعية الأخرى مثل السونتا الإنكليزي و الشعر المرسل و الشعر الحر الإنكليزي .

كما إن للمهجر و أبو لو تأثيراً على أبي شادي إضافة إلى مطران . وقد وصف أبو شادي نفسه في كتاب (مسرح الآداب) عندما تناول بالنقد أحمد

٢- حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث ، س- موريا، ترجمة سعد مصلوح ، ص ٧٣

شوقي — بأنه مؤسس لمدرسة شعرية و جديدة رغبة في تحقيق إسلوب جديد يتسم بالبساطة و الذاتية وخلق إيقاع موسيقي جديد يمكننا من إطراح الشكل التقليدي الصاخب ونغمته الخطابية ، و الصياغة التقريرية الساذجة لنتائج شعرية ، كما يمكننا من تجنب المعجم الشعري المنتقى الذي يتميز بالمبالغة في الصنعة البيانية[1] .

لقد كان يريد أن يكشف عالمه الداخلي و عقله الباطن ، وأن يستخدم الصور و الرموز لكي ينقل جو تجربته من خلالها .

وكان يبحث عن الشكل الذي يتيح حرية أكبر في استخدام الإمكانات العروضية ، و السماح بحرية التعبير

شكل يتضمن موسيقى جديدة، ويمكن الشاعر من اختيار الصيغة الجديدة الصحيحة لتجربته الشعرية .

وقد فضل الشعر الحر على المرسل لأنه وجد الأول أفضل لصياغة الملاحم و الدراما و الشعر القصصي .

قام إسلوب أبو شادي في شعره الحر على استخدام بحور عربية مختلفة تبعاً لما تتطلبه تجربته الشعرية ، فقد يشتمل البيت على تفعيلة أو تفعيلتين وهكذا إلى نهاية العدد الذي يمكن أن تنتهي إليه تفعيلات البحر ، بل قد يصل إلى ضعف العدد وليس ثمة تقسيم للأبيات إلى أشطار ، كما إن الفواصل التي تقسم البيت إلى شطرين قد اختفت عموماً[2] .

ومعظم الأبيات تنتهي بوقفة على معنى تام، وعدد كبير منها ينتهي بالسكون تأكيد وحدة الجملة و استقلالها .

١- المصدر السابق ص ٧٧

٢- نفسه ص ٩٤

وقد كان يدعو إلى الشعر الحر في مجلة أبو لو التي خصصها للشعر العربي والتي ظهرت من (١٩٣٢- ١٩٣٤) .

إن محمد فريد أبو حديد هو أول شاعر كتب مسرحية عربية بالشعر المرسل .

كما إن أحمد شوقي تبنى هذا المنهج في بعض مسرحياته ، فقد استخدم عدة بحور تبعاً لما تحليه الفكر والانفعال النفسي و الموقف و الدور الذي تلعبه الشخصية ؛ كما في مسرحية متحيز ١٩٣١ ، ولكنه سيستخدمه في قصائده .

كما اتبع شوقي في أسلوبه الشاعر و الكاتب العراقي حسن الظريفي في مسرحيه (رسول السلام) .

وكذلك فان خليل سثيوب (١٨٩١-١٩٥١) أيضا وهو عضو في أبو لو ، حاول تقليد الشعر الفرنسي في قصيدته (الشراع) .

أما الشاعر المهر جيري آليا أبو ماضي (١٨٩٠-١٩٥٧) استخدم هذا الشكل في الشعر في (الشاعر و السلطان الحائر) التي نشرت في الرسالة عام ١٩٣٣ السبب الرئيسي الذي قاد الدكتور محمد عوض محمد .

إلى شن هجوماً على هذا الشكل أو ما سماه ((مجمع البحور وملتقى الأوزان)) .

وعيسى إسكندر المعلوف(وتعتبر قصيدته التي وثب بها صديقه تطويراً للموشحات الأندلسية وقد أتبعه جبران في (المواكب) وكذلك علي محمود طه المهندس في (هي و هو)، و الياس أبو شبكة في (الصلاة الحمراء) وفي (الدينوسنة) و (أفاعي الفردوس) وفي قصيدته (القصصية الطويلة غلواء) الخوري كذلك استخدمه في (أقصى التجلد) وقد نشر مصطفى السحرتي بيانه عام ١٩٣٦ حيث يقول : ولا جرمنا إننا شبعنا من الشعر المقيد ، وعرفنا كيف تقبل هذا الشعر أدق المعاني وأرق الخواطر – وقد ذقنا ذرعاً بموسيقاه الرئيسية ، فهل إن للشعر المصري الحديث إن يحتفل بهذا الضرب من الشعر المصري

القديم المجيد أنا لراجين)

وهنالك نمط رابع استخدمه محمد منير رمزي حيث تختفي القافية وتنزلق توليفات التفعيلات المختلفة أحيانا إلى الأوزان العربية التقليدية ، وهو أقرب الأنماط إلى الشعر الحر الأمريكي .

والنمط الخامس الذي طبقه باكثير وغنام والخشن وهو يقوم على أساس استخدام بحر واحد في أبيات غير منتظمة الطول ونضام للتقفية غير منتظم كذلك .

إن كل التجارب التي كتبت بالشعر الحر كانت تجارب تحمل خصائص الشعر التقليدي .

فمثلا أبيات أبى شادي تنقسم إلى شطرين ، كما ضل كل منهما وحدة مستقلة بمعناه حيث تشكل القافية بالسكون أو تنتهي إملائيا بحركة طويلة (ألف أو واو أو ياء) لتشير إلى النهاية المفضلة للبيت أو جزء منه ، ولتؤكد وجوب النطق بحركة طويلة في النهاية هي نتيجة لحركة قصيرة لحقها المد ، كذلك سعة تصر فه في المعاني العجيبة لقاموسه .

وأسلوبه البسيط الخالي من الصنعة البيانية والذي حاول به إن يقلد اتباع المدرسة التصويرية دون أن يراعي استخدام التوازي و التشابه الصوتي و التأثيرات الإيحائية وترديد الكلمات و الجمل للتعويض عن فقدان موسيقى القافية والبحر الموحد كما كان نيله إلى العلانية السبب الأساسي لفشل شعره

أما خليل شيبوب فقد كان أكثر توفيقاً منه، بتعبيره الرومانسي عن الفكرة و الطابع الغنائي في شعره واستخدامه التضمين وثبوت عاطفته ، وشوقي سيطر على موسيقى شعره وأسلوبه الشعري جعل طريقته مقبولة .

في حين إن السحرتي كان ذا تجربة باهتة ومصنوعة لأنها أقرب شبهاً بالمقطوعات الإنكليزية ، ولم ينجح في كتابة الشعر الحر الذي يشبه في تكنيكه الشعر الحر الأمريكي .

وأذن أبا شادي الذي كان ناقداً جيداً ولم يكن شاعراً عبقرياً لم يوفق إلى كتابة الأمثلة الصحيحة لتجاربه .

ولم ترسو قواعد هذا الشكل الجديد إلا بظهور الشاعرة الناقدة العبقرية نازك الملائكة (١٩٢٣ م) والشاعر العبقري بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) من خلال تأثيرهما بالشعر الحر وتجنبهما أخطاء التجارب السابقة .

واصبح ما وصلا إليه هو الشكل المثالي الذي ناضل جميع الشعراء العرب في اكتشافه .

هذه المرحلة الهامة من الشعر الحر التي بدأت عام ١٩٤٧ تتميز باستخدام إيقاع الأفكار الذي يقوم على أساس التوازي و الترديد ليحقق الانسجام و الوحدة وللتعويض عن فقدان الانتظام في طول الأبيات و أنماط التقفية ، وكذلك يتميز باستخدام التدفق في الأبيات و المعجم الشعري البسيط و الأسلوب المتأثر بالصحافة و الإذاعة و الكلام اليومي الذي يتسم بالبساطة كما يتميز بتجسيد الطبيعة و الأشياء ، واستخدام المعادل الموضوعي و الرمز و الأسطورة و الصور المأخوذة من الحياة اليومية وظروف تجربته الشعرية وحالته الفكرية كل أولئك منح هذا الشكل الجديد خصائصه المميزة بل إن الميزة الكبرى لهذه المرحلة من الشعر الحر للتجربة بأن تصوغ لنفسها القالب الذي يلائمها .

التحديث في الرؤية

كان للسياب رؤية جديدة لإنسان جديد يفهم الواقع ويحاول تغيره ودله موقفه هذا منهم وانتباه دقيقين لعملية التوظيف الأسطوري التي لا تقوم إلا على وعي تام بجوهر رافدها الإنساني حيث يظهر إليها الفنان الشاعر بطريقة اكثر حكما و تفتحاً .

لقد نضر إلى الأسطورة نضره غير تلك التيس رآها و صاغها إنسانها في البدء ، مدركاته هذه نهجاً أنار الطريق لجيل من الشعراء من بعده ،

ولقد تعددت الأصول الشعرية في شعر السياب وتنوعت بين مؤثرات ثقافية لشعراء أوربيين وبين موثرات ميثولوجية قديمة لكتب وأساليب قديمة حوت في مضامينها دلالات اجتماعية و إنسانية كبيرة إضافة إلى الحكاية الشعبية ذات المنشأ البدائي الذي يلتقي مع الأسطورة في المنهج التهويجي ويجعلها ذات أصول تعليلية واحدة [1]

وأذن فان تلك الأصول يمكن إن ندرجها كالاتي :

١) الغصن الذهبي و طقوس النماء
٢) أساطير العالم القديم
٣) الكتاب المقدس
٤) التجربة الاليوتية
٥) التجربة الستوّيلية
٦) الحكايات الشعبية

أما الشاعر الإنكليزي " توماس سيتزنر اليوت" فقد تأثر به الشاعر من خلال قراءاته لشعره، في أواخر الأربعينات حينما كان طالباً في دار المعلمين ، وخاصة " قصيدة الأرض الخراب" .

فقد ضمن السياب عنوان قصيدته اليوت " الأرض الخراب" في قصيدته إلى حسناء القصر" قائلا" [2]

فلتنبت ((الأرض الخراب)) على سنا النجم الحزين
صبارها.. أنا سأنحل عالم الغد ياسمين

وقد وجد الأسباب التي ادعته إلى الأسطورة قريبة الشبه بالأسباب التي

١- الأسطورة في شعر السياب – عبد الرضا علي – ص ٤٩
٢-الأسطورة في شعر بدر شاكر السياب ، عبد الرضا علي ، ص٥٠

دعت اليوت إلى تبنيها في شعره ، وهو يلقي معه في الاستعانة بالأسطورة لتفسير أزمة الإنسان الحديث وأعادة تقييم التجربة الإنسانية على ضوء حاضر مثقل بالمشكلات الحضارية [١]

وقد أفاد من رموز النماء والخصب وتجدد الحياة بعد الموت ، ليثرى تجربته الشعرية وليستسقي تجربته التي يمكن إن تفجر الواقع المأزوم ، وصوفي كل هذا يقتدي باليوت في الإفادة من الغصن الذهبي . الذي اطلع عليه عام ١٩٥٤ [٢]

فتموز اله الغضب عند البابليين ، الذي عند المصريين (افريريس) وهو نفسه (ادوتيس) عند الفينيقيين و الإغريق . وهذه كلها رموز ذات دلالة واحدة في النماء ، ولهذا لجأ إليه السياب في تجربته الشعرية حيث انه الرمز الذي تتوحد فيه كل رموز التضحية من اجل إعادة الحياة ودفع الموت بشكل مأساوي:

تموز يموت على الأفق
وتغور دماه مع الشفق
في الكهف المعتم [٣]

٢- كما انه اتخذ من أساطير الحب و العذاب رؤى جديدة ، يستلهم من أجوائها فيغني تجربته الشعرية بدلالاتها الموحية، بما تعطيه من ذوق إنساني صميم بشكل الإشارة مرة، ولذلك فأننا نجد اكثر من رمزي في القصيدة الواحدة لأنه يريد ان يعبر عن عذابات معاصرة بحيث تكتمل التجربة إيقاعا و

١- الأسطورة في شعر السياب ، عبد الرضا علي ، ص ٥٠

٢- الأسطورة في شعر السياب ، عبد الرضا علي ، ص ٥٠

٣- اغنية في شهر آب ، ديوان بدر شاكر السياب ، دار العودة، بيروت، ١٩٧١، ص ٣٢٨

نسيجا : كما في قصيدة (الشاعر الرحيم) [1] وكذلك دار جدي وفيها نقرا

كأن مقلتي ، بل كأنني انبعثت (ارينيوس)

تمصه الخرائب الهوى إلى الجحيم

فيلتقي بمقلتيه، يلتقي بها، بيورديس

آه يا عروس

يا توائم الشباب يا زنبقة النعيم [2]

ويقول فيها

وبالغناء، يا صباي، يا عظام، يا رميم

كسوتك الدواء و الضياء

وإذا عمد إلى أسطورة (ايكاروس) وسقوطه في البحر ملتحمة مع باقي رموز الفداء والتضحية بحيث يصبح النسيج وحدة لا يمكن تجزئتها ، نجد صورة(شباك وفيقة الحالم) [3]

شباك وفيقة في القرية

نشوان يطل على الشارع

(كجليل تنتظر المشبه ويسوع) وينشد الواحة

ايكار تلقفه الأفق ورماه إلى

اللجج الرمس

شباك وفيقة يا شجرة

٣- الكتاب المقدس المنبع الأسطوري الخصب الآخر للسياب :

١- ديوان بدر شاكر السياب، ص١٩١

٢- ديوان بدر شاكر السياب ،ص ١٤٥

٣- شباك وفيقة، ديوانه، ص ٤٦٠

وخاصة ما كان قائما على فكرة الفداء و التضحية و المعجزات (القصص الديني) ويسخر منه (قصة هابيل و قابيل) التوراتية في العهد الجديد من اجل ان يشير إلى إن العدوان ما زال يؤجج النار بين البشر ، يتخذ منها رمزاً على بقاء الصراع حيث يقول :

'قابيلُ باق وان صارت حجارته
سيفا، وان عاد نار سيفه الخذم
وردُ'هابيلُ ما قاضاه بارئه
عن خلقه ثم ردت باسمه الأمم [1]

فهو يرمز (بقابيل) إلى قوى الفتك و الحرب من الاستعماريين الذين هم أحفاد قابيل .

٤- كان من إعجاب السياب وتأثره به ما جعله يتخذ من شعره مادة خصبة للتضمين و المحاكاة ، جاعلا من بطله شبيها لبطل اليوت في بحثه عن نفسه بين مظاهر المدينة المتشابكة في اضدادها إلى حد الصراع فهو القائل في مناسبة (ولا بد لنا في هذا المجال ، من الإشارة إلى ما كان للشاعر الإنكليزي الكبير س. اليوت وخاصة في قصيدة (الأرض الخراب) من اثر كبير على الشعر الملتزم في الأدب العربي الحديث ، الشيوعي منه وغير الشيوعي ، والرديء منه والجيد على حد سواء[2]

ولكنه وضع حدوده لهذا التأثر وجعله قائما على الأسلوب حيث قال: (وأنا معجب بتوماس اليوت من الشعراء الإنكليز المعاصرين، متأثرا بأسلوبه لا أكثر ، لأنني نقيضه تماما من حيث الفكرة ومن حيث نضري إلى الحيات [3]

١-من رؤيا فوكاي ، ديوانه، ص ٤٦٠

٢- محمود العبطه-بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق ، ص ٨١-٨٢

٣- محمود العبطه-بدر شاكر السياب و الحركة الشعريةالجديدة في العراق، ص ٨٢

وفي موضع ىخر سيشير إلى سبب تأثره وتأثر شعراء جيله بأليوت حيث قال (لقد رأوا كيف استطاع شاعر غربي ان يفيد من رموزهم ، كرمز تموز واوزيريس، فنبههم إلى أمر كانوا عنه غافلين) [١]

وهو هنا سيشير إلى رمز البطل – الإله الذي يموت من اجل أن يحيا وتحيا معه الحياة

فهو إذن ينهج نفس النهج الأليوتي بالرغم من الاختلاف بين طبيعة الأزمة في الحضارة الأوربية التي كتب في ظلها اليوت وأزمة التخلف في العراق ، وذلك لأن الأسلوب الشعري عند اليوت هو الذي يميزه ويضعه في إعداد شعراء هذا العصر ، انه يحاول ان ينقل أزمة الإنسان المعاصر وسط المعاني الضائعة [٢]

وهذا الأسلوب البحث عن البطل –الفداء- الذي يعبر عن المعنى الإنساني للبشرية جمعاء وهنا يلتقي البطلان الآليوتي و السياب في التعبير عن رؤيا جديدة، وها هو ذا بطل السياب يقول

أود لو غرقت دمي في القرار
لأحمل العبأ مع البشر
وابعث الحياة أن موتي انتصار [٣]

والشاعر إذا وضع يديه على مفاتيح رموز اليوت حاول أن يعمد إلى بعض تضمينات اليوت عن شكسبير ليحور فيها كما كان اليوت إن يفعل فقال في قصيدة" من رؤيا فوكاي [٤٠]

أبوك رائد المحيط ، نائم في القرار

١- الأسطورة في شعر السياب ، عبد الرضا علي ، ص ٦٧

٢- نفسه

٣- النهر و الموت ، ديوانه بدر شاكر السياب ، ص ٤٥٦

٤- النهر و الموت ، ديوان بدر شاكر السياب ، ص ٤٥٦

مت مقلتيه لؤلؤ يبيعه التجار ...

وحظلك الدموع و المحار

وهذه الصورة جاءت في مسرحية العاصفة لشكسبير ، ولكن بمعنى آخر حيث يقول (اريل) بعد إن تحطمت سفينة الونيو والد " خير ديناند"

على عمق اذرعه خمس ا، ينام أبوك في قرارة البحر

لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين ... اسمع

ها هو الناقوس ينعاه ... (١)

وكان اليوت قد ضمن صورة اللآلئ التي وردت في مسرحية شكسبير في قصيدته " الأرض الخراب" على لسان العرافة قائلاً : هذه هي ورقتك عن النوتي الفينيقي الذي مات غريقاً

(هذه اللآلئ نمثل عينيه . انضر ٢

وقد أعطى السياب حركة جديدة لتلك الصورة ، جعل تدفقها اكثر وقعاً ولهذا أشار السياب قائلا " ولكن لاحظ كيف حولت "يبيعه التجار ٣

وهذا بالإضافة إلى ما أشرت إليه في بداية الحديث عن الأسطورة من تضمين السياب لبعض قصائد اليوت وادخلها في نسيج شعره كإدخاله(الأرض الخراب) في قصيدته (إلى حسناء القصر)

وله الكثير من ذلك في الكثير من شعره فقد كان اليوت واضح ا لتأثير على شعر السياب في رموزه آو الأرض الخراب بشكل إحدى مصادر السياب الأسطورية الىغيرها مما اعجب السياب .

٥- وبعد فلم يكن اليوت وحده متأثرا في السياب فهذا (اديث ستويل)

١- حاشية قصيدة السياب " من رؤيا فوكاي" ص ٣٥٦ من ديوانه

٢- هامش قصيدة (من رؤيا فوكاي) ص ٣٥٦

٣- هامش قصيدة (من رؤيا فوكاي) ص ٣٥٦

الشاعرة الإنكليزية أيضا حتى انه قد حاول محاكاة في تصوير الرعب و الدمار التي تصيب الإنسانية من جراء سيادة العالم الجديد و الحرب سيما شعرها المتضمن للأساطير الدينية وبخاصة ما كان من رمزي (قابيل)و(هابيل) اللذان يذكران بأول جريمة يرتكبها إنسان .

فقد كان يرى السياب في ستويل شاعرة عظيمة [1] وانه تأثر بها كما تأثر بكيتز و اليوت و شيلي انه بإمكانية اقتباسه فهنا أفاد صورا جديدة ذات دلالات أسطورية موحية جعلته يخرج بالقصيدة من رتابة الموروث إلى البناء القائم على التدفق و التشكيل

كما أعجبه من (ستويل) تشابه صور الفزع عند كليهما ، ذلك الفزع من الحرب ، وكذلك ترصيع القصائد بالدلالات الأسطورية [2]

وأذن فقد أفاد منها إمكانية الإفادة من الأساطير و التاريخ كما أفاد من اليوت [3]

وقد تشعر بهذا التضمين وقد لا تشعر أحيانا لأنه يدخله في نسيجه الشعري كما في مرحى غيلان [4]

والنار تخرج يا ورود تفتحي ولد الربيع

من قولها [5]

والمخاض من مصدر الربيع

وضمن في القصيدة نفسها قولها :

١-نفسه

٢د- احسان عباس : بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته و شعره ، ٢٥٤

٣- عبد الجبار عباس: السياب ، ص٧٨

٤- ديوانه،ص٣٢٧

٥- قصائد مختاره من الشعر العالمي

الأرض شمطاء شاخت فما يستطيع

إن تفكر آلا في الرماد و الرقاد

ناسية إن الأطفال [1]

ومن يفهم الأرض إن الصغار

يضيقون بالحفرة الباردة

وكذلك فأنه أفاد من قصيدته (ستويل) (ترنيمة السرير) في قصيدته (من رؤيا فوكاي)

وكذلك قصيدتها ما زال المطر يلم ف (المسيح بعد الصلب) وغير ذلك من الرموز التي تثير الرعب والفزع من عالم اليوم

٦- وأما أماسي الطفولة فقد ضلت عالقة في ذهنه بما فيها من حكايات وملاحم شعبية تتسم بطابع الخيال و الفزع في كثير من الأحيان وفق اسلوب محبب ملذ مثل الخوف من النخيل و ساعة الغروب

وهي النخيل ، أخاف منه إذا ادلهم مع الغروب

فأكتظ بالأشباح تخطف كل طفل لا يلوب

من الدروب [2]

و الخوف من الجنبة

ونار أوقدت في ليلة القر الشتائية

يدندن حولها القصاص (يحكي إن جنبة)

فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دهش و إخلاء

١- ديوانه، ص٥٧٩ وهامشها

٢- غريب على الخليج ، ص ٣١٨

كأن زئير الألف الأسود يرن في واد

وقد ضلوا حيارى فيه[1]

إن هذه الصورة التي ظهرت في شعره حين تفتحت شاعريته و أنضجت، كشف لنا أهم المؤثرات النفسية و البيئية في تكوينات السياب الثقافية الأولى، حيث كانت الحكايات الشعبية تأخذ مجالا اكبر ، ولاكنه عاد إليها يستسقي منها الصور بأسلوب قصصي مستفيد من دلالاتها التاريخية القديمة و انعكاسات هذه الدلائل على الحاضر . والذي يشكل مع الماضي المستقبل المنشود ، هذه الرؤيا نجدها في شعره في رموز كثيره تنوعت بين القصص الديني القرآني مثل (آدم و حواء، يوسف و زليخا ، آيوب، قابيل، هابيل، يأجوج، مأجوج،وطوفان نوح ، وآدم بين العماد) وبن الحكايات الشعبية التي فيها روح المغامرة والحب و الارتحال مثل (عنتر وعبلة، السندباد، بيضة الرخ، أبو زيد الهلالي ، الخ)

وقد عمد إلى الاقتباس منها أو تلخيصها أو إعادة عرضها بشكل يتناسب مع مراميه باسطة التشبيه حيناً و التوحيد حيناً آخر مع بطل الحكاية الشعبية من اجل يضفي عليها الطابع الشعري الذي يغني تجربته ويؤلفها، مثلا عندما يريد إن يصور رحلة شقائه في سبيل الحصول على الشفاء يشبه نفسه بالحسن البصري وهو يحوب ارض الواق واق باحثا عن زوجة و أطفال :

إن يكتب الله عودة لي إلى العراق

فسوف الثم الثرى، أعانق الشجر

أصيح بالبشر

(يا ارج الجنة، يا اخوة ، يا رفاق)

الحسن البصري جاب ارض واق واق

١- منزل الآمنان ، ص ٢٧٩

ولندن الحديد و الصخر

فما رأى احسن عيشاً منه في العراق [1]

٢- التحديث في اللغة

اللغة جوهر الشعر ، وبقدر ما يتميز الشاعر في خلق لغته الخاصة يتجلى إبداعه فمهمة الشاعر إن يرتفع بالغة عن عموميتها ويتحول بها إلى صوت شخصي وان يتضمنها من خلال رؤيا ز موهبة في أغنى الأشكال تأثيراً مستثمراً دلالاتها وأصواتها وعلاقات بنائها وأ ا يقاعها على نحو فريد[2]

الشعر(نن اللغة) كما يقول بول فاليري [3] وتشكيل لغة الشعر غير متأتن من استخدام الكلمات باوضعها القاموسية(وكذا) بل ينتجها الخروج بالكلمات عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعته الجديدة وهو الخروج صو خلق [4]

واذن فالقصيدة الشعرية هي تعبير غير عادي عن عالم عادي ، بل هي تحويل آلام الدم إلى صبر كما يقول آليوت [5] ولذا فان كل شاعر اسلوب ينميه تبعا لذوقه ومزاجه فضلا عن تأثره بالتطورات الحضارية وتحصيله المكتسب، مثل شيع الفاض معيته في قصائد شاعر ما يومي إلى إن حالة نفسية تتراكم عليها شبكة لفضية ذات دلالات معنوية و نفسية تعبر عن تلك الحالة النى تهيمن على كيان الشاعر وهذه الشبكة تشكل مادة رئيسية في بنية الصور لالشعرية

١-ولذلك فأننا نجد الفاض ابلحزن في قصيدة السياب (يوم عابس)

رباه و العشرون من عمري تسير إلى الذبول

١- اللية الأخيرة : ديوانه ص ٣٠١

٢- لغة الشعر الديث في العراق د- عدنان العوادي ، ص٩

٣- رماد الشعر ، ص ١٢٤

٤- نفسه

٥- نفسه

سوداً مكفلة الأهلة بالبكاء و العويل

كانت تمر جريحة الأيام، رعناء الخيول

ظلما مطفأة السراج، كأنها بعض الطلول

كانت تمر على الجراح السود في القلب العليل

فالجرح يهوي على الجرح و الفتيل على الفتيل

والنار تصلي حر نارُ على مطفأة الغليل

ماذا جنيت من الزمان سوى الكآبة و النحول

أو أرقب الليل الطويل يذوب في الصبح الطويل

واتابع الشمس ابلمرنحة الشعاع ، إلى الأفول

وأشيع البدر الس}وم يغيب ما بين النخيل

وأعد ايامي لأسلمها إلى الهم الثقيل

واعيش محروم الفوآد من الهوى عيش الذليل

تجد في هذه القصيدة الألفاض التي تنشد الحزن مثل الذيل.ن السوادجن التنهدن العويءل جريحة الأيام ن مطفا ن السراج، الجراح السود، الجرح يهوي، الكآبة و النحول، السؤوم، الهم الثقيل، محروم الفوآد ، وكل هذه الألفاض جاءت لتشيع الهم من الزمن الذي يستغرق الشاعرز وجاءت كجزيئات تفصيلية رئيسية هي (العشرون من عمري تسير إلى الذبول)

٢-إن للصوت اهمية كبيرة في ثبات الصورة ، لكنه يمنح السياق اللغوي قوة ايحائية تسعى إلى نقل المسموع بما يتسجم و وجدان الشاعر، من خلال تجربته الأنفعالية التي تسعى إلى بناء مسوغ المسموعات فيكون التطور في الدلالة نتيجة احساس الشاعر بالصوت فالسياب يسبغ على الصوت من روحة طاقة فيها القدرة الكافية على منح الطبيعة حركة حية تنفعل فتنطبق

ينضر إلى الموضوع الخارجي ولكنه يتمثله تثالا وجدانيا يقول في

قصيدته غريب على الخليج[1]

الريح تلهث بتالهجيرة كالجثام على الأصيل / وعلى القلوع تضل تطوي وتنشر للرحيل / زحم الخليج بهن مكتدحون جوابوا بحار/ من كل حاف نصف عاري/ وعلى الرمال، على الخليج/ جلس الغريب يبوح البصر المحير في الخليج/ ويهدأ اعمدة الضياء بما يصعد من نسيج/ اعلى من العباب يهدأ رغوة ومن الضجيج/ صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى : عراق / والموج يعول بي عراق:عراق:... ليس سوى عراق

إن لهاث الريح لم يأتي من فعل طارء يكون الصوت لسببه مسموعا لأي مكان ، وانمكا جاء مبنيا على اساس الشاعر التي تستمد نبضها من وقت الرماد وشدته في حمارة القيض الذي وجده معادلا :

موضوعية لحالة هي مثلما رآى وتحسس ، فكا انبثاق الهاث من الريح هو انبثاق الهاث من النفس التي اضناها وقد الغربة.

وبين لهث الريح في الهجيرة يكون البناء الصوتي الجديد ، متشكلا من مدرك صوتي ومدرك حسي وهذه هي المزاوجة التي تبسط الرؤيا الداخلية انبساطا دقيقا لاحتواء الصورة وبثها .

إن(يصرخ، ونشيج) يشكلان صوتا للبكاء و(يعول، ضجيج) يشيرلان إلى الصياح الشديد الناتج عن الفزع

وبذلك تكون هذه الأصوات دالة على روح طمأى إلى الاستقرار دالة على تأزم اغترابي ، كما إن ترديد كلمة عراق خمس مرات لتكون جرساً واخزا يمثل الأبتعاد عن الوطن

وينغم السياب الكلمة عن طريق تكرارها ، لتصبح طبقة صوتية تبني

١- انشودة المطر : ص ٩

عليها موضوعه، كما في قصيدته(مرحى غيلان) حين كرر الصوت (بابا) وكما في قصيدته (النهر و الموت) عندمايكرر(بيوب)

إن كل تلك الالفاض ليس لها قيمة اللى اذا خضعت إلى الانفعال وحركته واحتضان الشاعر لها وبهذا تكون لها قيمة جديدة

وبهذا يكون للسياق دور كبير في توظيف اللغة نفسيا وموظوعيا و نفسيا، وها التوضيف يرتبط ارتباطا وثيقا بموقف الشاعر من الحياة ومدى رؤيته لها.

٣- الأداء بالكلام المحكي : هي تلك اللغة التي تكون مفهومة إلى عامة الناس بحيث تجيء بسيطة غير مستغلقة تنطلق من صوف المتداول على عامة الناس صياغة نحو[1]

-ومن النماذج التي تقع في هذا الأدلاء نص للسياب في قصيدته المومس العمياء فقد نقل لبعض نص لأغنية شعبية معروفة صاغة صياغة نحو :

عمياء انت وحظك المنكود اعمى يا سليمة

... وتلوب اغنية قديمة

في نفسها، وصدى يوسوس (ياسليمة، يا سليمة ، نامت عيون الناس . آه ... فمن لقلبي إن ينيسه[2]

٤- الاداء بلغة الموروث :

إن عملية الخلق الجديد تنهض من خلال تمثل الموروث تمثلا ذاتيا ينسجم مع التجربة الشعرية التي تحمل سمات خاصة هي نتاج الفردية و الغيرية

لقد ادرك السياب هذا المنطلق، واكد ضرورة ذلك ولقد حقق الشاعر

١- رماد الشعر: عبد الكريم راضي جعفر ص ١٦٠

٢- انشودة المطر، ص ١٩٣

علاقته بالموروث الأدبي من خلال استعودماله(اشرأب) في قصيدته المومس العمياء

ويكاد يهتك ما يغلق ناظريها من عماها
قلب تحترق في المحاجر واشرأب يريدنور
وتمس اجنحة مرقطة فتنشرها يداها
وتضل تذكر. وهي تمسحن ز اجتحة سواها
سرب من البطل المهاجر يستحث إلى الجنوب [1]

تلك ابرز عناصر الحداثة الشعرية لدى بدر شاكر السياب

المصادر :

ازهار واساطير بدر شاكر السياب مكتبة بيروت الحياة

الأسطورة في شعر السياب د- عبد الرضا علي دار الثقافة

دراسة في حياته و شعره د- احسان عباس دار الثقافة بيروت- ١٩٦٩

بدر شاكر السياب ناجي علوش دار العودة ١٩٧٤

تطور الشعر الحديث في العراق د- علي عباس علوان

ديوان بدر شاكر دار العودة بيروت-

١- انشودة المطر ، ص ١٧٣

السياب			١٩٧١
السياب	عبد الجبار عباس		١٩٧٢
حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي	س.مورية،ترجمة سعد مصلوح		١٩٦٩
رماد الشعر	د-عبد الكريم راضي جعفر	دار الشؤون الثقافية	١٩٩٨
شناشيل ابنة الشلبي	السياب	دار الطليعة	١٩٦٥
قصائد بدر شاكر السياب	ادونيس		١٩٧٨
كتاب السياب النثري	حسن الغرفي	منشورات مجلة الجواهر	١٩٨٦
لغة الشعر الحديث في العراق	د- عدنان العوادي		١٩٨٥

قراءتان
في رواية
"ضوع الكبريت"

لمى عبد القادر
كلية الآداب - جامعة القادسيّة

خلاصة

قدّم هذا البحث تحليلا لرواية "ضوع الكبريت" لعبد الهادي الفرطوسي ، ساعيا الى الكشف عن المعنى الخفي الكامن وراء بنيتها الشكلية ، ومما لا بد من الإشارة إليه ان هذه الرواية قد اكتسبت بفضل اعتمادها أسلوب الخيال العلمي انفتاحا دلاليا ، فكان ذلك مسوّغا لقراءتها على وجهين ، فتلمّست القراءة الأولى الفكر الذكوري الذي كانت ملامحه واضحة على الرواية ، وقد ناقش البحث تاريخ الفكر الذكوري وهجاء الأنثى على امتداد العصور وربطها بما ورد في هذه الرواية .

غير أن البحث قد وجد أن الموقف من الأنثى بالصورة الواردة في الرواية كان ذا بعد رمزي سياسي ، فوجد في ذلك مدخلا الى القراءة الثانية ، التي كشفت عن كون الصراع بين الذكورة والأنوثة غطاء لصراع سياسي أعمق ، إنها تحيل الى أخطبوط العولمة وشبحها المرعب .

مدخل

لا يمكن لأيّة قراءة أن تزعم لنفسها الإحاطة الشموليّة بكل خفايا النصّ الروائي ؛ لأنها تشكّل جزء داخل الفضاء النقدي الخاضع للتبدّلات ، في إطار لا يعرف الكمال والثبات.

والرواية الفنطازية ذات طبيعة مطّاطية تعطي مساحات واسعة للاحتمال والتأويل ، ولمّا كانت الرواية الفنطازية تتغذّى من شرايين أدبية متنوعة، فإنّ رواية " ضوع الكبريت" لعبد الهادي الفرطوسي استثمرت الأسطورة الضاربة بجذورها في أعماق غائرة ، كما استثمرت أسلوب الخيال العلمي المعتمد على التعليلات العلمية المنطقية ، فمزجت بين الأسلوب الغرائبي المعتمد على التفسير فوق الطبيعي ، والأسلوب العجائبي المعتمد على التعليل العلمي[1] . ان استثمار الأسلوب الفنطازي وكسر الأسلوب التقليدي قد منح النص انفتاحا دلاليا ، فكان مسوّغا لقراءة هذه الرواية على عدة أوجه، فكان لهذا البحث أن يتضمّن قراءتين: تكشف الأولى عن هيمنة الفكر الذكوري وهجاء المرأة ، أما القراءة الثانية ففيها محاولة للوقوف على هدف أعمق يتناول الصراعات السياسية التي نتج عنها غول تحكّم بمصائر الكون برمته.

القراءة الأولى

غاية هذه القراءة الكشف عن هيمنة الفكر الذكوري في رواية "ضوع الكبريت" للروائي عبد الهادي الفرطوسي ، وتلمّس جذورها التاريخية في الميثولوجيا القديمة ، والكشف عن التداخل النصي مع قصة آدم وحواء وذلك الإغواء الأسطوري الذي يهدف إلى ذمّ المرأة وعدها مصدرا للشرور.

تنسج الحكاية كيانها - كما يرى عبد الله ابراهيم - من مصادر

---

1 شعرية الرواية الفنتازتيكية :شعيب حليفي : ٢٣ .

كثيرة : أبرزها الأساطير والخرافات والميثولوجيا القديمة[1] ،وبالرغم من أنّها تنتمي إلى المراحل الأولى لتكوّن وعي المجتمع البشري،إذ أنها غالبا ما تنطوي على شبكة من العلاقات الدلاليّة الخاصة تشي بهدف يأخذ سمة الحكم أحيانا .

ونظرا لما تقدّم ، يتبيّن من القراءة الأولى للرواية أنّ هناك تداخلا نصيّاً بين قصّة آدم وحوّاء وبين بطلي الرواية في الأحداث والشخصيات والتسميات أيضا ، ولتلمّس مفاصل التناص بين الحكايتين لا بد من عرض موجز للرواية:

تبدأ الرواية برحلة فضائية إلى الكوكب 'بلوتو' ، يقوم بها مجموعة من رواد الفضاء ، من بينهم صلصال وخطيبته لمياء ، وكان من المقرر أن يمكثوا هناك عاما كاملا ، لكن حدث أن تعرّضوا لهجوم من مجهول حاول منعهم من مواصلة الرحلة ، لئلا يتجاوزوا الحدود التي رسمها لهم عقل المجرّة ؛ إلا أن قائد المركبة رفض أن ينصاع للأوامر ، فقرر مهاجمة الشرطي الكونيّ وهو رسول عقل المجرّة فكان مصيره وجماعته الموت ، أمّا صلصال ولمياء اللذان بقيا داخل المركبة فقد تقرر نفيهما إلى الكوكب. جنان الذي يتناصّ مع الجنة في موروث الديانات الوحدانية، ومن هنا يبدأ الاقتراب من قصة آدم وحوّاء، فتتعرّف لمياء – التي تقابل حواء حتى في معنى الاسمين ، فكلاهما صفة للمرأة ذات الشفتين السمراوين – إلى كائن خبيث شبيه بالطاووس ، يقترب من شخصيّة إبليس باتصافه بالمكر والخديعة ، وتظلّ لمياء تقضي معظم وقتها برفقته .

بينما يتعرّف صلصال – الذي يقترب من شخصية آدم حتّى في معنى الاسمين حيث يدلّ الأول على الطين المفخور ويدلّ الثاني على التراب – إلى مخلوقات بالونيّة تقابل شخصيّات الملائكة ، كثيرا ما توصف بالودّية ،وهي

---

١ ينظر المتخيل السردي : عبد الله ابراهيم : ١٧ .

تساعده وتعلّمه وتذلل الكثير من الصعوبات التي تواجهه، وتبتدئ العلاقة بأن تأخذه إلى مركز الكوكب وهو القبّة الزرقاء ، التي تضمّ أحدث المراصد الفلكيّة وأدقّها ، وهناك يتعلّم صلصال الكثير من المعلومات ، بينما تظل لمياء تلهث وراء أكاذيب ذلك المخلوق الشبيه بالطاووس ، حتى صارت العلاقة بينهما شبه غرامية ، وهذه الصلة الشيطانية مع الكائن الخبيث جاءت على حساب وفائها لخطيبها ، فصارت تقضي معظم وقتها معه ، من دون علم خطيبها بالأمر ، مستغلة انشغاله عنها ، وتأتي صورة الكائن الخبيث مطابقة لما ذكره فراي عن كون المخلوق الذي يقوم بالغواية في الأساطير القديمة ذا شخصية خنثية[1]، فهو في الرواية طائر ذكر لكنه يتمتع بصفات أنثويّة: ريش زاهي الألوان جميل وعينين عسليتين تسحران الناظر لهما[2] ، دعاها هذا المخلوق إلى التمرغ بصحراء الكبريت لينقل لها أمراضه الخبيثة وغرائزه المتقدة... وذات مرّة وسوس لها ذلك الخبيث أن تفتح باب الأسرار القابع في القبة الزرقاء ، وأعطاها الرقم السرّي لفتحه ، وهرعت هي إلى صلصال ممارسة ذلك الإغواء الأسطوري فوقع في شباك إغوائها وذهب معها لفتح باب الأسرار، الذي يقابل الشجرة التي منع آدم وزوجته عن الاقتراب منها .... وما ان ضغطت لمياء على بعض الأزرار حتى انبلج الباب أمامهما كاشفا عن سلّم مسحور.

لكن الفرحة لم تكتمل ، فسرعان ما امتدّت اذرع المخلوقات البالونية تسحبهم إلى الوراء رامية إيّاهم خارج القبّة.

لقد ندم صلصال لأنه أصغى لخطيبته التي حرمته من أصدقائه الذين قاطعوه وأغلقوا بوجهه باب القبة الزرقاء ، وعبثا حاول الاعتذار منهم ، وما هي

١ينظر تشريح النقد :٢١٦ .

٢ضوع الكبريت :٤٧ .

إلا أيّام حتى جاءت أوامر عقل المجرة تقضي بطردهما من الكوكب جنان وعودتهما إلى الأرض.

وحين وصلا إلى الأرض وجداها خرابا قد خسفت بأهلها ، فعادا إلى حياة الكهوف ، وهنا تصدق نبوءة العرافة التي افتتح بها الكاتب روايته إذ قالت : " - أمامك سقر طويل ..تضعين قدمك على مسالك وعرة تسيرين نحو عالم خرب ،ظلام دامس رياح عاتية، لن تتزوجي الا بعد أن تعودي من رحلتك المضنية ، والرحلة تستغرق عشرة آلاف"[1]

كان هذا التصميم الذي أداه المؤلف ، إذ جعل البداية في علاقة تناظر مع النهاية ، نسيجا أسطوريا كما يرى فراي[2]

يظهر التناص بين قصة آدم وحوّاء و قصة صلصال ولمياء نصف مستتر ، إذ تتجلى ملامح ذلك التناص من خلال الأحداث وأسماء الشخصيّات وصفاتها التي ترشد القارئ إلى مرجعيّات النص.

جاء التناص هنا موازيا للنص المناصص - بحسب كريستيفا - " إذ ظلّ المعنى المنطقي للمقطعين هو نفسه ، ولا يمنع هذا من زيادة أو إضافة إلى المعنى في النصّ الجديد "[3]، إذ تحيلنا المرأة الى الخطيئة ،في كلا النصّين فتتغلب الرغبة على الرجل ، ويأتي العقاب بالخروج من الجنّة ، ويتمثّل الإغواء بحواء ويكون الضحية الأولى آدم.

لكنّ النص الجديد يفترق عن النص المناصص بأمور ، منها:

١ إن الفردوس في ميثولوجيا الخليقة تمثل مرحلة الاستقرار والسكينة[4]،

١ضوع الكبريت :٣ .

٢ينظر تشريح النقد :فراي : ٢٠٢ .

٣علم النص : جوليا كريستيفا : ٧٩ .

٤ينظر تحليل النصوص الأدبية : ١٤٤ .

وبتحقق الخطيئة وإنزال العقاب يتخلخل ذلك التوازن والاستقرار، ومحاولة إعادة ذلك التوازن والاستقرار شبه مستحيلة لأن العودة إلى الفردوس أمر مستحيل ، لكن حالة الاتزان في " ضوء الكبريت" كانت على الأرض وفي أوّل الرحلة ، وقد قوّضت السكينة وبدد الاتزان بعد ظهور الشرطي الكوني ومنعهم من مواصلة الرحلة وتهديده إياهم ، وقد ظلّت حالة انعدام الاستقرار وعدم التوازن قائمة حتى بعد وصولهما إلى الكوكب جنان ومكوثهما فيه لأنها ليست الحالة الطبيعية ،برغم محاولات التكيف مع الوضع الجديد وامتدت حالة عدم الاستقرار حتى حدوث الإغواء والخطيئة ثمّ الطرد من جنان والعودة إلى الأرض التي عاد معها الاستقرار بعد حفر أول كهف للإنسان الجديد.

٢- ندم آدم وحواء على فعلتهما وبكيا على طردهما من الجنّة ، وظلّ آدم يتحسر عليها حينما نزل إلى الأرض لكن صلصال لم يندم حينما طرد من جنان ، بل لأنه طرد من القبّة الزرقاء مركز المعلومات ، التي كانت تمدّه بأخبار الأرض وأهلها.

وأمّا العودة إلى الأرض فكانت هي الأمل المرجوّ ، واللحظة المرتقبة ، حتى أن فرح لمياء لا يوصف حين سمعت بنبأ العودة إلى الأرض .

يظهر من التناص الذي ساقه الكاتب أمران:

الأول : التركيز على فكرة الإغواء وممارسة لمياء له ، حتى صار الوظيفة الأساسية لها، وكلّ ما صنعته في الرواية هامشي لا قيمة له.

أما الثاني:فهو جعل صلصال المحرّك الأول للأحداث آخذا دور الفاعلية في معظمها ، وجعله يتمتع بالذكاء الحاد ، فيتعلّم ويخمّن ويستنتج ويستنبط ويتمتّع بذاكرة حديدية، أما لمياء فقد كانت محطّ هجاء الكاتب ، يتضح ذلك من المقطع الآتي :

- انظري ... ان الأجرام في سحابة المذنبات تخرج عن مدارها متجهة إلى الشمس .

ردّت بتذمّر ولا مبالاة:

- لتخرج .. وهل كانت من بقيّة أهلك ؟ هل تخشى أن تدهسها سيارة طائشة؟ [٢٠١]

وهذا كلام من غير الممكن ان تتفوّه به رائدة فضاء ، لكنه ألصق بلمياء إمعانا في تهميش دورها ، وتدليلا على سذاجة تفكيرها، لم يأخذ القارئ فرصته في استنتاج مدى غبائها ، وأكثر من ذلك أن الراوي الذي كان مصاحبا لصلصال قد صرّح عما يجول بذهن البطل : " أدرك مقدار السذاجة التي تتمتع بها خطيبته" [٣] ولم تمارس لمياء فاعليّتها إلا في الإغواء الذي انحصر دورها فيه ، وما فاعليتها هنا إلا ذمّ لها ودليل على غباء وضعف تفكيرها ، بانصياعها لأوامر الكائن الخبيث ، وفي المرة الوحيدة التي يأخذ صلصال فيها دور المفعولية ، إذ يلّبي طلب خطيبته لا يجني إلا الخسارة والندم.

يتضح مما تقدم مدى هيمنة الفكر الذكوري في رواية ضوع الكبريت ، ومدى تهميش دور المرأة وتجريدها من الفاعليّة ،و عدها مصدرا للشرور والويلات ، علما ان هذا الفكر يستمدّ قوته من جذوره التاريخية الضاربة في القدم ، فترجع أصوله إلى أساطير قديمة.

فبعدما كانت الأنثى هي الإلهة الأولى دون منازع إذ نحت لها الإنسان قديما صنما بشكل امرأة مثّلت الإلهة الأم التي انتقلت عبادتها إليه من العصور السابقة [٤]، صارت تتصارع مع أبنائها الآلهة الذين أرادوا سلبها سلطانها ، فتظهر الأنثى في أسطورة الخليقة البابلية بصورة تيّامات إلهة الماء المالح التي يثور

٢ضوع الكبريت : ٥٨ .

٣نفسه :٥٩ .

٤ ينظر : الفكر الديني القديم :١٥ .

عليها أحفادها بقيادة مردوخ ذي القدرات الخارقة ، الذي يشترط على الآلهة مسبقا أن يتسلّم كل مقاليد السلطة ، مقابل قتاله لجدته تيامات ، وهكذا دار أول قتال بين الذكورة والأنوثة ، بين الأحفاد والأجداد ، وبعد انتصار مردوخ شق جسم تيامات شقين ، رمى الأول إلى فوق فكانت السماء ورمى الثاني إلى تحت فكانت الأرض ، وخلط دم زوجها كنكو بتراب الأرض وخلق منه الإنسان[1] ..... هكذا جردت الأنثى من سلطانها بعدما كانت هي الإلهة الأم ذات الهيمنة المطلقة... لقد نتج هذا الصراع عن واقع سياسي واجتماعي جديد ، انهارت فيه قوى و هيمنت قوى جديدة ، وترتّب على ذلك ان تنطفئ عقائد وتولد أخرى ، فكانت هذه الأسطورة تعبيرا عن الوضع الاجتماعي الجديد ، وهيمنت الذكورة متمثلة بمردوخ.

وبقي الصراع مستمرّاً بين الآلهة الذكور والإلاهات الأناث ، فهذه عشتار التي تتصارع مع الذكور لتثبت وجودها، ولما كانت الأساطير قد نسجت على وفق الأعراف الذكورية فلم يكن نصيب عشتار إلا الذم والهجاء حتى عند انتصارها:

ففي أول معركة تخوضها مع الإله إنكي[2] ، في أسطورة "إنانا وإنكي" ، نجد فيها أن الإلهة إنانا/ عشتار تصارع الإله أنكي لتأخذ منه نواميس الآلهة والحضارة ، وتتمكن فعلا من أخذها ، لكن الأسطورة تشوّه هذا الانتصار حين تعلله بالمكر والخديعة[3] .

وفي صراعها مع الإله دموزي زوجها ، حينما خرجت من العالم السفلي برفقة عدد من الشياطين ، فوجدت زوجها لم يحزن عليها ، فأوحت إلى الشياطين

١ينظر جدل الأنوثة في الأسطورة : ٧٥ - ٧٧ : الأقلام : آذار - ٢٠٠٠ .

٢ إنكي إله الينابيع والحكمة ابن الإله آنو والإلهة كي.

٣ ينظر : عقائد ما بعد الموت : ٥٥ .

ان يأخذوه إلى العالم السفلي بدلا عنها. وتصوّر الأسطورة القحط الذي حلّ بعد رحيل الإله دموزي والشر والجوع اللذين ترتبا على فعلة عشتار[1].

ولم يكتف الفكر الذكوري بهجاء عشتار من قبل الآلهة فقط ، وإنما جاءها التطاول والذمّ من أنصاف الآلهة أيضا ،إمعانا في التقليل من شأنها ، فهذا جلجامش يهجوها ويذكر عيوبها ، حينما دعته للزواج منها ، إذ أخذ يسرد عليها قصص عشاقها : دموزي الذي أرسلته إلى العالم الأسفل وراعي القطيع الذي مسخته ذئبا ، وإيشولونو[2] الذي صيرته ضفدعا[3].

ولم يكتف الفكر الذكوري بهذا القدر من الإهانات التي تلقتها عشتار ، بل بلغت الإهانة حدّ التطاول عليها من قبل الإنسان ، فيجدها أحد الفلاحين نائمة في بستان فيتجرأ على اغتصابها ، فتنهض مذعورة من هذه الإهانة[4].

ولمّا كانت الأسطورة - تقول نبيلة ابراهيم - ليست مجرد حكاية تؤلّف عمدا ، بل هي تعيش بالضرورة في عقل الإنسان - بحسب شتراوس - فهي " تمثّل جزء من الأشكال الأساسية التي ينكشف من خلالها بناء العقل البشري "[5] ، ويترتّب على هذا ان الأساطير والمفاهيم التي تحملها راسخة في ذهن الإنسان خلق من دم إله خاطئ "كنكو" - بحسب الأسطورة البابلية- فقد استقرّ الخطأ في اعماقه ، وبقي الاضطراب الأزلي والقلق لا يبارحه، وحلّ فيه الصراع بين الموت والحياة ، بين الذكورة والأنوثة ، وظل هذا الاضطراب يحكم العلاقة

١ينظر المصدر السابق :٥٥ ، الميثولوجيا السومرية والخلق الأسطوري لكون : ٨٦ .

٢ إيشولونو هو بستاني الإله آنو جد عشتار.

٣ ينظر ملحمة جلجامش : ٩٠ - ٩٣ .

٤ينظر سفر سومر : ٧٢ -٧٣ .

٥ الأسطورة : نبيلة ابراهيم : ٢٠ .

الإنسانية بين النساء والرجال حتى هذه اللحظة[1]

هكذا يقترن اسم عشتار بالإغراء والمكر ، بالجمال والشرور ، ثم تستمر النظرة للأنثى على هذا النحو ، حتى تظهر قصة آدم وحواء في التوراة ، فجعلت من حواء رمزا للغواية والغباء ، فقد استطاعت الأفعى خداعها بسهولة ، ودفعها للأكل من الشجرة المحرّمة التي نهاها الربّ عن أكلها ونهى زوجها ، فأكلت وأعطت آدم فأكل ؛ فغضب الربّ عليهما وأخرجهما من الجنة[2]، لقد مثلت قصة آدم وحوّاء - الواردة في التوراة - مرحلة تاريخية جديدة لصراع الذكورة والأنوثة ، وقد أضافت على سابقاتها صفات جديدة للأنثى وحذفت أخرى ، كما سيتبين لاحقا، ثمّ تأتي قصة صلصال ولمياء لتعطي صورة جديدة لهذا الصراع في العصر الحديث.

يظهر مما تقدم عدة أمور ،منها :

أولا : تقليص فاعلية الأنثى ، فبعد أن كانت الإلهة عشتار تصارع من أجل السلطة فتبعث واحدا إلى العالم الأسفل ، وتصير آخر ذئبا ، وتجعل الثالث ضفدعا ،وغير ذلك من صور الفاعلية الواضحة ، صارت حواء انسانة مجردة عن سمة القداسة لا فاعلية لها ، يقتصر فعلها على الإغواء ،كذلك لمياء تقلص دورها حد اقتصاره على الإغواء وارتكاب الحماقات فقط .

ثانيا :أشارت الأساطير التي تتحدث عن عشتار إلى مكرها ودهائها ، لكن في قصة آدم وحواء سحب المكر والدهاء وحل محلّه الغباء الذي دفعها إلى ارتكاب المحرم دون تفكير مسبق ، وقد لطخت لمياء بهذه الصفة أيضا.

ثالثا بقاء صفة الجمال المقترن بالشر ، فبالجمال كانت عشتار تغوي

١جدل الأنوثة في الأسطورة :٧٧ .

٢ ينظر : الكتاب المقدس : سفر التكوين : الأصحاح الثالث :٦ .

عشاقها وتنتج عن ذلك الإغواء الشرور، كذلك حواء أغوت آدم فكان الطرد من الفردوس نتيجة صنعها ، وظلت هذه الصفة لصيقة بلمياء أيضا.

رابعا :الاتصال بالشياطين : صورت الأساطير اقتران عشتار بالشياطين عند خروجها من العالم الأسفل ، كان ذلك اقترانا مؤقتا ، ثمّ مع حواء حين تمثل لها بشكل أفعى ،غير ان الأمر صار أسوأ مع لمياء ، فقد سعت هي وراء الشيطان (الكائن الشبيه بالطاووس) حتى خدعها ونقل لها أمراضه الخبيثة ، ثم دعاها إلى ارتكاب المحرم فاستجابت ، ويبقى الشيطان يلازمها إلى الأبد ، ودليل وجوده داخلها هو ذلك الريش الذي كسا جسدها ورائحة الكبريت التي تضوع من مسامها.

خامسا : اكتسبت لمياء صفة جديدة هي صفة العناد والعزة بالإثم ، فبعد ان كانت حواء نادمة على فعلتها ،بقيت لمياء على عنادها ولم تندم ، بل أنها حين طردت من جنان كانت ترقص فرحا.

يكشف ذلك مدى هيمنة الفكر الذكوري والنظرة العدوانية إلى المرأة.

القراءة الثانية

المتتبع لروايات عبد الهادي الفرطوسي الخمس يحسّ أن شبح العولمة يهيمن على ثلاث منها هيمنة طاغية ، هي : "الرجل الآتي" و"الزمن الحديدي" و "ضوء الكبريت"، في هذه الروايات الثلاث تمتدّ أذرع العولمة وتتضخّم حتى تصير كابوسا يجثم على صدر الكاتب فكلّما أطبقت أصابع الجبروت على عنق الإنسانية أطلّ في مخيلته ذلك "الرجل الآتي" حاملا أشرعة العولمة ، هذا الذي جاء نتيجة خطأ في تجربة إشعاعية ، جعلت من هذا الجنين الذي جمع بين الأصول المتباعدة ، بين شراسة الوحوش وذكاء فاق ذكاء الإنسان، قادر على مخاطبة الحيوانات والسيطرة عليها ، وتسخيرها لتنفيذ مخطّطاته ، حتى يتسنّى له بسط نفوذه على الكرة الأرضية جمعاء .

ثمّ حاول الفرطوسي – في "الزمن الحديدي"[1] – مغالبة يأسه ببصيص من الأمل ، خالقا في مخيّلته جبهة مضادة للسياسة التي وضعتها تلك العقول الآلية ، التي صنعها الإنسان بنفسه ، فاعتمد عليها حتى استفحلت ، وتحكّمت بمصائره ، جبهة تضع الإنسان في المرتبة الأولى تعتمد على طاقاته الذهنية والعضلية ، بعيدا عن الآلات والحضارات المزيفة والتقدّم الرجعي ، علّها تكسّر قيود ذلك "الزمن الحديدي" .

لكن حلمه الوردي هذا ذهب أدراج الرياح ، فسرعان ما عاوده اليأس وبزغ ذلك الغول لناظريه – في رواية "ضوء الكبريت" – لكنه هذه المرة لا حدود له، لا يرى بالعين، تصل أوامره عبر جسيمات كونيّة لا حصر لها ، قوي قدير ، لا يقوى على مخالفة أوامره أحد ، فصار الصراع مع المجهول .

ففي الرواية الأولى "الرجل الآتي"[2] كان ذلك الصنوبري الذي بسط نفوذه على الكرة الأرضية كلها ، ثمّ في الرواية الثانية "الزمن الحديدي" ظهر العقل الأكبر ، الذي قبض على جزء من الكرة الأرضية بيده الحديدية ، والجزء الآخر كان لأعدائه ، إلا أنه – في "ضوء الكبريت" – قد تضخّم وتضخّم حتى امتدّ سلطانه على الكون برمّته ، وما ذاك التناص الذي ساقه الكاتب بين قصة آدم وحواء وبين بطلي رواية "ضوء الكبريت" صلصال ولمياء إلا زيادة في الإيهام ، وإمعان في إخفاء كابوسه المفزع.

وهذا التقارب الصارخ بين القصّتين يدفع القارئ للوهلة الأولى إلى دلالة واضحة هي هجاء المرأة ،التي جرى الحديث عنها مفصلا في القراءة الأولى ،وبالرغم من وجود هذه الدلالة ، إلا أنها دلالة ثانوية ظاهرية ، حاول الفرطوسي

١الزمن الحديديي : رواية عبد الهادي الفرطوسي صدرت عام ٢٠٠١ عن دار إبداع.

٢ الرجل الآتي رواية عبد الهادي الفرطوسي صدرت عن دائرة الإعلام في الشارقة عام ٢٠٠٠

ان يخفي وراءها كابوسه المظلم ، الذي تومئ له مظاهر الافتراق بين القصتين.

أوّل هذه المظاهر : ما اتصف به عقل المجرة ، الذي وصفه الفرطوسي بالقدرة والقوّة وشدّة البطش ، لكنه قد جرّده من الرحمة والعدل ؛ إذ خسف الأرض بأهلها بغير وجه حقّ ؛ لأنهم تطوّروا لا لأنهم عاثوا في الأرض فسادا ، ولا أظنّه يخسفها إن فعلوا ؛ لأن همّه ألا يتطوّروا فيصلوا إليه .

تومئ هذه المفارقة بين عقل المجرّة ، الذي طرد صلصال ولمياء من الكوكب جنان وبين الله سبحانه وتعإلى الذي طرد آدم وحواء من الجنة إلى الدلالة العميقة لعقل المجرة ، إنها تشير إلى جبروت العولمة وسلطانها المرعب.

تظهر هذه القراءة تفاعلا نصيا ذاتيا، والتفاعل النصي - كماهو عند سعيد يقطين - العملية التي تجري بين البنيات النصية في علاقاتها ببعض، أما الذاتي فهو شكل من أشكال التفاعل النصي تتداخل فيه نصوص الكاتب الواحد في تفاعل مع بعضها[1] ، إذ دخلت روايات الكاتب في تفاعل مع بعضها كاشفة عن هيمنة فكرة العولمة ، التي تحولت إلى أخطبوط امتدت أذرعه إلى معظم روايات الفرطوسي .

وعلى الرغم من هيمنة الفكر الذكوري بشكل واضح في رواية ضوء الكبريت وتهميش دور المرأة . كما تبين من القراءة الأولى- الا ان هذه الفكرة ليست هي الفكرة الأساسية التي نسجت حولها الرواية ، وإنما الهدف اعمق من ذلك بكثير ، ويظهر ذلك من إيماءات الكاتب بين الحين والآخر إلى وجود صراعات سياسية بين الشماليين والجنوبيين ، حتى بلغ ضيق الأفق بقائد المركبة إلى الوقوع بالتهلكة ؛ نتيجة تمسكه بتلك الصراعات ، وشدة حنقه على الجنوبيين، فصار لا يرى عدوا سواهم ، فيقول : " إذن فالجنوبيون يتحدوننا

١ انفتاح النص الروائي :١٠٠ .

ويمنعوننا من مواصلة الرحلة"[1]. حتى بعد أن يفصح العدو عن نفسه قائلاً أنه الشرطي الكوني يرفض قائد المركبة التصديق، ويقول: "أ بهذه السذاجة يتصورنا الجنوبيون، ما هذه الترهات التي يحاولون خداعنا بها ؟"[2]، فلا يقتنع بوجود عدو غير عدوه الأرضي الذي من جنسه، وهذا الموقف ينسحب على معظم الصراعات القائمة بين أبناء الأمة الواحدة، فلا يرى أحدهم عدوا له غير أبناء جلدته، مع أن عدوّه أكبر وأبشع، ولو اتسع أفق قائد المركبة ولم يتغلب عليه حقده الأعمى للجنوبيين لتمكن من العودة وإخبار أهل الأرض بما حصل، ومن يدري ؟؟ فربما يتمكنون من تلافي الكارثة، ولما بقي قائد المركبة على عناده ولم يرتض غير الجنوبيين عدوا كانت النتيجة أن هلك ومن معه وخلف الهلاك لأهل الأرض شماليين وجنوبيين.

وحتى صلصال، الشخصية الأكثر فاعلية في الرواية كان يعبر عن موقف سياسي انهزامي، فبالرغم من رفضه لسياسة قائد المركبة، لم يحرك ساكنا سوى الكلام، وحين حدق بهم الخطر وصار الهلاك قاب قوسين أو أدنى، لم يفكر صلصال الا بنفسه وخطيبته ،وآثر البقاء بالمركبة .

وما ذلك الصراع بين الأنوثة والذكورة في الرواية إلا صورة رمزية للصراع السياسي، ولا يقتصر الأمر على الرواية وحدها بل يمتدّ الى الصراع التاريخي فهو بدوره شكل من أشكال الصراع السياسي، وما تلك الهيمنة الذكورية إلا صورة لهيمنة الظلم والجبروت المغتصب لحقوق الضعفاء كان الذكر فيها القوي المغتصِب والأنثى هي الضعيف المغتصَب.

كل هذه المفارقات تؤكد وجود غاية سياسية ، الا أنها لم تكن ظاهرة ،

---

١ ضوع الكبريت : ١٤ .

٢نفسه : ١٥ .

بل توارت وراء الهيمنة الذكورية التي فصلت الحديث فيها في القراءة الأولى.

المصادر

- الأسطورة : د. نبيلة ابراهيم : بغداد : الموسوعة الصغيرة :١٩٧٩ .
- انفتاح النص الروائي : سعيد يقطين: المركز الثقافي العربي :ط١ : ١٩٨٩ .
- تحليل النصوص الأدبية: عبد الله ابراهيم وصالح هويدي:بيروت - دار الكتاب الجديد :ط١ - ١٩٩٨ .
- تشريح النقد: نورثروب فراي:
- الرجل الآتي : عبد الهادي أحمد الفرطوسي : دائرة الإعلام : الشارقة :٢٠٠٠ .
- الزمن الحديدي: عبد الهادي أحمد الفرطوسي : النجف - دار إبداع :٢٠٠١ .
- سفر سومر : خزعل الماجدي :بغداد :١٩٩٠ .
- شعرية الرواية الفنتاستيكية: شعيب حليفي :المجلس الأعلى للثقافة :١٩٩٧ .
- ضوء الكبريت : عبد الهادي الفرطوسي : النجف - دار إبداع :٢٠٠١ .
- عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة :د. نائل حنون :بغداد - دار الشؤون الثقافية : ط٢ : ١٩٨٦ .
- علم النص : جوليا كريستيفا :ت -فريد الزاهي : المغرب - دار توبقال :ط١ -١٩٩١ .
- الفكر الديني القديم : تقي الدباغ :بغداد - دار الشؤون الثقافية : ط١ ١٩٩٢ .
- الكتاب المقدس .

❖ المتخيل السردي :عبد الله ابراهيم : المركز الثقافي العربي : ط١ – ١٩٩٠ .

❖ ملحمة جلجامش : د طه باقر :بغداد – وزارة الثقافة والإعلام :١٩٧٥ .

❖ المجلات والجرائد

❖ جدل الأنوثة في الأسطورة (تيامات نفي الأنثى من التاريخ): لطفية الدليمي :الأقلام :آذار – نيسان / ٢٠٠٠ .

❖ دراسة في بلاغة التناص الأدبي: د.شجاع العاني :الموقف الثقافي :ع ١٧ / س٣ /١٩٩٨ .

❖ الميثولوجيا السومرية " الخلق الأسطوري للكون" : خزعل الماجدي :أوراق : عمان :ع٧-٨ / ١٩٩٨ .

Abstract

This research produced an analysis for the novel " Sulfur ` odor" for the novelist Abd ul Hadi ul Fartosi endeavoring to uncover the hidden meaning behind its formal structure. This novel acquired a semantic extension for it depended on science fiction. That is gives reason to be read twice readings: The first touched erotic ideology and satirizing female along all epochs. We can see this reading quite obvious on the novel. This research discussed the history of erotic ideology and female satirizing along all the epochs and related it with what appeared in the novel. This research found that the point of view toward the female as it appeared in the novel was with symbolic and political attitude. That had been an approach to the second reading that unveiled that the struggle between being male and being female was a cover for a deeper political struggle. That alluded to universality octopus and its horrible ghost.